

دَوْلَةُ بَنِي قُلَاطٍ فِي مِصْرَ

الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص

تأليف

الدكتور محمد جمال الدين سرور

أستاذ التاريخ الإسلامي
بجامعة الأزهر - جامعة القاهرة

مطبعة المطبع والنشر
دار الفكر العربي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

وبعد ، فقد حماني شغفي بدراسة تاريخ مصر الاسلامية على كشف بعض نواحي عصر المماليك : فتناولات بالبحث عصر الظاهر بيبرس الحافل بأسباب العظمة والمجد ، ثم رأيت أن أعنى بدراسة دولة بني قلاوون في مصر ، لا كشف بذلك عن صحيفة مشرفة لمصر والشرق الاسلامي كله ، ولأحقق الرغبة التي تافقت إليها نفسي ألا وهي دراسة تاريخنا القومي في عصر من أزهى عصور التاريخ المصري الاسلامي .

وقد عنيت في هذا البحث بدراسة الموقف السياسي الداخلي في مصر ؛ فوضعت كيف استطاع قلاوون أن يؤسس من يئته أسرة حكمت مصر زهاء قرن من الزمان رغم أن مبدأ ورائة العرش لم يكن مألوفاً لدي أمراء المماليك ، كما بينت السياسة التي اتبعها الناصر محمد بن قلاوون في توطيد ملكه بمصر ، وكيف أكسبته أعماله المجيدة في سبيل تقديم مصر والذود عنها ولاء الشعب المصري له ، الأمر الذي ساعده على تركيز الحكم في أبنائه .

ومن المسائل التي وجهت الموقف السياسي الداخلي في ذلك العهد

توجيهها له طابع خاص ، قيام الخلافة العباسية في مصر : فكان هالك بجانب سلاطين أسرة قلاوون خلفاء في القاهرة يتولون الخلافة بالوراثة . ومع حرص هؤلاء السلاطين على أخذ تفويض شرعي من الخلفاء العباسيين بالقاهرة لتثبيت مركزهم ، فانهم حالوا بينهم وبين التدخل في شئون الدولة لما قد يترتب على ذلك من تهديد السبيل أمامهم لارتقاء عرش مصر والجمع بين السلطتين الزمنية والدينية .

كذلك وجهت إهتمامى إلى كشف النقاب عن اتجاهات سياسة مصر الخارجية ؛ فتبين لى أنها قامت على أسس ثابتة : ومن أهم أركانها : الوقوف في وجه الصليبيين ؛ ودفع خطر المغول . والاحتفاظ بزعامة مصر لأمم العالم الاسلامى ، وربط أواصر الصداقة بينها وبين الدول المجاورة لها لما يعود عليها من وراء ذلك من منافع مادية وأدبية . وقد رأيت إتماما للفائدة أن أتناول بالبحث أهم نواحي الحياة الاقتصادية في مصر في ذلك العهد لما لها من وثيق الصلة بتعزيز السكان الداخلى لدولة بنى قلاوون واحتفاظها بما ظفرت به من مركز ممتاز بين الدول الشرقية والأوربية .

ولا يفوتنى في هذا المقام أن أقدم أخلص الشكر لحضرة أستاذى الدكتور حسن ابراهيم حسن أستاذ التاريخ الاسلامى بجامعة فؤاد الأول على ما وجهنى إليه من توجيهات علمية قيمة .

أرجو الله سبحانه وتعالى التوفيق فيما أنا بسبيله من خدمة بلادى وتاريخها المجيد

محمد جمال الدين سرور

المحتويات

الباب الأول

حالة مصر الداخلية في عهد أسرة قلاوون

الفصل الأول

صفحة

- ١٩ . الموقف السياسي من عهد قلاوون إلى منتصف القرن الثامن الهجري .
- ١٩ . ١ — انتقال الحكم من بيت بيبرس إلى أسرة قلاوون
- حريص بيبرس على أن يكون الحكم وراثيا في أسرته — ازدياد نفوذ
الأمراء عقب وفاة بيبرس — تضعف سلطة الملك السعيد بن بيبرس
— الملك العادل سلامش يتقلد سلطنة مصر — تطلع قلاوون
إلى سلطنة مصر — زوان الملك من بيت بيبرس .
- ٢٣ ٢ — حالة مصر الداخلية من سلطنة قلاوون حتى نهاية عهد الأشرف خليل
- جرح قلاوون على توطيد سلطته بمصر والشام — بوليته العهد لابنه
علاء الدين علي ، ثم لابنه خليل — سلطنة الأشرف خليل —
حرصه على استتباب الأمن في جميع أنحاء دولته — ازدياد نفوذ
الأمير بيدرا — اغتيال الأشرف خليل .
- ٣١ ٣ — اعتلاء الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطنة مصر
- اتفاق الأمراء على مبايعة الناصر محمد بالسلطنة — ترحيب أهل
الشام بتوليته — ازدياد نفوذ الوزير علم الدين منجر الشجاعى —
تدمير الأمراء من استبداد الشجاعى بالسلطنة — ثورة المماليك
الأشرفية — حلع الناصر محمد من السلطنة ونولية كتيغا .

٤ — ازدياد سلطة الأمراء

كتيها وترحيه بالمقول العويراتية — حقد أمراء الدولة على
كتيها لإحلاله بماليكه محلهم في مناصب الدولة — اعتلاء حسام
الدين لاجين عرش السلطنة — ازدياد نفوذ الأمير منكوتمر —
استيلاء أمراء الشام من لاجين — التجاء الأمير قيقجق نائب الشام
إلى غازان — تأمر بماليك الأشرف خليل على لاجين — عودة
الناصر محمد إلى عرش السلطنة — استئثار بيبرس الجاشنكير
وسلار بالسلطة — نزول الناصر محمد عن العرش وذهابه إلى
الكرك — اعتلاء بيبرس الجاشنكير عرش السلطنة — حرص
أمراء الشام على ولائهم للناصر محمد — تطلع الناصر محمد إلى
استعادة عرشه — إنصراف كثير من الممالك عن بيبرس —
التفاف فريق كبير من الأمراء والممالك حول الناصر محمد
نزول بيبرس عن العرش — قدوم الناصر محمد إلى مصر . . .

٥ — استبداد الناصر محمد بالسلطة

الناصر محمد يقلد خواصه مناصب الدولة — تخلصه من الأمراء
الذين سلبوه سلطته — تدمير الممالك الأشرفية من سياسة الناصر
محمد — خروج قراستقر على طاعة الناصر محمد ورجيله إلى بلاد
التار — تولية الأمير تنكز الحسامي نائباً على بلاد الشام —
ازدياد نفوذه — الناصر محمد يتخلص من تنكز خشية منه على سلطانه .

الفصل الثاني

انهلال أسرة قلاوون وزوال دولتها

ازدياد نفوذ الأمراء عقب وفاة الناصر محمد — تدخلهم في تولية
السلطين وعزلهم — تنافس أبناء الناصر محمد على العرش —
انصراف بعض السلطين إلى المجون وانفاسهم في الترف —
طموح الأمراء إلى الاستئثار بالنفوذ — تنافس الأمراء على

٦٧
صفحة

أغتصاب السلطة . تفصل الحكم من أسرة قلاوون وانتقال السلطة إلى المماليك الجركسية .

الفصل الثالث

٦٧ الخلافة العباسية في عهد أسرة قلاوون

٦٧ ١ — علاقة الخلفاء العباسيين في مصر بسلاطين المماليك

إحتياء الخلافة العباسية في مصر — ضعف سلطة الخليفة الحاكم بأمر الله في عهد الظاهر بيبرس — الملك السعيد بن بيبرس وموقفه من الخليفة — الخليفة العباسي بالقاهرة يمنح قلاوون تفويضاً بالحكم — حرص سلاطين مصر على أخذ تفويض شرعي بالحكم من الخليفة . اعتماد الناصر محمد على نفوذ الخليفة الديني في حث المصريين على الجهاد — سياسة الناصر محمد في اضعاف شأن الخليفة — موقف أولاء الناصر من الخلفاء العباسيين — رغبة بعض أمراء مصر في الرجوع بالخلافة إلى عهدها الأول — ضعف أحفاد الناصر وأثر ذلك في طموح بعض الخلفاء إلى السلطنة — حرص سلاطين مصر على إبقاء الخلافة — محاولة الخلفاء العباسيين تقلد عرش مصر بعد زوال نفوذ أسرة قلاوون .

٩٧ ٢ — موقف العالم الإسلامي من الخلافة العباسية بمصر

حرص بعض الحكام المسلمين على أخذ تفويض بالحكم من الخلفاء العباسيين بالقاهرة — تبادل الرسائل بين محمد بن تغلق والخليفة الحاكم بأمر الله بن المستكن بالله — فيروز شاه يطلب من الخليفة العباسي تفويضاً لإكساب حكمه صفة شرعية — تودد أمراء الدولة المظفرية للخلفاء العباسيين بالقاهرة .

٩٩ عدم اطمئنان بعض الحكام المسلمين إلى الخلافة العباسية بالقاهرة — بعض الأمراء المسلمين يتخذون لقب خليفة رغم وجود الخليفة العباسي بالقاهرة .

مقدمة

الفصل الرابع

- ١٠٤ سياسة أسرة قلاوون في نشر الإسلام بمصر
موقف الحكومة الإسلامية في مصر من أهل الذمة — ازدياد
عدد المسلمين في مصر منذ أوائل القرن الثالث الهجري — استعانة
أمراء المماليك بكتاب النصارى — استفحال نفوذ أهل الذمة في
بداية عهد الناصر محمد — اضطراب الناصر محمد إلى العدول عن
مسألة أهل الذمة — انتشار الإسلام في مصر في عهد أسرة قلاوون

الباب الثانى

سياسة مصر الخارجية في عهد أسرة قلاوون

الفصل الأول

- ١١٧ موقف مصر من الدول الإسلامية
(١) بلاد الحجاز .

مكة مصر في بلاد الحجاز — اهتمام سلاطين مصر بشئون مكة
والمدينة — تدخل الناصر محمد في المنازعات القائمة بين أمراء
المدينة — تنافس أمراء مكة على الاستئثار بالسلطة — تدخل
الناصر محمد في المنازعات القائمة بينهم — السلطان حسن بن الناصر
يتدخل في تولية أمراء مكة — انتشار نفوذ دولة المماليك في بلاد
الحجاز — اهتمام سلاطين مصر بتنظيم شئون مكة والمدينة وتوفير
أسباب الحياة لأهل الحرمين الشريفين .

- (ب) بلاد اليمن ١٢٧

استقلال بني رسول بشئون اليمن — حرص سلاطين المماليك على
بنسب نفوذهم على بلاد اليمن — ارتباط ملك اليمن بعلاقات الود
مع السلطان قلاوون — تودد الملك المؤيد هزم الدين السلطان

صفحة

الناصر محمد طعونة إلى السيادة على مكة وما ترتب على ذلك من توتر العلاقات بين مصر واليمن — عبدول الملك المؤيد عن موقفه العدائي من مصر — عودة العلاقات بين مصر واليمن سيرتها الأولى — استعانة ملوك اليمن بسلاطين مصر في إخضاع منافسيهم — الناصر محمد يرحب بالتدخل بين أمراء اليمن في منازعاتهم .

(ح) الهند ١٣٨

سلطنة هندستان — محمد بن تغلق وسياسته إزاء المغول — تبادل الرسائل مع الناصر محمد سلطان مصر لمعاونته ضد المغول — حرص فيروز شاه على إحكام أوامر الصداقة مع مصر — علو مكانة الخليفة العباسي بالقاهرة في بلاد الهند .

(د) بلاد المغرب . ١٤٢

امتداد نفوذ مصر إلى طرابلس وتونس — تبادل الناصر محمد الرس والهدايا مع يوسف بن عبد الحق سلطان المغرب الأقصى — حرص صاحب تلمسان على التودد لسلطان مصر .

(هـ) مملكة غرناطة ١٤٧

انصراف بلاد الشرق الإسلامي عن غرناطة — تبادل المراسلات بين الأشرف شعبان ومحمد الغني بالله ملك غرناطة — انحلال مملكة غرناطة — استنجد مسلميها بسلطان المماليك في مصر .

الفصل الثاني

١٥٠ سياسة مصر إزاء بلاد النوبة والحبيشة

(١) بلاد النوبة ١٥٠

حرص سلاطين المماليك على توطيد نفوذهم ببلاد النوبة — ولاء ملوك النوبة لمصر في عهد الناصر محمد — علو مكانة مصر في بلاد النوبة — انتشار الإسلام في بلاد النوبة في عصر أسرة قلاوون — هجرة القبائل العربية إلى السودان .

صفحة

- ١٥٦ (م) بلاد الحبشة
تبعية كنيسة الحبشة لبطاركة الإسكندرية — تبادل الرسل والهدايا
بين ملوك الحبشة وسلاطين مصر — حرص ملوك الحبشة على
اكتساب رضا بطاركة الإسكندرية .

الفصل الثالث

- ١٦٠ موقف مصر من المغول
١٦٠ (١) مغول فارس
حالة المغول في فارس بعد وفاة هولاكو — نجاح الظاهر بيبرس في دفع
خطر المغول عن مصر — استمرار العداء بين المغول والمماليك
في عهد السلطان قلاوون — نجاح قلاوون في صد غارات المغول
١٦٣ اعتناق تكودار أحمد إيلخان المغول بفارس الاسلام — نبأه
المراسلات الودية مع قلاوون .
١٧٢ تولية أرغون عرش المغول بفارس — عودة العداء بين المماليك
والمغول — ضعف دولة المغول في عهد جيخاتو .
١٧٤ ارتقاء غازان عرش المغول — اعتناقه الإسلام : أثر اعتناق غازان
الإسلام في علاقته بالمماليك .
١٧٧ إغارة المغول على بلاد الشام — زحف غازان على دمشق —
عجز المماليك عن الوقوف في وجه المغول — إقامة الخطبة لغازان
على منابر دمشق — تعسف المغول في معاملتهم أهالي دمشق — عودة
غازان إلى بلاده .
١٨٦ الناصر محمد بعد العدة لأخذ الثأر من المغول — غازان يجمع غزو
بلاد الشام للمرة الثانية — انصراف ملوك أوربا عن مهاومته في
انتزاع سورية من قبضة المماليك .
١٨٨ غازان يسمي إلى مهادنة المماليك — تبادل المراسلات بين غازان
والناصر محمد .

مئحة

- ١٩٧ فشل محاولة الاتفاق بين المغول والمماليك — استئناف الحرب بين الفريقين — انتصار الجيوش المصرية والشامية على المغول في مرج الصفر — الناصر محمد يتوعد غازان ويطلب منه الجلاء عن العراق .
- ٢٠٣ وفاة غازان وتولية أوجايغو عرش المغول عدم حرص أوجايغو على استمرار الوثام بين المغول والمماليك — عودة المغول إلى مهاجمة بلاد الشام .
- ٢٠٥ بوسعيد يخلف أباه أوجايغو — جنوح المغول والمماليك إلى المسالمة — تبادل المراسلات بين الناصر محمد وبوسعيد .
- ٢٠٨ عدم استقرار الأمور في دولة المغول — موقف الناصر محمد من الأمير دمرداش حاكم آسيا الصغرى — قدوم دمرداش إلى مصر وما آل إليه أمره .
- ٢١٢ ضعف دولة المغول في فارس بعد وفاة بوسعيد — اتجاه مطامع السلطان الناصر نحو بلاد فارس — تحالف الناصر محمد مع علاء الدين أرتمش حاكم آسيا الصغرى المغولى
- ٢١٥ ازدياد الاضطراب في دولة المغول بفارس — ضموح الأشرف شعبان إلى مد رقعة دولته على حساب المغول .
- ٢١٧ مغول القفجاق وعلاقتهم الودية بالمماليك — سفارة طقطاي ملك القفجاق إلى الناصر محمد — تبادل المراسلات بين أربك والناصر محمد مصاهرة الناصر محمد بـ أربك — توثق العلاقات بين دولة المماليك في مصر ودولة مغول القفجاق — انحلال دولة مغول القفجاق .

الفصل الرابع

٢٢٤ علاقة مصر بأرمينية الصغرى

طموح المماليك إلى بسط نفوذهم على بلاد أرمينية — الأرمن يؤدون الإتاوة لسلطين مصر — خروج قسطنطين ملك الأرمن على طاعة الناصر محمد وتحالفه مع غازان — الناصر محمد يقف في وجه الأرمن لتأمين حدود بلاد الشام الشمالية — الأرمن يسعون إلى الاتفاق مع الناصر محمد — انحراف ملكهم ليو الخامس عن ولائه لمصر . زوال دولة أرمينية في عهد الأشرف شعبان .

الفصل الخامس

- ٢٣٢ سياسة مصر إزاء الصليبيين
- ٢٣٢ اهتمام سلاطين مصر بصد خطر الصليبيين عنها - قلاوون يهادن الصليبيين لانشغاله بمحاربة المغول .
- ٢٣٧ موقف قلاوون من المدن الصليبية بعد زوال محاذيه من جهة المغول - استيلاؤه على طرابلس - البابوية تنادى بنصره اللاتين بسورية
- ٢٤٠ قلاوون يعان الحرب على عكا - وفاة قلاوون وقيام ابنه الأشرف خليل باتمام مشروع فتح عكا - سقوط عكا - فتح صور وصيدا وبيروت - استيلاء المماليك على جزيرة أرواد .
- ٢٤٥ فكرة انعاش الحروب الصليبية - دعوة ملوك أوروبا واثباتها إلى توجيه حملات صليبية ضد دولة المماليك - اهتمام سلاطين مصر باتخاذ الخيطة لدرء خطر الصليبيين عنها
- ٢٤٦ بطرس الأول ملك قبرس يتكفل بتنفيذ فكرة مهاجمة مصر - إعداداته حملة للاستيلاء على الإسكندرية - هجوم الصليبيين على الإسكندرية في عهد الأشرف شعبان - سقوط الإسكندرية في يد الفرنجة - اضطراب الفرنجة إلى الجلاء عنها .
- ٢٥٠ تأهب حكومة المماليك في مصر للوقوف في وجه الصليبيين - تنصل الجمهوريات الإيطالية من مسئولية إغارة الفرنجة على الإسكندرية حرصا على مصالحهم الاقتصادية - تدخلهم لدى ملك قبرس للدخول في مفاوضات مع سلطان مصر لحسم النزاع بين الفريقين - فشل المفاوضات بين مصر وقبرس بسبب غارات القبرسيين على سواحل سورية ومصر - تجديد محاولة توطيد السلام بين مصر وقبرس - إخفاق هذه المحاولة - هزيمة ملك قبرس بطرابلس ثم باللاذقية - استمرار غارات الفرنجة على ساحل سورية - اضطراب سلطان مصر إلى الدخول في مفاوضات الصلح مع ملك قبرس

الفصل السادس

صفحة

٢٥٩

العلاقات السياسية بين مصر والدول الأوربية
دولة المماليك في مصر تعنى بتوطيد علاقاتها مع الدولة البيزنطية —
حرص قلاوون على إحكام أواصر المسالمة مع الامبراطور
ميخائيل الثامن — تبادل الهدايا والرسائل بين الناصر محمد وأباطرة
الدولة البيزنطية المعاصرين له — حرص أباطرة الدولة البيزنطية
على استمرار العلاقات الودية بينهم وبين مصر .

٢٦٢

تودد صاحب قشتالة للسلطان قلاوون — تحالف ملك أرجونة مع
قلاوون — حرص جيمس الثاني ملك أرجونة على توطيد العلاقات
السياسية والاقتصادية بينه وبين دولة المماليك .

٢٦٣

تبادل السفارات بين مصر وأرجونة — اهتمام ملوك أرجونة
برعاية المصالح المسيحية بالشرق — تمسكهم ببنیاسة المحافظة على
علاقات الصداقة مع مصر .

٢٧٦

اهتمام ملوك فرنسا بثئون المسيحيين بالشرق — شارل الرابع
يبعث بسفرائه إلى الناصر محمد — فيليب السادس يتودد إلى الناصر
محمد ويتمس منه الموافقة على إعادة بلاد ساحل الشام وبيت المقدس
إلى الصليبيين — الناصر محمد يرفض هذا الاقتراح .

الباب الثالث

حالة مصر الاقتصادية في عهد أسرة قلاوون

الفصل الأول

٢٨١

الثروة الزراعية في مصر
رعاية سلاطين مصر للزراعة — زراعة الحبوب — قصب السكر —

٢٨١

العناية بفرس البساتين — إنشاء الجسور والترع

صفحة

- ٢٨١ الاقطاعات الزراعية — تعديل زمام الاراضى المصرية فى عهد
السلطان لاجين — الناصر محمد يدخل تعديلات على نظام توزيع
الاراضى الزراعية بمصر — المقايضة بالاقطاعات والنزول عنها —
اصناف الاراضى الزراعية بمصر — نمو الثروة الزراعية — الاهتمام
بالثروة الحيوانية .

الفصل الثانى

- ٢٩٥ مظاهر تقدم الصناعة فى مصر
٢٩٥ ازدهار الصناعة بمصر فى عهد دولة بنى قلاوون — صناعة
المنسوجات — صناعة الفرش والستور — صناعة الخيم
والفساطيط — صناعة السروج — صناعة المعادن — صناعة
الاسلحة — صناعة الزجاج والخزف — تقدم مصر فى ميدان
الصناعة البحرية — صناعة التجارة — صناعة السكر .

الفصل الثالث

- ٣٢١ تجارة مصر الداخلية
٣٢١ عناية سلاطين المماليك بتسهيل سبل التجارة المصرية — انتعاش
الحركة التجارية فى أسواق القاهرة — مراقبة حركة البيع والشراء —
تجار الكارم — تجارة المعادن — العملة النقدية — المعاملات التجارية .

الفصل الرابع

- ٣٣٤ العلاقات التجارية بين مصر والدول الشرقية والأوربية
٣٣٤ طرق النقل — المراكز التجارية فى مصر
٣٣٧ اهتمام سلاطين المماليك بتشجيع التجارة مع الاقطار الشرقية —
التبادل التجارى بين مصر والدول الشرقية .

صفحة

- ٣٣٩ عناية سلاطين مصر بجباذل التجارة مع الدول الأوربية — نشاط
الحركة التجارية بين مصر والجمهوريات الإيطالية — موقف البابوية
من التعامل التجارى بين مصر وسورية — فشل سياسة البابوية التى
تفطوى على تحريم التجارة مع المسلمين — سعى الدول الأوربية لعقد
معاهدات تجارية مع مصر .
- ٣٤٣ نظام جوازات المرور — استمالة حكومة المماليك التجار الشرقيين
والأوربيين .
- ٣٤٦ ازدياد ثروة مصر فى عهد أسرة قلاوون — الرسوم الجمركية .

الباب الأول

حالة مصر الداخلية في عهد أسرة قلاوون

الفصل الأول — الموقف السياسى الداخلى من عهد قلاوون إلى
منتصف القرن الثامن الهجرى

الفصل الثانى — انحلال أسرة قلاوون وزوال دولتها

الفصل الثالث — الخلافة العباسية في عهد أسرة قلاوون

الفصل الرابع — سياسة أسرة قلاوون في نشر الإسلام بمصر

الفصل الأول

الموقف السياسى الداخلى من عهد قلاوون
إلى منتصف القرن الثامن الهجرى

١ - انتقال الحكم من بيت بيبرس إلى أسرة قلاوون

حرص بيبرس بعد أن وُظِد سلطته فى مصر على أن يكون الحكم فيها ملكيا وراثيا فى أبنائه . وقدمه لذلك بأن جعل الأمراء يقسمون يمين الطاعة لابنه الملك السعيد سنة ٦٦٠ هـ ، ثم ما لبث أن ولاه عهد السلطنة عندما وافته الأخبار بقدم التتار إلى بلاد الشام سنة ٦٦٢ هـ لينوب عنه فى مصر أثناء اشتغاله بمحاربتهم ، وأقام لذلك احتفالا كبيرا ، قرىء فيه تفويض عهد السلطنة للملك السعيد (١) .

ولما توفى الظاهر بيبرس بدمشق سنة ٦٧٦ هـ ، كتب الأمير بدر الدين بيلبك الخازن دار إلى الملك السعيد بالقاهرة ، يخبره بموت أبيه ، فجدد الأمراء له البيعة بالسلطنة ، كما بايعه سائر العسكر والقضاة والأعيان ، ودعاه الخطباء على منابر الجوامع بمصر والقاهرة (٢) .

وقد قرب الملك السعيد إليه جماعة من المماليك الأحداث ، وسرعان ما ازداد نفوذهم وصاروا يتدخلون فى تعيين نواب السلطنة وعزلهم . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تدخل مماليك السلطان الخاصكية (٣) فى

(١) التويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ١٦٠ .

الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره المؤلف من ١٢٨ .

(٢) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ القسم الثانى ص ٦٤٢ .

(٣) أورد الخالدى (المقصد الرفيع المنشأ فى صناعة الانتبا ، تعريفا للخاصكية ونصه : « جعل ذلك (الاسم) علما عليهم لأنهم يحضرون على الملك فى أوقات خلواته وفراغه ، وينالون من ذلك ما لا يناله أكابر المقدمين ويحضرون طرق كل نهسار فى خدمة القصر والاستطبل .

توزيع الإقطاعات ؛ وأدى ذلك إلى قيام النزاع بين السلطان الملك السعيد ،
ونائب السلطنة الأمير سيف الدين كوندك الساقى الذى تمكن من ضم جماعة
من كبار الأمراء إلى جانبه .

وكان من أثر تحيز السلطان لما ليكه وإطلاقه يدهم فى إدارة شئون الدولة
وإغداقه الأموال الوفيرة عليهم أن استاء منه الأمراء الصالحة ، وخاصة
الأمير سيف الدين قلاوون ، والأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، والأمير
علم الدين سنجر الحلبي وهؤلاء كانوا جميعاً يأنفون من تولية الظاهر بيبرس
سلطاناً عليهم ويرون أنهم أحق منه بالملك .

ولما ازداد النفور بين السلطان والأمراء ، عول على التخلص منهم ،
فسجن بعضهم ، وكان لعمله هذا أسوأ الأثر فى نفوس زملائهم ، فاجتمعوا
مع أجنادهم وأتباعهم ، ومن انضم إليهم من العساكر يايوان قلعة الجبل ،
وبعثوا إليه بكتاب هددوه فيه بالإقلاع عن هذه السياسة ، وما ورد فى
هذا الكتاب :

« إنك قد أفسدت الخواطر وتعرضت إلى أكابر الأمراء ، فإما أن ترجع
عما أنت عليه وإلا كان لنا ولك شأن ، وظلت الرسل تغدو وتروح بين
السلطان والأمراء حتى تقرر الصلح بينهم ^(١) .

على أن خاصكية الملك السعيد ، ما لبثت أن عادت إلى إثارتها ضد أكابر
الأمراء فأشاروا عليه عندما أقدم إلى دمشق سنة ٦٧٧ هـ بأن يقصيه عنه ، فعهد
إليهم بغزو سيس بقيادة الأمير سيف الدين قلاوون . ولم تكف الخاصكية
بذلك بل أوعزت إلى السلطان بالقبض عليهم عند عودتهم من سيس .
وتوزيع إقطاعاتهم على فريق منهم ^(٢) .

ويركبون لركوب الملك ليلاً ونهاراً ولا يتخلفون فى قرب ولا بعد ويتميزون من غيرهم
فى الخدمة بحملهم سيوفهم ولباسهم الطرز الزركشى ويدخلون على الملك فى خلوته بغير إذن
ويتوجهون فى المهمات الشريفة ويتأقون فى مركوبهم وملبوسهم » .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٤٥ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٥٠ ،

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٦٤ .

ولما عاد الأمراء من سيس، خرج الأمير كوندك إلى لقائهم، وأخبرهم بموقف الخاصكية العدائي إزاءهم، فحرك قوله كوامن الغضب من نفوس هؤلاء الأمراء، وأشاروا على الملك السعيد بإقصائهم عنه، حتى لا يكون لهم أى نفوذ فى الدولة. على أن السلطان رفض طلبهم، ثم عاد إلى مصر واستقر بالقلعة، ولم يمض على إقامته بها غير قليل حتى أحاط بها الجند بقيادة الأمير سيف الدين قلاوون، وقطعوا عنها الماء (١).

ولما اشتد حصار الجند للقلعة، أرسل السلطان إلى الأمراء يعرض عليهم نزوله لهم عن بلاد الشام، فأبوا إلا أن يخلع نفسه من السلطنة، فالتمس من الأمير سيف الدين قلاوون والأمير بدر الدين بيسرى أن يعطوه الكرك، فأجاباه إلى ذلك، وأجلس الماليك أخاه بدر الدين سلامش على العرش (٢). ولما رحل الملك السعيد إلى الكرك عرض كبار الأمراء السلطنة على الأمير سيف الدين قلاوون، فامتنع عن قبولها وقال: «أنا لم أخلع الملك السعيد شرها إلى السلطنة وحرصاً على المملكة، لكن حفظاً للنظام وأنفة لجيوش الإسلام أن يتقدم عليها الأصاغر، والأولى ألا يخرج الأمر من ذرية الملك الظاهر (٣)».

على أن الأمير قلاوون لم يمتنع عن قبول السلطنة رغبة منه فى الاحتفاظ بها لذرية بيسرى أو احتراماً لمبدأ وراثته العرش، بل رأى أن أغلبية الجيش كانت من الظاهرية، أنصار الظاهر بيسرى، نخشى قيامهم بالثورة ضده، كما أن أكثر البلاد كان يتولى إدارتها أمراء موالون لأسرة بيسرى، لذلك عول على عدم قبول السلطنة إلا بعد إقصاء هؤلاء الأمراء عن مناصب الدولة. وحيد الأمراء الموالون له هذا رأى، فاتفقوا على تولية الأمير بدر الدين

(١) المقربرى : السلوك ج ١ القسم الثانى من ٦٥٢ — ٦٥٣ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ من ٢٦٦ — ٢٦٩ .

(٢) التويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ من ١٢٦ ،

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ من ٢٧٠ .

(٣) المقربرى : السلوك ج ١ القسم الثانى من ٦٥٣ .

سلامش بن بيارس — وعمره سبع سنين ، سلطنة مصر ، ولقبوه بالملك العادل ، وعينوا الأمير قلاوون أتابكا له ، وعز الدين أيبك الأفرم في نيابة السلطنة (١) . ولما تم تقليد الملك العادل سلامش سلطنة مصر طلب أتابك قلاوون إلى الأمراء أن يقسموا له يمين الطاعة ؛ وضربت السكة باسميهما ، فنقش على أحد وجهيهما : اسم الملك العادل وعلى الوجه الآخر : اسم قلاوون ، كما خطب لهما على المنابر (٢) .

على أن الأمير قلاوون سرعان ما استغل صغر سن الملك العادل سلامش فقبض على زمام الأمور في البلاد ، وأخذ يتطلع إلى سلطنة مصر ، فزج بعض الأمراء الظاهرية في السجن ، وأمر بالقبض على عز الدين أيدير نائب الشام ، وعين شمس الدين سنقر الأشقر بدلا منه ، كما امتثال إلى جانبه الصالحية ، موالي الملك الصالح أيوب ، بما أغدقه عليهم من الإقطاعات ، وتوطدت علاقته بالأمراء الخاصكية .

ولما تخلص الأمير قلاوون من مناوئيه ، دعا أمراءه وتحدث معهم في صغر سن سلامش ، وقال لهم : « قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل » ، فانفقوا على خلعه وإنفاذه إلى البكر ، وتولية قلاوون سلطنة مصر (٣) . وهكذا زال الملك من بيت بيارس على يد قلاوون الذي اصطنجه الظاهر بيارس وأربط معه برباط المصاهرة ، فزوج ابنه الملك السعيد من ابنته سنة ٦٧٤ هـ ، غير أن قلاوون سرعان ما طمع في عرش مصر على أثر وفاة بيارس ، فانهز فرصة ضعف الملك السعيد والخلاف الذي قام بينه وبين أمراءه وعمل على خلعه ليحل محله في سلطنة مصر ، ولم يكتف بذلك بل أقصاه هو وأخويه نجم الدين خضر والملك العادل سلامش إلى بلاد الشام (٤) ، وبذلك صفا له الجو ، واستطاع أن يؤسس من بيته أسرة حكمت مصر زهاء قرن من الزمان !

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٥٦ — ٦٥٧ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٨٦ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٥٨ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٥٥ ، ٦٥٨ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٨ .

٣ - حالة مصر الداخلية من سلطنة قلاوون حتى نهاية عهد الأشرف خليل

١ لما اعتلى قلاوون عرش السلطنة في مصر سنة ٦٧٨ هـ ، تلقب بالملك المنصور وصار يذكر اسمه في الخطبة على المنابر . ولم يكد يستقر له الأمر حتى خرج عليه شمس الدين سنقر نائب الشام وامتنع عن مبايعته ، كما لم يعترف بخلع الملك الغادل سلامش وتولية قلاوون سلطنة مصر ، فدعا أهل دمشق إلى طاعته وتلقب بالملك الكامل ، وخطب له على منبر الجامع الأموى بها . ولم تقتصر دعوته على بلاد الشام ، بل كاتبه بعض الأمراء الصالحية والظاهرية (١) .

ولما علم الملك المنصور قلاوون بخروج سنقر عليه ، أرسل إليه كتاباً ، أنهى فيه عليه باللائمة ، كما حث أمراء مصر على طاعته خشية الفتنة . ولم يكتف بذلك ، بل أنفذ في أوائل سنة ٦٧٩ هـ جيشاً لمحاربته ، والتقى الفريقان بغزة واضطر أتباع سنقر إلى العودة منهزمين إلى مدينة الرملة (٢) .

على أن هذه الهزيمة لم تفت في عضد سنقر ، الذى استمال إلى جانبه أمراء الشام حتى أتمه النجدات من حلب وحماة ، كما عاونه بعض أمراء العربان ، ولكن على الرغم من ذلك فقد حلت الهزيمة بجنده وانضى بعضهم إلى جيش السلطان قلاوون ، ورحل سنقر إلى الرجة . ولما امتنع والى هذه البلدة عن تسليمها إليه ، كتب سنقر إلى أبا قبا بن هولاكو ايلخان المغول فى فارس يحسن له الإغارة على بلاد الشام ، ثم هرب إلى صهيون (٣) . ولما فرغ البيلطان قلاوون من مهادنة بوهمن أمير طرابلس ومقدم

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٦٧٢ — ٦٧٤ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٩٤ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٦٧٥ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ١٢٧٠ .

المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٦٧٦ — ٦٨٧ .

بيت الاسبتار (Hospitallers) بحصن المرقب سنة ٦٨٠ هـ ، سار إلى المكان المعروف بمنزلة الروحاء (١) في بلاد الشام ، وهنا أخبره الأمير بدر الدين يبسرى بأن الأمير سيف الدين كوندك وجماعة من الأمراء الظاهرية وبعض التتار قد دبروا مؤامرة لاغتياله ، وكتب إليه أصدقاؤه المقيمون بعكا يحذرونه من بعض الأمراء الذين أسروا إلى الفرنجة بما دبروه للسلطان ونصحوا لهم بعدم عقد أية معاهدة بحجة أنه سيقتل في القريب العاجل (٢) .

على أن السلطان قد علم بما دبره له أعداؤه فاتخذ الحيلة لنفسه وغادر الروحاء ميمما شطر بيسان حيث دعا الأمير سيف الدين كوندك إلى حضرته ووبخه هو ومن معه من الأمراء الذين تأمروا على قتله ، كما عاب عليهم مكابنتهم الفرنجة . فاعترفوا بفعلتهم والتسوا منه العفو عنهم ، لكنه لم يصغ لالتماسهم وأمر بإعدامهم ، ثم وجه التفاته إلى نفر من المماليك الذين شك في اخلاصهم فقبض على بعضهم وزجهم في أعماق السجون ، وفر جماعة من أتباع أسرة الظاهر يبسرى ونحو ثلثمائة فارس من التتار إلى صهيون حيث لحقوا بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر (٣) .

ولما تخلص السلطان قلاوون من الأمراء الذين تأمروا على قتله ، رحل لأول مرة منذ ولي السلطنة إلى دمشق حيث رحب به أهلها واحتفلوا ببلقائه احتفالا كان له أحسن الأثر في نفسه ، فأمر برفع المظالم عنهم (٤) .

ولم يمض وقت طويل على رحيل السلطان قلاوون إلى دمشق حتى أنفذ فريقاً من جنده مع عز الدين أيك الأفرم للقضاء على سنقر الأشقر ، غير

(١) بلد بساحل فلسطين (ابن أبي الفضائل ج ٢ حاشية رقم ٤ ص ٣٢١) .

(٢) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ٣٢٢ ،

Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p.53

(٣) التويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٢٧٨ ب

(٤) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

أن هذا الأمير لم يلبث أن بعث إلى السلطان في طلب الصلح ، وشرط شروطاً منها : أن يأمر السلطان بتلقيه بلقب ملك ، وأن ينزل له عن فامية وكفر طاب وأنطاكية وصهيون واللاذقية في مقابل نزوله عن شيزر التي كان قد استولى عليها ، وأن يكون أميراً على ستائة فارس عدا من عنده من الأمراء وقد أجابه السلطان إلى طلبه ، وكتب له تقليداً بولاية هذه البلاد ، لكنه أبى أن يلقبه بلقب ملك ، وأصبح هذا الأمير يخاطب في المكاتبات بهذه الألقاب وهي : « المقر العالى المولوى السيدى العالمى العادلى الشمسى » (١) .

على أن السلطان قلاوون مالبث أن نقم على الأمير سنقر الأشقر لأنه لم يحضر لمقابلته حين نازل حصن المرقب ، واكتفى بإرسال ابنه إليه ، فأمر السلطان هذه المسألة في نفسه وأنفذ جيشاً لمحاربته سنة ٦٨٦ هـ تحت قيادة الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة ، وظل القتال بين الفريقين حتى اضطر سنقر إلى طلب الأمان ، فأمنه الأمير طرنطاي ثم صحبه إلى القاهرة حيث احتفل السلطان بلقائه ومنحه الخلع وأنعم عليه بإمرة مائة فارس وتقدمة ألف (٢) .

ولما اشتد تهديد المغول لبلاد الشام ، عهد قلاوون لأكبر أولاده علاء الدين على أبي الفتح بالسلطنة من بعده ، لينسب له التفريغ لصيد غاراتهم (٣) فدعا أكابر الأمراء وخاطبهم في أمر تفويض ولاية العهد لابنه علاء الدين ، فلقى اقتراحه قبولا منهم ، وقرى تقليده بالإيوان الكاملى بقلعة الجبل ، جاء فيه : (٤) « الحمد لله الذى شرف سرير الملك منه بغليه وحاط منه بوصيه

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٢٧٠ ب ،

المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٣٤ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٣٤ — ٧٣٥ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣١٩ — ٣٢٠ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٢٧٧ — ٢٧٧ ب .

(٤) بيبس الدوادار : زبدة المكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ص ١٠٥ — ١٠٨ ب .

القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٧٣ — ١٧٧ .

وعضد منصوره بولاية عهد صالحه... وبعد ، فإن خير من شرفت مراتب السلطنة بحلولة... ومن يتشرف إنيوان عظمته ، إن غاب والده في مصلحة الإسلام فهو صدره وإن حضر فهو ثانيه... ولما كان المقام العالي الولدى ، السلطانى الملكى ، الصالحى العلانى... هو المرجو لتدبير أمور المسلمين... فلذلك خرج الأمر العالى المولوى ، السلطانى ، الملكى ، المنصورى ، السيفى... أن يفوض إليه ولاية العهد وكفالة السلطنة المعظمة بالديار المصرية... والمملكة الحجازية... ومملكة النوبة... والفتوحات الإسلامية الساحلية ، والممالك الشامية وحصونها... وأن تلقى إليه مقاليد الأمور في هذه الممالك الشريفة ، وأن تستخلفه سلطنة والده... لتشهد الأمة منه في وقت واحد سلطاناً وخليفة ولاية واستخلافاً...

وأما الوصايا فقد لقنا ولدنا وولى عهدنا ما اطيع في صفاء ذهنه ، فاتق الله كأنك تراه... وانصر الشرع... واقض بالعدل... وأمر بالمعروف وانه عن المنكر... وأقم الحدود ووجد الجنود ، وابعث أبرأ وبحراً من الغزو إلى كل مقام محمود... وأمرأ الإسلام الأكابر... فضاغف لهم الحرمه والإحسان ، وشاورهم في الأمر... وجيوش الإسلام هم البنان والبنيان فوال إليهم الإمتنان... والبلاد وأهلها فهم عندك الوديعه ، فاجعل أوامرك لهم بصيرة وسميعة.

وأما غير ذلك من الوصايا ، فسنخوأك منها بما ينشأ معك توما ، ونلقنك من آياتها حكماً فحكماً ، والله تعالى ينمى هلالك حتى يوصله إلى درجة الأبرار ويرزقك سعادة سلطاننا... ويجعل الرعية بك في أمن وأمان حتى لا تخشى سوءاً ، ولا تخاف دركاً...

ولما توفى الملك الصالح على سنة ٦٨٧ هـ ، كتب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر تقليداً بولاية العهد لخليل بن السلطان الملك المنصور قلاوون

الذى أصبح يلقب منذ ذلك الوقت بالملك الأشرف (١). وبما جاء فى هذا التقليد (٢)

«... إن من أطفاف الله تعالى بعباده واكتتاف عواطفه ببلاده أن جعلنا كلبا وهى للملك ركن شديد شيدنا ركناً عوضه ، وكلما اعترضت للمقادير جملة بدلنا آية مكان آية... فأطلعنا فى أفق السلطنة كوكباً سعيدياً كان لحسن الاستخلاف معداً... وكأنا كوشفت الإمامة العباسية بشرف مسماه فيما تقدم من زمن سلف ومن حين ، فسمت ووسمت باسمه أكابر الملوك وأخاير السلاطين ، فخطب كل منهم مجازاً لا كهذه الحقيقة «بخليل» أمير المؤمنين...»

ولما تحتم من تفويض أمر الملك إليه ما كان لوقته المعلوم قد تأخر وتحين حينه فكمل زيادة كزيادة الهلال حتى بادر تمامه فأبدر ، اقتضى حسن المناسبة لنصائح الجمهور والمراقبة لمصالح الأمور... أن نقوض إليه ولاية العهد الشريف بالسلطنة الشريفة... وأن ييسط يده المنيفة لمصالحها بالعهود وتحكمها فى العساكر والجنود... فلا سلطان... ولا نائب فى مملكة... ولا مقدم جيوش... ولا راع، ولا رعية... إلا وكل داخل فى قبول هذا العقد الميمون... وليشكروا الصنيع الذى بعد أن كانت أخلفاء تسلمون الملوك قد صار سلطانهم يقيم من ولاية العهد خليفة بعد خليفة.

«وأما الوصايا... فعليك بتقوى الله عز وجل... والشرع الشريف فلا تخرج فى كل حال عن لوازمه وشروطه... والعدل... فاجعله جامع أطراف مراسمك... وأمراء الجيوش... فكن لجنودهم متحياً... ولأرائهم مستصوباً... كنذا نوصيك بالجيش الذى له الجوار المنشآت فى البحر كالاعلام... وبيوت العبادات فهى التى إلى مصلى سميك «خليل» الله

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٠ .

(٢) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٦٦ — ١٧٣ .

تنتهى محاربيها . . . مرفقها وذكر اسم الله تعالى فيها . . . وأخواتها من بيوت الأموال . . . فاصرف إليها اجتهادك فيما يعود بالثمير . . . وحدود الله فلا يتعداها أحد . . . ويدت الله المحجوج . . . فسير سبيله .

« هذا عهدنا للسيد الأجل ، الملك الأشرف ، صلاح الدنيا والدين . . . خليل أمير المؤمنين . . . فليكن بعروته متمسكا . . . وليتقلد سيف هذا التقليد . . . والله تعالى يجعل استخلافه للمتقين إماماً وللدن قواماً . . . ويطلق بمياء سيوفه نار كل خطب حتى يصبح كما أصبحت نار سميه صلى الله عليه وسلم برءاً وسلاماً . »

على أن السلطان قلاوون رأى بعد قليل عدم أهلية ابنه الأشرف خليل للسلطنة من بعده ، فامتنع عن التوقيع على تقليد بيعته بولاية العهد ، وعبر عن عدم رضائه عنه حين عرض عليه القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر هذا التقليد بقوله : « أنا ما أولى خليلاً على المسلمين ، » (١) .

على أنه لا يبعد أن يكون السبب الذى حمل قلاوون على عدم التوقيع على تقليد ابنه الأشرف خليل بولاية العهد ، ارتيابه فى سلوكه الشخصى واعتقاده بعجزه عن الاضطلاع باعباء المسلمين .

ولما آلت السلطنة إلى الملك الأشرف خليل ، دعا القاضي فتح الدين ابن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء وقال له : أين تقليدى ؟ فأحضره إليه وهو خلو من توقيع والده ، واعتذر له عن ذلك بأن السلطان الملك المنصور قلاوون شغله أمر العدو عن التوقيع على التقليد ، فقال له السلطان

(١) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثالث ض ٧٤٥ ، ٧٥٦ هـ .
أشار أبوالمحسن (النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٠) إلى بيعه الأشرف خليل بولاية العهد بقرله : « فى شوال سنة ٦٨٧ هـ سطر الملك المنصور قلاوون ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليلاً وجعله مكان أخيه الملك الصالح علاء الدين على بعد موته ودقت البشائر لذلك سبعة أيام بالديار المصرية وغيرها . وحلف الناس له والمساكر وخطب له بولاية العهد » .

الملك الأشرف : يفتح الدين ، إن السلطان امتنع أن يعطيني ، فأعطاني الله ،^(١)
 ١. ولم يكد السلطان الأشرف خليل يتولى الحكم حتى بلغه أن الأمير
 حسام الدين طر نطاي نائب السلطنة يعمل على التخلص منه ، فقبض عليه
 وقتله وصادر أملاكه ، ونقل مآخويه خزائنه إلى بيت المال ، كما منح إقطاعه
 لأمير بدر الدين بيدرا الذي فوض إليه نيابة السلطنة^(٢).

كذلك عزل السلطان الملك الأشرف خليل علم الدين سنجر الشجاعى
 من الوزارة سنة ٦٩٠ هـ وعين شمس الدين محمد بن السلعوس^(٣) الذى زاد
 نفوذه فى الدولة بعد أن ألقى إليه السلطان مقاليد أمورها وجعل من اختصاصه
 الإشراف على شئون الأمراء . كما علت مكاتته حتى أصبح لا يسير إلا فى
 موكب من الجند وأصحاب الدواوين ، وبين يديه القاضيان الشافعى والمالكي
 يسير أمامهما القاضيان الحنفى والحنبل ، ثم نظار الدولة^(٤).

وكان السلطان الملك الأشرف خليل يحرص على استتباب الأمن فى جميع
 أنحاء دولته ، فلما بلغه أن العربان عاثوا فساداً فى الوجه القبلى وتعرضوا

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٢٩٣ ،

المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٦١ .

(٢) يبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ص ٩ ص ١٦٧ — ١٦٧ ب
 (٣) كان هذا الوزير فى بادىء أمره يشتغل بالتجارة فى دمشق ، ثم أخذ ينتقل فى بعض
 الوظائف حتى ولى الحسبة والنظر فى ديوان الملك الأشرف ببلاد الشام ، فجمع أموالاً كثيرة
 من ضياع كان يستأجرها لحسابه ، وما أن قدم إلى مصر فى أيام السلطان قلاوون ، وسمى
 لدى الأشرف خليل ولى عهد الدولة المصرية إذ ذك حتى عينه ناظراً لديوانه بمصر ، غير أنه
 سرعان ما أساء التصرف وابتز أموال بعض المقطعين ، مما حدا بالسلطان قلاوون إلى عزله
 وتعيين نحر الدين بن الخليل بدلاً منه . ولما حل موسم الحج توجه ابن السلعوس إلى الحجاز
 وظل فيها إلى أن آلت السلطنة إلى الملك الأشرف خليل ، الذى بعث فى طلبه وكتب إليه
 بخطه : يا شقير ، يا وجه الخير ، تعجل بحضورك لتسلم وزارة الديار المصرية والشامية .

النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ١٢٩٤ — ٢٩٤ ب

يبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٦٧ ب — ١٦٨ ب

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٦١

للبارة في الطرق ، عول على إخماد فتنتهم ، وتقدم الوزير شمس الدين بن السلعوس السلطان إلى تلك البلاد لاستقباله ، حيث تبين له أن أملاك بدر الدين بيدرا قد اتسعت وأن ثروته قد زادت ، فأخذ الوزير يؤغر قلب السلطان على بيدرا حتى تغير عليه واستعاد بعض الأراضى التى كان قد استولى عليها وضمها إلى أملاكه (١) .

وعلى الرغم من أن السلطان كان يتقم على بيدرا عشب بأموال الدولة واستيلاء نوابه على متاجر الاسكندرية ووضع أيديهم على كثير من الجهات فإنه ما لبث أن خشى بأسه ، فحاول استرضائه بألف دينار بعثا إليه ، لكن محاولته ذهبت أدراج الرياح (٢) واغتم بيدرا فرصة ركوب السلطان للصيد أثناء إقامته بتروجه (٣) ، وسار بصحبة حسام الدين لاجين المنصورى وشمس الدين قرا سنقر وسيف الدين بهادر المنصورى وغيرهم لينفذ المؤامرة التى دبرها للتخلص من الأشرف خليل ، وما لبث أن ضربه بالسيف وتبعه سائر الأمراء الذين أجهزوا عليه بسيوفهم ، وكان ذلك فى يوم الإثنين ، ١٢ محرم سنة ٦٩٣ هـ (٤) .

وقد ظل جثمان السلطان الملك الأشرف خليل ملقى فى المكان الذى قتل فيه يومين كاملين حتى حمله الأمير عز الدين أيدير العجمى والى تروجه إلى بيت المال بدار الولاية ، ثم نقل الأمير سعد الدين كوجا الناصرى تابوته إلى القاهرة ودفنه بمدرسته التى أنشأها بالقرب من مشهد السيدة بقيسة (٥) .

(١) القرىزى : السلوك ج ١٠ القسم الثالث ص ٧٨٢ — ٧٨٣

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : النهج الجديد ج ٢ ص ٤٠٣ — ٤٠٤

(٣) موقع هذه القرية بموضع تروجة بأراضى ناجية زاوية صقر بمركز أبى المظاين بمديرية البحيرة .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حاشية رقم ٣ ص ٣٠ ج ٤ .

(٥) مفضل بن أبى الفضائل : النهج الجديد ج ٢ ص ٤٠٥ — ٤٠٦

القرىزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٩٠

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤ — ٢٥

٣ - اعتلاء الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطنة مصر :

وقع اختيار الأمراء بعد قتل الملك الأشرف خليل على الأمير بدر الدين بيدرا ، ولقبوه بالملك الأوحده . ولم يكده الأمير زين الدين كتبغا يعلم بذلك حتى سار بمن معه من المماليك السلطانية (١) ، فداهموا الجناة على حين غفلة بالطرانة (٢) وأحاطوا ببیدرا وقتلوه ، وتبعوا أثر الفارين من أتباعه . ولما فرغ الأمير زين الدين كتبغا من قتل الأمير بيدرا وهزيمة أتباعه ، عول على العودة إلى القاهرة ، غير أن الأمير علم الدين سنجر الشجاعى - الذى كان السلطان الملك الأشرف خليل قد أنابه عنه بقلعة الجبل قبل رحيله إلى تروجة - حال بينه وبين العبور إلى المدينة ، وما زالت الرسل تتردد بينهما حتى وقع الاتفاق على مبايعة الملك الناصر محمد بن قلاوون بالسلطنة - وكان إذ ذاك فى التاسعة من عمره - ، ومن ثم سمح للأمير زين الدين كتبغا ومن معه من المماليك بدخول القاهرة .

ولما جلس الملك الناصر محمد بن قلاوون على عرش السلطنة فى المحرم من سنة ٦٩٣ هـ ، استقر رأى على تعيين الأمير زين الدين كتبغا نائباً للسلطنة والأمير علم الدين سنجر الشجاعى وزيراً ، والأمير حسام الدين لاجين الرومى أستاذ الدار أتابكاً للعساكر ، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير أستاذداراً ، والأمير ركن الدين بيبرس الدوادار دواداراً ومنحه السلطان إمرة مائة فارس وتقدمة ألف ، كما عهد إليه بالإشراف على ديوان الإنشاء (٣) .

(١) يقول القلقشنبدى ، صبح الأعشى ج ٤ من ١٥ - ١٦ ، عن المماليك السلطانية : « وهم أعظم الأجناس شأناً ، وأرقبهم قدراً ، وأشدهم إلى السلطان قرباً ، وأوفرهم اقتطاعاً ، ومنهم تؤمّر الأمراء رتبة بعد رتبة ... وقد كان لهم فى زمن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ثم فى أيام السلطان الظاهر برقوق العدد الجم والمديد الوافر لطول مدة ملكهم واعتنائهم بمجلب المماليك ومشتراها » .

(٢) الطرانة : قرية صغيرة ، تقع على الشاطئ الغربى لفرع رشيد بمركز كوم حمادة

(أبو المحاسن : النجوم الزاهرة - هامش ١ ص ١٦ ج ٨)

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٩٣ - ٧٩٤

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٩ - ٢٠

وعلى أثر تولية الملك الناصر محمد بن قلاوون رأى الأمير زين الدين كتبغا أن يحتاط لما عساه أن يحدث من القلاقل في بلاد الشام ، فأرسل إلى عامل دمشق على لسان الأشرف خليل — قبل أن يبلغه خبر قتله — كتاباً جاء فيه : « إنا قد استتبنا أخانا الملك الناصر محمداً وجعلناه ولي عهدنا حتى إذا توجهنا إلى لقاء عدو يكون لنا من يخلفنا . » كما طلب منه أن يأخذ البيعة للملك الناصر ، وأن يذكر اسمه مع اسم السلطان الملك الأشرف خليل في الخطبة . ولم يمض على وصول هذا الكتاب غير يوم واحد حتى وصلت إلى نائب دمشق الأوامر بمصادرة أموال كل من بيدرا ولاجين وقراسنقر وغيرهم من الأمراء الذين اشتركوا في قتل الأشرف خليل . مما جعل أهل دمشق يعرفون حقيقة الحال في مصر ^(١) .

على أن الأمر الجدير بالملاحظة أن إقامة الملك الناصر محمد في السلطنة بعد قتل أخيه الأشرف خليل ، لم تلق معارضة من أهالي الشام ، بل إنهم على العكس قد رحبوا بتوليته كما لم يعترضوا على ذكر اسمه في الخطبة وحده بعد أن ظلت تقام له ولأخيه الأشرف خليل مدة ثلاثة أشهر .

ولما تم الأمر للملك الناصر محمد بن قلاوون ، استقر الرأي على البحث عن قتلة الملك الأشرف خليل ، وسرعان ما عثروا على بعضهم على حين ولي الأدبار البعض الآخر ، نخص بالذكر منهم حسام الدين لاجين وقراسنقرا اللذان ظلّا محتفين حتى هذأت الأحوال ، فاتصلا بكتبغا وحصلا على أمان من الملك الناصر ^(٢) .

كذلك لم ينج شمس الدين بن السلعوس وزير الأشرف خليل من الاضطهادات التي لحقت بغيره من الأمراء ، فقد رأى علم الدين سنجر الشجاعى أن الفرصة قد حانت للتخلص منه ، وأخذ بغض من شأنه عند

(١) القريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٩٤ — ٧٩٥

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٢

نائب السلطنة مما حمله على القبض عليه ومصادرة أمواله وإنزال أشد العقوبات به حتى توفي سنة ٦٩٣ هـ (١) .

وإذا ما تنعنا معظم حوادث الإضطهاد والقتل التي توالى قبل ولاية الملك الناصر وبعدها نرى أن أسبابها ترجع في الأغلب إلى رغبة الأمراء في الإستئثار بالسلطة والنفوذ ، ومن ذلك يتضح لنا أن الحالة في مصر لم تكن مستقرة ، فكثيراً ما كان الأمراء يتنافسون على السلطة حتى إن بعضهم كان يعمل على إقصاء البعض الآخر عن مناصب الدولة .

وقد أصبح الشجاعى بعد قتل ابن السلجوس صاحب الكلمة في الدولة ، فبدأ لنفسه وسائل الاستبداد بالأمور رغبة في اعتلاء عرش مصر ، وألقى بذور الفتنة بين رجال الدولة وبين كتبغا نائب السلطنة مما أدى إلى انقسام الجند فريقين : أحدهما مع الشجاعى والآخر مع كتبغا ، ثم لم يلبث أن عمل على التخلص من كتبغا ، غير أن عمله هذا لم يصادف شيئاً من النجاح . ولما رأى كتبغا أن الشجاعى تمادى في طغيانه ، دعا أتباعه من أجناد الحلقة (٢) والتار والأكراد ونزلوا بظاهر الباب المحروق ، فاضطر الشجاعى إلى الخروج لملاقاتهم وأخذ يؤلف بين قلوب الأمراء والجند بما أدره عليهم من الأموال ، غير أنه لم يجتذب منهم إلا جماعة يسيرة .

ولما أعد كتبغا العدة لملاقاة عدوه ، أنفذ إلى الناصر محمد كتاباً ، جاء فيه : « إن الشجاعى قد انفرد برأيه في القبض على الأمراء ولا بد من حضوره ، فانه بلغنا عنه ما أنكرناه ، فأرسل الناصر محمد بذلك إلى الشجاعى الذى امتنع عن الحضور ، ومن ثم شرع كتبغا في الزحف على القلعة وأخذ في محاصرتها

(١) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٩٧

(٢) عرفوا بذلك لأنهم كانوا دائماً يحيطون بالسلطان في غدواته وروحاته « وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين بوساطة النزول عن الإقطاعات »
القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٦

وقطع عنها الماء يوما كاملا ، وفي اليوم التالي نزلت البرجية ^(١) من القلعة وأوقعت الهزيمة بكتبغا وجنده . ولما علم بذلك أتباعه من الأمراء سارعوا إلى نجدة وردوا البرجية على أعقابهم إلى داخل قلعة الجبل وحاصروها ولحق بهم كتبغا وشدّد الحصار عليها سبعة أيام وتسلسل منها أكثر جيش الشجاعى وانضموا إليه .

ولما اشتدت وطأة الحصار على الشجاعى ، خرجت أم السلطان الناصر محمد إلى كتبغا وأتباعه وسألهم عن السبب الذى حدا بهم إلى محاصرة القلعة فقالوا : « مالنا غرض إلا القبض على الشجاعى وإخماد الفتنة ولو بقى فى بيت أستاذنا بنت عمياء كنا مماليكها لا سيماء وولده الملك الناصر حاضر وفيه كفاية ، وسرعان ما قبضوا عليه وقتلوه ^(٢) . ومن ذلك نرى أن هذه الحركة التى قام بها كتبغا وأعوانه لم تكن ترمى فى حقيقة الأمر إلا إلى التخلص من الشجاعى وأنهم لم يضمروا شراً أو أذى للناصر محمد .

ولما فرغ كتبغا من القضاء على الشجاعى ، أفرج عن الأمراء المعتقلين ورد إليهم إقطاعاتهم ، كما أنزل من كان مقيماً بالأبراج والطباق بقلعة الجبل من المماليك السلطانية الذين اتهموا بإثارة هذه الفتنة وأسكن طائفة منهم بمنابر السكيس ^(٣) . وأنزل طائفة ثانية بدار الوزارة ، وطائفة أخرى بمنابر الميدان الصالحى بأرض اللوق ^(٤) . ويرجع السبب الذى حدا بكتبغا إلى اتباع هذه

(١) كان الملك المنصور قلاوون قد استجلب كثيراً من المماليك وأفرد لهم فى القلعة أبراجاً ، فسموا لذلك البرجية . المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢١٤

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٩٨ — ٨٠١

ابن أبى الفضل : التهجد الجديد ج ٢ ص ٤١٨ — ٤١٩

(٣) كانت هذه المناظر تقع على جبل يشكر بجوار الجامع الطولونى وتعرف على البركة التى تعرف ببركة قارون . وقد أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب حول سنة ٦٤٠ هـ . ولا تزال تلك المنطقة تعرف إلى اليوم بقلعة السكيس . المقرئى : خطط ج ٢ ص ١٣٣

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٠٢ . وقد ذكر المقرئى (خطط ج ٣ ص ١١٧) أن اللوق كانت تطلق فى عهده على الجهة التى تعرف اليوم باب اللوق .

السياسة إلى رغبته في إضعاف شوكة هؤلاء المماليك حتى لا يقوموا في وجهه إذا ما استقل بالسلطة في مصر .

وكان من أثر تأمين كتبغا لكل من الأميرين حسام الدين لاجين ، وقراسنقر اللذين اشتركا في قتل الملك الأشرف خليل أن قام المماليك الأشرفية بثورة في مصر ، ونهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم وهجموا على القلعة ، فردتهم حامية كتبغا على أعقابهم وبددت شملهم^(١) .

وقد اتخذ كتبغا من الفتنة التي أثارها المماليك الأشرفية وسيلة تدرع بها خلع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، كما أن الأمير حسام الدين لاجين ظل يغريه ويحرضه على عزل هذا السلطان لما كان يخشاه من تأمر الأشرفية على قتله أخذاً بثأر الملك الأشرف خليل ، ولاعتقاده أن الملك الناصر إذا ما بلغ سن الرشد سوف يعمل على التخلص منه ، كذلك أخذ لاجين يحسن للأمير كتبغا السلطنة ويخوفه من عاقبة عدم الإقدام على خلع الملك الناصر بقوله « متى كبر الملك الناصر لا يبيحك البتة ولا يبق أحداً ممن تعامل على قتل أخيه الملك الأشرف ، وأن هؤلاء الأشرفية ما دام الملك الناصر محمد في الملك شوكتهم قائمة ، والمصلحة خلعه وسلطتك . » ، وكان لهذا الحديث أثره في نفس كتبغا الذي دعا الخليفة والقضاة والأمراء وتحدث معهم في عدم أهلية الملك الناصر محمد للسلطنة لصغر سنه ، كما قال لهم « إن الأمور لا بد لها من رجل كامل تخافه الجند والرعية وتقف عند أوامره ونواهيه . » فاستقر رأيهم على خلع الملك الناصر محمد وإقامة كتبغا مكانه^(٢) .

٤ — إزدياد سلطة الأمراء

لما استقر زين الدين كتبغا بعرش مصر ، أسكن الناصر مع أمه في بعض قاعات القلعة وحجب عنه الناس بعد أن لبث في السلطنة سنة إلا ثلاثة أيام

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٤٨ — ٤٩

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٤٩

ثم استوزر الضاحب بنغر الدين الخليلي ، وولى حسام الدين لاجين نيابة السلطنة وفوض إليه جميع أمور الدولة ، ومن ثم صار كتبغا يقرب إليه الأمراء وينعم عليهم بالإقطاعات حتى قويت شوكته وعظمت منزلته عند جميع الناس ، غير أن البلاد قد أصيبت على أثر ولايته بالقحط والوباء^(١) .

ومما أساء إلى كتبغا ترحيبه ببني جنسه من المغول العويراتية^(٢) الذين ولوا وجوههم شطر البلاد المصرية على أثر اعتناق غازان محمود ايلخان المغول في فارس الاسلام وانتصاره على بيدو . ويرجع السبب في هجرة هذه الطائفة إلى خوف زعيمهم طرغاي من إقدام غازان محمود على الأخذ بالثأر منه لمناصرته بيدو على عمه جيخاتو^(٣) .

ولما وصل أكابر العويراتية^(٤) إلى القاهرة خرج الأمراء على رأس الجند للقائهم ، ورحب بهم كتبغا ومنحهم الاقطاعات وأجرى عليهم الأرزاق ، وأنزلهم بالحسينية^(٥) .

وقد أثار ترحيب كتبغا بالعويراتية حقد أمراء الدولة عليه وخاصة حين رأوا أن كثيرا منهم احتفظ بدينه الوثني وأن السلطان قد منحهم الحرية التامة

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٠٧ — ٨٠٨ ،

ابن أبي الفاضل : النهج الجديد ج ٢ ص ٤٢١ — ٤٢٤

(٢) يقال لهم أيضا الأويراتية ؟ وكانوا يسكنون الجزء الأعلى من نهر ينسى Yenessi بأواسط آسيا ثم خضعوا لسيادة جنكيزخان

Howorth, History of the Mongols, Vol I, pp 681 et Seq.

(٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٣٣ ،

تاريخ سلاطين المماليك : ص ٣٨ — ٣٩

(٤) كان أبناء طائفة العويراتية يمتازون بجهلهم مما كان سببا في تنافس أمراء الدولة على التزوج من بناتهم ؟ فتكاثر نسلهم في القاهرة ؟ وصار أهل الحسينية يمتازون بجهل خلقهم وقد ظل أفراد هذه الطائفة يتمتعون بكثير من النفوذ في عهد الملك العادل كتبغا إلى أن عزل في سنة ٦٩٦ هـ وخلفه الملك المنصور لاجين ، فقبض على جماعة من أكابرهم وبعث بهم إلى الاسكندرية حيث سجنوا بها ، وفرق من بقى منهم في القاهرة على الأمراء ، فاتخذهم جندا لهم . [المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٢ — ٢٣]

(٥) ينسب هذا الحى إلى طائفة من المبيد يقال لهم الحسينية ، كانوا يقيمون في الجهة الواقعة خارج باب الفتوح ، في عهد الفاطميين . (المقرئى : خطط ج ٤ ص ٢١ — ٢٢)

في إقامة طقوسهم الدينية ولم يعترض على عدم صيامهم شهر رمضان ، كما أبي أن يكرههم على الدخول في الاسلام ونهى الناس عن التعرض لهم . وكان يرمى من وراء تودده إليهم أن يجعلهم عوناً له ضد منافسيه من أمراء المماليك^(١) .

وقد رأى السلطان كتبنا أن يسير إلى بلاد الشام لإقرار الأمن فيها وتنظيم شؤون طائفة التتار العويراتية فرحل إليها بصحبة نائب السلطنة الأمير حسام الدين لاجين . ولما وصل إلى دمشق سارع إلى لقائه النواب والأمراء وقدموا إليه الهدايا . ولم يمض على إقامته بها غير قليل حتى عزل نائبها الأمير عز الدين أبيك الحموي وعين بدله الأمير سيف الدين أغزلو العادلي ، ثم عاد إلى مصر^(٢) .

على أن قلوب الأمراء قد تغيرت على كتبنا لإحلاله مماليكهم محلهم في مناصب الدولة واتهامه بعضهم بمكاتبة التتار ، فاتفقوا مع حسام الدين لاجين على التخلص منه . ولما علم بذلك كتبنا هرب إلى دمشق ، وأتيحت الفرصة للأمير حسام الدين لاجين لاعتلاء عرش السلطنة فاستولى على خزائن السلطان وضم إلى جانبه العساكر التي كانت في ركابه^(٣) ، ثم قابله الأمراء وشرطوا عليه أن يكون معهم كأحدهم وأن لا يستقل برأى دونهم ولا يطلق العنان للمالكة ، فرد عليهم لاجين : « أنا واحد منكم ولا أخير نفسي عنكم ولست مولياً عليكم من مماليكى أحدا ولا أسمع فيكم كلاماً أبداً ولا يصيبكم ما أصابكم من ممالك العادل وأتم خوشداشيتى ومحل إخوتى . » وأقسم لاجين لهم ألا يستبد برأيه في أمر من الأمور ، بل يستشيرهم في مهام الدولة ، كما تعهد بالألا يقدم مماليكه وخاصة منكو تمر على واحد منهم ؛ فخلف له الأمراء على

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٣ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨١٦ — ٨١٧ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨١٩ — ٨٢٢ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٦٣ — ٦٤ .

السمع والطاعة ، ثم تلعب بالملك المنصور وركب بشعار السلطنة يريد مصر ؛ وخطب له بغزة والقدس وصفد والكرك ونابلس . ولما نزل بظاهر بلبس خرج إلى لقائه أمراء مصر وحلفوا له يمين الطاعة والولاء ، ثم واصل السلطان لاجين السير واجتاز موكبه القاهرة من باب النصر إلى باب زويلة حتى دخل القلعة (١) .

ولما استقر الأمر للسلطان لاجين بمصر سنة ٦٩٦ هـ ، فوض نيابة السلطنة للأمر شمس الدين قرا سنقر المنصوري ، وولى الأمير سيف الدين قبجق نائباً بالشام ، كما أنفذ أحد الأمراء إلى دمشق بعد أن دعى له على منابرهما ليحلف كتبغا يمين الطاعة على يد قاضى القضاة (٢) .

ولم يلبث السلطان لاجين أن نكث العهد ، فقبض على الأمير شمس الدين قرا سنقر وعين مملوكه سيف الدين منكوتمر الحسامى نائباً للسلطنة رغم معارضة الأمراء في تعيينه (٣) ؛ غير أن إسناد هذا المنصب إلى منكوتمر كان شراً مستطيراً ليس على الدولة فحسب ، بل على شخص لاجين أيضاً ، إذ استبد بالسلطة وأضعف نفوذ الوزراء وأصدر أوامره بنقل ما يتحصل من الأموال إلى داره بعد أن كانت تحفظ في بيت المال (٤) .

كذلك رأى لاجين بعد أن استقر له الأمر في مصر أن يتخذ الحيلة لما عساه أن يحدث إذا ما فكر بعض الأمراء في عزله من السلطنة وإعادة الملك الناصر إلى العرش ، فاستدعى قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكي وصى الملك الناصر محمد وقال له : « اعلم أن الملك الناصر ابن أستاذى وأنا والله في السلطنة مقام النائب عنه ، ولو علمت أنه الآن يستقل بأعباء السلطنة

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٢٢ — ٨٢٣

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٦٧

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٨٨

المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٣٩

(٤) ابن أبي القضاة : النهج السديد ج ٢ ص ٤٤٦ — ٤٤٧

وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٩٨

ولا تنخرم هذه القاعدة ويضطرب الأمر (لأفته) وقت بين يديه . وقد خشيت عليه في هذا الوقت وترجع عندى إرساله إلى قلعة الكرك ، فيكون بها إلى أن يشتد عضده ويكون من الله الخير ، والله ما أقصد بإرساله إليها إبعاده ولكن حفظه وأما السلطنة فهي له ^(١) ، ثم أمر لاجين بإعداد المعدات اللازمة لرحيل الناصر محمد إلى الكرك ، وما لبث هذا السلطان أن خرج إليها بصحبة بعض الأمراء ^(٢) .

ولما رأى الأمير منكوتر أن لاجين لم ينبج ولدا يخلقه في سلطنة مصر عمل على إثارته ضد الأمير بدر الدين بيسرى ليحول بينه وبين الوصول إلى العرش بعد وفاته ، كما قصد بذلك حمل لاجين على البيعة له بالسلطنة بعده ^(٣) . ولما اشتدت مناوأة أمراء مصر والشام لمنكوتر بسبب تضيقه عليهم ، عمل على إقصائهم عن مناصب الدولة وإقامة غيرهم من عماليك السلطان لاجين . وأوغر صدر السلطان على أمراء مصر حتى أمر بالقبض عليهم ، كما أنفذ رسولا إلى بلبان الطباخى نائب حلب يطلب منه القبض على بعض الأمراء ، ولكنه أبى إجابة طلبه ، والتقى في حمص بعض الأمراء بقفجق — وكان قد فر من دمشق — وأشاروا عليه بالالتجاء إلى غازلن محمود ، فأملهم حتى ورد عليه كتاب من أمراء مصر المواليين له ، ينبئونه فيه بالمؤامرة التي دبرت للتخلص من كل من منكوتر والسلطان لاجين ^(٤) .

ولما تبين للجند الذين انضموا إلى قفجق خروجه على السلطان وتأخيرهم في صرف مستحقاتهم ، تسللوا عنه طائفة بعد طائفة وعادوا إلى دمشق ^(٥) ،

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣١٥ ب

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٣٢ — ٨٣٣

(٣) ذكر النويرى (نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣١٩ ب) أن لاجين كان قد رغب في الخلود إلى الهدوء والراحة ، وعول على تعويض أمر السلطنة الأمير منكوتر إذا تمكن من القضاء على الأمراء المناوئين له .

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٩٢ — ٨٩٤ .

(٥) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٥٥ .

مما حمّله على السير بصحبة بعض الأمراء إلى بلاد التار حيث رحب غازان محمود بقدمهم وأنعم على كل أمير منهم بعشرة آلاف دينار^(١). وكان من أثر سياسة العنف التي اتبعها كل من السلطان لاجين ونائبه منكوتر في معاملة الأمراء، أن عمل فريق منهم على التخلص منهما، كما أن بمالك الأشرف خليل كانوا على استعداد للأخذ بثأر سيدهم، وسرعان ما حانت لهم هذه الفرصة، فاتفق الأمير كرجي مقدم البرجية مع بعض أتباعه على قتل كل من لاجين ومنكوتر، وما لبث أن تمكن هذا الأمير من تنفيذ مؤامره، ثم اتفق رأى الأمراء الذين كانوا بالقلعة على استدعاء الناصر محمد من السكر وإعادته إلى السلطنة على أن يكون الأمير طغجي نائبا له وألا يبرم أمر من أمور الدولة إلا بموافقة الأمراء.

ولم يعمل كرجي على تنفيذ ما اتفق عليه الأمراء بصدد عودة الناصر محمد إلى العرش وقال لهم في اجتماع ضم الأمير طغجي: «يا أمراء أنا الذي قتلت السلطان لاجين وأخذت ثأر استاذي، والمملك الناصر صغير ما يصلح ولا يكن السلطان إلا هذا — وأشار لطغجي — وأنا أكون نائبه ومن خالف فدونه^(٢)».

على أن الاختلاف لم يلبث أن ظهر بين الأمراء، فصار فريق منهم يميل إلى تنفيذ ما يشير به الأمير بدر الدين بكتاش الفخري الذي وصل إلى بليس بعد أن فرغ من محاربة أهل سيس، وأجمع الفريق الآخر الذي يمثله الممالك الأشرافية على سلطنة طغجي على أن يكون كرجي نائبا له.

على أن أنصار طغجي لم يكن لديهم القوة الكافية في الاحتفاظ بسلطته هذا إلى استياء الجند من اشتراكه في قتل لاجين، فعولوا على التخلص منه. ولما تم لهم ذلك اجتمع الأمراء بالقلعة واتفق رأيهم على إعادة السلطان الناصر محمد من السكر^(٣).

(١) تاريخ سلاطين الممالك من ٤٧ — ٤٩

(٢) المقرئى: السلوك ج ١ القسم الثالث من ٨٦٥ — ٨٦٦.

(٣) المقرئى: السلوك ج ١ القسم الثالث من ٨٦٨ — ٨٦٩.

ولما وصل الناصر محمد إلى مصر خرج الأمراء والعساكر للقائه وأقاموا له الزينات على طول الطريق حتى صعد القلعة ، ثم جددت له البيعة ، وبدأ أعماله بتقليد الأحكام مناصبهم ، فعين الأمير سيف الدين سلار نائباً للسلطنة والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير استاداراً ، وأقر الوزير نجر الدين عمر بن الخليلي في الوزارة ، كما فوض نيابة الشام إلى جمال الدين أقوش الأفرم الذي خلف الأمير قفجق المنصوري ، وخلع على أعيان الدولة ومنح ممالك أبيه العطايا والهبات ^(١) .

على أن عودة الملك الناصر إلى السلطنة لم يكن لها أثر في إضعاف نفوذ الأمراء ، فقد اتخذ كل من سلار ، وبيبرس الجاشنكير من صغر سن السلطان ذريعة للاستئثار بالسلطة ، كما عملا على خفض المرتبات المخصصة له وأضحى الملك الناصر يشعر بكثير من الضيق في الوقت الذي أصبح فيه الأمراء ينعمون بثروة كبيرة جمعوها من الضرائب ومن الأراضي الواسعة .

وكان من أثر السياسة التي سار عليها كل من بيبرس وسلار في الاستئثار بالسلطة أن بدأت مظاهر الاختلاف تظهر بينهما ؛ فقد كان بيبرس يلى أمور الممالك البرجية الذين ازداد نفوذهم في ذلك الوقت حتى صار الناس يترددون عليهم في قضاء حاجاتهم ؛ كما كان الأمير سلار يشرف على شئون الممالك الصالحية والمنصورية . وقد بلغ التنافس بين هاتين الطائفتين مبلغاً عظيماً ، فكان البرجية أكثر عدداً من الصالحية والمنصورية ، وكل من الفريقين يطمع في زيادة نصيبه من الإقطاعات ، وإذا ما رقى أحد البرجية إلى مرتبة الأمراء طالب أصحاب سلار أن يؤمر واحد منهم كذلك ، وهكذا الحال إذا أمر سلار بعض أتباعه وقف البرجية وطلبوا تأمير فريق منهم .

وكان من أثر الفتن التي أثارها الممالك وضعف سلطة الناصر محمد أن عاث العربان في الوجه القبلي فساداً وأخذوا يقطعون الطرق على التجار ويفرضون

(١) مفضل بن أبي الفضائل : التهج السديد ، ج ٢ ص ٤٥٧

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١١٥ — ١١٦ .

عليهم ضرائب قاذحة من المال والغلال . وقد بلغ من تفاقم خطرهم أن استخفوا بالولادة وامتنعوا عن أداء الخراج وتسموا بأسماء الأمراء فاختروا من بينهم رجلين سموا أحدهما بيبرس ، والآخر سلار . ولما اشتد خطر هؤلاء الأعراب ، استدعى الأمراء القضاة والفقهاء واستفتوهم في قتالهم ، فأقتوا بجواز ذلك ، ومن ثم اتفق الأمراء على الخروج لقتالهم ، وسددوا في وجوههم كل سبيل حتى لا يلجأوا إلى المغاور والجبال وسار كل من سلار وبيبرس على رأس جيشه إلى شرق النيل وغريه ، وسار الأمير بكتاش بمن معه من الجند إلى الفيوم وخرج بيبرس الدوا دار مع بعض الأمراء إلى السويس والطور ، كما قطع حاكم قوص بمساعدة بعض الأعراب الموالين طرق الصحراء ؛ وبذلك نجح الأمراء في محاصرة العربان المتعمردين بالوجه القبلى على حين غفلة منهم ، ثم انقضوا عليهم في مخابئهم وتعقبوهم بسيوفهم حتى أبادوا كثيرين منهم ، وجافت الأرض بقتالهم ، وأسر منهم نحو ألف وستمائة (١) .

ولم تكد تهدأ هذه الفتن حتى ظهر استبداد الأميرين سلار وبيبرس ظهوراً واضحاً ، وغلا كل منهما في التضييق على الناصر محمد الذى عيل صبره . وبث شكواه لبعض خاصته ، وأرسل في طلب الأمير بكتاش الجوكندار وعبر له عن رغبته في التخلص منهما ؛ غير أن أخبار هذه المؤامرة سرعان ما اتصلت بمسامع بيبرس وسلار ، فاتخذوا الحيلة وعولا على درء ما عسى أن يحل بهما ، وذاعت الاشاعات في القاهرة أن بعض الأمراء دبوا مؤامرة للقضاء على الناصر محمد ، وما كاد يذاع هذا النبأ حتى تظاهر الأهليون لنصرته وسار الجند والعامّة إلى القلعة ، وظل الأمراء يترقبون نزول السلطان منها حتى أرسل إليهم كتاباً جاء فيه : « ما سبب هذا الركوب على باب اسطبل ؟ إن

(١) المقرئى : السلك ج ١ القسم الثالث من ٩٢٠ — ٩٢٢

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ من ١٤٩ — ١٥٣

كان غرضكم في الملك فما أنا متطلع إليه بخذوه وأبعثوني أي موضع أردتم^(١) على أن الأمر الذي يسترعى النظر أن العامة حين علموا بحصار سلار وبيبرس للقلعة ، ثارت ثائرتهم ، وأعلنوا محبتهم وتقديرهم للسلطان الناصر محمد وما ذلك إلا لحرصهم على بقاء الملك في بيت قلاوون .

وكان من أثر هذه الحركة التي قام بها العامة أن استاء منهم الأمراء وعمل كل من بيبرس وسلار على تفريقهم ، وقام القتال بينهم وبين المماليك ، ومع ذلك كله فلم تهدأ ثائرة العامة فقد اشتد صياحهم وأخذوا ينادون : يا ناصر يا منصور ، كما تكاثر جمعهم وصاروا يدعون للسلطان الملك الناصر ويقولون « الله يخون الخائن ، الله يخون من يخون ابن قلاوون » ، وما زالوا على هذه الحال حتى أيقنوا أن السلطان رضى عن أمرائه ، ففرقوا وكفى الله المؤمنين القتال ، وأنفذ الأمراء إلى السلطان كتابا يعلنون فيه طاعتهم وولاءهم له ويطلبون منه اقضاء الشبان الذين عملوا على اشعال نار الفتنة بينهم وبين الأمراء على أن السلطان امتنع عن إجابة طلبهم أول الأمر ، ثم لم يلبث أن عدل عن رأيه وأقصى جماعة منهم إلى بيت المقدس بما كان له أحسن الأثر في نفوس الأمراء^(٢) .

على أن الحالة وإن كانت قد هدأت ، فإن عوامل الفتنة لم يقض عليها . فقد ظل الأمراء مستائين من تعصب العامة للسلطان ، كما حرص كل واحد من سلار وبيبرس على الاستئثار بالنفوذ وأمعنا في الحجر على السلطان والتخفيض من نفقاته .

ولما عيل صبر الناصر محمد رأى أن ينزل عن العرش ، فأظهر رغبته في أداء فريضة الحج حتى لا يحال بينه وبين الخروج من مصر ، ثم ركب من القلعة بضجة أمرائه متظاهراً بالسفر إلى الحجاز ، وسارت العامة من حوله وهم سيكون على فراقه .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٠ — ١٧٢

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٢ — ١٧٤

ولما استقر الناصر محمد بقلعة الكرك ، أخبر الأمراء الذين قدموا معه بأنه عدل عن أداء فريضة الحج ، وصمم على اعتزال الحكم واتخاذ الكرك محلا لإقامته ، وكتب بذلك لكل من بيبرس وسلار (١)

ولما رأى الأمراء أن الناصر محمد اعتزل الحكم وعول على عدم مغادرة الكرك ، أجمعوا على تولية الأمير سلار عرش السلطنة ، غير أنه اعتذر عن قبوله خشية خروج بعض المماليك عليه ؛ فوقع اختيارهم على ركن الدين بيبرس الجاشنكير (٢) ، وبايعوه بالسلطنة في سنة ٧٠٨ هـ بعد أن أثبت لقضاة مصر أن السلطان الملك الناصر محمد خلع نفسه .

وقد أرسل بيبرس عقب اعتلائه العرش إلى نائب الشام جمال الدين أقوش الأفرم يطلب منه القيام بأخذ البيعة له من الأمراء ، وأن يطلب إليهم أن يقسموا يمين الطاعة والولاء له ؛ فأقسم أمراء دمشق يمين الطاعة لبيبرس على حين أرسل غيرهم من أمراء الشام إلى الناصر محمد بأنهم سيظلون على ولائهم له .

وقد رأى الملك المظفر بيبرس الجاشنكير من حسن السياسة ألا يشتد في معاملة أمراء الشام ، فأنفذ رسولين من قبله يحملان الخلع إليهم ؛ غير أن الأفرم نائب دمشق أخبرهما بخروج قفجق وقراسنقر وآسندمر على طاعة بيبرس ، وأشار عليهما بعدم الذهاب إليهم ، غير أنهما صمما على مقابلتهم ، فلم يجدا منهم أذنا مصغية وعادا إلى مصر . ولما علم الملك المظفر بيبرس بحقيقة الحال في بلاد الشام ثارت ثائرتة واستشاز نائبه سلار في الأمر ، فأشار عليه بتقليد هؤلاء الأمراء أمر بلادهم وألا يأخذ من أي واحد منهم دينارا ولا درهما ، فقال له بيبرس : إذا فرقت البلاد عليهم تشتت ملكي ولم يبق لي إلا اليسير ، فأجابه سلار بقوله : « وكم من يد تقبل عن ضرورة وهي تستحق القطع ،

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٨٠

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٨١

فاسمع مني وأرضهم في هذا الوقت ، فإذا قدرت عليهم بعد ذلك فافعل بهم ما شئت . ، ونصحه بأن يكاتب كلا منهم على إنفراد ، فعمل بيبرس بهذا الرأي ، وأرسل لكل منهم تقليدا وخلعة ، وكان لهذه السياسة أجل الأثر في نفوس هؤلاء الأمراء فأقسم كل منهم يمين الطاعة له وبعثوا إليه بنسخة اليمين^(١) . ولم يزل بيبرس يضيق على الناصر محمد ويعمل على إضعاف شوكته بعد اتخاذ السكرك محلا لإقامته حتى كتب إليه رسالة يطلب فيها أن يبادر إلى إرسال ما عنده من الخيل والماليك ، وما جمعه من أموال السكرك ، كما هدده في هذا الكتاب بالنفي إلى القسطنطينية إن لم يلب طلبه ؛ على أن الناصر محمد استاء من هذا الكتاب وكتب إلى نواب الشام يذكرهم بأنهم من مماليك أبيه وأنه طالما أحسن إليهم وأجزل لهم العطايا والهبات ، وطلب إليهم أن يساعدونه على استعادة ملكه وإلا اضطر للاستعانة بالتتار والالتجاء إليهم ؛ فلم يجدوا بدا من الإذعان .

ومما ساعد الناصر على تحقيق أغراضه انصراف كثير من المماليك عن بيبرس وقدمهم إليه والتفافهم حوله . وكان نوغاي أشد الأمراء الذين وقفوا في وجه بيبرس ؛ فقد خرج إلى الناصر محمد على رأس كثير من المماليك . وحاول بيبرس عبثا منعه من مغادرة مصر فلم يفلح ، كما عهد إلى فريق من جيشه بحراسة طريق السويس ومنع من تحدته نفسه بالخروج إليه . وقد ازداد نفوذ الملك الناصر أثناء إقامته بالسكرك وقوي شأنه بدخول نواب الشام في طاعته وانضمام كثير من المماليك والأمراء إليه ، كما كان لقدم الأمير نوغاي إلى السكرك أثر يذكر في استعادة ملكه ، إذ أنه لم يكذب يطلعه على حقيقة الحال في مصر حتى سارع إلى إعلان الخطبة باسمه على منابر السكرك . وعلى الرغم من أن الملك الناصر قد استعاد نفوذه في السكرك ، فإنه رأى أن يجادع بيبرس حتى تتاح له الفرصة للعودة إلى مصر ؛ فأرسل إليه كتابا

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٣٨ — ٢٤٠ و ٢٤٢

أعلى فيه من شأنه ، وأظهر فيه نفسه بمظهر الضعيف . ونما جاء في هذا الكتاب : « المملوك محمد بن قلاوون يقبل اليد العالية المولوية السلطانية المظفرية أسبغ الله ظلها ، ورفع قدرها ومحلها ، وينهى بعد رفع دعائه ، وخالص عبوديته وولائه أنه وصل إلى المملوك نوحيه ومغلطاي وجماعة من الماليك ، فلما علم المملوك بوصولهم أغلق باب القلعة ولم يمكن أحداً منهم يعبر إليه ، وسيرت إليهم ألومهم على ما فعلوه وقد دخلوا على المملوك بأن يبعث ويشفع فيهم ، فأخذ المملوك في تجهيز مقدمة مولانا السلطان ويشفع فيهم ، والذي يحيط به علم مولانا السلطان أن هؤلاء من بماليك السلطان — خلد الله ملكه — وأن الذي قيل فيهم غير صحيح ، وإنما هربوا خوفاً على أنفسهم ، وقد استجاروا بالمملوك ، والمملوك يستجير بظل الدولة المظفرية والمأمول ألا يخيب سؤاله ولا يكسر قلبه ولا يردده فيما قصده . وفي هذه الأيام يجيز المملوك مقدمة مع الماليك الذين طلبهم مولانا السلطان ، وأنا مالى حاجة بالماليك في هذا المكان ، وإن رسم مولانا مالك الرق أن يسير نائباً له ينزل المملوك بمصر ويلتجئ بالدولة المظفرية ويحلق رأسه ويقعد في تربة الملك المنصور ، والمملوك قد وطن نفسه على مثل هذا . . . والله تعالى قال في كتابه الكريم وهو أصدق القائلين : (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) والمملوك ينتظر الأمان والجواب ، (١) .

ولما رأى يبرز أنصراف الأمراء والماليك عنه ، طلب من الخليفة المستنفي بالله أن يحدد له عهد البيعة ليوطد بذلك دعائم ملكه ؛ ولكن هذا العمل لم يكن له أثر في نفوس أهل مصر لكراهيتهم لحكمه وتعلقهم بالناصر محمد ، هذا إلى استياء الأمير سلار نائب السلطنة من موقف يبرز نحوه . بيد أنه وإن كانت الأمور قد استقرت وتمهدت السبل لعودة الملك الناصر محمد إلى عرشه ، فإنه ظل يبلاد الشام فترة قصيرة نظم فيها صفوف

أتباعه ، وسار إلى دمشق مع خاصته ، حيث استقبله أهلها استقبالا حافلا حتى إن الناس كانوا يدفعون مبالغ كبيرة ليحصلوا على مقاعد فوق سقف المنازل ليشاهدوا منها ذلك الموكب الفخم ، كما فرشت الطريق التي سار فيها بشقاق الحرير الملونة ، وسار الأمراء والعساكر بين يديه حتى نزل بالقصر الأبلق (١) .

وقد رأى الناصر محمد على أثر استقرار الأمور له بدمشق أن يعفو عن الأفرم رغم مناصبته العداء أثناء إقامته بالسكر كما خلع عليه وأقره على نيابة حلب .

وفي يوم الجمعة ٢٢ شعبان سنة ٧٠٩ هـ ، أقيمت الخطبة للملك الناصر محمد بدمشق وحذف منها اسم بيبرس الجاشنكير ، كما قدم إليه أمراء الشام فروض الولاء فاستقبلهم استقبالا حافلا وخلع عليهم الخلع ، وأدر الأموال على من كان معهم من الجند .

ولما وصل إلى بيبرس نبأ دخول الناصر محمد دمشق من غير قتال عظم ذلك عليه ، كما ساءه انصراف الجنود المصرية عنه حتى لم يبق معه بمصر إلا خواصه من الأمراء والأجناد والماليك البرجية الذين نسبوا فساد أحوال البلاد إلى الأمير سلار وأخذوا يحرضون بيبرس على التخلص منه ، لكنه لم يلتفت إليهم وقال لهم : « إن كان في خاطركم شيء فدونكم وإياه ، وأما أنا فلا أتعرض له بسوء قط » .

ولما رأى بيبرس ما خل بالبلاد من الاضطراب وانصراف كثير من الجند عنه وانضمامهم إلى الناصر محمد ببلاد الشام ، استدعى أمراء القاهرة وشاورهم في الأمر ، فأشار عليه بيبرس الدوادار وبهادر بالنزول عن العرش وطلب الأمان من الناصر محمد حقنا لدمه ودماء المسلمين ، وأن يقيم في إطفح مع من يشق به من خواصه إلى أن يرد جواب السلطان من دمشق ؛ فلم يجد

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٠ — ٢٦٥

بيبرس بدا من الأخذ بهذا الرأي وكتب إليه يقول : « والذي أعرفك به أنى قد رجعت أقلدك بغيك ، فإن حبستنى عددت ذلك خلوة ، وإن نفيتنى عددت ذلك سياحة وإن قتلتنى كان ذلك لى شهادة ، (١) »

وقد رأى بيبرس قبل رحيله إلى إطفيح أن يحتاط لنفسه فأخذ ما يكفيه من المال ، كما صحب معه نحو سبعمائة من المماليك ثم خرج من القلعة فى جنح الليل مع خاصته من الأمراء والمماليك البرجية . ولم يكد يصل نبأ خروجه إلى العامة حتى تجمعوا ورموه بكثير من السباب ، ولولا أنه شغلهم بما نثره عليهم من الذهب والفضة لتمكنوا من الظفر به وقتله جزاء ظلمه لهم وإضطهاده إياهم (٢) .

ولما رحل بيبرس الجاشنكير إلى إطفيح قبض الأمير سارار على زمام الأمور فى مصر وعمل على إعادة الأمن إلى نصابه ، فأطلق سراح أتباع الناصر محمد ، ثم لم يلبث أن كتب إلى هذا السلطان يخبره بنزول بيبرس عن العرش كما أمر بإقامة الخطبة له على المنابر وكان ذلك إيذاناً بزوال ملك بيبرس وعودة الناصر محمد إلى عرشه .

غير أن بيبرس سرعان ما استقر رأيه على الالتجاء إلى مكان آخر غير إطفيح يكون فيه بأمن عن غدر أعدائه . ولما وقف بالمليكة على هذه الرغبة عولوا على الانصراف عنه وأخذوا فى العودة تباعاً إلى القاهرة ثم وصل إلى بيبرس رسالة من الناصر يأمره فيها بالتوجه إلى صهيون بعد أن يرد الأموال التى أخذها فسلم ما لديه من الأموال وعاد إلى القاهرة حيث طلب أماناً من الناصر ؛ وعلى الرغم من أنه أجيب إلى طلبه ، فقد ظل يخشى غدر الناصر به واعتزم التوجه إلى ولايته الجديدة ، لكن الناصر محمد ما لبث أن حال بينه وبين تحقيق رغبته (٣) .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٧٠ — ٢٧١

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ١٥٣

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٧١ — ٢٧٣

٥ - استبداد الناصر محمد بالسلطة :

لما رأى الناصر محمد أن الأمور أصبحت مهددة له في مصر عوّل على الرحيل إليها ، فخرج من دمشق في ٢٦ رمضان سنة ٧٠٩ هـ مع بعض أتباعه ، وتجمعت لديه الجيوش المصرية والشامية عند وصوله غزة ، ثم سار آمنا على نفسه حتى دخل مصر ، فاستقبله الأمير سلار وبعض الأمراء وقدموا له فروض الطاعة والولاء .

وقد استبشر الناس بقدوم الناصر محمد وأنشد الشعراء مدائحهم بعودته ، من ذلك ما قاله الشيخ شمس الدين محمد بن علي الداعي (١) .

- الملك عاد إلى حمّاه كما بدا ومحمد بالناصر سر محمدا
وأيامه كالسيف عاد لغمده وبُعاده كالورد عاوده الندى
الحق مرتجع إلى أربابه من كف غاصبه وإن طال المدى
ولما استقرت الأمور للناصر محمد ، طلب منه الأمير سلار أن يعفيه من نيابة السلطنة ويوليه الشوبك ، فأجابه إلى طلبه بعد أن تعهد بطاعته .

على أن الأمر الذي يسترعى النظر أن الناصر محمد على أثر عودته إلى العرش ، عمل على الانتقام من الأمراء الذين سلبوه كل سلطته ، كما عوّل على التخلص منهم حتى يخلو له الجو من ناحية مناوئيه ويستطيع بذلك أن يدبر شئون دولته دون أن يتدخل في أمورها أحد ، ولكي يكفل لنفسه النجاح في سياسته ، أسند إلى خواصه الذين آزره وناصروه مناصب الدولة الهامة ، ففوض نيابة السلطنة بمصر إلى الأمير سيف الدين بكتمر ، وقلد الأمير شمس الدين قراستقر المنصوري نيابة السلطنة بالشام ، كما ولي جمال الدين

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ القسم الاول ص ٧٣ ،

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ القسم الاول ص ٢٤ .

أقوش الأفرم ولاية صرخد ، وولى الأمير سيف الدين قفجق نيابة حلب ،
 وأسند ولاية طرابلس والبلاد الساحلية إلى سيف الدين بهادر الحاج .
 على أن السياسة التي اتبعها الناصر محمد في تعيين ولاته والقضاء على الأمراء
 الذين كانوا يفسدون عليه أمور دولته لم ترض بمالك الأشرف خليل ، بل
 أثارت حقدهم عليه كما يتبين ذلك من هذه العبارة التي قالها بعضهم : « أى ذنب
 لهؤلاء الأمراء الذين قبض عليهم وهو (أى قراسنقر) الذى قتل الأشرف
 خليل ودمه الآن على سيفه ما ذهب أثره قد صار اليوم حاكم المملكة . »
 على أن قراسنقر ما لبث أن خشى على نفسه من الممالك الأشرفية ،
 وطلب من الناصر أن يأذن له بالذهاب إلى بلاد الشام لالقاء القبض على
 بيبرس الجاشنكير ؛ فلقيت هذه الرغبة قبولاً من نفس الناصر ، وسمح له
 بمغادرة مصر ، ولم يمض غير قليل من الزمن حتى سيق بيبرس إلى القاهرة
 حيث مثل بين يدي الناصر محمد الذى أخذ يعنفه ويوجه إليه كل صنوف
 اللوم والعتاب ، وقال له : « أتذكر وقد صحت على وقت كذا بسبب فلان
 ورددت شفاعتى فى حق فلان ، واستدعيت نفقة فى وقت كذا من الخزانة
 فنعتها ، وطلبت فى وقت حلوى بلوز وسكر ، فنعتنى ، ويلك . وزدت فى
 أمرى حتى منعتنى شهوة نفسى . . . ثم قال : يا ركن الدين أنا اليوم أستاذك ،
 وأمس تقول لما طلبت أوز مشوى ما يعمل به^(١) ؟ » ؛ فسأله بيبرس العفو ،
 لكن الناصر محمد أبى وأمر بحبسه ، ثم قتله فى ١٥ ذى القعدة سنة ٧٠٩ هـ
 ودفن فى قبر أخفيت معالمه إلى أن شفع بعض الأمراء فى نقل جثته إلى
 الخانقاه التي أنشأها .

لم يبق أمام الناصر محمد بعد أن تخلص من بيبرس إلا القضاء على الأمير
 سلار ، وبرغم المساعدات التي قدمها إلى الناصر عند عودته إلى العرش ، لم
 يكن مصيره أحسن من مصير بيبرس^(٢) ؛ فقد ألقي القبض عليه وظل فى السجن

(١) الفريرى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٨٠ — ٨١

(٢) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p.67.

حتى توفي^(١) .

ولم يكد الناصر محمد يفرغ من القضاء على سلار حتى بلغه أن الأمير بكتمر الجوكندار نائب السلطنة دبر مؤامرة لخلعه وإقامة ابن أخيه الأمير مظفر الدين موسى بن الملك الصالح على بن قلاوون على العرش ، واستعان في ذلك بالمماليك المظفرية - أنصار الملك المظفر بيبرس - ، لسكن الناصر محمد عول على إحباط هذه المؤامرة فقبض على الأمير مظفر الدين موسى وزجه في السجن ثم أخذ يتبع المظفرية حتى ظفر بهم ، غير أنه ما لبث أن عفا عنهم^(٢) . ولم تهدأ ثائرة المماليك الأشرفية في عهد الناصر محمد ، بل ظلوا يرددون اشتراك الأمير قراسنقر في قتل أخيه الأشرف خليل ، مما أثار في نفسه حب الانتقام منه ؛ غير أن قراسنقر فطن لما يراد به فأوقع الرعب في قلوب نواب الشام من ناحية السلطان كما أخذ يؤلبهم عليه . ولما وجد أن حياته في دمشق أصبحت معرضة للخطر طلب إلى الناصر محمد أن يوليّه حلب ، فأجابه إلى ما طلب^(٣) .

على أن قراسنقر ما لبث أن كشف عن حقيقة نواياه إزاء السلطان فخرج مع بعض الأمراء - ومن بينهم أقوش الأفرم نائب طرابلس - إلى بلاد التتار حيث رحب بهم أولجايتو خدائنده أيلخان المغول في فارس^(٤) . ولما اتصل بالناصر محمد نبأ خروج قراسنقر عليه ، اتهم بعض الأمراء عمالاته ، وألقى القبض على نائب الشام وعلى بيبرس الدوادار نائب السلطنة عصر لاتهامهما بالميل إليه ، وعين أرغون الدوادار نائباً بالديار المصرية ، كما قلّد نيابة دمشق تنكز الحسامي الناصري سنة ٧١٢ هـ ثم ولاه جميع بلاد الشام وكتب إلى كل من نائب حمّاه وحمص وطرابلس وصفد بالرجوع إليه في مهام

(١) ابن لإيس : تاريخ مصر ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ القسم الأول ص ٢١٤ - ٢١٦ .

(٣) المقرئ : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ القسم الأول ص ٢١٨ ، تاريخ سلاطين

المماليك ص ١٥٧ .

أمورهم ، وزاد في ألقابه : الزاهدي ، العابدي ، العالمي ، كافل الاسلام ،
أتاك الجيوش (١) .

وكان الناصر محمد يستشير تنكز في مهام الأمور ، كما ارتبط معه برباط
المصاهرة ، فتزوج من ابنته وعقد على اثنتين من بناته لولدي تنكز سنة ٧٣٩ هـ
على أن تلك الصداقة لم تلبث أن تحولت في السنة التالية إلى حقد وبغضاء ،
فقد أوجس الناصر محمد منه خيفة وعهد إلى بعض الأمراء بالقبض عليه
وأقصاه عن مناصب الدولة التي كان يتقلدها ، ثم تخلص منه في النهاية (٢) .
وهكذا كانت سياسة الناصر إزاء كبار رجال دولته . يقر بهم إليه أول الأمر
ثم يعتمد إلى القضاء عليهم إذا ما خشى منهم على سلطانه .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ القسم الأول ص ٢١٩ — ٢٢٠ ، القسم
الثاني ص ٢٥٦ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ القسم الثاني ص ٢٦٩ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ .

الفصل الثاني

انحلال أسرة قلاوون وزوال دولتها

ظل ملك مصر في بيت السلطان الناصر محمد بن قلاوون مدة أربعين سنة . توارث في العشرين عاماً الأولى بعد وفاته ثمانية من أولاده على التعاقب ، ثم انتقل الحكم إلى أحفاده في العقدين التاليين .

وقد امتازت هذه الفترة بكثير من الأحداث الداخلية إذ تقلد حكم مصر سلاطين أطفال ، كانوا يولون ويعزلون طبقاً لأهواء أمراء المماليك الذين ازداد نفوذهم في ذلك العهد .

ولم يضع الناصر قبل وفاته نظاماً لوراثته العرش يسير عليه أبناؤه من بعده مما أدى إلى تنازعهم على الملك ، كما لم يبايع أكبر أولاده بالسلطنة ، فلما توفي سنة ٧٢١ هـ خلفه ابنه أبو بكر الذي كان قد ولاه وعهده وتلقب بالملك المنصور سيف الدين وله من العمر إذ ذاك عشرون سنة (١) .

ولم يكف السلطان أبو بكر يتقلد عرش مصر حتى ظهرت بوادر الخلاف بين الأمير قوصون أتابك العساكر والأمير طاجار الدوادار ، وصار العسكر فرقتين : إحداهما مع قوصون ، والأخرى مع طاجار . وقد استطاع هذا الأمير أن يوغر صدر السلطان أبي بكر على قوصون ، فاتفق مع الخاصكية على التخلص منه ، غير أن قوصون ما لبث أن خلعه من السلطنة وأرسله مع بعض إخوته إلى مدينة قوص ، فحبسوا بها (٢) .

أصبح قوصون بعد خلع الملك المنصور أبي بكر صاحب الكلمة النافذة في الدولة ، فولى كجك — أحد أولاد الناصر — سلطنة مصر — وله من

(٢) ابن أبياس : ج ١ ص ١٧٧ .

(١) ابن أبياس : ج ١ ص ١٧٦ .

الأمير ست سنوات - وأقر الحاكم بأمر الله الخليفة العباسي بالقاهرة بيعته بعد أن وافق على خلع أبي بكر لما أتاه في حياته من الآثام^(١). ولما جمعت لقوصون نيابة السلطنة وأتابكية العساكر، تصرف في أمور الدولة حسب أهوائه، فقبض على جماعة من الأمراء وأقصى بعضهم عن الوظائف، وولى أنصاره بدلا منهم، وصار السلطان العوبة في يده. وقد خرج على قوصون نواب طرابلس وحماء وصفد، واتفقوا على التخلص منه وتولية الأمير أحمد بن الناصر - وكان إذ ذاك في السكر - كما استاء أمراء مصر من استبداد قوصون بالسلطة دونهم وناصبه بعضهم العداء، فدعا الأمير أيدغمش العامة إلى نهب بيت قوصون، ونادى في العسكر بأن كل شخص لا يملك فرسا يحضر إلى الاسطبل السلطاني ليأخذ منه فرسا له، فأطلق العامة يد النهب في بيت قوصون. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل إن الجند صاروا كلهم رأوا أحدا من بمالك قوصون أو من رجال حاشيته في الطرقات قتلوه شر قتله^(٢). ولما انفض أعوان قوصون من حوله وأصبح وحيدا، قبض عليه الأمير أيدغمش وبعث به إلى الاسكندرية حيث حبس بها^(٣)، وتبع ذلك خلع كجك من السلطنة، وظل الأمراء ينتظرون قدوم الأمير أحمد من السكر، فلما قدم وولى السلطنة عين الأمير طشتمر نائبا بالقاهرة، غير أنه مالبث أن ساورته الظنون والخاوف من ناحيته لازدياد نفوذه في البلاد، فحبسه.

ومع أن الناصر أحمد قد أصبح مطلقا للتصرف في أمور البلاد، فإن حبه للسكر ظل مستوليا عليه، فترك آق سنقر نائبا عنه في مصر وتوجه إلى السكر مع اثنين من أتباعه.

ولما اضطربت الأمور في مصر بسبب غياب السلطان عنها، كتب إليه

(١) Muir The mameluke Or Slave Dynasty of Egypt p. 87

(٢) ابن أبياس : ج ١ ص ١٧٨

(٣) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p.88.

الأمراء يرجونه العودة إلى مصر ، فكتب اليهم يقول : « إن الشتاء قد حل وإنى اخترت الإقامة بالكرك إلى أن يمضى الشتاء » (١) .

وكان للنزاع الذى قام بين أبناء السلطان الناصر محمد بن قلاوون على الملك أثر كبير فى تقلص الحكم من أسرته . وقد تجلّى ذلك النزاع بصورة واضحة فى عهد الناصر أحمد الذى اختار الإقامة بالكرك مما اضطر الأمراء إلى خلعه وتولية أخيه اسماعيل مكانه ولقبوه بالملك الصالح (٢) .

وقد أخذ السلطان الجديد يدبر أمور البلاد ويعمل على إصلاح ما فسد فيها ، لكن الحظ عاكسه ولم يتمتع بحكم هادئ ، وثار فى وجهه أخوه الملك الناصر أحمد الذى اعتصم بقلعة الكرك وقاوم جند أخيه السلطان الملك الصالح اسماعيل حتى نفذ جميع ما كان معه من مال وقوت ، واضطر إلى ضرب مابقى عنده من السروج المصنوعة من الذهب ، وخطط النحاس بالذهب حتى أصبح الدينار يساوى خمسة دراهم من الفضة وأنفق كل هذه الأموال على الجند الذين قاتلوا معه . ولما طال أمد القتال تفرقوا من حوله واضطر الناصر أحمد إلى طلب الأمان فقبض عليه جند المصريين وما لبث أن قتل سنة ٧٤٥ هـ وتوفى الصالح اسماعيل فى العام التالى وآلت السلطنة إلى أخيه الملك الكامل شعبان سنة ٧٤٦ هـ . وكان قد عهد إليه بالسلطنة من بعده (٣) .

ولم يكن ضعف السلاطين وتنافسهم على عرش مصر العاملين الوحيدين اللذين ساعدا على انحلال أسرة قلاوون ، بل إن انصراف بعض السلاطين إلى المجون وانغماسهم فى الترف فضلا عما كان له من أثر سيئ فى البلاد أتاح للأمراء فرصة الاستحواذ على السلطة ، فلما شغل الكامل شعبان باللهو كتب إليه يلبغا نائب الشام الذى خرج عن طاعته : « . . . إنك أفقدت وأفقرت الأمراء والأجناد وقتلت أخاك وقبضت على أكابر أمراء السلطان واشتغلت

(١) ابن إياس : ج ١ ص ١٨٠

(٢) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt pp. 90

(٣) ابن إياس : ج ١ ص ١٨١ — ١٨٢

عن الملك والتهيت بالنساء وشرب الخمر وصرت تبيع أخباز الأجناد بالفضة. وقد ثار غمض السلطان حين قرأ هذا الكتاب وأطلع أرغون العلائى عليه فقال له : « والله لقد كنت أحسب هذا ، وقلت لك فلم تسمع قولى . » وأشار عليه بعدم إذاعة ذلك الخطاب ، ثم تلتطف فى الرد على نائب الشام وبعث إليه أحد الأمراء ليقتعه بالعدول عن عزمه .

على أن يلبغا لم يعدل عن عداوته لسلطان مصر ، بل أرسل إليه كتابا آخر يقول فيه : « إنك لا تصلح للملك وإنما أخذته بالغلبة من غير رضى الأمراء ، ونحن ما بقينا نصفى إليك وأنت ما تصفى لنا ، والمصلحة أن تعزل نفسك من الملك لنولى غيرك (١) . »

كذلك ثار فى وجه الكامل شعبان بعض الأمراء فى مصر كما تركه أتباعه من المماليك حتى عجز عن تهدئة الحالة فى البلاد واضطر أخيرا إلى الهرب فى بيت أمه ، حيث قبض عليه وقتل خنقا (٢) ، وفيه يقول الصلاح الصفدى :

بيت قلاوون سعاداته فى عاجل كانت. وفى آجل
جل على أملاكه للردى دين قد استوفاه بالكامل

ولما قبض على الملك الكامل شعبان ، استدعى الأمراء أمير حاج بن الناصر محمد وولوه السلطنة ، ولقبوه الملك المظفر حاجى ، وأقيمت له الخطبة بدمشق ، كما ضربت السكة باسمه (٣) . وقد نهج هذا السلطان سياسة أثارت كراهة الأمراء له ، إذ قبض على بعضهم واستهان بالبعض الآخر ، فخنقوا عليه واتفق رأيهم على خلعه من السلطنة ، ثم قبضوا عليه وحبسوه بالقلعة (٤) .

وقد أظهر المظفر حاجى من الخلاعة وفساد الخلق ما جعل عهده أسوأ من عهده سلفه فذكر المؤرخون أنه بذل كثيرا من الأموال لجواريه واختص

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ١٤ — ١٥ (مطبعة كاليفورنيا) .

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ١٨٦

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ٢٥

(٤) ابن إياس : ج ١ ص ١٨٩

واحدة منهن كانت حظية لسلطانين قبله^(١). وقد وصفه الشيخ شهاب الدين ابن أبي حجلة التلمساني في هذه العبارة، فقال: «اشتغل بلعب الطيور عن تدبير الأمور، والنهي عن الأحكام بالنظر إلى الحمام، نجعل السطح داره، والشمس سراجها، والبرج مناره، وأطاع سلطان هواه، وخالف من نهاه، وخرج في ذلك عن الحد وصار لا يعرف الهزل من الجد^(٢)».

وكان طموح أمراء المماليك إلى الاستئثار بالنفوذ عن طريق التدخل في تولية من يشاءون من أحفاد قلاوون السلطنة دون النظر إلى مصلحة البلاد من العوامل التي عجلت بزوال دولة بني قلاوون، فقد حرصوا على سلب السلطة من هؤلاء السلاطين الذين وصلوا إلى عرش الملك بمساعدتهم وجعلوهم العوبة في أيديهم، فظل السلطان حسن بن الناصر محمد الذي ولاه لقيف من الأمراء العرش بعد مقتل المظفر حاجي في الثلاث السنين الأولى من حكمه كالخجور عليه. ولما رأى أن وزيره منجك اليوسفي قد استأثر بكثير من النفوذ في الدولة، دعا الأمراء والقضاة وقال لهم: يا أمراء هل لأحد على ولاية حجير أو أنا جاكم نفسي؟ فقال الجميع: ما نهم أحد يحكم على مولانا السلطان وهو مالك رقابنا؟ فقال: إذا قلت لكم شيئا (ترجعون) إليه، قالوا جميعهم: نحن تحت طاعة السلطان ونمثلون ما يرسم به، قالتفت السلطان إلى الحاجب وقال له: خذ سيف هذا، وأشار إلى منجك الوزير، فأخذ سيفه وقبض عليه، ثم صودرت أمواله وبعث به إلى الاسكندرية حيث زج في سجنها، كما أخذ يعمل على إضعاف نفوذ الأمراء، لكنهم سرعان ما بآمروا على التخلص منه، فهاجموه وخلعوه عن العرش وولوا أخاه الملك الصالح صالح بن محمد قلاوون^(٣) سنة ٧٥٢ هـ (١٣٥١ م).

(١) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt pp. 92—93

(٢) ابن أبي حجلة . ص ١٨٨

(٣) أبوالمهاجر : انجوم الزاهرة ص ٨١ — ٩٢

ولما تقلد هذا السلطان العرش ، صار الأمير طاز - الذى كان على رأس الأمراء الذين خلعوا السلطان حسن - صاحب الحل والعقد فى دولة المماليك مما أثار حقد الأمراء عليه فعزموا على مهاجمة قصره ، غير أنه ما لبث أن قضى على محاولتهم (١) .

ولم يكن الأمير طاز هو الذى استأثر وحده دون غيره بالنفوذ فى الدولة ، بل إن السلطان الملك الصالح صالح لما خلع على الأمير صرغتمش فى سنة ٧٥٣ هـ وجعل له حق تولية الولاية وعزلهم عظمت مهابته وصار يحد من شوكة الأمراء ، غير أن السلطان ما لبث أن صرفه وعين فى مكانه الأمير شيخون حين كثرت الأراجيف بتدبير مؤامرة لإعادة الناصر حسن إلى العرش (٢) .

ولا أدل على سوء الحالة التى وصلت إليها البلاد فى ذلك العهد من أن بعض كبار رجال الدولة استغلوا نفوذهم فى المناصب التى تقلدوها لإشباع رغباتهم وأهوائهم وزيادة ثروتهم . وقد اتخذهم بعض الأمراء بطانة لهم ليعاونوهم على تحقيق مطامعهم ، فازدادت فى ذلك الوقت ثروة علم الدين عبد الله بن تاج الدين المعروف بابن زنبور الذى جمعت له الوزارة ونظر الخاص والإشراف على شئون الجيش (٣) .

وكان علم الدين من أنصار الأمير شيخون ، فرأى الأمير صرغتمش أن يوقع به حسدا له على ما صار إليه ، فانتهاز فرصة عودة السلطان الملك الصالح من دمشق وذهابه إلى القلعة لاستقباله وبث شكواه للأمير شيخون من الوزير علم الدين بسبب الخلعة التى قدمت إليه وكانت دون مرتبته ، وعزا ذلك إلى سوء تصرف الوزير معه ، فأثار ذلك العمل غضب شيخون على علم الدين وأمر

(١) ابن إياس : ج ١ ص ١٩٤ - ١٩٥

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ١١٨ - ١١٩

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ١٣١

ماليكة بالقبض عليه ونفى إلى قوص سنة ٧٥٣ هـ^(١).

^١ وقد اقتنى علم الدين ثروة كبيرة في أثناء تقلده مناصب الدولة ، فيذكر ابن إياس^(٢) أن القاضي برهان الدين بن جماعة قال : « وقفت على قوائم فيها ما ضبط من موجود الصاحب علم الدين وهو قماش ملون ما بين صوف وحرير ألوان وستمائة قطعة . . . وأواني ذهب وفضة زيتها نحوستين قنطارا ، وصناديق ضمنها فصوص ملونة ما بين ياقوت والماس وعين هر وحبات لؤلؤ ، وستة آلاف حياصة ذهب ، وستة آلاف كلوته وثلاثون أردب فضة نقرة . . وحواصل فيها بسط رومي . . . وعشرون ألف رأس من الخيول والبغال والجمال وسبعمئة من العبيد والجواري ، وأربعون ألف قطعة من النحاس الأصفر المكفت والنحاس الأبيض . . . ومن الأملاك والضياع والمسقفات سبعة آلاف مكان ، قومت بثلاثمائة ألف دينار ، ووجد لديه خمسة وعشرون معصرة ، وستمائة مركب ، ومائتا بستان ، وثلاثمائة ألف رأس من الأبقار والأغنام ، ومن الغلال ما بين قمح وشعير وفول مالا ينحصر كيله . . وقد صودرت هذه الأموال كلها ، وظل علم الدين في منفاه بقوص إلى أن توفي .

كذلك تطور الأمر في أواخر عهد دولة قلاوون ، فازداد التنافس بين الأمراء على الاستئثار بالسلطة وصار يعقب الواحد منهم الآخر في السيطرة على البلاد وأصبح السلاطين ألوية في يدهم يولونهم ويعزلونهم متى شاءوا وشاءت أهواؤهم ، فخلع جماعة من الأمراء السلطان الصالح صالح — رغم ما عرف عنه من حزم وما اتصف به من حسن السيرة — وما ذلك إلا لميله إلى الأمير طاز وأعادوا الناصر حسن إلى العرش وبايعوه بالسلطنة من جديد سنة ٧٥٥ هـ^(٣).

على أن الناصر حسن ترك مقاليد الأمور لأمرائه ، فأصبح الأمير

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٦٧ (٢) تاريخ مصر : ج ١ ص ١٩٧ — ١٩٨

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ١٣٥ — ١٤٧

شيخون والأمير صرغتمش صاحبي الحل والعقد في الدولة في أوائل حكم هذا السلطان ، ثم انفرد صرغتمش بتصرف شؤون الدولة بعد وفاة شيخون سنة ٧٥٨ هـ ، وما لبث أن استبد بالسلطة وكثرت أمواله ، وطمع في الاستقلال بالملك . ولما اتصل ذلك بمسامع السلطان اتفق مع جماعة من الأمراء على التخلص منه ، فقبضوا عليه سنة ٧٥٩ هـ ؛ غير أن هذا العمل أثار غضب مماليكه ، فاشتبكوا مع المماليك السلطانية في معركة دارت فيها الدائرة على أتباع صرغتمش ، وبذلك زالت الفتنة وخلا الجو للناصر حسن ، لكنه لم يتمتع طويلا بسلطته فسرعان ما ازداد نفوذ يلبغا العمرى حتى أصبح يرجع إليه في تصرف أمور الدولة ، كما صار يعترض على أعمال الناصر حسن ؛ فأنكر عليه منحه الإقطاعات الكبيرة للنساء وتدخل الطواشية في أمور الدولة . وقد عظم ذلك على السلطان وأخذ يتحين الفرص للتخلص منه ، فلما خرج للصيد بلغه أن يلبغا دبر مؤامرة لاغتياله ، فوجه همته إلى القبض عليه ؛ غير أن يلبغا ما لبث أن وقف على نوايا السلطان نحوه ، فاستعد بمماليكه وحاشيته لمحاربه ودارت معارك بين الفريقين هزم فيها السلطان وولى هاربا إلى قلعة الجبل لقلعة من كان معه من مماليكه ، ثم أخذ يلبغا يتعقبه ؛ لكن الأمير محمد ابن المحسنى لم يلبث أن تصدى له بمماليكه واعترض سيره إلى القلعة ؛ غير أن ذلك لم يكن له أثر في وقف يلبغا عند حده ، فقد دارت الدائرة على ابن المحسنى ، وسار يلبغا إلى القلعة وقتل السلطان حسن ، ثم استحوذ على خزائنه وجميع ما خلفه من الأموال ، وأقام ابن أخيه الملك المنصور محمد بن المظفر حاجي سلطانا على مصر ، وهو في الرابعة عشرة من عمره^(١) .

وكان السلطان الملك المنصور مسلوب السلطة مع الأمير يلبغا الذى أصبح مطلق التصرف في شؤون الدولة ، يعزل ويولى من يقع عليه اختياره ؛ وظل الملك المنصور على هذه الحال إلى أن اتفقت كلية الأمراء على خلعه لقلعة كفايته .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ١٥٤ — ١٥٨

ومجونه (١) وذلك سنة ٧٦٤ هـ .

ولما خلع الملك المنصور محمد ، اتفق يلبغا مع الأمراء على تولية الأمير شعبان - وكان في العاشرة من عمره - ولقب بالآشرف .

وقد ظل يلبغا العمرى في السنين الأولى من حكم هذا السلطان صاحب النفوذ في البلاد . ولما كثر تعسفه بماليكه نفروا منه وعول بعضهم على اغتياله سنة ٧٦٨ هـ ، وتحدثوا مع السلطان فيما اتفقوا عليه ضد هذا الأمير ؛ فعارضهم أول الأمر . إلا أنه ما لبث أن عدل عن رأيه ورحب بالتخلص منه لحجره عليه وسلبه سلطته .

ولما وصل إلى يلبغا أن السلطان قرب إليه بماليكه ووافقهم على ما ائتمروا به ضده ، ولى الأمير آتوك بن الملك الأجد حسين أخا الملك الأشرف شعبان السلطنة ولقبه بالملك المنصور ، فكان ذلك سبباً في نشوب عدة معارك بينهما ، انتهى الأمر فيها بهزيمة يلبغا وقلته (٢) .

على أن الأشرف شعبان لم يستبد بالسلطة رغم تخلصه من يلبغا ، بل سرعان ما استأثر الأمير أسندمر الناصرى بالنفوذ ، وانضم إلى جانبه بماليك يلبغا . وقد أثار استبداد هذا الأمير وتعاضمه حقد الأمراء عليه ورغم هذه المؤامرة التي دبرت لاغتياله تمكن من إخماد فتنتهم ، ولم يزل نفوذه في ازدياد حتى أصبح السلطان معه كالمحجور عليه سنة ٧٦٨ هـ (٣) .

كذلك استفحل نفوذ بماليك يلبغا وأصبحوا عاملاً قوياً في إثارة القلاقل بمصر ، وصار أسندمر مغلولاً معهم على أمره ؛ فطلبوا منه تسليم بعض الأمراء وعزل الأشرف شعبان سنة ٧٦٩ هـ . ولما وصل ذلك إلى علم السلطان ،

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ١٧٤ — ١٧٧

Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 97

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ٢٠٠ — ٢٠١

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ٢٠٥ ، ٢٠٨ .

ابن إياس : ج ١ ص ٢١٩ — ٢٢١

خرج بصحبة مماليكه وبعض كبار الأمراء لمحاربتهم فأوقع بهم الهزيمة ، وولى أسندمر هارباً ، ثم ما لبث أن جرى به للأشرف ؛ فعفا عنه بعد أن شمع فيه الأمراء وأبقاه في منصبه ، لكنه أشرك معه في الأتابكية خليل بن قوصون على أن أسندمر و خليل بن قوصون ما لبثا أن تحالفا وتآمرا ضد الأشرف شعبان ، كما انحاز إلى جانبهما عدد كبير من ممالك يلبغا ، فسار إليهم السلطان بمن معه من الأمراء والممالك الأشرفية وأخذ فقتلهم بعد أن قتل كثيراً منهم وقبض على كل من أسندمر وقوصون ، وبعث بهما إلى الاسكندرية حيث زجا بسجنها .

وقد قال الشيخ شهاب الدين أحمد في هذه الواقعة :

هلال شعبان جهراً لاح في صفر . بالنصر حتى أرى عيداً بشعبان
وأهل كبش كأهل الفيل قد أخذوا رغماً وما انتطحت في الكبش شاتان (١)
وهكذا لم تتمتع البلاد المصرية بالاستقرار في السنوات الأولى من حكم الأشرف شعبان لاستفحال نفوذ بعض الأمراء وما كانوا يثرونه من الفتن في وجهه .

ولما تخلص هذا السلطان من أسندمر وأضعف شوكة ممالك يلبغا سنة ٧٦٩ هـ ، قبض على زمام الأمور في البلاد ، وأصبح مطلق التصرف في شئون الدولة ، يولى ويعزل دون أن يشاور الأمراء ، ومن ثم استقرت الحالة في مصر ، ولم يحدث ما يعكر صفوها إلا حين خرج الأشرف شعبان من مصر قاصداً بلاد الحجاز سنة ٧٧٨ هـ ، إذ ثار في وجهه بعض الممالك في أيلة بسبب الأموال التي طلبوها منه وأوقعوا به الهزيمة ثم فر إلى القاهرة (٢) ، وفي تلك الأثناء كان بعض الأمراء والممالك السلطانية قد انتهزوا فرصة غيابه وأعلنوا أنه قضى نحبه وهاجموا أعوانه من الأمراء وولوا ابنه علياً

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ٢٠٨ — ٢١٠

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ٢٢٨ — ٢٣٠

مكانه (١). ولما وصل الأشرف إلى القاهرة ، لجأ إلى إحدى دورها حيث كشف أمره بعد فترة قصيرة من الزمن ثم قبض عليه وقتل (٢).

على أن الأمر الذى يسترعى نظرنا أنه رغم ضعف أحفاد قلاوون وعدم استطاعتهم المحافظة على إبقاء الحكم في بيتهم وانقسام الأمراء إلى شيع وأحزاب وسعى كل منهم للتخلص من الآخر ، فإنهم كانوا جميعا متحدين اتحادا تاما ضد الخوارج على بلادهم ، كما كانت البلاد المصرية تنعم في أواخر عهد هذه الأسرة بالرخاء ، ويتبين لنا ذلك من هذه العبارة التى أوردها أبو المحاسن (٣) « وكانت أيام الأشرف شعبان بهجة وأحوال الناس في أيامه هادئة مطمئنة والخيرات كثيرة على غلاء وقع في أيامه بالديار المصرية والبلاد الشامية ومع ذلك لم يختل من أحوال مصر شيء لحسن تدبيره . »

وقد ازدادت الفتن التى أثارها الأمراء بسبب تنازعهم على الاستئثار بالنفوذ في الدولة بعد مقتل الأشرف شعبان ، فصار كل من قرطاي أتابك العساكر وصهره أئبك البدرى يتآمر مع أصحابه وبطائه على الآخر ، ثم وقع الخلاف بين أئبك وأقتمر الحنبلى نائب السلطنة بعد أن عين قرطاي نائبا على حلب . و انتهى أمر هذا النزاع بنفى أقتمر إلى بيت المقدس وتعيين أئبك أتابكا للعساكر ، ومن ثم استفحل نفوذ هذا الأمير وصار يتصرف في شؤون الدولة كما شاء وشاءت أهواؤه .

وقد تأثرت الحالة في بلاد الشام بالاضطراب السائد في مصر ، فخرج أنوابعها عن طاعة السلطان عما اضطر أئبك إلى تجهيز حملة لإخضاعهم لكنه ما لبث أن عدل عن السفر مع تلك الحملة حين بلغه اتفاق العساكر على الخروج عن طاعته ، ثم ولى هاربا حين أيقن أن أمره في إدبار ، وبعث السلطان في طلب طشتمر نائب الشام وقلده منصب أتابك العساكر بدلا من أئبك البدرى.

(١) Muir. The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 101.

(٢) ابن لياس : ج ١ ص ٢٣٤

(٣) النجوم الزاهرة : ج ٥ القسم الأول ص ٢٣٦

نوصار إليه أمر التولية والعزل^(١).

ولما أخذ طشتمر في تصريف أمور الدولة عظم ذلك على برقوق — وكان قد جمع حوله عددا كبيرا من الممالك — فاتفق مع بركة الجوباني وبعض الأمراء على محاربته ، وسرعان ما خرجت بمالكة وأوقعت الهزيمة بمالكة طشتمر الذي انتهى أمره بالقبض عليه وحبسه في الاسكندرية ؛ وبذلك خلا الجوباني لبرقوق وحل محل طشتمر في منصب أتابك العساكر وصار هو وبركة صاحبي الأمر والنهي في القاهرة حتى لهدجت الناس بقولهم : « برقوق وبركة نصبا على الدنيا شبكة »^(٢).

ومع ذلك فإن الاضطراب لم ينقطع من القاهرة وأصبحت القلعة نفسها مسرحا للثورة ؛ فانتهر الأمير إينال فرصة خروج برقوق للصيد سنة ٧٨١ هـ وغيب بركة فاستولى على الاسطبل السلطاني ، كما انقض على دار أسلحة برقوق واستحوذ على أكثر ما فيها من معدات الحرب . ولما بلغ برقوق خبر هذه الثورة التي قام بها إينال ، سار مع جماعة من مالكة إلى القلعة وأوقع به الهزيمة واستعاد ما استولى عليه هذا الأمير^(٣).

ولم تسكد الأحوال في القاهرة تهدأ بعد القضاء على فتنة إينال حتى قام النزاع بين برقوق وبركة الجوباني واندلعت نيران الحرب الداخلية من جديد فأخذ الأمراء يعدون العدة للدفاع عن أنفسهم على أثر ما وصل اليهم عن تدبير بركة مؤامرة للتخلص من أنصار برقوق .

ولما رأى برقوق أن الحالة زادت اضطرابا ، دعا القضاة إلى القاعة وأبدي لهم رغبته في التخلي عن منصبه كما طلب منهم أن يعملوا على استقلال السلطان بتدبير شئون الدولة ، فسعوا في التوفيق بينه وبين بركة ، وأذعن كل منهما إلى الصلح بعد أن ترددت الرسل بينهما أكثر من مرة^(٤).

(١) ابن خلدون ج ٥ ص ٤٦٧ ، ابن أبياس ج ١ ص ٢٤٠ — ٢٤٢

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الثاني ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الثاني ص ٣١٣ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الثاني ص ٣١٨ .

وما هي إلا فترة قصيرة انقضت على هذا الصلح حتى عول برقوق على التخلص من بركة لتأمرة على قتله ، فأمر أتباعه من المماليك بالتأهب للحرب ، ودار قتال عنيف بين الفريقين انتهى الأمر فيه بهزيمة بركة وأمره . وفي ذلك يقول ابن حبيب الحلبي ^(١) :

ياويحها من حالة وشؤمها من حركة
وقبحها من فتنة فيها زوال بركة

ولما تم لبرقوق القضاء على منافسه بركة ، أصبح صاحب السيادة المطلقة لكنه رغم ذلك لم يجسر على الطموح إلى السلطنة ، كما أنه بعد وفاة الملك المنصور على سنة ٧٨٣ هـ ، لم يتيسر له — مع ما كان عليه من العظمة — أن يتسلطن . وكان قد أشيع بين الناس أنه سيرتقى عرش السلطنة ؛ فأظهر أكابر أمراء الدولة عدم ارتياحهم وقالوا : « لا نرضى أن يتسلطن علينا مملوك يلبغا » . ولما علم برقوق بذلك دعا الأمراء والقضاة والخليفة المتوكل على الله وتحدث معهم في تولية أحد أولاد الأشرف شعبان ، فوقع اختيارهم على أمير حاج لأنه أكبرهم سناً ، فبايعه الخليفة وأقسم له الأمراء بيمين الطاعة ثم قبلوا الأرض بين يديه ولقب بالملك الصالح ^(٢) .

وقد ظل برقوق يتقلد منصب أتابك العساكر ، كما عهد إليه في تدبير شئون الدولة والوصاية على السلطان لصغر سنه ، وأقوى العلماء يومئذ بذلك ^(٣) . على أن بعض مماليك كبار الأمراء مالبثوا أن نقموا على برقوق استشارته بالنفوذ في الدولة ، فدبروا مؤامرة لاغتياله . ولما وقف برقوق على نوايا هؤلاء المماليك نحوه قبض على فريق منهم وسجنهم ، ثم أشار عليه بعض أصحابه أن يتسلطن ويحتجب عن الناس ، غير أنه اعتذر عن ذلك بأنه يخشى اعتراض قدماء الأمراء بمصر والشام على ارتقائه عرش السلطنة ، ولم

(١) ابن أبي عمير : ج ١ ص ٢٤٧

(٢) أبو الجاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الثاني ص ٣٤٧ — ٣٤٨

(٣) ابن خلدون : ج ٥ ص ٤٧١ — ٧٢

يزل بعض الأمراء من أنصاره يهون عليه الأمر ويتعهد له بالعمل على مؤازرته حتى كان يوم ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ هـ (نوفمبر سنة ١٣٨٢ م) حيث دعا برقوق الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء إلى اجتماع قام فيه القاضي بدر الدين بن فضل الله كاتب السر الشريف قائم : «يا أمير المؤمنين وياسادات القضاة إن أحوال المملكة قد فسدت وزاد فساد العربان في البلاد وخرج غالب النواب في الشام عن الطاعة . . . وإن الوقت قد ضاق ومحتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ويسكن الاضطراب ، فاستقر الرأي على خلع السلطان الملك الصالح أمير حاج وتولية برقوق عرش السلطنة^(١) . وهكذا تقلص الحكم من أسرة قلاوون بعد أن ظل أبناؤها يتوارثونه قرنا من الزمان . ولم تر سلطانا من المماليك استمر التاج في بيته سوى الناصر محمد ، إذ حكم بعده أبناؤه وأحفاده سنين عدة .

لكن خلفاء الناصر لم يكونوا . — كما بينا — من القوة بحيث يستطيعون القبض على زمام الأمور في البلاد والمحافظة على إبقاء الحكم في يديهم ، إذ خلفه سلاطين صغار السن ، عجزوا عن الوقوف في وجه الأمراء الذين أتيح لهم الاستبداد بالسلطة ؛ هذا فضلا عما كان من نشوب الخلاف بين الأمراء وسعى كل منهم للتخلص من الآخر مما حمل برقوق الذي أصبح مطلق التصرف في شئون الدولة ، في عهد الملك الصالح أمير حاج ، على إقصاء بعض منافسيه من الأمراء ، ثم لم يلبث أن خلع هذا السلطان وخلفه على العرش ؛ وبذلك زالت دولة بني قلاوون ، وانتقلت السلطة إلى المماليك الجركسية الذي كان ينتمى إليهم برقوق .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الثاني ص ٣٥٣ — ٣٥٦

ابن لؤي : ج ١ ص ٢٥٧

الفصل الثالث

الخلافة العباسية في عهد أسرة قلاوون

٦ - علاقة الخلفاء لعباسيين في مصر بسلاطين المماليك .

لم يكن لدى الدول الإسلامية في الوقت الذي قضى فيه هولاكو على الخليفة المستعصم ببغداد من الثروة ما يستطيع بها إعادة الخلافة ، إلى سابق عهدها ؛ بل أصبح أكثر هذه الدول خاضعاً لسلطان المغول . وعلى الرغم من انشغال أمراء المسلمين بالعمل على ضبط الأمور في بلادهم ، فإنهم لم يروا في زوال الخلافة من بغداد نهاية العهد بها ؛ بل ظلوا يترقبون الفرص لإحيائها ، ولا أدل على ذلك مما رواه مفضل بن أبي الفضائل ، فقد ذكر أنه حين قدم الملك المظفر قطز إلى دمشق على أثر إلتصاره على التتار في موقعة عين جالوت أخبره الأمير عيسى بن مهنا بقدوم الأمير أبي العباس أحمد ، فقال له : « إذا رجعنا إلى مصر ، أنقذه إلينا لنعيده إن شاء الله » . على أن السيوطي يروي رواية أخرى ، فيذكر أن الملك المظفر قطز بايع الأمير أبا العباس أحمد بدمشق ، ويزيد على ذلك أن هذا الأمير سار في جماعة من أمراء العرب ، ففتح عانة والحديثة وهيت والأنبار ، وانتصر على التتار ، ثم كاتبه علاء الدين طبرس نائب دمشق ليذهب إلى الملك الظاهر بيبرس بمصر ، فامتنع عن ذلك لما علم أن أميراً عباسياً آخر قدم إليها ورجع إلى حلب ، فبايعه بالخلافة صاحبها شمس الدين البرقي ولقبه الحاكم بأمر الله ونقش اسمه على الدراهم ، ثم جهزه على رأس جيش صغير لمحاربة المغول .

على أن هذه المحاولات التي قام بها بعض الأمراء لإحياء الخلافة لم تأت بالغرض المرجو ؛ فظل منصب الخلافة شاغرا إلى أن ولى الظاهر بيبرس سلطنة مصر فرأى أن يقيم الخلافة العباسية في القاهرة لتشد أزره وتكسب حكمه صفة شرعية وتساعد على أن يؤول إليه النفوذ الذي كان للحفصيين على الأراضى المقدسة^(١) . وكانت بلاد الحجاز في مقدمة الولايات التي تحرص الخلافة على حمايتها .

وقد تحققت آمال بيبرس في إعادة الخلافة حين أرسل إليه نائبه بدمشق كتابا يتضمن أن رجلا قدم إلى هذه المدينة يدعى أنه أحمد بن الإمام الظاهر ابن الإمام الناصر العباسي فكتب إليه السلطان يوصيه به خيرا ويأمره بإنفاذه إلى مصر ، ثم احتفل باستقباله .

ولم يمض على قدوم هذا الأمير العباسي إلى مصر زمن طويل حتى عقد الظاهر بيبرس مجلسا بقاعة الأعمدة بقلعة الجبل ، أقر فيه قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز صحة نسبه إلى البيت العباسي ، ثم بايعه بالخلافة وتبعه الملك الظاهر والقضاة ؛ ولقب بالمستنصر بالله ، كما أمر بيبرس بأن ينقش اسمه بجانب اسمه على السكة وأن يدعى له قبل الدعاء للسلطان في خطبة الجمعة ولما رأى بيبرس أنه في حاجة إلى تقوية عرشه ضد مناوئيه من أمراء المماليك ، طلب إلى المستنصر بالله أن يعطيه تفويضا شرعيا بتثيته في مركزه وفي أملاكه ؛ فنحه هذا الخليفة تقليدا بولاية مصر والشام والحجاز واليمن والعراق وما يتجدد من الفتوحات ، كما أعطاه خلعة السلطنة .

على أن الأمر الجدير بالملاحظة أن الخليفة العباسي أوصى الظاهر بيبرس في هذا التقليد بأن يعيد الخلافة إلى بغداد ؛ وما قاله^(٢) : . . . وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه في الأيام الأولى ، فأيقظ لنصرة الإسلام

(١) Wiet, Précis De L' Histoire D' Egypte p. 250

(٢) القرينى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٥٣ — ٤٥٧ .

جفنا ما كان غافيا ولا هاجعا ، وكن في مجاهدة أعداء الله إماما متبوعا لا تابعا وأيد كلبة التوحيد ، فالتجد في تأييدها إلا مطيعا سامعا .
ولما اطمأن بيبرس إلى أن سلطته قد توطدت بهذا التفويض الذي أخذه من المستنصر بالله ، شرع في إعادته إلى مقر الخلافة العباسية ببغداد ؛ فعهد إلى بعض الأمراء والعساكر بمرافقته وخرج في صحبته إلى بلاد الشام ؛ غير أنه لم يكدد يصل إلى دمشق حتى أشار عليه بعض خاصته بالعدول عن فكرة إعادة الخليفة إلى بغداد خشية أن يعمل على هدم سلطته في مصر والشام لو تم له القضاء على المغول في بغداد وأعاد ملك العباسيين ، لذا تغير السلطان على الخليفة وتركه وشأنه يخترق بادية الشام برفقة ثلاثمائة فارس من الأعراب والترك .

ولم يكن تخلى بيبرس عن الخليفة المستنصر بالله يثنيه عن عزمه فإنه تابع سيره حتى وصل إلى عانة حيث انضم إليه الأمير أبو العباس أحمد ، ثم رحل إلى الحديثة ومنها واصل السير إلى هيت ؛ وهناك اشتبك مع المغول في معركة انتهت الأمر فيها بهزيمته وقتله سنة ٦٦٠ هـ . ولم ينج من جنده سوى بعض الأمراء . كان من بينهم الأمير أبو العباس أحمد .

وهكذا فشل الخليفة المستنصر في إعادة مجد العباسيين . وظل منصب الخلافة شاغرا مدة سنة إلى أن استقر رأى بيبرس على إقامة خليفة آخر تكون له الزعامة الدينية على البلاد التي تحت سلطانه . فبعث في طلب الأمير أبي العباس أحمد إلى مصر ، ثم احتفل بمبايعته على أثر قدومه ولقب بالحاكم بأمر الله ، وبذلك أصبحت مصر مقرا للخلافة العباسية .

ولما استقر ملك بيبرس في مصر والشام عمل على إضعاف شأن الخليفة فأبقاه بالقلعة وحال بينه وبين التدخل في شئون الدولة والاتصال بالشعب لما قد يقترب على ذلك من إثارتة عليه وإخلاله محله في عرش مصر (١) .

(١) الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره : ص ٦٢ — ٧٣

وقد ظل الخليفة الحاكم بأمر الله لا يباشر أى عمل من أعمال الدولة طوال عهد بيبرس الذى جال دون نشر نفوذه على الحكام المسلمين ولم يأخذ منه تفويضاً بعهد السلطنة لابنه الملك السعيد ، وإنما منح هذا التفويض بنفسه وأمر بقراءته على القضاة والفقهاء سنة ٦٦٢ هـ .

وهكذا استبد بيبرس بالسلطان والنفوذ دون الخليفة العباسى فى القاهرة وأصبح لا يعنى بذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة^(١) . ويتبين لنا ذلك بما جاء فى التفويض الذى أعطاه بيبرس لولى عهده الملك السعيد . وقد جاء فيه^(٢) : « الحمد لله منى الخروس ومبهج النفوس ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبد كثر الله عدده وعدده . . . ونصلى على سيدنا محمد الذى أطلع الله به نجم الهدى وألبس المشركين به أردية الزدى . . وكانت شجرتنا المباركة قد امتد منها فرع تفرسنا فيه الزيادة والنمو ، وتوسمنا منه حسن الجنى المرجو . . . فأردنا أن تنصبه فى منصب أخلنا الله فسيح غرفه ونشرفه بما خولنا الله من شرفه . . . وخرج أمرنا لا برح مسعدا ومسعفا ، ولا عدمت الأمة منه خلفا منبلا بأن يكتب هذا التقليد لولدنا السعيد ناصر الدين « بركة خاقان محمد ، جعل الله مطلع سعده بالإشراف محفوقا وأرى الأمة من ميامنه ما يدفع للدهر صرفا ويحسن بالتدبير تصريفا — بولاية العهد الشريف — على قرب البلاد وبعدها . وما ينسب للدولة القاهرة من يمن وحجاز ومصر وغرب وشام وغير شام ، وجعلنا يده فى ذلك كله المبسوطة ،

(١) ذكر السيوطى (حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ج ٢ ص ٥٤) أن الظاهر بيبرس لما خاف عاقبة أمر الخليفة ، أسقط اسمه من السكة وأبقاه على المتابر ؛ وهذا يخالف ما ورد فى التفويض الذى منحه السلطان لابنه الملك السعيد ، إذ جاء فيه : « ولا متبر خطيب إلا بأمرنا ، عيسى » .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ص ٨١ — ٨٥ ،

القلقشندى : صيغ الأعتى ج ١٠ ص ١٦٣ — ١٦٦

ولا تدبير ملك كلى إلا بنا أو بولدنا يُعمل ولا منبر خطيب إلا باسمنا يميس ، ولا وجه درهم ولا دينار إلا بنا يشرق

على أن الملك السعيد ، سرعان ما نقض سياسة أبيه إزاء الخليفة ، حين عمل الأمراء على تفويض سلطته وحاصروه بالقلعة ؛ فاستدعى الحاكم بأمر الله وطلب منه الوقوف على رغبة الأمراء . ولما أخبره بأنهم يرغبون في عزله وإعظاته ولاية الكرك ، أذعن لذلك ثم شهد عليه القضاة والأعيان بالخلع أمام الخليفة ^(١) .

ولما آلت السلطنة إلى بدر الدين سلامش بن يبرس بعد نزول الملك السعيد عن العرش وعين الأمير قلاوون أتابكا له ، صارت السكة تضرب باسمه على أحد الوجهين وباسم قلاوون على الوجه الآخر ؛ وبذلك أسقط اسم الخليفة من السكة ^(٢) .

ولما قبض قلاوون على زمام الأمور في مصر سنة ٦٧٨ هـ منحه الخليفة الحاكم بأمر الله تفويضا بالحكم ، وفيما يلي بعض فقرات منه ^(٣) : . . . الحمد لله الذى جعل الخلافة العباسية بعد القطوب حسنة الابتسام وبعد الشحوب جميلة الاتسام . . وأظهر للسلطان سلطانا اشتدت به للأمة الظهور وشفيت الصدور ؛ وأقام الخلافة العباسية في هذا الزمن بالمنصور ، كما أقامها فيما مضى بالمنصور . . . وأخرج لحياطة الأمة المحمدية ملكا تقسم البركات عن يمينه ، وتقرر الأعداء بفتكاته . . .

وخرج أمر أمير المؤمنين أن يكون للبقر العالى المولوى السلطانى الملكى المنصورى ، أجله الله ونصره ، كل ما فوضه الله . . . لأمير المؤمنين من حكم

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٥٥

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٧٠

(٣) القاشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١١٦ — ١٢٠

في الوجود . . . وفيما فتحه الله وفيما سيفتحه . . . وفي كل تفرد بالنظر في أمور المسلمين بغير شريك .

وقد أوصى الخليفة السلطان قلاوون في هذا التفويض كما جرت العادة بمراعاة العدل والقيام بالجهاد ، وختم تفويضه بقوله : « وأعداء الدين من أرمن وفرنج وتتر ، فأذقهم وبال أمرهم في كل إيراد للغزو وإصدار ، وثر لأن تأخذ للخلفاء العباسيين ولجميع المسلمين منهم الثار ، واعلم أن الله نصيرك على ظلمهم وما للظالمين من أنصار . وأما غيرهم من مجاورهم من المسلمين ، فأحسن باستنقاذك منهم العلاج وطببهم باستصلاحك ، فبالطرب الملكي والمنصوري ينصلح المزاج والله الموفق بمنه وكرمه . »

ومع أن هذا التفويض أكسب قلاوون تأييداً شرعياً لحكمه ، فإنه صار لا يقدم للخليفة الحاكم بأمر الله الاحترام الذي يتفق وصفته الدينية ، وظل نفوذه خاملاً في عهده إلى أن ولي الأشرف خليل بن قلاوون عرش مصر سنة ٦٨٩ هـ فرعى للخلافة حقها ، وسمح للحاكم بأمر الله بالخروج من القلعة ؛ كما طلب منه أن يخطب في يوم الجمعة ١٤ شوال سنة ٦٩٠ هـ بجامع القلعة ، فألقى الخطبة التي قالها في أيام الملك الظاهر بيبرس ، إلا أنه ذكر اسم الملك الأشرف بدل اسمه ، وصار الخليفة منذ ذلك الوقت يخطب في جامع القلعة ويصحب السلطان في الحفلات الرسمية التي تقام في القبة المنصورية . وكان يحضر هذه الحفلات نائب السلطنة والوزير وكبار رجال الدولة ، وتبدأ عادة بتلاوة آي الذكر الحكيم . وقد خطب فيها الحاكم بأمر الله سنة ٦٩٠ هـ خطبة بليغة ، حرص فيها المصريين على أخذ العراق ، كما ألقى في العام التالي خطبة أخرى حث فيها على الجهاد ، وصلى بالناس الجمعة^(١) ، وكان لهذه الخطبة أثرها في نفوس الممالك ، فسارعوا إلى الخروج مع السلطان الأشرف خليل إلى بلاد

(١) القرينى : البلوك ج ١ القيم الثالث ص ٧٧٣ — ٧٧٤ ٧٧٧

السيوطى : حسن المحاضرة : ج ٢ ص ٥٤

الشام حيث وقفوا في وجه الصليبيين بعكاه موقف البطولة والهمة ونجحوا في الاستيلاء على آخر معقل لهم في هذه البلاد .

١ ولم يكن هذا كل ما قام به الخليفة الحاكم بأمر الله ، بل إنه حين أجمع الأمراء على عزل السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٤ هـ وتولية الأمير كتبغا ، أقر عزله لصغر سنة وعدم أهليته للحكم ، ووافق على تعيين كتبغا سلطانا على مصر ومنحه الخلع ، كما أعطاه تقليدا جاء فيه (١) : . . . إن أمير المؤمنين محمد إليك الله الذي جعل له منك سلطانا نصيرا وأقام له بملكك على ما ولاه من أمور خلفه عضدا وظهيرا . . . وجمع بك الأمة بعد أن كاد يزيغ قلوب فريق منهم . . . ويد (السلطان) المبسوطة في إمضاء الحكم بما أنزل الله . . . وفي مصالح الحرمين الشريفين . . . وإقامة سبيل الحجيج . . . وفي عمارة البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه . . . وفي إقامة الخطب على المنابر واقتران اسمه الشريف مع (اسمك) بين كل باد وحاضر . . . وفي سائر ما تشمله الممالك الإسلامية ومن تشتمل عليه شرقا وغربا . . . وشاما ومصرًا وحجازا ويمنا . . . وفوض (إليك) ذلك جميعه وكل ما هو من لوازم خلافة الله في أرضه . . .

٢ ولما آلت سلطنة مصر إلى الملك المنصور لاجين سنة ٦٩٦ هـ ، منحه الخليفة الحاكم بأمر الله تفويضا لا يختلف في معناه عن التفويض الذي منح لزين الدين كتبغا ، وبذلك نال هذا السلطان تأييدا شرعيا لحكمه في وقت كان يتنازع فيه الأمراء على الاستئثار بالسلطة وخاصة بعد خلع السلطان الناصر محمد عن العرش .

ولما كان السلطان لاجين في حاجة إلى تقوية عرشه في مصر ، حرص على اكتساب رضا الخليفة الذي كان الشعب لا يزال ينظر إليه نظرة إكبار وإجلال ، فأمر بأن يتخذ الخليفة الحاكم بأمر الله مناظر الكباش محلا لإقامته

(١) الفقهندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٧ — ٤٢

بدلاً من قلعة الجبل ورتب له ما يكفيه من الأموال ، كما صار يدعو للركوب معه في المواكب ولحضور الحفلات الرسمية ؛ وبذلك عاد الخليفة إلى الظهور في المجتمعات العامة بعد أن عمل كل من بيبرس وقلاوون على عدم اتصاله بخواص الدولة ورجالات الشعب .

ومع أن الخليفة الحاكم بأمر الله قد أقر عزل السلطان الناصر لصغر سنه سنة ٦٩٤ هـ ومنح كلا من كتبغا ولاجين تفويضاً شرعياً بالحكم ، فإنه لم يكن له أى نفوذ في إدارة شئون الدولة ، بل كان جل عمله الموافقة على ما يستقر عليه رأى الأمراء الذين تنازعوا السلطة بعد حلع السلطان الناصر ؛ لذلك لا نعجب إذا رأينا هذا الخليفة يرحب باستعادة الناصر عرشه بعد قتل السلطان لاجين سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٩ م) ويمنحه تفويضاً لم يسبق أن منح مثله عندما ولى "سلطنة سنة ٦٩٣ هـ .

وقد بين خليفة الحاكم بأمر الله في هذا التفويض حرصه على رد الحقوق إلى أهلها . وأحقية الناصر محمد في سلطنة مصر ، كما رسم له الخطة التي ينبغي أن يسير عليها في إدارة شئون البلاد ؛ واليك بعض فقرات (١) منه :

« من عبد الله ووليه الامام الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد أمير المؤمنين إلى السلطان الأجل . . . سلطان الاسلام والمسلمين . . . مبيد الارض والفرنج والتتار ، وارث الملك ، سلطان العرب والعجم ، خادم الحرمين . صاحب القبلتين أبي الفتح محمد قسيم أمير المؤمنين .

أما بعد ، فالحمد لله الذي أقام ناصر الاسلام وأهله بخير ناصر وأحل في السلطنة المعظمة من استحقها بذاته الشريفة وشرف العناصر . . .

إن الله تعالى جعل سجية الأيام الشريفة الإمامية الحاكمة - أدام الله إشرافها - رد الحقوق إلى نصابها وإعادتها إلى مستحقها ولو تبادت الأيام على اغتصابها . . . وكنت أيها السيد العالم ، العادل ، السلطان ، الملك ، الناصر

أولى الأولياء بالملك الشريف ، لما أسلفك من الحقوق ، وما أسلفوه من فضل لا يحسن له الناسى ولا العقوق . . .

وكان ركابك العالى قد سار إلى السكر المحروس وقعدت عنك الأجسام وسافرت معك النفوس : ووثقت الخواطر بأنك إلى السلطنة تعود ، وأن الله تعالى يحدد لك صعودا إلى مراتب السعود . وأقت بها وذكرك فى الآفاق سائر والآمال مبشرة بأنك إلى كرسى مملكته صائر ، فلما احتاج الملك الشريف فى هذه المدة إلى ملك يسر سريره . . . لم يدر فى الأذهان . . . إلا أنك أحق الناس بالسلطنة الشريفة . . . ولا ذكر أحد إلا حقوق بيتك وفضلها ، ولا قال عنكم إلا بقول الله (وكانوا أحق بها وأهلها) لأن البلاد فتوحات سيوفكم ولأن العساكر الإسلامية استرقهم ولاؤك ، ووالوك لأنهم أرقاؤك فلم يقل أحد : أنى له الملك علينا ؟ بل أقر كل منهم لك باليسد وقر بولايتك عينا وأخلصوا فى موالاتك العقائد . . .

وكان أمير المؤمنين قد شاهدك يافعا وشهد خاطره أن ستصير للمسلمين نافعا . . . وبلغه عنك من العدل والإحسان ما أعجز وصفه بلاغى القلم واللسان ، فتاداك نداه على بعد المزار ، ولم يجد لك نظيرا ، فأطال وأطاب لمقدمك السعيد الانتظار إلى أن أقدمت إقدام الليث ، وقدمت إلى البلاد المتعطشة إلى نظرك الشريف قدوم الغيث . . .

ورأى أمير المؤمنين من نجاحك فوق ما أخبرت به مساءلة الركبان . . . فاختارك على علم على العالمين ، واجتباك للذب عن الإسلام والمسلمين . . . وعهد إليك فى كل ما اشتملت عليه دعوة إمامته المعظمة وأحكام خلافته التى لم تزل بها عقود الممالك فى الطاعة منظمة ، وفوض إليك سلطنة الممالك الإسلامية برا وبحرا وشاما ومصر . . . وما سيفتحه الله عليك من البلاد . . . وتقليد الملوك والوزراء وقضاة الحكم العزيز وتأمير الأمراء وتجهيز العساكر والبعوث للجهاد فى سبيل الله ومحاربة من ترى محاربه من الأعداء ومهادنة

من ترى مهادنته منهم وجعل إليك في ذلك كله العقد والحل والإبرام والنقض والولاية والعزل .

فليقلد السلطان الملك الناصر ما قلده أمير المؤمنين . . . وليترق إلى هذه الرتبة التي استحقها بحسبه واسترقها بنسبه . . . فقد أراد أمير المؤمنين القيام في نصرة الدين الخفيف فأقامك أنت مقامه . . .

ولما توفي الحاكم بأمر الله سنة ٧٠١ هـ خلفه ابنه أبو الربيع سليمان الذي تلقب بالمستكني بالله ، ومع أن أباه كان قد ولاه عهد الخلافة قبل وفاته فإن السلطان الناصر رأى ألا يعترف بديعته نظرا لصغر سنه إلا بعد استشارة قاضى القضاة تقي الدين بن دقيق العيد ؛ فلما أقر هذا القاضى صلاحيته للخلافة بايعه السلطان والقضاة . كما منحه خلعة الخلافة ، وخلع على أولاد أخيه خلع الأمراء ، ثم شهد الشهود أنه ولاه جميع ما ولاه والده وفوضه إليه .

وقد بالغ الناصر محمد في إعلاء شأن الخليفة المستكني بالله . فأمر بأن يخطب له على منابر مصر والشام وينقش اسمه على السكة ؛ ولم يكتف بذلك ، بل أنزله هو وأولاده ومن يلوذه في دارين بالقلعة إكراما لهم . كما أجرى عليهم الرواتب الكثيرة . وتوثقت الصلة بين السلطان وبين الخليفة فصارا يخرجان معا للتريض وحضور الحفلات الرسمية^(١) .

ومع أن الخليفة العباسى في القاهرة كان مسلوب السلطة ، فإنه ظل يتمتع بشيء من النفوذ الدينى ، مما حمل السلطان على دعوته للخروج معه في الحملات الحربية ليستعين به في حث المصريين على الجهاد ومواصلة الحرب حتى النصر ؛ فسار الحاكم بأمر الله مع الناصر لمحاربة المغول ببلاد الشام ، ثم عاد كلاهما إلى القاهرة بعد أن أوقع السلطان غازان محمود الهزيمة بالمليك في موقعة مجمع المروج سنة ٦٩٩ هـ .

ولما وصل إلى مصر نبأ معاودة غازان الزحف على دمشق سنة ٧٠٢ هـ .

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٤ ، ٥٧ .

خرج الناصر محمد إلى بلاد الشام بصحبة الخليفة المستكفي بالله ومعهما قضاة المذاهب الأربعة وسائر الأمراء والقراء ؛ وحين اشتبك الفريقان في القتال ، خطب الخليفة في الجنود خطبة قال فيها : « يا مجاهدون ، لا تنظروا لسلطانكم ، قاتلوا عن دين نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وعن حريمكم ، كما ظل القراء يتلون القرآن الكريم أثناء المعركة ويحثون الجنود على الجهاد ويشوقونهم إلى الجنة ^(١) . وكان لهذا المظهر الديني الرائع أثره البالغ في نفوس المصريين ، فازدادت حماسهم في الذود عن بلادهم والتفت جموعهم بالمغول في سهل مرج الصفر بالقرب من دمشق وأوقعوا بهم الهزيمة .

كما تقدم يتبين لنا كيف استغل السلطان الناصر تقديس الشعب لشخصية الخليفة ، فاستعان به في حث المصريين على الجهاد ؛ وكان لهذه السياسة أثرها في وقوف أهل مصر في وجه المغول وقعة رجل واحد . وقد أشار إلى ذلك القاضي علاء الدين بن عبد الظاهر في كتاب « الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر » فقال : ركب مولانا السلطان الملك الناصر . . . بجيوشه التي نهضت بسنن الجهاد وفرضه معتضداً ببضعة من الرسول ، متصرأً بأبن عمه — الذي لا يسمو أحد من غير أهل بيته لشرفه ولا يطول — ملتمساً بركة هذا البيت الشريف الذي طاملاً كان الملائكة من نجده وجنده .

كذلك كان بعض السلاطين يستعين بالخليفة في توطيد دعائم ملكه إذا ما خرج عليه أمراء دولته ، فطلب السلطان الملك المظفر بيبرس الجاشنكير من الخليفة المستكفي بالله سنة ٧٠٩ هـ أن يجدد له عهد بيعة السلطنة حين انحاز فريق من أمراء الشام للملك الناصر محمد بن قلاوون الذي كان يسعى إذ ذاك لاستعادة عرشه بعد أن نزل عنه واتخذ الكرك محلاً لإقامته سنة ٧٠٨ هـ . وما لبث أن حقق الخليفة رغبة السلطان بيبرس ^(٢) ؛ فأقسم له الأمراء يمين

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الأول ص ٩٢٣

(٢) العيني : عقد الحان ص ٢٩ (القسم الأول) ورقة ١٥٢٠

الطاعة بحضرتة ومنحه عهداً جديداً ، وإليك نصه^(١) : « إنا من سليمان وإنا بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى الربيع سليمان بن أحمد العباسي لأمراء المسلمين وجيوشها (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وأنى رضيت لكم بعبد الله تعالى الملك المظفر ركن الدين نائباً عنى لملك الديار المصرية والبلاد الشامية ، وأقته مقام نفسه لدينه وكفاءته وأهليته ورضيته للؤمنين وعزلت من كان قبله بعد على بنزوله عن الملك ، ورأيت ذلك متعيناً على ، وحكمت بذلك الأحكام الأربعة ، واعلموا - رحمكم الله - أن الملك عقيم ليس بالوراثة لأحد خالف عن سالف ولا كابر عن كابر . وقد استخرت الله تعالى ووليت عليكم الملك المظفر ، فمن أطاعه فقد أطاعنى ، ومن عصاه فقد عصانى ، ومن عصانى فقد عصى أبا القاسم ابن عمى صلى الله عليه وسلم ، وبلغنى أن الملك الناصر ابن السلطان الملك المنصور شق العصا على المسلمين وفرق كلمتهم وشنت شملهم وأطمع عدوهم فيهم ، وعرض البلاد الشامية والمصرية إلى سبي الحرير والأولاد وسفك الدماء ، فتلك دماء قد صانها الله تعالى من ذلك . وأنا خارج إليه ومحاربه إن استمر على ذلك ، وأدافع عن حرير المسلمين وأنفسهم وأولادهم لهذا الأمر العظيم . وأقاتله حتى ينزى إلى أمر الله تعالى ، وقد أوجبت عليكم يامعاشر المسلمين كافة الخروج تحت لوائى اللواء الشريف ، فقد أجمعت الأحكام على وجوب دفعه وقاتله إن استمر على ذلك ، وأنا مستصحب معى الملك المظفر فجهزوا أرواحكم والسلام . »

ولم يكن الشعب المصرى مع ما عرف عنه من إحلال الخليفة من نفسه محل الاحترام والالجال يرضخ لكل تفويض يمنحه للسلطان وخاصة إذا أيقن أن هذا التفويض يتعارض مع مصلحته ولا يحقق رغباته . وقد تجلت هذه

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٣ ، المفريزى : السلوك ج ٢ (القسم الأول) ص ٦٢ - ٦٦

الظاهرة عندما قرأ الخطباء على منابر جوامع القاهرة عهد بيعة المستكني للسلطان بيبرس الجاشنكير ؛ فقال العامة على أثر سماعهم اسم الناصر محمد : نصره الله نصره الله ، وكرروا هذه العبارة ولما بلغ القارىء اسم المظفر بيبرس صاحوا قائلين : لا زبده ؛ ولم يقتصر الأمر على ذلك بل قامت في القاهرة بعض الاضطرابات بسبب هذه البيعة (١) .

أما عن موقف الأمراء إزاء الخليفة ، فإنهم كانوا يرون أنه أصبح مجردا من السلطة الزمنية ؛ وقد حدا ذلك ببعضهم إلى عدم احترام عهد البيعة الذي جددته المستكني بالله للسلطان بيبرس الجاشنكير ؛ ولا أدل على صحة هذا القول مما حدث حين وصل إلى مسامع الملك المظفر بيبرس نبأ انضمام كثير من جنده إلى الناصر محمد ، فقد عهد إلى الأمير بهادر جك بأن يسلم عهد الخليفة للأمير برلغى — قائد جيشه في العباسية — ليقرأه على الأمراء والجند . كما بعث معه بكتاب لهذا الأمير فلما قرأ عليه الأمير بهادر جك الكتاب وانتهى إلى قوله : « وإن أمير المؤمنين ولاني تولية جديدة وكتب لي عهدا وجدد لي بيعة ثانية ، فتح برلغى العهد فإذا أوله : « إنه من سليمان ، فقال : « وسليمان الریح ، ثم التفت إلى بها درجك وقال له : قل للسلطان : « والله ما بقي أحد يلتفت إلى الخليفة » (٢) .

وقد أصاب الأمير برلغى بقوله إنه لم يبق أحد يهتم بالخليفة لأن المصريين أعرضوا بين بيعته للسلطان بيبرس وظلوا حريصين على ولائهم للسلطان الناصر رغم عزل الخليفة له بعد نزوله عن العرش ، وكان ذلك مما ساعد على استعادة سلطته .

على أننا نرى أن الخليفة بتجديده بيعة السلطان بيبرس لم يكثرث بميل

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٤

(٢) المقرئى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٦٤ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة .

ج ٨ ص ٦٦٢

الشعب المصري إلى الناصر محمد وتماذى في تأييد سلطنة بيبرس ؛ وكان يحذر
 به أن يعمل على تحقيق رغبة المصريين في عودة الناصر محمد إلى سلطنة مصر
 وينصح لبيبرس بالنزول عن العرش خشية قيام الفتنة ؛ وبذلك يحفظ للخلافة
 كيائها وهيبتها في نفوس الشعب ؛ لكنه بتجديده البيعة للسلطان بيبرس رغم
 كراهة المصريين له ، أضعاف هيئته وعرض نفسه للوم السلطان الناصر محمد
 حين قدم مع الأمراء والقضاة وسائر أهل الدولة لتنهته بعودته إلى عرش
 مصر ، إذ قال له ^(١) : ، كيف تحضر (لتسلم) على خارجي ، هل كنت خارجيا
 وبيبرس كان من سلالة بني العباس ؟ ، فتغير وجه الخليفة ولم يجبه .

ولما استقر الأمر للناصر محمد في مصر بعد نزول بيبرس الجاشنكير عن
 العرش ، عمل على الاستبداد بالسلطة ، كما أضعف من شأن الخليفة حتى
 لا يحاول الاتفاق مع بعض الأمراء على خلعه ، وخاصة أنه كان قد أعلن
 عزله في البيعة التي جدها للملك المظفر بيبرس . وقد ظل الناصر محمد متحاملا
 منه بسبب ذلك ، ولم يزل يعترضه ويكدر عليه صفو حياته حتى أمر بنقله
 من مناظر الكباش إلى أحد الأبراج بقلعة الجبل ^(٢) ، حين رفع إليه قصة
 كتب عليها بخطه « يحضر السلطان لمجلس الشرع الشريف » ^(٣) ، إذ شق عليه
 ذلك واعتقد أنه بعملة شذا يرى إلى الاستئثار ببعض الفوذ . وقد بلغ من
 تماذى السلطان في التضيق عليه أن حال بينه وبين الاتصال برجال
 الشعب ^(٤) .

وقد ظل الخليفة المستكفي بالله معتقلا بالبرج الكبير بقلعة الجبل إلى أن
 شفع فيه بعض الأمراء ؛ فقبل السلطان شفاعتهم وسمح له بالعودة إلى مناظر

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٧٣ ، مرعى المقدسى : تزهة الناظرين
 في تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والصلطين ص ٢٤٦

(٢) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٤٥٣

(٣) مرعى المقدسى : تزهة الناظرين في تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والصلطين ص ٢٤٨

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص القسم الثانى ص ٢٥٠

الكش ؛ غير أنه مالبث أن أمر بنفيه إلى قوص ، فسار إليها مع أولاده وحاشيته (سنة ٧٣٧ هـ) ورتب لهم السلطان كثيراً من المال ^(١) .
على أن إقصاء المستكني بالله عن مقر الخلافة بالقاهرة . لم يحل دون ذكر اسمه في الخطبة ، مع اسم الناصر محمد إلى أن توفي بقوص سنة ٧٤٠ هـ ^(٢) .
ومع أن المستكني بالله كان قد عهد بالخلافة قبل وفاته لابنه أحمد وأثبت ذلك عند قاضي قوص ، فإن الناصر محمد عول على عدم توليته الخلافة لما كان يضمه لأبيه المستكني الذي مال إلى جانب الملك المظفر بيبرس ^(٣) ، وأخبر القضاة عند اجتماعهم بدار العدل برغبته في تولية إبراهيم أخى المستكني ، وطلب منهم مبايعته ، فحاولوا صرفه عنه لعدم أهليته ، ولما عرف عنه من سوء السيرة ، وقالوا له إن المستكني عهد إلى ولده أحمد ، وأيدوا قولهم بالحكم الذى أصدره قاضى قوص . فكتب السلطان يستدعى الأمير أحمد ، فلما قدم إلى القاهرة ، امتنع عن التوقيع على العهد الذى يتضمن بيعته ، ثم بعث في طلب إبراهيم وأخبره بما اتصل بمسامعه من قبح سيرته . فأظهر التوبة وتعهد له أن يصلح حالته ويسلك طريق الخير في أعماله . ومالبث هذا السلطان أن استدعى القضاة وأخبرهم أنه قد أقام إبراهيم في الخلافة . فأخذ قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن جماعة يقنعه بعدم أهليته لها ، فلم يعر الناصر كلامه أى اهتمام وقال : « إنه قد تاب ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وقد وليته فاشهدوا على بولايته » ، فلم يعارضه أحد وخطب ^(٤) له يوم الجمعة ٦

(١) ابن الوردي : ص ٣١٧ — ٣١٨ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٧ ،

ابن لياس : تاريخ مصر ج ١ ص ١٦٩

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٧

(٣) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ١٣٨ (طبعة كاليفونيا)

(٤) ذكر المقدسى (نزعة الناطرين في تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين

ص ٢٤٨) أنه بعد أن ولى الناصر الخلافة لإبراهيم استقر رأيه مع قاضى القضاة عز الدين ابن جماعة على ألا يعطى الخطباء لأحمد وإبراهيم وأن يكتبوا بذكر اسم السلطان في الخطبة ، وورد على ذلك فقال : « ومن هناك انقطعت الخطبة للخلفاء والدعاء لهم على كافة المنابر » .

على أن هذا القول لا يستند إلى أساس من الصحة ، فقد ذكر المقرئى (السلوك =

ذى القعدة سنة ٧٤٠ هـ ولقب الوائق بالله (١).

على أن الناصر محمد لما أحس بدنوا أجله ، ندم على مبايعته إبراهيم بالخلافة وأوصى برد البيعة إلى أحمد بن الخليفة المستكنى وولى عهده (٢). وقد قام بتنفيذ هذه الوصية ابنه المنصور أبو بكر ، فعقد مجلسا على أثر توليته سلطنة مصر سنة ٧٤١ هـ ، دعا اليه الوائق بالله إبراهيم وولى العهد أحمد بن المستكنى والقضاة ، ثم سأهم عن يستحق الخلافة شرعا ، فقال عز الدين بن جماعة إن الخليفة المستكنى أوصى بالخلافة من بعده لابنه أحمد وأشهد عليه أربعين شاهداً بمدينة قوص ، وقد ثبت ذلك عندى بعد ثبوته على نائبى بمدينة قوص وكان لهذه الشهادة التى أدلى بها قاضى القضاة أثرها البالغ فى نفس السلطان ، فخلع الوائق وبايع الأمير أحمد ، ثم حذا حذوه القضاة ، فبايعوه ولقب بالحاكم بأمر الله (٣).

وقد قال ابن فضل الله العمرى فى مبايعة بعض العباسيين بالخلافة فى القاهرة هذه الآيات :

وطار منهم نحو مصر قشعمر قد جاءها كما يجىء الطائر
قال أخى مستنصر ووالدى ووالده وهو الإمام الظاهر

(ج ٢ ص ١٤٨٥) عند كلامه على تولية إبراهيم الخلافة أن الخطباء ظلوا بديار مصر والشام نحو أربعة أشهر لا يذكرون فى خطبتهم اسم الخليفة ؛ ثم زاد هذه المسألة وضوحا ، فقال إنه خطب للوائق فى يوم الجمعة ٦ ذى القعدة سنة ٧٤٠ هـ ، ومن ذلك يتبين لنا أن الخطباء صاروا لا يدعون للخليفة على المنابر منذ وفاة المستكنى بالله فى أوائل شعبان سنة ٧٤٠ هـ إلى أن ولى إبراهيم بن الخليفة الحاكم بأمر الله فى ذى القعدة من هذه السنة .

كذلك ورد فى التلغثندى (صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦١) ما نصه : « وبايع الناصر بالخلافة الوائق بالله أبا اسحق إبراهيم بن الحاكم بأمر الله ، وأمر أن يدعى له على المنابر وتحمل له راية الخلافة ! فجرى الأمر على ذلك » .

(١) القرىزى : السلوك ج ٢ ص ١٤٨٥

الديار بكبرى : الخيس فى أحوال أنفس نفيس ج ٢ ص ٣٨٢

(٢) ابن الصاد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ج ٦ ص ١٧٣

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٨ - ٥٩

فلقبوه مثله مستنصرا وذاك أن جد هذا الناصر
 وكان منه الظاهر السلطان ذا خوف ومن بأسائه يحاذر
 فبايعوا الحاكم بعد أن أتى وفر قالتفت به العشائر
 وهو أبو العباس أحمد الرضى من ولد الراشد نجم زاهر
 وقام مستكف كفافه ربه جميع ما يخاف ناه أمر
 وبعده الواثق إبراهيم لا عاد ولا دارت له الدوائر
 والحاكم الآن أمام عصرنا بشرى لنا إننا له نناصر^(١)

ولما تمت مبايعة الحاكم بأمر الله عقد اجتماع بدار العدل في أوائل سنة ٧٤٢ هـ فوض فيه الخليفة أمور السلطنة للملك المنصور أبي بكر بن الناصر محمد بن قلاوون . وقد حضر هذا الاجتماع القضاة والأمراء ، وجلس الخليفة على الدرجة العليا من التخت وعليه خلعة خضراء ، وعلى رأسه طرحة سوداء مرقومة بالذهب ، وجلس السلطان دونه . ولما التأم عقد المجلس ، خطب الخليفة خطبة افتتحها بقوله : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) وأوصى السلطان بالرفق بالرعية وإقامة الحق ، وإظهار شعائر الإسلام ونصرة الدين ثم قال : فوضت إليك جميع أحكام المسلمين وقلدتك جميع ماتقلدته من أمور الدين (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم) ، ثم ألبس الخليفة السلطان خلعة سوداء وقلده سيفاً عربياً ، وأخذ بعد ذلك القاضي علاء الدين بن فضل الله يتلو تفويض الخليفة للسلطان . ولما فرغ من قراءته ، تناوله الخليفة ، فكتب عليه « فوضت إليه ذلك » ووقع عليه باسمه ، كما كتب القضاة الأربعة شهادتهم بتوليته السلطنة^(٢)

ومن ذلك نرى كيف عمل الملك المنصور أبو بكر على احترام الخليفة .

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٤ - ٦٥

(٢) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ ، السيوطي : حسن المحاضرة

ج ٢ ص ٦٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٩١

بجلوسه دونه في الاجتماع الذي فوض فيه اليه أمور السلطنة . وكان ذلك أكبر عامل بعث في نفوس الشعب وجوب تعظيم الخليفة واحترامه بعد أن أعرض السلطان الناصر عن المستكني وجعله شخصاً عادياً لا نفوذ له . ومع أن الخلافة قد عادت اليها هيبتها بتولية الحاكم بأمر الله أحمد ، فإن هذا الخليفة لم يعمل على الإشتار بأى نفوذ في الدولة ، كما حرص على ألا يقف في وجه السلطان ، بل لم يثبت لدينا أنه عمل في نطاق عهد بيعته الذي جاء فيه (١) : ولم يبق لكم على أمير المؤمنين إلا أن يسير فيكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ويقيم فروض الحج والجهاد ويقيم الرعايا بعدله الشامل في مهاد ويشمل بره سكان الحرمين الشريفين وسدنة بيت الله الحرام ويقيم معونة قيور الأنبياء صلى الله عليه وسلم ، « وأنتم على تفاوت مقاديركم وديعة أمير المؤمنين ، وكلكم سواء في الحق (عنده) وله عليكم أداء النصيحة وإبداء الطاعة »

على أن الحاكم بأمر الله ، وإن لم يكن له — كما قال أبو المحاسن (٢) — من الخلافة إلا اسمها ، فقد ظل يدعى لمبايعة هؤلاء السلاطين الذين تعاقبوا على عرش السلطنة في عهده ، كما اتخذ بعضهم سديلاً لحث جنده على نصرته ضد الخارجين عليه من أمرائه ؛ فقد سار السلطان الصالح صالح بن الناصر محمد بن قلاوون بصحبة الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد (٣) والقضاة الأربعة وسائر الجند إلى بلاد الشام سنة ٧٥٣ هـ حين بلغه نبأ خروج بعض نوابها عليه ، وما لبث أن قضى على فتنهم وعاد إلى القاهرة حيث احتفل باستقباله احتفالاً باهراً (٤) .

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٩ — ٦٤

(٢) المنهل الصافي : ج ١ ص ٧٤

(٣) ذكر ابن خلدون (ج ٥ ص ٤٥٠) أن الخليفة المعتض بالله أبا بكر بن المستكني هو الذي صلب الملك الصالح صالح بن الناصر محمد في الخروج إلى بلاد الشام ، وليس هذا صحيحاً لأن الملك الصالح سار إلى تلك البلاد في شعبان سنة ٧٥٣ هـ ، على حين أن المعتض بالله لم يبايع بالخلافة إلا في أوائل سنة ٧٥٤ هـ أي بعد وفاة الحاكم بأمر الله أبي المباس أحمد (أبو المحاسن : المنهل الصافي ج ٣ ص ٤٧٨ ب — ٤٧٩ ا)

G. Wiet, Les Biographies du manhal Saffi No. 161 p. 23.

(٤) ابن المباس : تاريخ مصر ج ١ ص ١٩٦ — ١٩٧

ولم يكن هناك نظام ثابت لتولية الخلفاء العباسيين في مصر ، فكان أغلبهم يعهد لانه بالخلافة ، كما فعل المستكني ، غير أن الناصر محمد رأى من حقه أن يولى من يشاء ، ومن ثم أقام إبراهيم أخا المستكني . ولما توفى الحاكم بأمر الله سنة ٧٥٤ هـ دون أن يعهد لأحد بالخلافة من بعده ، عقد الأمير شيخون العمرى الناصرى اجتماعا بحضرة السلطان الملك الصالح صالح بن الناصر محمد ، دعا إليه الأمراء والقضاة وبنى العباس المقيمين بمصر ، وبعد أن تناقشوا يمين يولونه الخلافة ، وقع الاختيار على أبي بكر بن المستكني بالله أبي الربيع سليمان ولقب بالمعتضد بالله (١) .

ومع أن المعتضد ولى الخلافة في وقت ساد استبداد الأمراء بشئون الدولة وتنافسهم على السلطة ، فلم يعرف عنه أنه حاول الاستئثار ببعض النفوذ ، بل ظل بعيداً عن المنازعات السياسية ، وأصبح من أهم أعماله مبايعة كل سلطان يلى حكم مصر ، ومنحه خلعة السلطنة التي كانت تعرف إذ ذاك « بالتشريف الخليفى » (٢) .

ولما توفى المعتضد سنة ٧٦٣ هـ آلت الخلافة إلى ابنه أبي عبد الله محمد بعهد منه وتلقب بالمتوكل على الله (٣) ، وخلع عليه بين يدي السلطان الملك المنصور محمد بن الملك المظفر حاجي ، كما فوض إليه الإشراف على المشهد النفيسى (٤) .

وقد بدت في عهد الخليفة المتوكل رغبة من بعض أمراء مصر في الرجوع بالخلافة إلى عهدها الأول . وكان النزاع على السلطة في مصر هو الذى أوحى

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافي ج ٣ ص ٣٧٨ ب — ٤٧٩ ا ، الديار بكرى : الخيس في أحوال أنفيس نفيس ج ٣ ص ٣٨٢
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ١٤٧ ، ١٧٤ ، ١٧٥ —
(طبعة كاليفورنيا)

(٣) أبو المحاسن : المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافى ج ٣ ص ٤٧٩ ا

ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج ٧ ص ٧٨

(٤) المقرئى : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ج ٢ ص ٢٠٣

إليهم بإبراز هذه الفكرة إلى حيز التنفيذ ؛ ذلك أن السلطان الملك الأشرف شعبان ، كان قد خرج مع الخليفة والقضاة الأربعة في أبهة وزينة لأداء فريضة الحج سنة ٧٧٨ هـ (١٣٧٧ م) . فلما وصل ركه إلى العقبة ، حدث بينه وبين المماليك السلطانية خلاف بسبب المال الذي طلبوه منه^(١) ، ثم بلغه بعد قليل أنهم دبروا مع بعض الأمراء مؤامرة لاغتياله ، وكان ذلك مما حمله على الاشتباك معهم ، غير أنه ما لبث أن هزم وهرب إلى القاهرة . ومن ثم اتفق من بقى من الأمراء والمماليك بالعقبة على الاجتماع بالخليفة^(٢) . ولما مثلوا بين يديه قالوا له : « يا أمير المؤمنين تسلطن ونحن بين يديك » ، فامتنع عن قبول السلطنة رغم إلحاحهم عليه وتجهيزهم الخلع الخاصة بها^(٣) ، وقال : « بل اختاروا من شئتم وأنا أوليه » ، ورجع مع القضاة إلى مصر^(٤) . ويرجع السبب في رفضه السلطنة إلى أنه كان يعلم أن الفرصة لم تسنح بعد للعمل على استعادة نفوذ الخلافة ، كما أن الأفكار في مصر لم تكن معدة للقضاء على نفوذ أسرة قلاوون ، وما يؤيد ذلك الرأي أنه بينما كان الأمراء يعرضون السلطنة على المتوكل أثناء إقامته بالعقبة ، استقر الرأي في مصر بعد قتل الأشرف شعبان على تولية ابنه الأمير علي ، ثم بايعه بالسلطنة الخليفة المتوكل على أثر عودته من العقبة . كما احتفل بعد ذلك بقرادة تقليده بإيوان قلعة الجبل ، وخلع على الخليفة^(٥) .

وقد أحسن الخليفة المتوكل صنعا بامتناعه عن قبول السلطنة لأن الأمور في مصر لم تكن مستقرة بسبب تنافس الأمراء على الاستئثار بالنفوذ دون السلاطين الذين أصبحوا ألعوبة في أيديهم ، ذلك أن الأمير أيوبك البدرى

(١) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 101

(٢) ابن إياس : تاريخ مصر ج ١ ص ٢٣٣ ، ٢٣٥

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ٢٣٣ (طبعة كاليفورنيا)

(٤) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٨

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الثاني ص ٢٩٤ - ٢٩٦ (طبعة كاليفورنيا)

ابن إياس : تاريخ مصر ج ١ ص ٢٣٥ ، ٢٣٨

لم يلبث أن استبد بالسلطة على أثر تولية الملك المنصور على بن الأشرف شعبان عرش مصر ، وأصبح مطلق التصرف في شئون الدولة . وقد بلغ من ازدياد نفوذه أن استدعى الخليفة المتوكل على الله وطلب منه أن يقلد الأمير أحمد بن الأمير يلبغا العمري السلطنة ، فاعتذر له بأن الأمير أحمد ليس من بيت الملك ، فحاول أينبك أن يثنيه عن عزمه بقوله : « إنما هو ابن السلطان حسن ، حملت به أمه ، فلما قتل السلطان ، أخذها الأمير يلبغا ، فولدته على فراشه » ؟ غير أن هذا الخليفة — رغم هذا التحايل — أتى أن يجيبه إلى طلبه ، فاستاء منه الأمير أينبك وعاب عليه انصرافه إلى اللعب بالحمام واقتناء الجوارى المغنيات والضرب بالعود ، كما نهى وأمر بنفيه إلى قوص : فأخذ المتوكل يجهز نفسه للسفر ، ثم بعث الأمير أينبك في طلب زكريا بن إبراهيم ابن محمد بن أحمد الحاكم بأمر الله ونصبه خليفة بدل المتوكل من غير مبايعة ولقبه المعتصم بالله ؛ غير أنه ما لبث أن عدل عن نية المتوكل (١) ، ثم أعاده إلى كرسي الخلافة ، وخلع عليه السلطان كما جرت به العادة في ذلك العصر (٢) . ولم يكن الخليفة المتوكل زاهداً في السلطنة ، بل كان يتحين الفرص لإحياء مجد الخلافة القديم . فلما حسن له بعض رجال الدولة طلب الملك بعد تقلص نفوذ سلاطين أسرة قلاوون وتقلد برقوق عرش السلطنة ، راسل الأمراء والعربان بمصر والشام والعراق ، وبث الدعاة في البلاد الإسلامية ليحببوا إلى رعاياها الدخول في طاعته (٣) ؛ هذا إلى أنه قد وصل إلى مسامع برقوق أن الخليفة المتوكل اتفق مع الأمير قرط بن عمر التركاني ، وإبراهيم ابن قطلوتمر العلاني وجماعة من الأكراد والتركمان على تدبير مؤامرة لاغتياله وتنصيبه سلطاناً بدله (٤) مما كان له أسوأ الأثر في نفس برقوق ، فبعث في طلب

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١٠٦

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الثاني ص ٣٠١ ، الديار بكرى : الخبيس

في أحوال أمس نفيس ج ٢ ص ٣٨٣

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٧ — ٦٨

(٤) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١٤٢

الخليفة المتوكل ومن انحاز إلى جانبه من الأمراء . ولما مثلوا بين يديه أخذ يسأل كلامهم عما بلغه عنه ، فقال قرط : « الخليفة طلبني وقال (لى) إني لم أأخذ برقوا السلطنة إلا غصباً . وقد أخذ أموال الناس بالباطل ؛ وطلب مني أن أقوم معه وأنصر الحق . فأجبتني إلى ذلك ووعدته بالمساعدة وأن أجمع له ثمانمائة فارس من الأكراد والتركمان وأقوم بأمره » ثم وجه السلطان كلامه إلى الخليفة ، فقال : ما قولك في هذا ؟ . فرد عليه المتوكل بقوله : « ليس لما قاله صحة » ، فسأل السلطان الأمير إبراهيم بن قطلوتمر عن ذلك ، فقال : « ما كنت حاضراً هذا الاتفاق . لكن الخليفة طلبني إلى بيته بجزيرة الفيل وأعلنني بهذا الكلام وقال لى : إن هذا مصلحة ورغبني في موافقته والقيام لله تعالى ونصرة الحق ، فأنكر الخليفة ما قاله إبراهيم ؛ واشتد حنق السلطان على المتوكل وصل السيف ليضرب به عنقه ؛ غير أن سودون نائب السلطنة الذى كان حاضراً إذ ذاك سرعان ما حال بينه وبين الخليفة ^(١) ، وما زال به حتى هدأ من غضبه ، لكن السلطان — رغم ذلك — ظل قائماً عليه وعول على إقصائه عن الخلافة ؛ فعزله وزجه في السجن بقلعة الجبل ، ثم وقع اختياره على عمر بن إبراهيم عم المتوكل ، فولاه الخلافة وتلقب بالوائق بالله ^(٢) . ولم يزل الأمراء يشفعون في الخليفة المتوكل عند السلطان برقوق حتى أمر بفاكه قده سنة ٧٨٥ هـ وسمح له بالإقامة بإحدى دور القلعة ^(٣) . وظل الوائق بالله يلى أمور الخلافة إلى أن توفي سنة ٧٨٨ هـ ، فتحدث بعض رجال الدولة مع برقوق في إعادة المتوكل ، لكنه أبى واستدعى زكريا ابن الخليفة المعتصم بالله إبراهيم وبايعه بالخلافة ، ولقب بالمستعصم بالله وخلع عليه السلطان خلعة الخلافة ، كما عهد إليه بالإشراف على المشهد النفيسى ^(٤) .

(١) ابن حجر العسقلاني : أنباء القمر بأبناء العمر : ج ١ ورقة ٢٠٠

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الثانى ص ٣٧٣ — ٣٧٤

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١٥٦ ب — ١٥٧ ا

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٧ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥

القسم الثانى ص ٣٨٢ — ٣٨٣

وقد أثار خلع المتوكل من الخلافة ^(١) كراهة بعض رجال الدولة للسلطان برقوق ، حتى أن يلبغا الناصري نائب حلب خرج على طاعته واتخذ من عزله الخليفة سلاحا شهره ضده . كما أذاع في بلاد الشام ، ما ألحقه هذا السلطان من الإساءة للخليفة ، فنفرت القلوب منه ^(٢) ، وما زال نفوذ الأمير يلبغا في ازدياد حتى كثر أتباعه واستولى على بعض القلاع والمدن في البلاد الشامية . ولمع اشتد خطر يلبغا الناصري وأوشكت عساكره على دخول مصر عول السلطان برقوق على إعادة المتوكل إلى الخلافة ^(٣) ، فاستدعاه لمقابلاته . فلما مثل بين يديه قام له السلطان ورحب بلقائه ، واعتذر له عما وقع منه ^(٤) ثم بعث إليه بعشرة آلاف درهم وبعض الأقمشة الصوفية والحريرية . وبعد شهرين عقد السلطان اجتماعا حلف فيه القضاة كلا من المتوكل وبرقوق للآخر على الموالاة والمصالحة ^(٥) ، ثم خلع السلطان على الخليفة خلعة الرضى ، وأمر بأن تعاد إليه إقطاعاته ورواتبه ، كما أذن له في النزول إلى داره وأخلى له بيتا بقلعة الجبل . وفي ١٢ جمادى الأولى سنة ٧٩١ هـ أقام برقوق بمشهد السيدة نفيسة احتفالا قريء فيه تقليد المتوكل بحضور القضاة ونائب السلطنة ^(٦) .

على أن إعادة المتوكل إلى منصبه لم يكن لها أى أثر في تهدئة الفتنة التي أثارها الأمير يلبغا الناصري الذي دخل القاهرة على رأس جيش كبير وانضم إليه كثير من أتباع السلطان برقوق ، فاضطر هذا إلى الفرار من التامة وظل محتفيا إلى أن قبض عليه وسجن بالسكر ^(٧) .

-
- (١) ذكر أبو المحاسن (المنهل الصافي ج ٣ ص ٩٢) أن خلع المتوكل من الخلافة ، كان من الأمور التي احتج بها يلبغا على برقوق لما خرج على طاعته .
- (٢) الديار بكري : الخيس في أحوال أنفس نفيس ، ج ٢ ص ٣٨٣
- (٣) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٣٤٣
- (٤) ابن لياس : تاريخ مصر ج ١ ص ٢٧٢
- (٥) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ١٧٠ ، ابن حجر العسقلاني : أنباء القوم بأنياب العمر ج ٢ ورقة ٢٧٨
- (٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الثانى ص ٣٩٨ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤
- (٧) ابن لياس : تاريخ مصر ج ٢ ص ٢٧٢ — ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٤٧٧

ولما استقر الأمر ليلغا الناصري بالقاهرة ، اجتمع بالخليفة والأمراء بقلعة الجبل (١) ، وقال للمتوكل : « يامولانا أمير المؤمنين ما ضربت بسيفي هذا إلا في نصرتك » ثم أخذ بعد ذلك بشاورهم فيمن يصلح لسلطنة مصر ، فأظهر المتوكل زهده في الملك ، وأشار بإعادة الملك الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان (٢) . أما الأمراء فقد ألح أكثرهم على الناصري في قبول السلطنة ، لكنه رفض وأيد أحقية الملك الصالح أمير حاج في استعادة عرشه ومن ثم استدعاه الأمراء وأجلسوه على عرش السلطنة ، ولقب بالملك المنصور كما فوض إليه الخليفة المتوكل على الله النظر في أمور رعاياه (٣) .

وكان سلاطين مصر رغم وثوقهم من ضعف سلطة الخلفاء العباسيين يحرصون على أن يمنحهم الخليفة تفويضا بالسلطنة ليكسبوا حكمهم صفة شرعية : وفي ذلك يقول ابن شاهين (٤) (١٤١٠ - ١٤٦٨ م) : لا يجوز أن يطلق على أحد لفظ سلطان إلا إذا بايعه الخليفة « وأفتت بعض الأئمة أن من أقام نفسه سلطاناً قهراً بالسيف من غير مبايعة منه يكون خارجياً ولا يجوز توليته أحد من النواب والقضاة ، وإن فعل شيء من ذلك ، كان جميع حكمهم باطلاً » .

وقد زاد على ذلك ابن شاهين فقال : « لا يطلق لفظ سلطان إلا لصاحب مصر ، فإنه الآن أعلى الملوك وأشرفهم لرتبة سيد الأولين وآخرين وتشرفه من أمير المؤمنين بتفويض السلطنة له على الوجه الشرعي بعقد الأربعة أئمة » ولم يكن لاهتمام السلاطين بأخذ تفويض من الخليفة العباسي بالقاهرة

(١) لم يشر أبو المحاسن (النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الثاني ص ٤١٨ -) إلى حضور الخليفة هذا الاجتماع .

(٢) ابن حجر العسقلاني : أنباء القمر بأبناء العمر ج ١ ورقة ٧١٥ ، السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٨

(٣) ابن حجر العسقلاني : أنباء القمر بأبناء العمر ، ج ٢ ورقة (٢٧٨ - ٢٧٩) ، المقرئ : السلوك ج ٣ ص ١١٨٦

(٤) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ص ٨٩

أى أثر فى خضوعهم له ، بل ظلوا محتفظين بمكانتهم ، وسلطتهم الزمنية . وقد أشار إلى ذلك القلقشندى (١) بقوله : « والذى استقر عليه حال الخلفاء بالديار المصرية أن الخليفة يفوض الأمور العامة إلى السلطان ويكتب له عنه عهد بالسلطنة . . . ويستبد السلطان بما عدا ذلك من الولاية والعزل وإقطاع الإقطاعات حتى للخليفة نفسه ويستأثر بالكتابة فى جميع ذلك . »

١ ولم تبد أية محاولة من سلاطين مصر للقضاء على نظام الخلافة ، بل ظل كل منهم يعنى بإقامة الخليفة ليلجأ إليه فى تأييد سلطته إذا ما حاول أبى فرد أن ينتقصها أو أن يسلبه عرشه . وقد أدى هذا الأمر ببعضهم إلى التدخل فى تولية الخلفاء وعزل من ينحرف عنهم ، كما أن الخلفاء أنفسهم لما رأوا أن السلاطين أصبحوا يعتمدون عليهم فى إكساب حكمهم صفة شرعية ، صاروا لا يولونهم إحترامهم ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل انحاز بعضهم إلى جانب الأمراء ، كما فعل الخليفة المتوكل على الله مع الأمير بلبغا الناصرى الذى خرج على السلطان برقوق ، إذ سارع إلى مقابلته ورحب بقدومه إلى مصر ، وأشار عليه بإعادة الملك الصالح أمير حاج إلى السلطنة ؛ على أن هذا الخليفة سرعان ما عدل عن موقفه فحدد عهد السلطنة والتفويض للظاهر برقوق سنة ٧٩٣ هـ بعد عودته إلى القاهرة وشهد عليه بذلك القضاء (٢) .

١ ولم يكن الخلفاء العباسيون فى عهد أسرة قلاوون مطلق الحرية بل حيل بينهم وبين الاتصال برجال الدولة فى كثير من الأحيان ، كما ظلوا مسلوبي السلطة رغم اضمحلال نفوذ أبناء السلطان الناصر وحرص الشعب على التمسك بأهداب الخلافة .

ولم تكن مراتب الخلفاء من الوفرة بحيث تساعدهم على الظهور بالمظهر اللائق بهم ، فقد خصصت لهم حكومة المالك مبالغ معينة يأخذونها من

(١) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ج ٣ ص ٢٧٥ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ١٢١٠ ، ابن لياس : تاريخ مصر ج ١ ص ٢٨٩ .

المكوس المفروضة على الصاغة (١) ، كما كانوا يمنحون « رسم المبايعة » ، ومقداره ألف دينار (٢) ، وعهد إلى بعضهم الإشراف على مشهد السيدة نفيسة ، ليستعينوا بما يرد إلى ضريحها من الذور على تيسير سبل معيشتهم . فيذكر المقرئ (٣) أن الخليفة المعتضد بالله تحسنت حاله بما يبيعه من الشمع الذي كان يرد إلى المشهد النفيسى .

من ذلك نرى أن الخلفاء لم يكونوا في أواخر عهد أسرة قلاوون في سعة من العيش الأمر الذي اضطرهم إلى قبول أعمال لا تتناسب مع مركزهم ليهيئوا لأنفسهم مورداً جديداً يدر عليهم المال . وكان يجدر بسلاطين مصر وأمرائها أن يمنحوا الخلفاء مرتبات تتفق وما لمركزهم الدينى من إكبار وإجلال . على أن موقف سلاطين مصر من الخلفاء العباسيين في القاهرة مالمثل أن تبدل بعد زوال نفوذ أسرة قلاوون إذ عدل السلطان برقوق بعد خروج يلبغا الناصرى عليه عن سياسة العنف التى اتبعها إزاء الخليفة المتوكل وتعالى في احترامه ، ولا أدل على ذلك مما أورده القلقشندى (٤) : « كان المتوكل إذا حضر إلى مجلس السلطان برقوق قام نه « ربما مشى إليه خطوات ، وجلس على طرف المقعد وأجلس الخليفة إلى جانبه ، ، كما احتفظ له بمكانة سامية في الدولة ، فعينه حين أحس بدنو أجله ناظراً على الأوصياء الذين عهد إليهم بالوصاية على ابنه فريج (٥) ؛ وبذلك استعاد هذا الخليفة بعض ما كان له من نفوذ علت مكانته وأصبح موضع احترام وإجلال رجال الدولة على اختلاف مراتبهم :

وكان الأمراء في مصر يرون بقاء أبناء السلطان الناصر محمد في السلطنة رغم ضعفهم وذلك تمشياً مع مصلحتهم الخاصة ، حتى يتيسر لهم الاستئثار

(١) المقرئ : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ج ٢ ص ٢٤٣

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الثانى ص ٣٩٨

(٣) الخطط ج ٢ ص ٢٤٣

(٤) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٧

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الثالث ص ٩٦ (طبعة كاليفورنيا)

وبالتفوذ دونهم . فلما انسحل الحكم من بيت قلاوون بدأ فريق منهم يشعر أنه لم يعد من مصلحتهم إبقاء نظام الحكم في مصر على ما هو عليه ، وخاصة أن السلطان برقوق لم يكن من بيت الملك ، ومن ثم دبرت المؤامرة التي أشرنا إليها للتخلص من هذا السلطان وتقليد الخليفة المتوكل عرش السلطنة .

على أن هذه المحاولة - رغم فشلها - أحييت فكرة إعادة مجد الخلافة القديم ، ذلك أنه لما سار السلطان الناصر فرج إلى بلاد الشام بصحبة الخليفة المستعين بالله بن المتوكل على الله لمحاربة الأمير نوروز الحافظي نائب طرابلس والأمير شيخ المحمودي نائب حلب ، اللذين خرجا على طاعته وحذفا اسمه من الخطبة بدمشق سنة ٨١٣ هـ ، ودارت بين الفريقين معركة باللجون ، انتهى الأمر فيها بهزيمة الناصر فرج وفراره بمن بقي معه من الجند إلى دمشق ، أشار كاتب السر فتح الله على الخليفة - أثناء إقامته باللجون - أن ينشر عليه الأسود إعلاناً بحمايته لهم . ثم قدم صاحب ديوان الأمير شيخ إلى المستعين بالله وسار به إلى الأمراء .

ولما بلغ الأميرين شيخ ونوروز أن السلطان الناصر فرج تحصن بدمشق بعثا في طلب كاتب السر واستشاراه فيما يعملان ، فقال : « ما هكذا يقاتل السلطان ! ؟ » وعاب عليهما عدم الانقياد إلى أحد الأمراء واختلاف كلمتهم . ثم أشار عليهما بتقليد الخليفة عرش السلطنة ، وأيد وجهة نظره بأنه لن يتجاسر أحد على الخروج عليه ، غير أن الخليفة اشترط احتفاظه بالخلافة إذا خلع من السلطنة . فأجيب إلى طلبه وبايعه الأمراء وأقسموا أن يظلوا أوفياء له ، ونادى منادى الخليفة « ألا إن فرج بن برقوق قد خلع من السلطنة ومن حضر إلى أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين فهو آمن » ، فانصرف الناس عن الناصر (١) ، وبعث أمير المؤمنين المستعين بالله إلى مصر رسالة تتضمن اجتماع كلية الأمراء على تنصيبه سلطاناً ، وأنه خلع الناصر (٢)

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٨

(٢) المقرئزي : السلوك ج ٤ ص ٢٧٣ - ٢٧٣ ب

وصارت كتب المستعين بالله تفتتح بهذه العبارة : « من عبد الله ووليه الإمام
المستعين بالله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين وابن عم سيد المرسلين
المفترضة طاعته على الخلق أجمعين ، أعز الله ببقائه الدين ^(١) . »
وقد نظم الحافظ ابن حجر في تولية المستعين بالله السلطنة قصيدة
جاء فيها ^(٢) :

الملك أصبح ثابت الأساس	بالمستعين العادل العباسي
رجعت مكانة آل عم المصطفى	لمحلبها من بعد طول تناسي
ثاني ربيع الآخر اليمون في	يوم الثلاثاء حف بالأعراس
بقدوم مهدي الأنام أمينهم	مأمون غيب طاهر الأنفاس
.....
ومناقب العباس لم تجمع سوى	لحفيدته ملك الوري العباسي
لا تنكروا للمستعين رياسه	في الملك من بعد الجحود الناسي

ولما تقلد المستعين بالله سلطنة مصر ، صار يدعى له فوق بئر زمزم كل
ليلة ، وعلى منابر مكة والمدينة يوم الجمعة ؛ ولم يدع بهما لأحد من الخلفاء
العباسيين بالقاهرة إلا للمستعين . وكان آخر من دعى له على منابر الحجاز
من بني العباس الخليفة المستعصم بالله ؛ فلما قتله هو لاكو سنة ٦٥٦ هـ ، أبطل
الدعاء للعباسيين بالحرمين ^(٣) .

وكان لنبا تقليد المستعين بالله عرش السلطنة رنة فرح وسرور في مصر ؛
فلما قدم إلى القاهرة من بلاد الشام بعد مقتل الناصر فرج ، تلقاه الناس
بمظاهر الحفاوة ، وسار إلى قلعة الجبل وبين يديه الأمراء في طريق مزين
بمختلف الزينات ، ثم نزل بالقصر ولم يخلع على أحد عند قدومه كما جرت

(١) القرطبي : السلوك ج ٤ ص ٢٧٥

(٢) السيوطي حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٩ — ٧٠

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٠

عادة السلاطين بذلك ، وأقبل الناس إلى باب الأمير شيخ سعيّاً وراء الوظائف . ولم يكن للخليفة من يقوم بخدمته إلا حاشيته التي كانت معه قبل أن يعتلي عرش السلطنة (١) .

ولما استقر أمير المؤمنين المستعين بالله بقصره ، قدم إليه الأمير شيخ ومعه الأمراء ورجال الدولة ؛ فخلع الخليفة على الأمير شيخ خلعة بطراز عظيمة القيمة ، وفوض إليه الحكم بالديار المصرية ، كما سمح له أن يولى ويعزل دون أن يراجعه أو يشاوره في ذلك (٢) .

على أن الأمير شيخ لم يلبث أن عهّد إلى الاستئثار بالنفوذ ، فخلع على دوا داره الأمير جقمق وعينه دوا داراً للخليفة ، كما أسكنه بقلعة الجبل حتى لا يتمكن المستعين بالله من التوقيع على المراسيم ، إلا بحضور هذا الأمير ولا يتيسر لأحد الاجتماع به إلا وهو معه ؛ فاستاء الخليفة من ذلك (٣) .

ولم يكتف الأمير شيخ بتلك السلطة المطلقة التي منحها له الخليفة ، بل سرعان ما بدا له أن يتسلطن ويخلع المستعين بالله ؛ وقد ساعده على تحقيق رغبته فتح الله كاتب السر الذي قال في مجلس ضم القضاة الأربعة وسائر الأمراء وكبار رجال الدولة : إن الأحوال مضطربة ، ولم يعهد أهل مصر خليفة يتقلد السلطنة ، وأن الأمور لن تستقر إلا بتولية سلطان وفقاً للنظام الذي ساد في تلك البلاد ، ثم دعاهم إلى تنصيب الأمير شيخ ، فقال الأمير : « هذا أمر لا يتم إلا برضى أهل الحل والعقد » . فقال الأمراء : نحن راضون بالأمير الكبير (٤) ، ثم مد قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن بن البلقيني

(١) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٢٧٥ ب

(٢) السيوطى : حسن المخاضرة ج ٢ ص ٧٠

(٣) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٢٧٦ أ

(٤) لم يشر ابن لمياس (ج ١ ص ٢٥٨) إلى حديث فتح الله كاتب السر ؛ لكنه ذكر أن الأمير شيخ لما طمع في السلطنة ، دعا القضاة الأربعة وسائر الأمراء إلى اجتماع ، وكتب محضراً أعلن فيه : « أن هربان الشرقية والشرقية قد خرجوا من الطاعة وكثر الفساد في البر والبحر واضطربت الأحوال وأن الوقت محتاج لإقامة سلطان تركى له سيطرة . يقع أهل الفساد وتنصلح الأحوال على يده »

بلده وبايعه وحذا حذوه سائر الأمراء والقضاة .

ولما استقر الأمر للأمير شيخ بعث القضاة إلى الخليفة ليطلبوا منه أن يفوض إليه السلطنة ، فاجتمعوا به وسألوه أن يلبي هذه الرغبة ، لكنه أظهر تعنتاً في أول الأمر ، وامتنع عن إجابة طلبهم ثم اشترط لتنفيذ هذا الطلب أن يؤذن له في النزول من القلعة إلى داره وأن يحلف له السلطان « بأن ينصحه سرّاً وجهراً ويكون سلماً لمن سلمه ، حرباً لمن حاربه » ولما وقف السلطان شيخاً على رغبة الخليفة ، قال للقضاة « فيتمهل علينا أياماً ، فالآن لا يمكن نزوله إلى بيته ^(١) » ، ثم نقله من القصر إلى إحدى دور القلعة ، ووكل به من يمنعه من الاجتماع بالناس ^(٢) .

وهكذا سلب الخليفة سلطته الزمنية وأهمل شأنه وعاد نظام الحكم في مصر إلى ما كان عليه في عهد أسرة قلاوون ؛ ويرجع السبب في ذلك إلى تهاون المستعين بالله في حقوق السلطنة ، ومنحه سلطات واسعة للأمر نوروز بياد الشام والأمير شيخ بمصر الذي ما لبث أن استغلها لمصلحته وأغرى بعض رجال الدولة بالانحياز إلى جانبه ، ولو أن المستعين بالله استغل ترحيب الشعب به وتقديسه لشخصيته وقبض على زمام الأمور في البلاد وأضعف من نفوذ الأمير شيخ لأصبح من الهين عليه استعادة نفوذ الخلافة ومجدها القديم ؛ لكنه بإطلاقه يد الأمير شيخ في شئون الدولة أفقد الخلافة ما استردته من حقوقها في عهده وأبقاها خاملة الذكر .

ولم تقف المحاولات التي دبرت لتقليد الخلفاء العباسيين بالقاهرة سلطنة مصر عند هذا الحد ، بل انضم القائم بأمر الله إلى الجند الذين خرجوا على طاعة الأشرف إينال طمعاً في الوصول إلى السلطنة . ولما حلت الهزيمة بالجند ، ولم ينل الخليفة من وراء انضمامه اليهم شيئاً استدعاه السلطان إلى القلعة وعاتبه على موقفه العدائي نحوه . فقال له الخليفة : « خلعت نفسي

(١) المقرئ : السلوك ج ٤ ص ٢٧٨ - ٢٧٨ ب

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٠

وعزلتك ، ولما علم بذلك قاضى القضاة علم الدين البلقينى — وكان حريصاً على نقل الخلافة إلى يوسف أخى الخليفة لكونه زوج ابنته — قال : قد بدأ بخلع نفسه فأنخلع وثى بخلع السلطان وهو غير خليفة فلم ينفذ عزله ، ثم حكم بصحة خلعه من الخلافة سنة ٨٥٩ هـ ، وبايع أخاه أبا المحاسن يوسف . (١)

٢ — موقف العالم الإسلامى من الخلافة العباسية بمصر

كان للخلفاء العباسيين فى القاهرة مكانة سامية فى نفوس كثير من الحكام المسلمين . فلما تبين لمحمد بن تغلق (٢) ملك هندستان أنه ليس هناك ملك أو أمير يستطيع استخدام حقه الشرعى بدون تفويض من الخليفة العباسى ، شرع فى استقصاء أخبار بنى العباس من الرحالة (٣) وما لبث أن وجد ضالته المنشودة بمصر . فتبادل الرسائل مع الخليفة العباسى المستكفى بالله وطلب منه تقليداً . وقد بالغ محمد بن تغلق فى احترام هذا التقليد وبعث إلى الخليفة بالهدايا ، كما أمر بذكر اسمه فى الخطبة (٤) ، وقرر أن يقال — عند الدعاء للملوك فى الخطبة — إنهم يحكمون بتفويض من الخليفة ، كما حذف من الخطبة أسماء الملوك الذين لم ينالوا تفويضاً ، وألغى تلقيب الملوك بلقب متغلب (٥) .

كذلك أصدر محمد بن تغلق أوامره بنقش اسم الخليفة العباسى على السكة مقروناً بكثير من المدائح (٦) ، وظل اسم المستكفى رغم وفاته سنة ١٣٤٠ م ينقش على عملته إلى سنة ١٣٤٣ م مصحوباً بهذا الدعاء : « أطل الله بقاء الخليفة » (٧)

(١) سيوطى : حن المحاضرة ج ٢ ص ٧١ — ٧٢

(٢) كان أبوه السلطان غياث الدين تغلق شاه من الأتراك المعروفين بالقرونة الذين يقطنون بالجبال التى بين بلاد السند والترك

ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار ج ٢ ص ٣٠ — ٣١

(٣) Eliot The History of India. vol III p.642

(٤) Arnold, The Caliphate—p. 104.

(٥) Eliot, The History of India. vol III, p. 250.

(٦) Eliot, The History of India vol III, p. 249.

(٧) Arnold, The Caliphate, p. 105.

وكان من أثر حرص محمد بن تغلق على إظهار ولائه للخليفة العباسي في القاهرة أن أرسل إليه الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكن بالله خلعة مع سفيره حاجي سعيد صرصري (Haji Sa'id Sarsari). ولما قدم هذا السفير إلى دلهي سنة ٧٤٤ هـ (١٣٤٣ م) خرج إليه السلطان بصحبة النبلاء وقابله بمظاهر الحفاوة والاحترام^(١)، ثم تقدمه في السير عارى القدمين مسافة غلوة سهم مبالغة منه في احترامه؛ وما لبث محمد بن تغلق أن بعث إلى الخليفة كتابا ينبئه فيه بتبعيته له. وظل يتبادل معه الرسائل مدة عامين حتى أنفذ إليه الحاكم بأمر الله تقليداً بالحكم^(٢).

وقد بلغ من تغلق السلطان محمد بن تغلق بأهداب العباسيين وإجلاله إياهم أن الأمير غياث الدين محمد سليل الخلفاء^(٣) لما اتصل بمسامعه عطف هذا السلطان على العباسيين وقيامه بدعوتهم رغب في القدوم عليه وبعث له برسولين ليتحدثا معه في ذلك؛ فأكرم محمد بن تغلق وفادتهما ومنحهما خمسة آلاف دينار، كما بعث معهما بثلاثين ألف دينار ليتزود بها الأمير علاء الدين في رحيله، وكتب إليه خطاباً بخط يده، يعظمه فيه ويسأله القدوم عليه، ثم بعث الأمراء لاستقباله بمسعود أباد، كما خرج هو بنفسه لهذا العرض. فلما التقياً ترجل كل منهما للآخر، وتعالى السلطان في احترامه؛ فأمسك بركاب جواده حتى ركب، ثم ركب بعده، وسار إلى جانبه، وتحدثا سوياً؛ ومما قاله محمد بن تغلق للأمير غياث الدين: «لولا أني

(١) Allan, Cambridge shorter History of India p. 240.

(٢) Eliot, The History of India vol III p. 249-250

(٣) كان الأمير غياث الدين محمد بن عبد القاهر بن يوسف بن عبد العزيز ابن الخليفة المستنصر قد وفد على السلطان علاء الدين ترهشيرين ملك بلاد ما وراء النهر، فأكرمه وأعطاه الزاوية التي على قبر قثم بن العباس وظل تحت حمايته إلى أن سمح له محمد بن تغلق بالقدوم عليه.

ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ج ٢ ص ٤٥

Allan, Cambridge Shorter History of India p. 237.

بايعت الخليفة أبا العباس لباعتك ، ، فقال له غياث الدين : ، وأنا أيضا على تلك البيعة ، ، ثم قال : ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من أحيا أرضا مواتا فهي له) ، وأنت أحيينا ، ، فتلطف السلطان في التحدث معه وظل موضع عنايته واحترامه حتى أنزله بدار الخلافة في القصر الذي بناه علاء الدين الخلجي وابنه قطب الدين ، وأعد له فيه ما يحتاج إليه من أواني الذهب والفضة ، وبعث إليه بعض الفتيان والخدم والجواري ، كما خصص ثلثمائة دينار كل يوم لمفقائه ، وأقطع له مدينة سيري Siri وجميع ما احتوت عليه من لدور وما يتصل به من بساطين وأعطاه مائة قرية ، وعهد إليه حكم البلاد الشرقية المضافة لدلهي . وأمر الناس جميعا أن يكونوا في خدمته كما هم في خدمة السلطان (١) .

كذلك هذا فيروز شاه Firūz Shah سلطان هندستان (١٣٥١ - ١٣٨٨ م) حدو محمد بن تغلق في الحرص على الالتجاء إلى الخليفة العباسي بالقاهرة لإكساب حكمه صفة شرعية . فأرسل إلى المعتضد بالله يطلب منه تفويضا بالحكم . فأجاب الخليفة طلبه وبعث إليه بخلعة مماثلة للخلعة التي أرسلت لمحمد ابن تغلق وخطابا يتضمن كثيراً من عبارات المجاملة والاحترام ، كما أرسل إليه تقليداً بالحكم وذلك سنة ١٣٥٦ م (٢) .

وقد تحدث فيروز شاه في ترجمة حياته التي كتبها عن وجهة نظره في إذعانه للخليفة العباسي بالقاهرة (٣) فقال : ، كان من أعظم ما نلته من رحمة الله . أنه بفضل طاعتي وتقواي وصداقتي للخليفة يمثل النبي ، توطدت سلطتي . فبتأييده تحمي سلطة الملوك . ولا يصبح أي ملك آمناً على مملكته إلا بعد أن يذعن للخليفة وينال تثبيتاً من العرش المقدس . وقد أرسل الخليفة عهداً

(١) ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ج ٢ ص ٤٥ - ٤٦

(٢) Eliot, The History of India vol III pp. 342, 343

Allan, The Cambridge shorter History of India p. 246.

Arnold, The caliphate. p. 105. (٣)

بتثبيت سلطتي ككاتب له ومرشد للمؤمنين . وإني لفخور بأن يلقبني الخليفة
بسيد السلاطين . كذلك أنعم على بخلع ولواء وسيف وخاتم . وهذه كلها
تمثل شعار الشرف ، (١) .

ولم يكن ملوك هندستان هم الذين لجأوا وخدمهم دون غيرهم من ملوك
الهند إلى الخليفة العباسي بالقاهرة لتأييد حكمهم ، بل حقق المعتضد بالله
ابن المستكن بالله رغبة باهمان شاه Bahman Shah ، ملك بلاد الدكن ؛
فاعترف به ملكاً على تلك البلاد سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٦ م) (٢) ، كما لبى المعتضد
بالله داود بن المتوكل على الله طلب السلطان جلال الدين أبي المظفر محمد شاه
بن قندو (٣) ملك بنغاله Bengal — الذي عمل على نشر شعائر الإسلام في
مملكته وأرغم عدداً كبيراً من الهندوس على اعتناق هذا الدين (٤) — فبعث
إليه تفويضاً وخلعه . وقد سر السلطان جلال الدين بالخلعة التي منحها له
الخليفة وأنفذ إليه هدية جلية سنة ٨٣٤ هـ (٥) .

كذلك وجد بعض الأمراء المسلمين في الخليفة العباسي بالقاهرة ضالتهم
المنشودة لمنحهم تفويضاً شرعياً بالحكم في ولاياتهم التي استولوا عليها بالحدية
أو القوة . ومن هؤلاء مبارز الدين محمد بن مظفر ، مؤسس الدولة المظفرية
في جنوب فارس (١٣١٣ — ١٣٩٣ م) الذي أعرض عن تحالفه مع ايلخان
المغول وشرع في القيام بالفتح ، وأقسم بمين الطاعة للخليفة المعتضد بالله
سنة ١٣٥٤ م . كما أمر بذكر اسم هذا الخليفة في الخطبة بعد استيلائه على تبريز
سنة ١٣٥٧ م . ولما خلفه ابنه شاه شجاع Shah Shuja ، حذا حذوه في

(١) Eliot, The History of India vol III, p. 387.

(٢) Allan, The cambridge shorter History of India p.246

(٣) Wiet, Les Biographies du manhal safi. No.2312 p. 346.

(٤) Allan, The Cambridge shorter History of India' p. 271.

Arnold, The Preaching of Islam, p. 278.

(٥) أبو المحاسن : المنهل الصافي ج ٣ ص ٢٤١ ب

ولائه وتودده للخليفة العباسي بالقاهرة ؛ فاعترف بخلافة المتوكل على الله سنة ١٣٦٩ م^(١) .

ولم يكن للخليفة العباسي في مصر نفوذ على جميع عمالك العالم الإسلامي ، كما أهمل ذكر اسمه على كثير من منابر البلاد الإسلامية ، وخاصة مكة والمدينة رغم خضوعهما لسلطان المماليك ؛ اللهم إذا استثنينا الخليفة المستعين بالله الذي بَوَّع له بالسلطنة والخلافة معا . ولعل السبب في ذلك راجع إلى اختلاف وجهة نظر المسلمين في الخلافة العباسية التي أحيها السلطان الملك الظاهر بيبرس في مصر ؛ فبينما اعتقد بعضهم أنه لا يزال هناك خليفة له الرئاسة على جميع المسلمين ، سخر فريق آخر من ادعاءات الخليفة العباسي بالقاهرة ، كما شك البعض في نسبهم ولم يوافقوا على ادعائهم أنهم من نسل خلفاء بغداد ، وأحي آخرون النظرية التي يقول أصحابها إن الخلافة لم تدم إلا ثلاثين سنة . وقد وردت هذه العقيدة في الأحاديث النبوية^(٢) ، فروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال^(٣) : « الخلافة بعدى في أمي ثلاثون سنة . ثم ملك بعد ذلك » .

وقد تأثر بعض الحكام المسلمين بهذه الآراء المتباينة عن الخلافة العباسية في تنصر ، ومن ثم لم يطمئثوا إليهما ، كما لم يروا ثمة ما يحملهم على الالتجاء إلى الخلفاء العباسيين بالقاهرة للحصول على تفويض شرعي بالحكم . ومن هؤلاء غازان محمود سلطان المغول في فارس (١٢٩٥ - ١٣٠٥ م) الذي رأى أنه ليس بحاجة إلى تفويض من الخليفة العباسي بالقاهرة ، وأن مقامه لن يعلو بانتحاله لقب الخلافة ، وبناء على هذا الاعتقاد ، أصبح يدعى له في الخطبة بعد فتحه دمشق بألقاب « السلطان الأعظم و السلطان الإسلام والمسلمين » . ولما تحول المغول إلى الإسلام ، وحلت الشريعة الإسلامية عندهم محل

(١) Arnold, The Caliphate, p. 102-103.

(٢) Arnold, The Caliphate p. 107.

(٣) كنز العمال : ج ٣ ص ٢٠٥ رقم ٣١٥٢ .

اليساق ، توقف ملوكهم الاتقياء عن الافتخار بأنهم من نسل جنكيز خان .
لكنهم مع ذلك لم يلجئوا إلى خليفة عباسي — لا يعتد به — لحل رعاياهم
على وجوب طاعتهم .

وقد ظل بعض الأمراء المسلمين يتلقبون بلقب خليفة منذ سقوط الدولة
العباسية سنة ١٢٥٨ م . ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد الحفصي (١٢٤٩ - ١٢٧٧ م)
وكان أبوه يحيى حاكما على تونس من قبل سلطان الموحدين ، وما لبث أن
استقل بها . لكنه استنكف أن يتلقب بلقب سيده أمير المؤمنين ؛ غير أن
ابنه كان أجراً منه ، فلم يكتف بأن يتلقب بلقب أمير المؤمنين . بل اتخذ أيضاً
لقب خليفة وأمام ، وسواء أكان قد تلقب بهذه الألقاب قبيل أو بعد سقوط
بغداد سنة ١٢٥٨ م . فإنه أقدم على هذا العمل بإيعاز من شريف مكة . وظل
خلفاؤه ينتحلون هذه الألقاب : كما أن أمير الموحدين أبا عنان فارس المريني
(١٣٤٨ - ١٣٥٨ م) تلقب بأمر المؤمنين . وقد نعت ابن بطوطة بهذا
اللقب . فقال عند كلامه على وصوله إلى القاهرة بعد أدائه فريضة الحج
سنة ٧٤٩ هـ ^(١) ، وهناك تعرفنا أن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل
على رب العالمين أبا عنان — أيده الله تعالى — قد ضم الله به نشر الدولة
المريية ، وشفى بركته بعد اشفاؤها البلاد المغربية . كما لقبه أيضاً بلقب
خليفة وإمام وظل الله على الأرض ^(٢) .

كذلك نجد في الهند أن السلطان علاء الدين الخلجي (١٢٩٦ - ١٣١٦ م)
صاحب دلهي ، يلقبه كاتب سيرته الشاعر أمير خسرو بلقب « خليفة عصره »
و « ظل الرحيم بالبشر » و « الإمام المعظم » ؛ أما ابن هذا السلطان قطب الدين
مبارك شاه (١٣١٦ - ١٣٢٠ م) ، فقد نقش اسمه على بعض عملته مقرونا
بلقب « الإمام المعظم » و « خليفة الله » ^(٣) .

(١) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ج ٢ ص ١٧٨

(٢) Arnold, The Caliphate, pp 110-111, 115-116

(٣) Arnold, The Caliphate, pp. 116-117.

وصفوة القول أن لفظ خليفة ، قد تحول عن معناه الأصلي ، فغدا بعض أمراء المسلمين يطلقونه على أنفسهم رغم وجود خليفة عباسي بالقاهرة . ومما حملهم على ذلك اعتزازهم بأنفسهم وسخريتهم من هذا الخليفة الذي أصبح مهبط الجانب ، عاجزاً عن أداء مهام الخلافة (١) التي تنحصر في النيابة عن النبي في حماية الدين والقيام بأمور المسلمين .

(١) مقدمة ابن خلدون . ص ١٥٩

الفصل الرابع

سياسة أسرة قلاوون في نشر الاسلام بمصر

تمهيد — لم تعمل الحكومة الاسلامية في مصر على التدخل في شعائر أهل الذمة ، بل أطلقت لهم الحرية الدينية وأسست اليهم كثيراً من الوظائف (١) . وظلوا على هذه الحال حتى نقلت دواوين مصر إلى العربية بعد أن كانت تكتب باليونانية والقبطية ؛ فصرف أهل الذمة تبعاً لذلك عن الأعمال الحكومية وانتقلت مناصبهم إلى أيدي المسلمين من العرب . وتجلت هذه الظاهرة بوضوح في خلافة عمر بن عبد العزيز الذي أمر بالاحتساب المناصب الإدارية في مصر لغير المسلمين (٢) ، مما حمل كثيراً من أهل الذمة على الدخول في الإسلام وتعلم اللغة العربية حتى يتيسر لهم الإشتغال بالوظائف المدنية . وأخذ المسلمون منذ ذلك الوقت في الازدياد حتى أصبحت مصر في بداية القرن الثالث الهجري دولة إسلامية (٣) .

وقد رأى بعض خلفاء العصر الفاطمي الأول بعد أن جاءوا إلى مصر بمذهب شيعي خالفوا به جمهور المسلمين أنهم بحاجة إلى من يعاونهم في تثبيت سلطانهم . فقربوا اليهم أهل الذمة وأظهروا لهم كثيراً من التسامح ؛ غير أن تلك السياسة مالبث أن تبذلها الحاكم بأمر الله . فألزم أهل الذمة بلبس أزياء خاصة ولأشد في معاملتهم حتى اضطر كثير منهم إلى اعتناق الإسلام (٤) .

(١) تعريب أبو ريده ص ٦٧ ، ٨٣ . Mez Die Renaissance Des Islams .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٠ ، ٢٢٨ .

(٣) Stanley Lane-poole, A History of Egypt in The Middle ages p. 38 .

(٤) (تعريب أبو ريده ص ٩٣ — ٩٤) Mez, Die Renaissance Des Islams .

وقد استغل أهل الذمة عطف الحكومة الفاطمية عليهم بعد وفاة الحاكم فعمدوا إلى استعادة نفوذهم ؛ ولم يكتفوا بذلك بل تقننوا في إلحاق الأذى بالمسلمين وامتدت أيديهم إلى أملاكهم في خلافة الأمر بأحكام الله الفاطمي ؛ غير أن الوزير أبا علي بن الأفضل ما لبث أن أدركته الحمية الإسلامية ، فأعاد إلى المسلمين أملاكهم وألزم أهل الذمة بلبس الغيار ، كما أمر ألا يولوا شيئا من أعمال المسلمين^(١) .

كذلك كان صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية في مصر يحرص على إقصاء أهل الذمة عن الدواوين ، لكنه لم يسر في تلك السياسة إلى نهايتها لانشغاله بدرء خطر الصليبيين عن دولته . يقول النويري^(٢) نقلا عن محمد ابن عبد الرحمن بن محمد الكاتب صاحب كتاب الدر الثمين في مناقب المسلمين ومثالث المشركين : « وأمر (صلاح الدين) بصرف الذمة وأن لا يتصرفوا ما بقيت هذه الأمة . . . وشغله النظر في مصالح الإسلام عن تميم هذا الاهتمام . ولم يحاول أهل الذمة بعد وفاة صلاح الدين أن يستعيدوا نفوذهم بل ظلوا خاملين الذكر طوال العهد الأيوبي .

لما استقر الأمر للهالك في مصر ، عاد أهل الذمة إلى إثارة الفتن والمناوشات ، فرأى السلطان الملك الظاهر بيبرس أن يأخذهم بالشدّة^(٣) ، كما ألزموا بلبس أزياء خاصة وحل بهم الذل والهوان ، حتى أصبح محظورا على النصراني في عهد قلاوون أن يتحدث مع مسلم وهو راكب^(٤) .

وكان النصارى يتحينون الفرص لاستعادة مكائهم في البلاد ، فلم يكذب الأمراء الخاصكية يستعينون بكتائبهم حتى تعالوا على المسلمين وأدى الأمر ببعضهم إلى التناول عليهم عما حمل السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون .

(١) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ١٢ ص ٣٦٩ — ٣٧٠

(٢) نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣٣٠

(٣) الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ص ١٦٥ — ١٦٦

(٤) المقرئ : خطب ج ٢ ص ٤٩٧

على أن يصدر أوامره بأن ينادى في القاهرة ومصر ألا يستخدم أمير في ديوانه أحدا من النصارى أو اليهود ، كما طلب من الأمراء أن يعرضوا على كتاب النصارى الدخول في الإسلام ، فإذا أسلم أحدهم احتفظوا به عندهم ، ومن امتنع منهم عن اعتناق هذا الدين كان جزاؤه القتل . وكان لهذه السياسة أثرها في دخول كثير منهم في الإسلام ، وصار الدليل منهم باعتناقه هذا الدين عزيزاً ، كما يقول المقرئى (١) .

وعلى الرغم مما حاق بالنصارى من الاضطهاد في عهد المالك ، فإن كثيرا منهم تمكن من جمع ثروة عظيمة ، كما أسرفوا في البذخ والترف حتى إن أبا الفوارس المتوكل وزير سلطان مراکش لما قدم على القاهرة سنة ٧٠٠ هـ في طريقه إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج ، وشاهد بجانب القلعة رجلا متطيا فرسا وحوله فريق من الناس يقبلون رجله وهو معرض عنهم ، سأل عنه ؛ فلما قيل له إنه نصراني شق عليه ذلك وتحدث إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فيما يقاسيه النصارى واليهود في بلاده ، من الذلة والهوان ، كما أظهر استيائه من إسناد المناصب الهامة في مصر لبعض أفراد هاتين الطائفتين (٢) ، وقال : « كيف ترجون النصر والنصارى تركب عندكم الخيول وتلبس العمام البيضاء وتذل المسلمين وتمشيهم في خدمتهم » .

وقد صادف اعتراض وزير مراکش على مسلك النصارى في مصر قبولاً من رجال الدولة ؛ فاستقر رأيهم على عقد مجلس يضم الحكام والقضاة والفقهاء ، ودعى بطرك النصارى وجماعة من الأساقفة وديان اليهود لحضور هذا الاجتماع . ولما التأم عقد المجلس سئل النصارى واليهود عما أقرؤا عليه في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من عقد الذمة ، فلم يحركوا ساكناً ؛ ثم استقر رأى العلماء والفقهاء على أن يميز النصارى بلبس العمام الزرق ،

(١) خطط : ج ٢ ص ٤٩٧ — ٤٩٨

(٢) الفقه شندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٧٧

واليهود بلبس العثم الصفر ، وتميز نساء كل ملة بعلامة ، وأن يمنعوا ركوب الخيل والبغال ، كما ألزموا باتباع الشروط التي أقرها عمر بن الخطاب على أهل الذمة^(١) . وإليك بيانها^(٢) : « شرطنا على أنفسنا ألا نحدث في مدنتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة . . . ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان في خطط المسلمين ، وأن نوسع أبوابها للبارة ولبنى السبيل ، وأن ينزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ، ولا نأوى في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً ، ولا نظهر شرعنا ولا ندعو إليه أجداً ، ولا نمنع أحداً من ذوى قرابتنا الدخول في دين الإسلام إن أرادوا ، وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم في مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ، ولا نتسمى بأسمائهم ، ولا نتكفى بكنائهم ، ولا نركب بالسروج . ولا نتقلد بالسيوف ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ، ولا نحمله معنا ، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ، وأن نجز مقادير رؤوسنا ، ونلزم ديننا حيث كنا ، وأن نشد الزنا نير على أوساطنا ، وأن لا نظهر صليباً ، ولا نضرب بنواقيسنا في كنائسنا . . . ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نوقد النيران في طريق المسلمين ، ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بمسوتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين ، ولا نطلع عليهم في منازلهم ، ولا نعالج منازلنا على منازلهم . »

كذلك أصدر السلطان أوامر تتضمن عدم استخدام أحد من النصارى أو اليهود بالدواوين ، وأن يلتزموا سائر ما شرط عليهم ، ويهدد من يخالف هذه التعليمات بسفك دمه .

ولما وصل إلى الاسكندرية نبأ المرسوم الذي حدد فيه الناصر من حرية أهل الذمة ، سارع سكانها من المسلمين إلى تخريب كنيستين . واستندوا في

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٩١ - ٩١١

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣٣٠ ب ١

القلعشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٥٧ - ٣٥٩

ذلك إلى أنهما قد بنيتا في العهد الإسلامي ، ولم يكتفوا بذلك ، بل صاروا يهدمون دور الذميين التي تعلو عن دور المسلمين^(١) .

ولما اشتد الحال بالذميين وضافت عليهم الأرض بما رحبت ، اضطر كثير منهم إلى الدخول في الإسلام حرصا على الاحتفاظ بمراكزهم وأنفة من لبس العائم الزرق وركوب الخمر^(٢) .

على أن السلطان الناصر محمد ما لبث أن تغاضى عن تنفيذ الشروط التي ألزم أهل الذمة باتباعها ، وسأواهم بالمسلمين ، كما سمح بفتح بعض الكنائس بعد أن ظلت مغلقة نحواً من سنة .

لكن وقع حادث لم يكن في الحسبان ، ذلك أن المسيحيين استعاروا بسطا ومصابيح من بعض المساجد للاحتفال بأحد أعيادهم ، فهجم بعض المسلمين على المسيحيين وهم يتعبدون وخرّبوا كنائسهم^(٣) . ولما علم السلطان الناصر بذلك ، هدد المعتدين بتوقيع أشد العقوبات عليهم . فوضع الفريقان المنازعات التي كانت بينهما جانبا فترة من الزمن ، ثم لم يلبثا أن عادا سيرتهما الأولى ؛ فهدم المسلمون في مصر ما يقرب من ستين كنيسة .

ولما رأى المسيحيون ما حل بكنائسهم من الدمار ، أخذوا يشعلون النيران في بعض الأماكن العامة والمساجد ؛ وتوالى هبها في سنة ٧٢١ هـ ، حتى كانت ليلة الحادى والعشرين من جمادى الأولى من هذه السنة^(٤) ؛ إذ تقابل بعض المصريين براهبين عند خروجهما من المدرسة الكهارية ، بعد أن أشعلا فيها النار ، فقبض عليهما وجيء بهما إلى علم الدين منجر والى القاهرة . ولما تحقق هذا الوالى من ارتكابهما جريمة إشعال النار في الأماكن العامة ، قدمهما إلى السلطان ، ثم حدث في تلك الأثناء أن قبض العامة على

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٣٤

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٩١١

(٣) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p 74.

(٤) ذكر المقرئى (خطط ج ٢ ص ٤١) أن هذه المدرسة كانت بالدرب المعروف بذلك الاسم وموقعه بجوار حارة الجودرية والقماحين .

نصراني وهو خارج من جامع الظاهر ببيروت ، وييده نقط وقطران . وقد اعترف هذا الرجل أن جماعة من النصارى عملوا النقط ووزعوه على فريق منهم ليشعلوا به النيران في أحياء المسلمين ، كما أقر الراهبان أنهما أشعلا النار نكاية في المسلمين الذين هدموا كنائسهم^(١) .

ولما وصل إلى مسامع السلطان نبأ حوادث الحريق التي ارتكبها النصارى بعث في طلب البطرك ، فلبى دعوته واعتذر لكريم الدين ناظر خاص الناصر عما اقترفه بعض أفراد طائفته من الجزائم وقال له : « إنهم فعلوا كما فعل سفهاؤكم بالسكناس من غير إذن السلطان » .

غير أن العامة لم ترض بموقف الناصر من طائفة النصارى ؛ فصاحوا جميعا عند خروجه من القلعة : « نصر الله الإسلام ، انصردين محمد بن عبد الله ، ولم يكتفوا بذلك ، بل إنهم حين رأوا كريم الدين ناظر الخاص ، ثاروا في وجهه ، واتهموه بمألة النصارى ، وأخذوا يوجهون إليه بعض عبارات تتم عن كراهتهم له واحتقارهم إياه ، كما صاروا يرمونه بالحجارة ، فاضطر كريم الدين إلى الرجوع من حيث أتى . ثم شاور الأمراء في هذا الشغب الذي أثاره العامة ؛ فأشار عليه الأمير جمال الدين أقوش نائب السكر بعزل كتاب النصارى من وظائفهم لتهدأ ثائرة العامة ؛ غير أن هذه الغبة لم تلق قبولا منه . وطلب من الماس الحاجب أن يخرج مع أربعة من الأمراء ليقضي على العناصر التي أثار الشغب ، كما أصدر أوامره إلى والى القاهرة ، بأن يتعقب العامة . فقبض على نحو المائتين منهم ، وأرسلهم إلى السلطان الذي عول على توقيع أشد العقوبات عليهم ؛ لكنه اضطر أخيراً إلى العدول عن ذلك وأمر باستخدامهم في أعمال الحفر بالجيزة^(٢) .

ولم يكد الناصر محمد ينتهى من تهدئة ثورة العامة حتى وصل إليه نبأ

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ (القسم الأول) ص ٢٣٠ — ٢٣١

٥ (٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ (القسم الأول) ص ٢٣٢ — ٢٣٣

اشتعال بعض الحرائق- في نواحي جامع أحمد بن طولون والقلعة وفندق
 طر نطاي ؛ مما حمل العامة على العودة إلى المطالبة بوضع حد لعبث النصارى ؛
 فخرج منهم قرابة عشرين ألف رجل ، تجمعوا في طريق السلطان رافعين خرقة
 مصبوغة باللونين الأزرق والأصفر ، ونقش على الأزرق منهاضليان بيضاء
 وصاحرا عند مروره صيحة واحدة : « لادين إلا دين الإسلام ، نصر الله
 دين محمد بن عبد الله ، ياملك الناصر ، ياسلطان الإسلام ، انصرتنا على أهل
 الكفر ، ولا تنصر النصارى . » ؛ على أن السلطان قد عمل على مداراتهم
 خشية ازدياد نار الفتنة ، وأمر الحاجب بأن ينادى فيهم « من وجد نصرانيا
 را كيا حل دمه » ، وألزم النصارى بلبس الثياب الزرق مضافة إلى العائم ،
 وأن يشدوا الزناير فوق ثيابهم ، كما أمر أن تضاعف عليهم الجزية ،
 وألا يستخدم نصراني في دواوينه ودواوين الأمراء ، وكتب بذلك منشور ،
 تلى على المنابر . وقد جاء فيه (١) : « بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله مظهر
 هذا الدين المحمدي وبلى كل دين ومؤيد بنا الإسلام وأهله . . . ونشهد أن لا إله
 إلا الله وحده لا شريك له شهادة خالصة باليقين ، ونشهد أن سيد البشر محمداً
 عبده ورسوله سيد المرسلين ، وخاتم الأنبياء الذين أرسلهم إلى العالمين ، وأن
 عيسى بن مريم عبده ورسوله الذي بشر ببعثه وآمن برسالاته قبل ظهور
 دينه المبين . . .

« أما بعد ، فإن الله تعالى ، لما أقامنا لنصر الإسلام وأهله ، لم نزل نعلى
 كلمة الإيمان ونظهر شعائر الإسلام في كل مكان . . . وكان جماعة من مفسدى
 النصارى قد تعدوا وطمعوا وتمادوا في المخالفة . وبغوا ومكروا مكراً كبيراً
 فأدخلوا ناراً ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ، فيقضى رأينا الشريف
 أن نأخذهم بالشرع الشريف في كل قضية ونجدد عليهم العهود العمرية وأن
 نقرر على من شمله عفونا بمن ضعف منهم الجزية . . . ولذلك رسم بالامر
 الشريف العالي المولوى السلطانى الملكى الناصرى لا زال ناصر الدين بجوده

أن تستقر الجزية على سائر النصارى بالوجه القليل ضعف ما عليهم الآن . . . وأن تلبس سائر النصارى عمام (زرقا وجابا زرقا) ويشد الزنار في أوساطهم وألا يستخدم أحد من النصارى في جهة من الجهات الديوانية والأشغال السلطانية ، وكذلك لا يستخدم أحد من الأمراء أحداً من النصارى عنده ، وأن يطلبوا جميعاً من الجهات التي كانوا يخدمون بها ، والحذر ثم الحذر من أن أحداً منهم يخرج عماراً رسمنا به ، ومن فعل ذلك منهم كانت روحه قبالة ذلك ، ولا تنفعه بعدها فدية ، ولا جزية . . . وليدخل تحت أمر هذا المرسوم الشريف المطاع كل قوى وضعيف ، وليستقر ضرب هذه الجزية استقراراً بلا زوال ، مستمرّاً بدوام الليالي والأيام . . . إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . . والله تعالى يعلي منار الإسلام ويزيده قوة وإظهاراً ويجعل الدائرة على أعداء الدين .

على أن هذا المنشور ما لبث أن أهمل تنفيذه ، فلم يدفع النصارى الجزية مضاعفة ، كما لم يحل بينهم وبين تقلد الوظائف الحكومية إلا أياماً معدودات . ولتفسير ذلك نقول ، إن كريم الدين ناظر خاص الناصر أنهى إلى السلطان أن جماعة من النصارى تضطلع بأعباء بعض الدواوين وأنهم إذا صرفوا عن أعمالهم فسدت الأحوال ، وتعطلت المصالح ، وسأله أن يظلوأ في أعمالهم حتى نهاية السنة ، فأجيب إلى طلبه ، بل لم يعزلوا من مناصبهم ، كما استقر كتاب الأمراء في وظائفهم بعد اعتناقهم الإسلام ^(١) .

وكانت بعض أعمال الدواوين تسند إلى المسيحيين في مصر لأنهم أعرف بشؤون البلاد من المصريين المسلمين . وقد اعتنق بعضهم الإسلام ، ووصل إلى المناصب الهامة في الدولة ؛ ومن هؤلاء : كريم الدين بن هبة الله بن السيد المصري الذي قلده الأمير بيبرس الجاشنكير وظيفة الكتابة ، وظل يترقى في سلك الوظائف حتى تقلد وظيفة ناظر الخاص في عهد السلطان الملك

الناصر ، وصار يسير في ركابه كثير من الأمراء والماليك ، كما علت مكانته بين المصريين لتعميره المساجد وسخائه في منح الصدقات للفقراء (١) . كذلك كان شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله المعروف بالنشو من بين المسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام وتقلبوا في الوظائف ، في عهد الناصر محمد حتى تقلد وظيفة ناظر الخاص ؛ غير أنه لم يكن حسن السيرة ، فقد ارتكب كثيرا من المظالم حتى ضج الناس بالشكوى منه ، كما تحدث بعض الأمراء مع السلطان في ضرورة عزله . وكان أول من جاهر بذلك الأمير سنجر الجاولي ، فقال للسلطان : حاشا مولانا السلطان من شغل الخاطر وضيق الصدر . « فقال السلطان : مما ليكي أنشأتهم وأعطيتهم العطاء الجزيل . وقد بلغني عنهم مالا يليق . فقال الجاولي : حاشا لله أن يبدو من ممالك السلطان شيء من هذا ؛ غير أن علم مولانا السلطان يحيط بأن ملك الخلفاء مازال إلا بسبب الكتاب ، وغالب السلاطين ما دخل عليها الدجيل إلا من جهة الوزراء ومولانا السلطان ما يحتاج في هذا إلى أن يعرفه أحد بما جرى لهم . وكان لهذا الحديث أثره في نفس الناصر محمد ، فعول على التخلص من النشو ، وسارع إلى تحقيق تلك الرغبة حين تبين له شدة تعسفه في معاملة الرعية وتغاليه في ابتزاز أموال التجار حتى أخذ الناس يترددون على خواصه من الأمراء وشكوا اليهم ما حاق بهم من ظلمه ، كما وصل إليه ، عدة كتب تنم عن استياء الشعب المصري من تصرفاته .

ولما قبض على النشو سنة ٧٤٠ هـ ، سر الناس كثيرا واجتمعوا تحت القلعة حاملين الشموع ورافعين المصاحف على رؤوسهم والأعلام في أيديهم ، كما أخذوا يصيحون صيحات الفرخ لتخلصهم من ظلم النشو . ولم يكتف السلطان بالقبض على النشو . بل أمر بمصادرة أملاكه وأمواله . وقد عثر في منزله على خمسة عشر ألف دينار من الذهب وألفين وخمسمائة حبة

(١) أبو الخناس : الهجوم الزاهرة ج ٤ القسم الاول ص ٢٣٥ ،
الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ج ١ ص ٣٧٣

من اللؤلؤ تقدر قيمة كل منها بألوف درهم ، وقطعة زمرد زنتها رطل ، وصليب من الذهب مرصع بالجواهر .^(١)

وكان من أثر اعتماد أمراء المماليك على كتاب النصارى أن ازداد نفوذهم وساروا في تعاظمهم على المسلمين سيرتهم الأولى حتى أن بعض كتابهم مر أمام الجامع الأزهر في أحد أيام سنة ٧٥٥ هـ راكباً وخلفه عدد من العبيد ، فشق ذلك على المسلمين وثاروا في وجهه ، وأنزلوه عن فرسه وكادوا يقتلونه . وسار بعضهم على أثر هذا الحادث إلى الأمير طاز وشكوا إليه نقض النصارى عهدهم ، كما سألوه أن يعمل على نصرة الإسلام والمسلمون . فقدم الأمير طاز إلى السلطان الملك الصالح صالح كتاباً قرأ عليه بحضرة الأمراء والقضاة وسائر أهل الدولة يتضمن الشكوى من النصارى والرغبة في عقد مجلس يلتزمون فيه باتباع الشروط المعينة لهم . فأجابهم السلطان إلى طلبهم وعقد مجلساً دعا إليه بطرك النصارى وأعيان ملتهم ورئيس اليهود وأعيانهم كما حضره القضاة وعلماء الشريعة وأمراء الدولة ، وتلا القاضي علاء الدين على بن فضل الله كاتب السر في هذا الاجتماع العهد الذي عقد بين المسلمين وأهل الذمة . ولما فرغ من تلاوته ، التزم بطرك النصارى وديّان اليهود باتباع ما ورد فيه . ثم جال الحديث فيما آلا إليه حال أهل الذمة ونقضهم العهد ، فاستقر الرأي على إقصائهم عن وظائف الديوان السلطاني ودواوين الأمراء حتى بعد دخولهم في الإسلام وألا يكره أحد منهم على اعتناق هذا الدين ، وإذا ما اعتنقه أحدهم برضاه ألزم بألا يدخل منزله أو يجتمع بأهله إلا بعد أن يسلموا ، كما ألزم من أسلم منهم بملازمة المساجد والجمامع ، وألا يستخدم أهل الذمة مسلماً ، وأن ينزلوا عن دوابهم إذا مروا بجماعة من المسلمين ، كما شرط أن تكون عمامة النصارى واليهودى عشرة أذرع . وصدرت بذلك مراسيم قرئت بجامع عمرو والجامع الأزهر وذلك في يوم الجمعة ٢٦ جمادى الآخرة سنة ٧٥٥ هـ

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ القسم الثاني ص ٢٥٨ — ٢٥٩ ، ٢٦١ — ٢٦٣

وقد هاجت حفيظة المسلمين في ذلك اليوم لحقهم على النصارى ؛ فثاروا عليهم بعد صلاة الجمعة ، ومزقوا ثيابهم ، وأضرمو النيران لإلقاءهم فيها ، مما حمل النصارى على الاختفاء في بيوتهم وأصبح لا يجسر أحد منهم على السير في الطرقات ، كما اضطروا إلى شرب مياه الآبار لامتناع السقائين عن نقل الماء إليهم من النيل .

ولما اشتد الحال بالنصارى نودى في القاهرة ومصر بالكف عن التعرض لهم بعد أن حل بهم البلاء ، وحيل بينهم وبين تقلد الوظائف حتى في حال اعتناقهم الإسلام .

على أن المسلمين ما لبثوا أن رفعوا شكايه ، قرئت بدار العدل ، تتضمن أن النصارى استجدوا في كنائسهم عمائر ثم اجتمع بالقلعة عدد عظيم منهم واستغاثوا بالسلطان وطلبوا منه العمل على نصره الإسلام ؛ فأصدر أوامره بهدم الكنائس (١) .

ولما عظم البلاء على النصارى وقلت أرزاقهم ، سارع كثير منهم إلى اعتناق الإسلام . فتواردت الأخبار من الوجهين القبلي والبحري بدخولهم في الإسلام وحفظهم القرآن ، وأن أكثر كنائس الصعيد قد هدمت وخولت إلى مساجد كما أسلم بمدينة قليوب في يوم واحد أربعائة وخمسون نصرانيا . ومنذ ذلك الوقت اختلطت الأنساب في البلاد المصرية ؛ فتزوج عامة النصارى بريف مصر بعد اعتناقهم الإسلام بالمسلمات وتقلد أبنائهم فيما بعد بعض مناصب الدولة التي كانت مقصورة على المسلمين وأصبح منهم القضاة والشهود والعلماء (٢) .

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١٧ — ١٧٠ ب

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١١٨

البابُ الثَّانِي

سياسة مصر الخارجية

في عهد أسرة قلاوون

الفصل الأول — موقف مصر من الدول الإسلامية

الفصل الثاني — سياسة مصر إزاء بلاد النوبة والحبشة

الفصل الثالث — موقف مصر من المغول

الفصل الرابع — علاقة مصر بأرمينية الصحرى

الفصل الخامس — سياسة مصر إزاء الصليبيين

الفصل السادس — العلاقات السياسية بين مصر والدول الأوربية

الفصل الأول

موقف مصر من الدول الإسلامية

(١) بلاد الحجاز

كان السلطان الملك الظاهر بيبرس قد استطاع بفضل إحيائه الخلافة العباسية في مصر وحرصه على التوفيق بين أمراء مكة والمدينة وإمدادهما بالمال أن يستعيد مكانة مصر في بلاد الحجاز ؛ فأصبح الخطباء يدعون له على منابر تلك البلاد ، وتضرب باسمه السكة فيهما ؛ وصار أمراء مكة والمدينة منذ ذلك الوقت يحرسون على إظهار ولائهم لسلطين مصر ؛ خلف الشريف أبو نبي أمير مكة سنة ٦٨١ هـ للسلطان الملك المنصور قلاوون وولده الملك الصالح أن يكون مطيعاً لهما وأن يلتزم تعليق السكوة المرسلة من مصر على السكبة في كل موسم ، وألا يعلق عليها كسوة غيرها ، وأن يقدم علم المنصور على كل علم ، وألا يتقدمه علم غيره ، وأن يسهل زيارة البيت الحرام أيام مواسم الحج للزائرين والطائفين والبادين والعاكفين والأمين ، وأن يحرس الحاج ويؤمنهم في سربهم ، وأن يستمر في إفراد الخطبة والسكة بالاسم الشريف المنصوري وأن يمثل مراسم السلطان امثال النائب للمستنيب^(١) .

ولما استقرت الأمور للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، أهتم بشئون مكة والمدينة ؛ وكان مما أعانه على بسط نفوذه وسيادته على هاتين المدينتين ، ذلك الخلاف الذي تجلى بين أمراء كل منها^(٢) ، وما كان من التجاء المنهزم منهم إليه ليستمد قوة وسلطاناً .

(١) المقرئى : البابوك ج ١ للقمم الثالث ص ٧٠٦ — ٧٠٧ .

(٢) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt pp. 71-72

وقد ظلت المنازعات قائمة بين أمراء المدينة منذ أن وفد مقبل بن ججاز على الظاهر بيبرس بمصر ، يشكو له أخاه منصوراً ، فقسم إمارة المدينة بينهما . غير أن هذا الحل ، لم يضع حداً للخلاف الناشب بين أميرى المدينة ذلك أن الأمير منصور لما قدم إلى القاهرة سنة ٧٠٩ هـ ، واستخلف بالمدينة ، ابنه كيشة ، انتهز هذه الفرصة الأمير مقبل وانتزع إمارة المدينة من كيشة واستأثر بالسلطة فيها . فاستاء من ذلك كيشة ودعا بعض العرب لنصرته ، ثم هجم على المدينة وقتل عمه مقبل .

ولما عاد الأمير منصور إلى المدينة ، أخذ الأمير ماجد بن مقبل يدعوا العرب لمعاونته ضد عمه منصور ، ثم زحف سنة ٧١٧ هـ على المدينة وانتزعها من يده . فبعث الأمير منصور إلى السلطان الملك الناصر يستعجده به ، فأمدّه بفريق من الجند أعانوه على إستعادة نفوذه بالمدينة ؛ غير أن هذا الأمير لم يتمتع طويلاً بالحكم ، فقد تقم عليه السلطان وعزله ، وولى أخاه ودى بن ججاز ثم أعاده إلى ولايته ، فظل بها إلى أن توفى سنة ٧٢٥ هـ .

وقد ازدادت الحالة سوءاً في المدينة بعد وفاة الأمير منصور ؛ فاستحكم النزاع بين خلفائه وظل التنافس على إمارة المدينة حتى ولها طقيل بن منصور ابن جمار الذى أنفرد بإمرتها إلى سنة ٧٥١ (١) هـ .

كذلك لم تكن الحالة مستقرة في مكة بسبب تنافس أمرائها على السلطة ؛ وكان ذلك مما سهل على السلطان الملك الناصر بسط سيادته على تلك المدينة والتدخل في تعيين أمرائها .

وكان عز الدين حميضة وأسد الدين رميثة يشتركان معاً في إدارة شئون مكة . وظلا يتوليان حكمها حتى اضطّر الناصر محمد إزاء الشكايات التى تقدمت من أهلها إلى أن يرسل فى أوائل سنة ٧١٤ هـ (١٣١٤ م) حملة مع أخيهما أبى الغيث لتقره على إمارة هذه المدينة بدلا منهما (٢) . وكان أبو الفدا إذ ذاك

(١) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠١ .

(٢) Howorth, History of the Mongols, vol III p. 572 *

بمكة ، فوصله خطاب من السلطان يطلب فيه أن يعاون هذه الحملة في القبض على حميضة الذي أساء السيرة في مكة واستبد بالأمور فيها ؛ غير أن حميضة مالبث أن ولى هارباً . وبذلك خلا الجو للأمير أبي الغيث ، فتولى إمارة مكة ثم أعاد الحملة التي قدم معها إلى مصر (١) .

على أن الأمير أبا الغيث لم يتمتع طويلاً بإمارة مكة ؛ فقد فاجأه أخوه حميضة قبل وصول الحجاج في أواخر سنة ٧١٤ هـ ، واشتبك معه في معركة ، انتهى الأمر فيها بقتله ، ثم فر حميضة وظل بعيداً عن الأنظار حتى أدى الحجاج مناسكهم وعادوا إلى بلادهم ، قرأى أن الفرصة سانحة لاستعادة نفوذه ، ومن ثم رجع إلى مكة واستبد بالأمور فيها (٢) .

ولم يقف النزاع بين أمراء مكة عند هذا الحد ، بل قدم إلى مصر سنة ٧١٥ هـ الأمير أسد الدين رميثة بن أبي نعي ، وأنهى إلى السلطان أنه يدين بالطاعة له ، وطلب منه أن يمد له يد المساعدة ضد أخيه عز الدين حميضة . فأجاب الملك الناصر طلبه ، وأنفذ معه إلى الحجاز فريقاً من الجند المصري ، وجهزهم بما يحتاجون إليه .

ولما وصل الأمير أسد الدين رميثة إلى مكة ، دارت بينه وبين حميضة عدة معارك كانت له الغلبة فيها ؛ فولى جماعة حميضة منزهين وفر حميضة نفسه في نفر يسير من أصحابه إلى العراق يطلب النجدة من أولجايتو إيلخان المغول في فارس ؛ وبذلك استقر الأمر لأسد الدين رميثة في ولاية مكة (٣) .

ولما قدم حميضة على أولجايتو خدائنده ، طلب منه أن يمدّه بطائفة من المغول ليستعين بها على إعادة سلطته بمكة ؛ فلبى إيلخان المغول رغبته ، وعهد إلى الدر فندى نائبه بالبصرة بمرافقته ، كما أرسل معه

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ص ٧٣

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ص ٧٤

(٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ص ٧٦ — ٧٧ ،

النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٨٩

جماعة من المغول وعرب خفاجة^(١) ؛ غير أن تلك الجموع مالبت أن تفرقت على أثر وفاة خدابنده وحلت بها الهزيمة على يد محمد بن عيسى - أحد أمراء العرب - الذي شق عليه مسير المغول للاستيلاء على الحجاز ، وعول على صد جموعهم التي صحبها الأمير حميضة . تفرج على رأس جيش من العرب ولما التقى بهم حاربهم وهو يصيح باسم الملك الناصر محمد بن قلاوون . وانتهى الأمر بقتل أكثرهم وأسر أربعائة رجل من المغول .

ولما علم السلطان بهذا النصر الذي أحرزه محمد بن عيسى على حميضة وحلفائه من المغول ، سر سرورا عظيما ، واستدعاه إلى مصر وأجزل عليه المنح والعطايا^(٢) ، كما أعاد إمرة العرب إلى أخيه مهنا بن عيسى^(٣) .

على أن النزاع مالبت أن تجدد سنة ٧١٨ هـ بين الأمير عز الدين حميضة والأمير أسد الدين رميثة ؛ فهجم حميضة على رميثة واضطره إلى الجلاء عنها ، ثم استبد بالسلطة في مكة وأمر بذكر اسم بوسعيد يلخان المغول في الخطبة عوضا عن السلطان الملك الناصر . ولما وصل إلى السلطان نبأ هذه الأحداث التي وقعت بمكة

(١) أبو القدا : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٨٠ - ٨١

(٢) المقرئى : السلوك ج ٢ القسم الأول ، ص ١٤٧ - ١٤٨

(٣) تعرف قبيلة مهنا بن عيسى بآل فضل ، وهم ينتسبون إلى طيء ؛ وكانت تسند إمرة العرب ببلاد الشام إلى أحد أعيانهم في عهد المماليك ، ويكتب له تقليد شريف بذلك . ابن خلدون ج ٥ ص ٤٣٦

وكان يتولى إمرة العرب في عهد الملك الظاهر بيبرس عيسى بن مهنا بن مانع . وظل في هذا المنصب حتى توفي سنة ٦٨٤ هـ ، فولى المنصور قلاوون مكانه ابنه مهنا بن عيسى ؛ غير أنه حدث عندما سافر الأشرف خليل بن قلاوون إلى بلاد الشام أن خرج عليه مهنا بن عيسى في جماعة من قومه ، فقبض عليهم السلطان وبث بهم إلى قبة الجبل ؛ فظلوا معتقلين بها إلى أن أفرج عنهم الملك العادل كتبغا سنة ٦٩٤ هـ وأعاد مهنا بن عيسى إلى إمارته . ولما علم السلطان الملك الناصر بميل هذا الأمير العربي إلى المغول نقم عليه وعزله من إمرة العرب ، وولى مكانه سنة ٧١٢ هـ فضل بن عيسى ؛ وبقي مهنا مشردا حتى لحق بخدابندا يلخان المغول سنة ٧١٦ هـ ، فأكرمه وأقطع أرضا بالعراق . وعند ما توفي خدابندا ، عاد مهنا إلى بلاد الشام ، ولم يلبث بعد ذلك أن أعاده الملك الناصر إلى إمرة العرب

م القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦

أنفذ فريقاً من جنده إليها وأمرهم بالآلا يعودوا إلى مصر إلا بعد أن يظفروا بحميضة . وما لبث السلطان أن نغم أيضاً على الأمير أسد الدين رميثة حين تبين له تواطؤه مع أخيه حميضة سرا ، وطلب من الأمير بدر الدين التركاني الذي ولي إمارة الحج في هذه السنة أن يرسل إليه الأمير رميثة ؛ فقبض عليه وأرسله معتقلاً إلى مصر ثم استقر بدر الدين بن التركاني نائباً في مكة وظل يتولى هذا المنصب حتى أنفذ السلطان الملك الناصر سنة ٧١٩ هـ الأمير عطيفة أخا حميضة إلى مكة^(١) ؛ من ثم انتهت مهمة الأمير بدر الدين وعاد إلى القاهرة^(٢) .

ولما اشتدت الحالة بالأمير حميضة عول على الحضور إلى قائد الجيش المصري المقيم بمكة ليعان له دخوله في طاعة السلطان . وكان لتصرفه هذا أسوأ الأثر في نفس المماليك — الذين لجأوا إليه بعد أن فروا من ركاب السلطان الملك الناصر أثناء قدومه إلى مكة لأداء فريضة الحج — لأنهم خشوا غائلة العقاب الذي سينزله السلطان بهم إذا ما حضروا إليه بصحبة الأمير حميضة ؛ ولذلك نراهم ينقمون على هذا الأمير ويقتلونه سنة ٧٢٠ هـ^(٣) . ولم يمض زمن طويل على وفاة حميضة حتى أدخل السلطان سبيل رميثة وأرسله إلى مكة ليشارك مع أخيه عطيفة في إمارتها . وقد ظلت السلطة في مكة موزعة بين هذين الأميرين حتى توفي عطيفة ؛ ومن ثم استقل أخوه رميثة بإمارة مكة .

على أن الأمور لم تستقر تماماً بمكة في عهد ولاية رميثة ، فقد حدثت بها فتنة سنة ٧٣١ هـ ، انقضت فيها عبيد الأشراف على جماعة من الأمراء والمماليك

(١) ذكر أبو الفدا (المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٨٤) أن السلطان الناصر أرسل هذا الأمير ليقم مع بدر الدين بمكة .
(٢) النويري : نهاية الأرب - ج ٣٠ ورقة ١١٨ -
(٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٨٩
ابن خلدون : المعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٣٣
القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٣٧

وقتلوه . ولما علم السلطان بهذه الفتنة ، أنفذ فريقاً من جنده تحت قيادة أيتمش لإخمادها . وكان ذلك مما حمل الأشراف والعبيد على الحرب منها ، كما اضطر الأمير رميثة إلى الرحيل عنها إلى مصر ليؤكد للسلطان إخلاصه له . ولما مثل بين يديه ، قدم له فروض الطاعة وحلف أنه برىء من الفتنة التي وقعت بآمارته فوثق السلطان من كلامه وعفا عنه ^(١) ، ثم عاد الأمير رميثة إلى مكة حيث احتفل بقراءة التقليد الذي ولاه فيه السلطان أميراً على هذه المدينة ، واجتمع قائد الجند والأمراء بالكعبة وأقسموا له يمين الولاء ^(٢) .

وقد ظل رميثة مستأثراً بالسلطة في مكة حتى كبرت سنه فأشرك معه ابنه ثقبه وعجلان ؛ لكنهما ما لبثا أن استقلا بها سنة ٧٤٤ هـ بعد أن دفعا له ستين ألف درهم . وظلا يتوليان حكمها حتى استدعى السلطان الصالح اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون ، الأمير ثقبه إلى مصر وقبض عليه ، ثم أرسل مرسوماً بإعادة إمرة مكة إلى رميثة . ولما علم بذلك عجلان ، رحل إلى اليمن ، غير أنه سرعان ما عاد إلى مكة واصطلم مع أبيه ثم استقل بامارة مكة بعد وفاته ^(٣) .

ولما أطلق السلطان حسن بن الناصر محمد سراح الأمير ثقبه سنة ٧٤٨ هـ ، عاد إلى مكة وأخذ من عجلان نصف البلاد بغير قتال . وظل يشاركه في إمرتها حتى حدث بينهما نزاع سنة ٧٥٠ هـ ؛ فسافر عجلان إلى القاهرة وولاه السلطان إمرة مكة ^(٤) . أما الأمير ثقبه فانه توجه إلى اليمن حيث أغرى الملك المجاهد علي بن داود صاحب اليمن بالاستيلاء على مكة وإعداد كسوة للكعبة ، فسار الملك المجاهد يريد الحج سنة ٧٥١ في حفل كبير ، وصحب معه الأمير ثقبه ^(٥) .

(١) ابن خلدون : ج ٥ ص ٤٣٣ .

(٢) تاريخ ابن الوردي : ج ٢ ص ٢٩٥ .

(٣) درر الفرائد المظلمة في أخبار الحايج وطريق مكة المظلمة ورقة ٢٦٠ .

(٤) أبو المحاسن : المنهل الضائق والمستوفى بعد الوافي ج ٢ ص ٤٤٩ — ٤٥٠ .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ القسم الأول ص ٨٦ .

١ ولما قدم مكة بعض أمراء مصر برفقة الحجاج المصريين ، حذرهم عجلان من غائلة صاحب اليمن وقال لهم : « إن صاحب اليمن يريد أن يقيم في مكة بعد توجهمكم . ومراده أن ينتزع كسوة البيت ويكسوه كسوة أحضرها من اليمن ويريد أن يولى على مكة والياً من جهته ويترك معه جنداً من اليمن ، ويغير أوضاعكم ولا يترك لكم في مكة أمراء ، وهو في جمع يسير من اليمن ، ولكن لا طاقة لنا بهم ، ومن المصلحة أنه لا يفوت ، وإن لم تفعلوا قدمت معكم إلى مولانا السلطان وترك مكة نه وبرئت من العهدة ^(١) . » فبعث أمراء مصر إلى الملك المجاهد ، كتاباً قالوا فيه : « إن من يريد الحج إنما يدخل مكة بذلة ومسكنة . وقد ابتدعت من ركوبك بالسلاح بدعة لا تمسكك أن تدخل بها ، وابعث إلينا ثقة ليكون عندنا ، حتى تنتهى أيام الحج فترسله إليك . » فأجاب صاحب اليمن طلبهم وبعث ثقة ليكون رهينة عندهم . وكان قد تم الاتفاق بينه وبين الملك المجاهد على أنه إذا رحل الأمير طاز من مكة ، أوقعا بيزلار أمير الحج ومن معه ، وقبضا على عجلان ؛ وبذلك يتعهد السيل لتسليم الأمير ثقة هذه المدينة ^(٢) .

أما الأمراء المصريون ، فقد استقر رأيهم مع الأمير عجلان على محاربة الملك المجاهد إذا افترق عنه عساكره بنى ؛ وسرعان ما أحاطوا به ومعه جماعة من أصحابه ، غير أنه توقف عن الحرب رعاية لحرمة الزمان والمكان وفر إلى جبل منى ؛ وعلى الرغم من ذلك ، فقد ظل القتال دائراً ، حتى اضطر صاحب اليمن — خشية قتل أصحابه — إلى طلب الأمان وتسليم نفسه على ألا يتعرضوا لأحد غيره . وهرب ثقة إلى اليمن ؛ وبذلك خلا الجو للأمير عجلان بمكة ^(٣) .

(١) درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة العظيمة . ورقة ٢٦١

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ (القسم الاول) ص ٨٦ — ٨٧ (طبعة جامعة كاليفورنيا)

(٣) درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة العظيمة . ورقة ٢٦٣

ولما شرع الأمير طاز في الرحيل إلى الديار المصرية ، سلم أمراء الملك المجاهد وخريمه للأمير عجلان وأوصاه بهم خيرا ، ثم سار برفقة صاحب العين . وبعث الأمير طقطاي إلى السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ، يبشره بما حدث في مكة .

ولم يكن يستقر مقام الأمير طاز بالقاهرة حتى قيد الملك المجاهد ، وسار بحجته لمقابلة السلطان ، وحين مثلا بين يديه ، قبل الملك المجاهد الأرض ثلاث مرات وأخذ الأمير طاز يشفع فيه عند السلطان حتى أمر بفك قيده ، ثم أنزل بقاعة الأشرفية حيث أجريت له الراتب السنية . وأنعم السلطان على الأمير طاز بمائتي ألف درهم ، أما الملك المجاهد فإنه ألزم بدفع أربعمائة ألف دينار يقترضها من تجار الكارم^(١) ليأذن له السلطان بالسفر إلى بلاده ، غير أنه مالبت أن أعفى من دفع هذا المبلغ ووعدته السلطان بأنه سيحصل على إعادته إلى بلاده مكرما ، فقبل له الملك المجاهد الأرض ، ووعدته بأن يرسل إليه مالا معيناً في كل سنة ، ولم يكتف بذلك بل صار منذ عودته إلى العين يحرص على مهامه^(٢) .

وقد ظل كل من عجلان وثقبة يرمى إلى الاستقلال بولاية مكة إلى أن تقلد الملك المنصور محمد بن المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون سلطنة مصر ، فولى عجلان إمرة مكة سنة ٧٦٢ هـ ، وأشرك معه أخاه ثقبة ؛ غير أن ثقبة مالبت أن توفي ، ومن ثم استقل عجلان بهذه الإمارة^(٣) ، وانتهى بذلك النزاع الذي شغل بال سلاطين مصر فترة طويلة عن الزمن ، وكان من أثره إضطراب الحالة في مكة .

فما تقدم يتبين لنا كيف كان أمراء مكة والمدينة يتنازعون السلطة ،

(١) يطلق هذا اللفظ على تجار البهار الوارد إلى مصر من الهند واليمن

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٢ حاشية ١

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ٨٨ — ٩٠ (طبعة كاليفورنيا)

ابن خلدون : ج ٥ ص ١٣٠

(٣) درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة العظيمة - ورقة ٢٦٨ ، ٢٦٩

وقد ساعد ذلك على عدم استقرار الأمور في هاتين المدينتين المقدستين ، وسهل لسلطين المماليك نشر نفوذهم في بلاد الحجاز ؛ فأصبح يخطب باسمهم في الحرم والمشاعر ، وتنقش أسماؤهم على السكة ، وفضلا عن ذلك فإن أدراه مكة والمدينة كانوا يحرصون على راحة الحجاج المصريين ويحتفلون بتقديم المحمل المصري ، وإذا ما قدم السلطان أو أحد نوابه لأداء فريضة الحج ، سارع هؤلاء الأمراء إلى استقبالهم واحتفوا بلقائهم . وقد تجملت مظاهر حفلاتهم بسلطان مصر وأمرائه في الحجات الثلاث التي أداها الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وكانت أولى هذه الحجات سنة ٧١٢ هـ عندما وقع التنافر بينه وبين قراسنقر نائب حلب وأقوش نائب طرابلس وغيرهما مما كان سببا في خروج المغول إلى بلاد الشام ونزولهم بالرحبة ، ثم رجوعهم إلى بلادهم على أثر ما بلغهم عن تأهب جيوش مصر لصددهم . ولما علم السلطان بعودتهم توجه في أربعين أميرا لأداء فريضة الحج (١) .

وقد أدى الناصر محمد حجته الثانية سنة ٧١٩ هـ ، واستصحبه معه الملك المؤيد صاحب حماء والأمير محمد بن أخت علاء الدين صاحب دلهي (٢) ، وكثيرا من الأمراء وكبار رجال الدولة ، نخص بالذكر منهم : القاضي علاء الدين بن الأثير ، والقاضي كريم الدين وقاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة . وأعد للكعبة كسوة من الحرير الأطلس المنسوج بالاسكندرية .

ولما قدم السلطان إلى الكعبة ، نهى الحجاب أن يمنعوا الناس عن الطواف معه ، وقال لقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة حين أشار عليه بأن يطوف راكبا كما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام : « ومن أنا حتى أتشبه بالرسول صلى الله عليه وسلم لا طفت إلا كما يطوف الناس » ؛ فصاروا يزاحمون

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٧٨

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ . القسم الأول ورقة ٢١٩

(٢) ابن خلدون ج ٥ ص ٤٢٨

في طوافه وهو يزاحمهم كواحد منهم . ولما فرغ من الطواف غسل السكبة بيده ، كما أخذ أزر إحرام الحجاج وغسلها لهم بنفسه .

وقد بلغ من هيبة هذا السلطان أثناء وجوده بمكة أن فريقاً من المغول الذين قدموا لأداء مناسك الحج ، اختفى خوفاً منه ، فاستدعاهم لمقابلته وبالغ في إكرامهم وأنعم عليهم^(١) .

كذلك شرع الناصر محمد في الرحيل إلى بلاد الحجاز سنة ٧٣٢ هـ لأداء فريضة الحج لثالث مرة . وقد استصحب في سفره الملك الأفضل صاحب حمه ، وكثيراً من الأمراء ، وقاضى القضاة جلال الدين القزوينى الشافعى ، وابن الفرات الحنفى ، وغفر الدين النويرى المالكى ، وموفق الدين الحنبلى^(٢) . وقد قام الناصر محمد أثناء زيارته لبلاد الحجاز سنة ٧٣٢ هـ بكثير من الأعمال الجليلة التى خلدت ذكره ، فوسع طريق عقبة أيلة ، وصنع للسكبة باباً مصفحاً بالفضة ، أنفق عليه خمسة وثلاثين ألف درهم^(٣) .

ولم يكن اهتمام الناصر محمد بتنظيم شئون مكة والمدينة وتيسير سبل العيش على أهليهما أقل من حرصه على بسط سيادته على تلك الأصقاع ؛ فقد عنى بالوقوف على ما يشكو منه أهالى الأماكن المقدسة بالحجاز وصار يمدم بالغلال إذا ما أصابهم القحط .

وعلى الرغم من بعد الشقة بين مصر والحجاز ، فإن بعض أمراء هذه البلاد كان يتردد من حين لآخر على الديار المصرية للتحدث مع السلطان فيما يلاقيه أهالى الحرمين من الصعاب ؛ فقد قدم عطيفة بن أبى ندى أمير مكة إلى مصر سنة ٧٢٢ هـ ليخبر السلطان بالقحط الذى حل بإمارته من جراء عدم سقوط المطر فى هذه السنة ، وما ترتب على ذلك من ازدياد سعر القمح الذى وصل ثمن الأردب منه إلى مائتين وخمسين درهماً .

(١) المقرئى : السلوك : ج ٢ ق ١ ص ١٩٧ ،

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : ج ٤ القسم الأول — ورقة ٢٢٨ — ٢٢٩

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : ج ٤ — القسم الثانى ورقة ٢٤٥

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ١٢٧ ، ابن خلدون ج ٥ ص ٤٢٨

١٠ ولما وقف السلطان على ما حل بأهل مكة من الضيق بسبب تعذر حصولهم على القمح ، سارع إلى إمدادهم بالغلال ، فأمر بأن يرسل إلى مكة ألفي أردب . وكان لاهتمام السلطان بإرسال القمح إلى مكة لتخفيف آلام القحط على أهلها أحسن الأثر ، فرخص السفر ، وصار يباع أردب القمح بمائة درهم ، وبذلك ساد الرخاء في تلك المدينة في الوقت الذي قل فيه إنتاج أرضها (١) .

كذلك كان يفيض الناصر محمد على فقراء مكة والمدينة بالصدقات في مواسم الحج . ولم تقف عنايته بتوفير أسباب الحياة لأهل الحرمين عند هذا الحد ، بل أمر بوضع المكوس عنهم وذلك بأن اتفق مع أميرى مكة والمدينة سنة ٧١٩ هـ على ألا يأخذا مكوسا من أهالى هاتين المدينتين ، وتعهد أن يعوضهما عنها بإقطاعات في مصر والشام (٢) .

وكان ممن انتهج هذه السياسة أيضا ، السلطان الملك الأشرف شعبان ، فاتفق مع عجلان أمير مكة على أن يرسل إليه كل سنة مائة وستين ألف درهم نقرة (٣) ، وألف أردب من القمح ، على ألا يجبي شيئا مما يجلب إليها من الحبوب والخضروات والثمار والأغنام ، ولا مما يباع فيها ، واستثنى من ذلك بندرجدة ، وتجار السكرم الذين يأتون من انين ، وحجاج العراق ، فأباح له أن يأخذ منهم الأموال المقررة . وكتب بذلك ثلاث محاضر ، أثبت إحداها بمكة ، والثاني بالمدينة ، والثالث بمصر (٤) .

(ب) بلاد اليمن

لما توطد الملك لصالح الدين في مصر ، عهد إلى أخيه شمس الدولة

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٣٨

(٢) المقرئى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ١٩٧

(٣) الدراهم النقرة : هى التى يكون ثلثاها من فضة وثلثها من نحاس .

(٤) القلقشندى : مسيح الأعشى ج ٣ ص ٤٣٩

(٤) درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، ورقة ٢٦٩

تورانشاه بغزو بلاد اليمن^(١) ، فاستولى عليها سنة ٥٦٩ هـ ، وأقام فيها الخطبة للخليفة العباسي بعد أن حذفها المتولى عليها من قبل^(٢) . وقد ظل أمراء بني أيوب قابضين على زمام الأمور في هذه البلاد حتى خرج على طاعتهم عمر بن علي بن رسول^(٣) سنة ٦٢٩ هـ ، واستقل بملك اليمن وتلقب بالملك المنصور ، كما ضرب السكة باسمه وصار الخطباء يدعون له على المنابر^(٤) .

وكان من أثر إنصراف الأيوبيين إلى القضاء على مناوشات الصليبيين وانشغالهم بالمنازعات القائمة بينهم أن عجزوا عن توطيد نفوذهم في بلاد اليمن ؛ ومن ثم سهل على بني رسول الاستقلال بثمنونها ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل صاروا يتوارثون الحكم فيها بعد أن كان الأيوبيون يتولون أمورها وظل الحال على ذلك إلى أن انتقلت السلطة في مصر إلى المماليك ؛ فشغلوا بدورهم بضبط الأمور في البلاد المصرية ، وصد خطر المغول عنها ، والوقوف في وجه الأيوبيين بالشام الذين كانوا يتطلعون إليها .

على أن مصر ما لبثت أن علا شأنها واتسعت رقعتها في عهد الملك الظاهر بيبرس ؛ فامتد نفوذها في بلاد الشام شمالا وبلاد النوبة جنوباً ، وأصبحت البلاد الحجازية واليمنية بمقتضى التقليد الذي منحه الخليفة المستنصر بالله لهذا

(١) استقر رأى الأيوبيين أول الأمر على تسليم بلاد اليمن لبني رسول ، الذين اتخذوا مصر داراً لمقامهم ، ولكنهم سرعان ما عدلوا عن ذلك خشية أن يتازعهم في الشام إذا ما قوى نفوذهم ، واتفقوا على تسليمهم إلى اليمن بحجة الملك المعظم تورانشاه ؛ فخرجوا معه بعد ما أوصاهم أخوه السلطان الملك الناصر صلاح الدين بأن يكونوا في خدمته .

(الحزرجي : العقود الأولى في تاريخ الدولة الرسولية ج ١ ص ٢٨)

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٥٤ ،

ابن خلدون : العبر وديوان المتبدا والخبر ج ٥ ص ٢٨٧

(٣) كان صاحب اليمن الملك المسعود بن السلطان الملك الكامل قد أنابه عنه استداره على بن رسول في تلك البلاد حين خرج إلى الشام سنة ٦٢٥ ؛ فظل نائباً بها إلى أن خلفه في منصبه ابنه عمر بعد وفاته سنة ٦٢٩ هـ (أبو الفدا : ج ٣ ص ١٨٥ — ١٨٦)

(٤) العرشي : بلوغ المرام في شرح مسك الجتام ص ٤٤ ،

القاقشندى : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج ٥ ص ٣١

السلطان تحت سيادته ، وما ورد فيه : « . . . وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكريّة والحجازية واليمنية والقراتية وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً » (١) .

وقد حرص بيبرس على توطيد نفوذه في بلاد الحجاز حتى تتحقق بذلك رغبته في أن تتولى مصر زعامة العالم الإسلامي ، وخاصة بعد أن أصبحت مركزاً للخلافة العباسية ، كما ارتبط مع سلطان بلاد اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن علي بن رسول بعلاقات الود . فأرسل إليه هذا السلطان سنة ٦٦٦ هـ سفارة تحمل هدية ، تشتمل على عشرين فرساً مجهزة بالمعدات الحربية ، وبعض الفيلة ، وحمارة وحش عناية اللون ، وعدة تحف . وقد تلقى بيبرس هذه السفارة بالترحاب ، وما لبث أن أرسل لسلطان اليمن هدية كان من بين محتوياتها قميص من ملبسه ، طلبه صاحب اليمن ليكون له بمثابة الأمان ، كما بعث إليه خلعة ودرعا وبعض آلات الحرب ، وكتب إليه يقول : « قد سيرنا إليك آلة السلم وآلة الحرب مما لاصق جسدنا في موطن الجهاد » . كذلك وفدت على الظاهر بيبرس الوفود من اليمن في سنتي ٦٦٩ و ٦٧٤ هـ تحمل الهدايا من التحف والفيلة وبعض الحيوانات والطيور ، فرحب السلطان بها وأعاد رسل صاحب اليمن مزودين بالهدايا (٢) .

وقد حافظ سلطان اليمن الملك المظفر شمس الدين علي العلاقات الودية بينه وبين مصر ، فأرسل في سنة ٦٨٠ هـ إلى السلطان الملك المنصور قلاوون وفداً يحمل هدية من العود والعنبر والصيني ورماح القنا . ولم تقتصر مهمة رسل صاحب اليمن على تقديم هذه الهدية لسلطان مصر ، بل طلبوا منه أيضاً أن يرسل للملكهم أماناً مكتوباً على قميص ، وأن يوقع عليه هو وابنه الملك

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٩١

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٦٣ — ٥٦٤ ، ٥٩٥ ، ٦٤٦

الصالح ؛ فإني رغبتم^(١) ؛ وفيما يلي نص هذا الأمان^(٢) : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا أمان الله سبحانه وتعالى ، وأمان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأماننا لأخينا السلطان الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر صاحب اليمن المحروس ، إنا داعون له ولأولاده ، مسالمون من سالمهم ، معادون من عاداهم ، ناصرون من نصرهم ، خاذلون من خذلهم ، لا نرضى له ولأولاده إلا ما رضىناه لأنفسنا ، وإنا لا نقبل في حقه سعاية ساع ولا قول واش ، ولا تناله منا مضرة مدى الدهر وأعمارنا ، ما دام ملازماً لشروط مودتنا التي شافنا بها الأمير مجد الدين رسوله » .

وكان الملك المظفر شمس الدين صاحب اليمن يدارى سلطان مصر ويهاديه ، لذلك نراه يدفع الإتاوة صاغراً ويبعث إليه الهدية تلو الهدية ؛ فأوفد رسله إلى الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨٤ هـ تحمل الهدايا من الخصيان والأفراس والفيلة والبغاء ورماح القنا والبهار والقماش والأطباق . وقد قبل السلطان هذه الهدايا وأنعم على صاحب اليمن وعلى رسله بالخلع والعطايا^(٣) . ولما آلت سلطنة اليمن إلى الملك المؤيد هزير الدين داود بن المظفر يوسف سنة ٧٠٣ هـ ، حذا حذو أسلافه في التودد لسلطين مصر ، فرحب بالأمير بدر الدين مكتوب المرقبي الذي قدم سفيراً من مصر ليخبره بما حازه السلطان الناصر من ظفر على المغول في موقعة مرج الصفر ، كما شاركه في الترحيب به أعيان الدولة من الوزراء والأمراء والمقدمين . وقال الشريف إدريس بن علي في ذلك^(٤) :

لم تأتكم الرسل من مصر وساكنها إلا مؤدية حقاً لكم يجب
و حين لاحت قصور الحصن لاح لهم من نور وجهك ما لا تستر الحجب

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٠٢

(٢) بيبس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ص ١٢٣ - ١٢٣

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٢٩

(٤) الحزرجى : العقود الأثرية في تاريخ الدولة الرسولية ج ١ ص ٣٤٨

واستقبل العسكر المنصور فانصدعت قلوبهم فهي في أجوافهم نجب
كتائب مثل ضوء الشمس قسطلها غيم فساروا بليل والقنا شهب
خفت بهم فراوا أسداً ضراغمة عاداتهم في الورى إن غولبوا غلبوا
وكيف لا والأمين الروح يقدمهم في كل روع وحيزوم به يشب
وعاينوا منك وجهاً طالما سجدت له الملوك وقامت باسمه الخطب

كذلك بعث الملك المؤيد سنة ٧٠٤ هـ ، الأمير أسد الدين محمد بن نور
سفيراً إلى الديار المصرية ، مزوداً بالتحف السنية من النفديات على اختلاف
أنواعها كالطشوت والأباريق ، وكثير من الصحون والزبادى ، والثياب
المذهبة والصناديق المملوءة بالمسك ، وما تحتاج إليه مطابخ السلطان من الفلفل
والقرنفل والزنجبيل ، كما أرسل إليه مع هذا السفير ، بعض الحيوانات .
كالقيل وحمار الوحش والزرافة ، والخيول المسومة العربية^(١) .

على أن الملك المؤيد هزير الدين ، لم يكن حريصاً على إحكام أواصر
المودة مع سلطان مصر ، يدلنا على ذلك ما قام به سنة ٧٠٧ هـ ، فقد أساء
معاملة التجار المصريين وأخذ أموالهم بغير حق ، كما عول على عدم إرسال
المال المقرر إلى مصر . وكان يقصد بذلك أن يبعث به إلى مكة ليقدّم اسمه
على اسم سلطان مصر في الدعاء . وقد كتب إليه الناصر محمد يهده وينذره
إذا استمر على موقفه ولم يُذعن بالطاعة له ، كما بعث إليه الخليفة المستكني
بالله أبو الربيع سليمان كتاباً بهذا المعنى حين امتنع عن إرسال الهدية التي
جرت العادة بإرسالها إلى مصر^(٢) ، وما ورد في هذا الكتاب^(٣) : (يا أيها
الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) .

(١) الحزرجى : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ج ١ ص ٣٦٠ — ٣٦١

(٢) الزويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٤٤ ،

المقرئى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٣٢ — ٣٣

(٣) القلشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج ٦ ص ٤٢٢ — ٤٢٦

من عبد الله ووليه أبي الربيع سليمان :

«... لما أفاض الله علينا صلة الخلافة ، وجعل محلنا الشريف محل الرحمة والرفقة ، وأقعدنا على سدة خلافة طالما أشرقت بالخلافة من آبائنا ، وابتهجت بالسادة الغطاريف من أسلافنا ، وألبسنا خلعة هي من سواد السؤدد مصبوغة ومن سواد العيون وسويداوات القلوب مصبوغة... وقلدنا كل إقليم من عملنا من يصلح سياستها عن الدوام ، واستكفينا بالكفاة من عملنا على أعمالنا ، واتخذنا مصر دار مقامنا وبها سدة مقامنا . لما كانت في هذا العصر قبة الإسلام ، وفيثة الإمام وثانيه دار السلام ، تعين علينا أن نتصفح جرائد عملنا ، ونأمل نظام أعمالنا ، مكانا فكانا ، وزمانا فزمانا : فتصفحناها فوجدنا قطر اليمن خاليا من ولايتنا في هذا الزمن . عرفنا هذا الأمر من اتخذناه للملك الإسلامية عينا وقلبا... وفوضنا إليه أمر الملك الإسلامية... وهو السلطان الأجل ، السيد الملك الناصر... وانصل بمواقفنا الشريفة أمور صدرت منك .

منها - وهي العظمى التي ترتب عليها ما ترتب - قطع الميرة عن البيت الحرام ، وقد علمت أنه واد غير ذي زرع ، ولا يحل لأحد أن يتطرق إليه بمنع . ومنها . انصبابك إلى تفريغ مال بيت المال في سرا هو الحديث ، ونقض العهود القديمة

ومنها : تعطيل أجياد المنابر من عقود إسمنا وخلو تلك الأماكن من أمور عقدنا وحلنا .

وما عهدنا إلى مكاتبتك إلا للأنذار ، ولا احتجنا إلى مخاطبتك إلا للاعذار ، فأقلع عما أنت بصدده من الخيلاء والاعجاب ، وانتظم في سلك من استخلفناه... فلسنا نشن الغارات على من نطق بالشهادتين لسانه وقلبه ولسنا بمن يأمر بتجريد سيف إلا على من علمنا أنه خرج عن طاعتنا ، ورفض كتاب الله ونزع عن مبايعتنا...

واشروط على نفسك في كل سنة قطيعة ترفعها إلى بيت المال ، وإياك ثم إياك أن تكون على هذا الأمر من مال ، ورتب جيشاً مقيماً تحت علم السلطان الأجل الملك الناصر للقاء العدو المخذول التار . . . ليعود رسولك من دار الخلافة بتقاليدها وتشاريفها حاملاً أهلة أعلامنا المنصورة . . . وإن أبي حالك إلا أن استمررت على غيك . فقد منعناك التصرف في البلاد ، والنظر في أحكام الجهاد . . . أعلنك ذلك فاعمل بمقتضاه ، موثقاً إن شاء الله تعالى . ، ولم يكتف الناصر محمد بالإلذار الذي أرسله إلى صاحب اليمن ، بل عهد إلى الأمير عز الدين أبيك الشجاعى بأعداد أسطول لغزو تلك البلاد ؛ غير أن أحداثاً داخلية وقعت بمصر ، أرجأت إرسال الحملة البحرية ، إلى اليمن ؛ ذلك أن الناصر محمد ازداد تدمره من كل من الأميرين بيبرس وسلار بسبب استبدادهما بالأمور دونه وتضييقهما عليه ؛ وما لبثت الفتنة أن اشتعلت في القاهرة ، وتأهب المماليك السلطانية للدفاع عن السلطان بالقلعة كما ثار العامة في وجه أنصار بيبرس وسلار ؛ وما زال الحال على ذلك حتى طلب بعض الأمراء من السلطان أن يركب مع أمرائه إلى الجبل الأحمر حتى تطمئن عليه العامة ، فلبى طلبهم وهدأت الفتنة .

وعلى الرغم من خمود نار هذه الفتنة ، فإن سلار خشى أن يدبر السلطان حيلة للتخلص منه ؛ ومن ثم عول على أنه يقود حملة بلاد اليمن ليلتعد عن الفتن وليحوز لنفسه النفوذ الأسى في تلك البلاد . ففطن لذلك بيبرس ودس إليه من الأمراء من ثنى عزمه عنها ؛ كما أن رأى ما لبث أن استقر على تأجيل سهر الحملة إلى أن يرد جواب صاحب اليمن ، ثم حالت ظروف مصر الداخلية دون إنجازها^(١) .

ولم يمض على ذلك أربع سنوات حتى عدل الملك المؤيد هزير الدين عن موقفه العدائى وعزم على إعادة العلاقات بين اليمن ومصر سيرتها الأولى ،

فأوفد رسله سنة ٧١١ هـ إلى الناصر محمد ومعهم هدية من الجمال والخيول والوحوش . وقد لقيت هذه الهدية قبولا من السلطان وأمر بتوزيعها على كبار الأمراء وصغارهم^(١) .

ولم تقتصر العلاقة بين مصر وبلاد اليمن على تبادل المراسلات والهدايا . بل استعان بعض ملوك تلك البلاد بالسلطان الملك الناصر ضد منافسيهم . فطلب الملك المجاهد سيف الدين سنة ٧٢٥ هـ — بعد أن تقاض عنه سلطانه^(٢) حتى صار لا يعده حصن تعز^(٣) — من سلطان مصر أن ينجده ضد ابن عمه عبد الله ابن المنصور صاحب دملوه^(٤) الذي أصبح بيده معظم بلاد اليمن وتلقب بالملك الناصر ؛ فامتنع الناصر أول الأمر عن إجابة طلبه . ولما أرسل إليه الملك المجاهد يطلب النجدة مرة ثانية ويرغبه في أموال اليمن ، سارع إلى تلبية

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ١٠٧

(٢) لم يكن الأمر مستقراً للملك المجاهد في بلاد اليمن ؛ فقبض على ابن عمه الملك الناصر جلال الدين سنة ٧٢٢ هـ لخروجه عليه ، ولم يرض على ذلك بضعة أشهر حتى نفر منه بعض الأمراء والعسكر ، واتفقوا على إقامة عمه الملك المنصور أيوب بن السلطان الملك المنصور بدلا منه . ولما أحكموا تدبيرهم ، قصد الأمراء والمماليك إلى حيث يقيم السلطان الملك المجاهد وقبضوا عليه وعادوا به إلى الملك المنصور أسيراً ؛ فاعتقله في دار الإمارة وجعله معزلاً . مكرماً ، ثم بعث في طلب ابن عمه الملك الناصر وأقطعه بعض الأراضي وعين ابنه الملك الظاهر أسد الدين نائباً بالدملوه .

على أن الملك المنصور لم يتمتع ضوئاً بسلطانه اليمن ، فقد تقدم غلمان الملك المجاهد إلى الحصن الذي يقيم به الملك المنصور بمدينة تعز واستولوا عليه ، ونادوا بشعار المجاهد ، ثم اتفقت كلمة الأمراء على تولية الملك الناصر ؛ فساروا إليه وقلوا له : إن كان الملك المنصور قد مات أو قبل أو قبض عليه فأنت أولى بالملك ؛ غير أنهم لم يجدوا من يساعدهم على تحقيق غرضهم ؛ وبذلك سهل على الملك المجاهد أن يستعيد عرشه ، وما لبث بعد ذلك أن طلب من عمه المنصور أن يبعث إلى ابنه الظاهر كتاباً يأمره فيه بتسليم الدملوه ، فكتب له بذلك ، لكنه لم يمثل لأمر والده وامتنع عن تسليمها ؛ فجهز السلطان الملك المجاهد عسكرياً لمحاربتة وطالت مدة الحرب بين الفريقين ، كما ظلت الأمور مضطربة في مملكة اليمن .

(الخروجى : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ج ٢ ص ١ — ٦)

(٣) تعز : إحدى قلاع اليمن . وقد اتخذها سلاطين بني رسول مقراً لمكهم .

ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٩٣ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٨

(٤) دملوه : حصن عظيم باليمن . ياقوت : معجم البلدان

رغبته؛ فأرسل إليه حملة تحت قيادة الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب (١). ولما وصل إلى أهل زبيد نبأ قدوم هذه الحملة، ثاروا بالملك الظاهر وأجمعوا على الدخول في طاعة الملك المجاهد خوفا من معرفة الاستعبانة بالجند المصري. وكتبوا إلى المجاهد بذلك؛ فتقوى جانبه ونزل من قلعة تعز يريد «زبيد» (٢) حيث التقى بالعساكر المصرية. ولم يكديشاهد هذا السلطان هؤلاء الجند - وهم مزودون بعدد هم الخريبة - حتى دب في قلبه الرعب، وهم أن يترجل عن فرسه، فمنعه الأمير بيبرس؛ لسكن الملك المجاهد ما لبث أن نزل عن ركابه حين اقترب منه الجند المصري، فترجل له أيضا الأمراء، وقبلوا الأرض بين يديه، ثم ساروا معه إلى الخيمة التي أقاموها حيث أخرجوا صندوقا فيه عمامة بعدبتين وخلعة فاخرة؛ فألبسوه الخلعة والعمامة (٣)، ثم دخل الملك المجاهد بلدة زبيد بصحة الأمراء والعساكر فسر أهلها سرورا عظيما بملقائه (٤).

ولما وقف الأمير بيبرس على حقيقة الحال في بلاد اليمن، أرسل إلى الملك الظاهر بدملوه سفارة تطلعه على كتاب السلطان الناصر الذي يتضمن الرغبة في التوفيق بينه وبين الملك المجاهد. فطلب الظاهر أن تكون قلعة دملوه للسلطان على أن يكون نائبه بها، وأعاد الرسل بعد أن أكرم وفادتهم (٥). ولما لم يف الملك المجاهد بما قرره على نفسه من الانفاق على الجند المصري أثناء إقامتهم ببلاده، عنفه الأمير بيبرس على ذلك، فاعتذر له بسوء حالة بلاده ثم أصدر أوامره بأن يجهن لهم ما يحتاجون إليه من الأغنام والأذرة،

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٢٥٤ ، ٢٥٩ - ٢٦٠

النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ص ٥٧ - ٥٨

(٢) زبيد : مدينة من تهائم اليمن . انقلاشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٩

(٣) المزرجى : العقود اللؤلؤية ج ٢ ص ٣٢

(٤) المقرئى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٦٥ - ٢٦٦

(٥) النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ص ٥٩

وسار بنفسه مع بعض الأمراء إلى « تعز » ليشرف على إعداد ما يكفيهم من المؤونة . وظل الجند مقيمين بزييد إلى أن عاد إليهم الأمراء دون أن يظفروا بشيء ؛ ومن ثم أجمع الجند على الرحيل إلى تعز حيث بشوا شكواهم للملك المجاهد ، فوعدهم بأنه سيعمل على إجابة طلباتهم ، لكنه لم يف بوعده واضطر الجند بعد أن اشتد بهم الضيق إلى الإغارة على الضياع والاستيلاء على ما وصلت إليه أيديهم (١) ؛ وما لبثوا بعد ذلك أن اشتبكوا مع جماعة من أهل جبل صبر المطل على قلعة تعز بسبب خروجهم عليهم وقطعهم الماء عنهم ، ثم أرغموهم على الاعتصام بالجبل .

ولما ضاق الملك المجاهد ذرعا بالجند المصري واشتد خوفه ، قال للأمير بيبرس : « إن كان السلطان قد رسم لكم الإقامة ، فالأمر إليه ، وإن كان إنما أرسلكم لنصرتي ، فارجعوا إلى أبواب السلطان . » ثم أحضر قضاة تعز ، وأشهد على نفسه أنه أذن للعسكر بالعودة إلى بلادهم ؛ ومالبت بيبرس بعد ذلك أن رحل بجنده إلى مصر (٢) .

ولم يكد يستقر المقام لبيبرس بالقاهرة حتى أغرى الأمير طينال السلطان به ، فنسب إليه أنه أخذ مالا من الملك المجاهد . وأنه قصر في امتلاك بلاد اليمن . وقد رأى السلطان أن يعاقبه على ذلك بتوليته نائباً على غزه ؛ غير أن الأمير بيبرس امتنع عن تقلد هذا المنصب حين بلغه ما قيل عنه وبسبب غضب السلطان عليه ؛ بيد أن ذلك لم يمنع الناصر من معاقبته ، فاعتقله هو وحاشيته وصادر أموالهم (٣) .

ولم يكن في استطاعة ملوك اليمن التخلص من الهيمنة المصرية ، بسبب

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٦٦ — ٢٦٧

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ص ٦٠

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ (القسم الثانى) ص ٢٣٩ — ٢٤٠

تنافسهم على العرش ووقوع بعضهم في نزاع مع الأئمة الزيدية (١) الذين اتخذوا صنعاء داراً لإقامتهم وأصبحوا يعتقدون أنه قد آن أوان ظهورهم وحان حين ملكهم ، (٢)

ولا شك أن ملوك اليمن لم يكونوا مظمئين على دوام ملكهم في تلك البلاد بسبب انتشار نفوذ هؤلاء الأئمة في صنعاء ، وما كان يقوم به دعائهم من بث الدعوة لهم في أنحاء البلاد ، ومن ثم قام الخلاف بينهم ، وبلغ من اشتداد وطأته أن أرسل يحيى بن حمزة إمام الزيدية إلى الناصر محمد كتاباً أطال فيه الشكوى من صاحب اليمن وعدد مساوئه وطلب إمداده بحملة لإجلاله عن دياره وقال : « إنه إذا حضرت الجيوش المؤيدة قام معها وقاد إليها الأشراف والعرب أجمعها ، ثم إذا استنفذ منه ما بيده أنعم عليه ببعضه وأعطى منه ما هو إلى جانب أرضه ، . وقد بعث إليه الناصر رداً على كتابه ، أظهر فيه استعداداً لإرسال نجدة إليه ، وقال : « ولا أرب لنا في استزاده بلاد وسخ الله لنا نطاقها ، وكثر بنا مواد أموالها وقد رعى أيدينا إنفاقها ، وإنما القصد كله والأرب جميعه كشف تلك الكربة (٣) ، . . . »

وكان الناصر محمد يرحب بالتدخل بين أمراء اليمن في منازعاتهم ، وفيما يقع بينهم وبين الأئمة الزيدية رجاء أن يكون له ضلع في إدارة شئونهم الداخلية وفي تجارة الشرق (٤) .

(١) الزيدية : فرقة من الشيعة يعتقدون إمامة علي عليه السلام ، والحسن من بعده والحسين ، ثم يفارقون الإمامية من بعد الحسن ، فيذهب الإمامية إلى إمامة علي زين العابدين عليه السلام ، ولا تذهب الزيدية إلى ذلك لأنه لم يظهر سيفه في منابذة (أعدائهم الأمويين) وذلك أحد شروط الإمامة عندهم . وقد اعتقدت الزيدية بإمامة زيد لأنه شمر سيفه ضد الأمويين

ابن زهرة الحسيني : غاية الاختصار في أخبار البيوتات العلوية المحفوظة من النبار ص ٨٢

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٥٢

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٣٧ — ٣٣٨

(٤) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p. 73.

وقد استطاع سلطان مصر بتدخله لحسم الخلاف القائم في تلك البلاد بين أمرائها حيناً وبين هؤلاء الأمراء والأئمة الزيدية حيناً آخر أن يحتفظ لمصر بمكانها الأسى في بلاد اليمن ، فأصبح ملوكها يدينون بالطاعة لسلطين مصر ويحرصون على إرسال الإتاوة إليهم خشية إقدام هؤلاء السلاطين على غزو تلك البلاد واستبدالهم بالسلطة فيها ، كما أنه بفضل حرص ملوك اليمن على إرضاء سلاطين مصر ، صارت تجارة الشرق ترد إليهم دون أن ينالها أي سوء .

(ح) الهند

أسس قطب الدين أيبك سنة ١٢٠٦ م أول دولة إسلامية بهندستان^(١) على أثر وفاة محمد الغورى سلطان الدولة الغورية^(٢) ، وظلت سلالاته تتوارث عرش تلك الدولة حتى سنة ١٢٨٧ م حيث خلفتهم أسرة إسلامية تركية تعرف بالأسره الخلجية^(٣) Khalgis (١٢٩٠ - ١٣٢٠ م) .

وقد شن المغول عدة غارات على هندستان في عهد الملك المسعود علاء الدين سنجر الخلجي . وكان أشدها خطراً تلك الغارة التي اجتازوا فيها ممرات الهند الشمالية قاصدين دلهى سنة ١٢٩٧ م . ولما صاروا على مقربة منها جزع أعوان علاء الدين ونصحوا له بمسالتهم ، فأبى الإصغاء إليهم وعهد لقائده ظفر خان Zafar Khan بملاقاتهم ، فأوقع بهم هزيمة منكرة^(٤) .

ولما توفي السلطان علاء الدين سنة ١٣١٦ م ، قبض وزيره كافور على زمام الأمور في يده وأجلس على العرش شهاب الدين عمر وهو طفل لا يتجاوز

(١) كانت دولة هندستان الإسلامية تشمل شمال الهند حتى مصب نهر السكج

Stanly Lane-Poole, The Mohammedan Dynasties p. 295.

(٢) كانت الدولة الغورية تشمل أفغانستان و هندستان . وقد ظلت قائمة من سنة

٥٤٣ - ٦١٣ هـ (١١٤٨ - ١٢١٦ م) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 291

(٣) Stanley Lane-Poole, Op. Cit, pp 295 - 299.

Stanley Lane-Poole, Mediaeval India Under Mohammedan Rule pp.(٤)

ست سنوات ، وسمي عيون أخوين له أكبر منه سناً ، وأساء معاملتهما ، كما طرد أمهما الملكة واغتصب أملاكها .

ولم يعض على إعتلاء شهاب الدين العرش أكثر من خمسة أسابيع حتى خرج عليه أحد إخوته وسمي عينيه واغتصب منه العرش وتلقب بقطب الدين مبارك شاه - وكان على النقيض من والده - فانصرف إلى اللهو واللعب ووقع تحت تأثير وزيره المنبوذ خسروخان الذي لم يلبث طويلاً حتى تجرأ على سيده وقتله سنة ١٣٣١ ، ثم إرتقى العرش بدلاً منه ، وأخذ يسيء السيرة في البلاد ويسفك الدماء البريئة حتى لجأ المسلمون إلى تغلق - أحد القواد الذين وقفوا في وجه المغول حين حاولوا اجتياح الهند في عهد السلطان علاء الدين - فجمع بعض القوات ودخل دلهي لتخليصها من يد خسرو . وسرعان ما تكلم مسعاه بالنجاح ، فقبض على هذا الوزير وقطع رأسه ؟ ثم جمع تغلق النبلاء والضباط واقترح عليهم اختيار أحد أمراء الأسرة المالكة . ولم يكذبته من حديثه حتى نادوا به جميعاً ملكاً عليهم وقدموا له فروض الطاعة^(١) .

وقد قام تغلق بكثير من الأعمال الجليلة ، فأعاد الأمن إلى نصابه وأخضع الثائرين في ولايات الدكن ، كما سار بنفسه على رأس حملة إلى بلاد البنغال وجعلها تدين بالطاعة له . ولما توفي سنة ١٣٢٥ م حين عودته من تلك البلاد ، خلفه ابنه الجخان Ulugh khan الذي تلقب بالسلطان محمد بن تغلق^(٢) .

وعلى الرغم من إنصراف محمد بن تغلق إلى تنظيم شئون دولته ، وما لقيه من المتاعب في ذلك السبيل ، فإن مطامعه تعدت حدود بلاد الهند ، ووضع منهاجاً جديداً لسياسة دولته الخارجية ، يتضمن فتح الصين وخراسان وتوطيد

i Stanley Lane-Poole, Mediaeval India Under Mohammedan Rule, (١) pp. 116-120

Stanley Lane- Poole, Op-Cit, pp. 121. 122, Allan, The Cambridge (٢) Shorter History of India p. 232.

علاقته بمصر ، بعد أن كانت همه أسلافه موجّهة فقط إلى إنقاذ الهند من شر المغول .

وكان محمد بن تغلق يكرم وفادة الأجانب الذين يقصدون بلاده ويفضلهم على غيرهم من المواطنين ، حتى إنه كثيراً ما خصص للوافدين على دلهي إيراد بعض القرى ليكونوا منعمين برغد العيش أثناء إقامتهم ببلاده ، وليمكنوا من العودة في أيسر حال^(١) .

وقد قضى محمد بن تغلق — ببذله الأموال على الوفود التي هرعت إلى بلاده — على السكّوز والثروات المتجمعة لديه . وكان يأمل من وراء الترحيب بقدم الأجانب إلى الهند أن يعاونوه على تنفيذ مشروع فتح خراسان الذي كان من بين مشروعاته المتطرفة . وقد جهز له جيشاً ضخماً ، استنزف أموال خزائنه ، حتى إنه في العام التالي لإعدادده ، عجز عن دفع نفقاته وإنتهى به الأمر بحله^(٢) .

وكان محمد بن تغلق يرمى من وراء فتح خراسان إلى إضعاف نفوذ المغول ودرء خطرهم عن دولته . وقد حمّله ذلك على إرسال وفدين إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ١٣٣١م للسعي في الحصول على معاونته ضدهم^(٣) وكان محمد بن تغلق قد بعث إلى الناصر ، قبل ذلك ببضع سنين رساله

tanley Lane- Poole, Mediaeval India Under Mohammedan Rule, p. (١)
§128.

Allan, The Cambridge Shorter History of India p. 237 (٢)

Sir William Muir The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 73. (٣)

لم يشر المقرئى : (السلوك ج ٢ ص ١٤٢٢) إلى ما طليه سفراء محمد بن تغلق من الناصر واكتفى بقوله إن رسل ملك الهند قدمت إلى مصر سنة ٧٣١ هـ عن طريق بغداد ، وأن السلطان أكرمهم وخلع عليهم .

أما Lane-Poole فقد ذكر في كتابه :

(A History of Egypt in the middle ages p. 310) أنه من المحتمل أن محمد

ابن تغلق الذي كان يسكر في فتح شرق فارس قد طالب من الناصر القيام بهجوم عاجل على مملكة المغول في غرب فارس .

مزودين بهدايا من التحف الهندية الفاخرة وأربعة عشر حقا ، ملئت بفصوص
الماس ؛ غير أنه حدث بينهم ما حملهم على التشاجر - وهم في طريقهم إلى
مصر - فقتل بعضهم بعضا . ولما نعى ذلك إلى الملك المجاهد صاحب الين ،
قتل من بقى منهم واستحوذ على ما معهم من الهدايا (١) .

ولما وصل إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون نبأ استيلاء الملك
المجاهد صاحب الين على الهدايا المرسلة إليه من محمد بن تغلق ، نقم عليه
وقبض على رسوله الذى كان قد قدم عليه إذ ذاك ومعه هديه منه وزجه في
السجن (٢) ، كما أنفذ إلى صاحب الين كتابا عاتبه فيه على عدم اهتمامه بإرسال
هدية ملك الهند إليه وإستحواذه عليها (٣) .

ولم يكتف محمد بن تغلق بإنفاذ بعض رسله وهداياه إلى السلطان الناصر ،
بل دخل أيضا في مراسلات مع المستكني بالله الخليفة العباسي بالقاهرة وابنه
الحاكم بأمر الله أحمد ، لينحاه تقليدا بولايته على بلاده ؛ فاجاباه إلى طلبه (٤)
ولما آلت سلطنة هندستان إلى فيروز شاه (٥) (١٣٥١ - ١٣٨٨ م) أذعن
للخليفة العباسي بالقاهرة ، وبعث إليه يطلب منه تفويضا . فأرسل المعتضد
بالله سنة ١٣٥٦ م بعثة تحمل تقليدا بتوليته سلطانا على دلهي ، وكتابا أذاع

(١) الشوكاني : البدر الطالع بحسان من بعد القرن السابع ج ٢ ص ١٨٠ ، عبدالحى
ابن فخر الحنفى : نزهة الخواطر وبهجة السامع والنواظر ص ١٣٥

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ١٠١

(٣) الشوكاني : البدر الطالع بحسان من بعد القرن السابع ج ٢ ص ١٨٠

(٤) Arnold, The Caliphate, p. 104, Allan, The Cambridge Shorter History of India p. 240

(٥) ١. توفي محمد بن تغلق سنة ٧٥١ هـ ، انفتحت كلمة رجال الدولة على تولية ابن عمه
أبو المظفر كمال الدين فيروز شاه ، لكنه امتنع أول الأمر عن قبول السلطنة ، وما زال
القضاة وأعيان الدولة يلحون عليه حتى قبلها ثم بايعوه في الحرم سنة ٧٥٢ هـ .
وقد افتتح هذا السلطان عهدا باقامة العدل والاحسان وأسس مدينة كبيرة بالقرب من
دلهي سنة ٧٥٥ هـ سماها فيروز آباد ، كما هنى بنشر العلوم وتشجيع العلماء .

عبد الحى بن فخر الدين الحنفى : نزهة الخواطر وبهجة السامع والخواطر ص ١١٠ - ١١٢ .

فيه أن الخليفة اعترف بياهمان شاه Bahman Shah ملكا على بلاد الدكن (١) Deccan ، ومن ذلك نرى كيف أصبح لسلطين مصر والخلفاء العباسيين بالقاهرة مكانة سامية في بلاد الهند .

(د) بلاد المغرب

كان من أثر المركز السامى الذى تبوأته مصر بين أمم العالم الإسلامى فى عهد أسرة قلاوون ، أن أصبح الملوك الشرقيون يخطبون ود سلاطينها ويستنجد بهم البعض لاستعادة ملكهم . فقدم الأمير أبو يحيى زكريا الحفصى (٢) على السلطان الناصر محمد سنة ٧١١ هـ (١٣١١ م) وطلب منه أن يرسل معه حملة لتعاونيه على إستعادة نفوذه بتونس ، على أن يكون نائباً له بهذه الإمارة ؛ فجهز معه السلطان فريقاً من الجند (٣) . ولما وصل طرابلس التف حولها جماعة من العربان والمغاربة ؛ فاشتد بهم أزره ، واستطاع أن يضم هذه المدينة إلى حوزته ، ثم أقام فيها الخطبة للناصر محمد ؛ وما لبث بعد ذلك أن تابع سيره إلى تونس على رأس العساكر المصرية وظل يحاصر مدينة إفريقية ، حتى تيسر له فتحها ، ثم أشهد الأمير أبو البقاء خالد — صاحب تونس — على نفسه بالخلع ؛ وبذلك تيسر للامير أبى يحيى زكريا أن يستعيد

(١) Allan. The Cambridge Shorter History of India p. 246.

(٢) ينتسب الحفصيون إلى أبى حفص عمر بن يحيى المنتاقى ، وكان من أكبر أصحاب محمد بن تومرت بعد عبد المؤمن ؛ وقد تولى ابنه عبد الواحد لإفريقية نائباً عن بنى عبد المؤمن سنة ٦٠٣ هـ . وظل الحفصيون يتولون تونس ويخطبون باسم عبد المؤمن والمهدى إلى سنة ٦٦٢ هـ حيث قام أبو زكريا بن عبد الواحد على بنى عبد المؤمن ؛ فضاخ طاعتهم وأسقطوا اسم عبد المؤمن من الخطبة وأبقى اسم المهدى وتملك إفريقية وخطب لنفسه بالأمير المرتضى . ولما استعاد ابنه أبو عبد الله محمد الحفصى ملكه بعد أن خلع منه ، ثاقب وخطب لنفسه بالاستنصار بالله أمير المؤمنين أبى عبدالله محمد ابن الأمراء الراشدين ، واقتدى به من خافه من الحفصيين فى التلقب بلقب أمير المؤمنين .

أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ١٨٧ — ١٨٦ ،
Sir Thomes Arnold, The Caliphate, pp. 115-116.

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ج ٢ ص ١٣
ابن إياس : تاريخ مصر ج ١ ص ١٥٧

ملكه بتونس . ولما استقر له الأمر بها ، حذف اسم المهدي محمد بن تومرت من الخطبة وأمر الخطباء بأن يدعوا للناصر محمد بن قلاوون على المنابر (١) ؛ ومن ذلك نرى كيف ساعد هذا الأمير الحفصي على امتداد سلطنة المماليك في عهد الناصر محمد إلى طرابلس وتونس ؛ فظلت تقام الخطبة فيهما باسمه من سنة ١٣١١ - ١٣١٧ م (٢) .

١ على أن الأمير أبي يحيى زكريا لم يتمتع طويلاً بالملك ؛ فقد خشي على نفسه من الأمير أبي بكر أخى الأمير خالد الذى خلع من عرش تونس ، وخرج من إمارته سنة ٧١٧ هـ قاصداً فاس ، فظل بها فترة من الزمن ، ثم توجه إلى طرابلس ، وأبحر منها مع أهله إلى الإسكندرية سنة ٧١٩ هـ حيث عاش زاهداً في الملك إلى أن توفي سنة ٧٢٩ هـ (٣) .

كذلك تبادل الناصر محمد مع يوسف بن عبد الحق سلطان المغرب الأقصى الرسل والهدايا ، فأرسل إليه وفداً مزوداً بالتحف . ولما قدم هذا الوفد على سلطان المغرب سنة ٧٠٦ هـ ، تلقاهم بمظاهر الحفاوة وبعث بهم إلى أقاليم مراکش ليتطوفوا بها ، غير أنه مالبث أن توفي ، وحذا خليفته أبو ثابت البزولى حذوه في الترحيب بهم والتقرب إلى سلطان مصر ، فأنفذ معهم إلى الناصر هدية من الخيل والبغال والإبل (٤) . وعلى الرغم من أن هذه الهدية لم تصل إلى مصر بسبب اعتراض بعض قطاع الطرق لركب حجاج المغرب ورسل الناصر ؛ فقد توثقت عرا الصداقة بين الدولتين وازدادت رسوخاً في عهد السلطان أبي الحسن على بن عثمان بن يعقوب المريني الذى حرص على

(١) الشوكاني : الدرر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ج ١ ص ٣٥١

(٢) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 208.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٢٩ - ١٣٠

ابن حجر : الدرر السكينة في أعيان المائة الثامنة ج ٢ ص ١١٣ - ١١٤

أبو القدا : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ١٨٩ - ١٩٠

(٤) ابن خلدون : ج ٥ ص ٤٢٠ - ٤٢١

التودد لسلطان مصر ، فكتب للناصر يبشره بفتح بجاية (١) والانتصار على
تلمسان (٢) سنة ٧٣٧ هـ ، وزوال ما كان يعوقه عن وفادة الحاج (٣) ، كما بعث
إليه كتاباً آخر سنة ٧٣٨ هـ مع الهدايا التي أرسلها بصحبة ابنته وحاشيتها (٤) ،
وكان من بينها خمسمائة جواد مغربي بعثتها وبعض الأقمشة الحريرية والصوفية
والكتانية والأواني الخزفية وأصناف الدر والياقوت . وقد وزع السلطان
هذه الهدية على الأمراء واستأثر منها لنفسه بالدر والياقوت (٥) . وفيما يلي
بعض فقرات من كتاب السلطان أبي الحسن على المريني (٦) : إنا
نحيط علم الإخاء الأعز ما كان من عزم مولانا الوالدة قدس الله روحها
وبور ضريحها على أداء فريضة الحج الواجبة . . . فاعترض الحمام دون ذلك
المرام ، وعاق القدر عن بلوغ ذلك الوطر ، . . . وإن لدينا من توجب
إعظامها . . . وهي محل والدتنا المسكومة . . . وقد شيعناها إلى حج بيت الله
الحرام وحين شخص لذلكم الغرض الكريم موكبها . . . أصحبناها
من حور دولتنا وأحظيائنا ووجوه دعوتنا العلية وأوليائها ، من اخترنا
لهذه الوجهة الحميدة الأثر . . . من أعيان بني مرين . . . والعرب وأولاد
المشايع أولى الديانة والتقوى . . . وقصدهم من أداء فرض الحج قصدها . . .
وسيرنا من خف هذه البلاد إليكم ما تيسر في الوقت تسييره . . . ومعظم
فصدنا من هذه الوجهة المباركة إيصال المصحف العزيز الذي خططناه
بيدنا . . . إلى مسجد سيدنا ومولانا ، وعصمة ديننا ودنيانا محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم

(١) بجاية : إحدى مدن المغرب الأوسط وتقع على ساحل (البحر الأبيض) .

ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٦٢ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٠٩

(٢) تلمسان : تقع بالمغرب الأوسط ، وقد قامت بها مملكة تحمد شرقاً بإفريقية وغرباً

بمملكة فاس (القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٤٩)

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٩٥

(٤) المقریزی : السلوك ج ٢ ص ٤٦٤ ب

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٥ ص ٤٤٠ — ٤٤١

(٦) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ٩٩ — ١٠٣

ولما وصلت ابنة سلطان بنى مرين وحاشيتها إلى القاهرة في رمضان سنة ٧٣٨ هـ ، رحب بها الناصر محمد ثم نقلها بمن معها إلى إحدى دور القلعة وأحسن ضيافتهم ؛ فخصص لهم كل يوم ثلاثين رأساً من الغنم ونصف أردب أرز وقنطاراً من حب الرمان وربع قنطار سكر وغير ذلك مما يلزمهم من الشمع والتوابل ، ثم ندب السلطان الأمير جمال الدين متولى الجيزة للسفر معها إلى بلاد الحجاز . وأمره بأن يعد لها ركبا خاصا بها ، كما كتب إلى أميرى مكة والمدينة بأن يكونا في خدمتها^(١) ، ثم بعث إلى السلطان أبي الحسن على المريني يخبره بوصول وفد حجاج المغرب ؛ وكان مما جاء في هذا الكتاب^(٢) : . . . (لقد) استقبلناهم على بعد بالإكرام . . . وأسدلنا الخلع على جميعهم ، واحتفلنا بهم في قدومهم ومقامهم وتشجيعهم . . . وعرضوا بين أيدينا ما أحسبهم من الطرف والهدايا التي لا تحمّلها ظهور البحار فكيف ظهور المطايا . . . فتقبلنا أجناسها وأنواعها وتأملنا غرائبها وإبداعها ، وجعلنا يوماً أو بعض يوم في حواصلنا لإبداعها ، ثم استصفينا منها نفائس آثرنا إليها إرجاعها وفرقنا في أولياتنا اجتماعها . . . وسطرنا (هذا الكتاب) وركبكم المبارك قد رامت السرى فجائبهم ، وأمت أم القرى ركائبهم . . . وكتبنا إلى أمراء المدينة المشرقة أن تتلقى بالقبول الحسن مصحفه ، وتحمّله بين الروضة والمنبر . . . وعما قليل يتم حجهم واعتمارهم . . . ثم يصدرون إن شاء الله إليكم ركائبهم بالمناح مثقلات . . . »

ولما عاد حجاج المغرب من بلاد الحجاز بعد أدائهم مناسك الحج ، جهز معهم الناصر هدية للسلطان أبي حسن على المريني ، تشتمل على ثياب من الحرير المنسوج بالإسكندرية وخيمة مصنوعة بالشام ، فيها أمثال البيوت

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٤٦٥

ابن خلدون : العبر وديوان المختار والخبر ج ٥ ص ٤٤١

(٢) ألفانندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٨٩ — ٣٩٥

والقبا، ومبطنة من الداخل بالحرير العراقي، وصوان من الحرير مزيج الشكل، وعشرة جيا، بسروج ولحم ملوكية مصنوعة من الذهب والفضة ومرصعة باللاآلى^(١).

ولما وصلت هذه الهدية إلى سلطان المغرب، حازت قبوله، وأعاد رسل الناصر بكتاب أثى فيه عليه: ومن ثم توطدت العلاقة بين مصر وبلاد المغرب الأقصى.

...

وكان صاحب تلسان يرسل أيضاً الناصر، ويحرص على التودد إليه رغم انحياز سلطان مصر لسلطان المغرب الأقصى الذى عرف بعدائه لإمارة تلسان.

وقد أوضح عبد الرحمن بن أبى موسى بن يغمراسن صاحب تلسان موقفه من الناصر فى هذه المكاتبة^(٢): ... تلقينا كتابكم بما يجب من التكريم... وعلينا ما انطوى عليه من المن والأفضال... ومن أعظم إذنكم لنا فى أداء فرض الحج المبرور وزيارة سيد البشر. وقد وجب شكركم علينا من كل الجهات واتصلت المحبة والمودة طول الحياة؛ غير أن فى قلوبنا شيئاً من ميلكم إلى غيرنا واستئناسكم، ونحن والحمد لله أعلم الناس بما يجب من حقوق ذلكم المقام الشريف، ولنا القدرة على القيام بواجبكم والوفاء بكرم حقكم؛ وليس بيننا وبين بلادكم من يخشى والحمد لله من كيد... وقد توجه إلى بابكم الشريف قرابتنا الشيخ الصالح... أبو زكريا يحيى... وغرضنا أن تعرفوه بجميع ما يصلح لذككم المقام الشريف مما فى بلادنا، ويصلكم إن شاء الله فى أقرب الأوقات...

(١) ابن خلدون: المعبر وديوان المتدا والخبير ج ٥ ص ٤٤١

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٨ ص ٨٥ — ٨٧

(هـ) مملكة غرناطة

كانت سياسة مملكة غرناطة الخارجية موجهة إلى صد خطر الإسبان وتوطيد صداقتهم بالدولة المرينية بالمغرب الأقصى واستمالة سلاطينها ومن ثم قامت بين الدولتين علاقات سياسية ؛ فعاون بنو مرين دولة غرناطة في كثير من الحروب التي قامت بها ضد المسيحيين في إسبانيا^(١) .

على أن سلطان بنى مرين كان أحياناً يمتنع عن إيجاد غرناطة كما حدث سنة ٧١٩ هـ ؛ فقد رفض أبو سعيد عثمان بن يعقوب المريني أن يرسل نجدة إلى الغالب بالله أبي الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر (٧١٣ - ٧٢٥ هـ) ، (١٣١٤ - ١٣٢٥ م) ملك غرناطة ؛ وعلى الرغم من ذلك فإن النصر كان حليفه بفضل الأعمال الحربية التي قام بها قائد جيشه واضطر الإسبان إلى طلب الهدنة ، فأجيبوا إلى طلبهم^(٢) .

ولم يعمل ملوك غرناطة منذ قيام دولتهم سنة ٦٢٩ هـ على إيجاد صلات وثيقة بينهم وبين سائر العالم الإسلامي ، كما أن الأمراء المسلمين من ناحيتهم شغلوا عن ذلك بتوطيد سلطتهم في دولهم ودفع خطر المغول عنهم ؛ ولذلك لم يكن هناك بد من أن يوجه ملوك غرناطة أنظارهم إلى سلاطين بنى مرين لقرب دولتهم منهم .

على أن ملوك غرناطة لم يظنوا متصرفين عن العالم الإسلامي فترة طويلة ، بل تبودلت بينهم وبين سلاطين الماليك في مصر في القرن الثامن الهجري مراسلات تنم عن الرغبة في توطيد الصلات بين الفريقين ؛ ويتبين لنا ذلك جلياً من هذا الخطاب الذي أرسله السلطان الغنى بالله ملك غرناطة (٧٥٥ - ٧٩٣ هـ) إلى يلبغا الخاقكي الذي كان مستأثراً بالسلطة دون سلطان مصر

(١) Camb. Med. Hist. vol VII p. 567 et Seq

(٢) المقرئى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ١٩٨ - ١٩٩

Ency. Isl. art, Nasrîda

الملك الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ) ومما جاء فيه (١) :

« إلى الأمير المؤمن على أمر سلطان المسلمين . . . زين الأمراء ، علم الكبراء . . . الأمير الأوحـد يلـبـغـا الحاصـكى . . . أما بعد حمد الله تعالى . . . فانا كتبنا إليكم كتب الله تعالى لكم حظاً من فضله وافرأ . . . من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ، دار ملك الأندلس . . . ولارائد (لنا) إلا الشوق إلى التعارف بتلك الأبواب الشريفة التي أنتم عنوان كتابها المرقوم . . . والتماس بركتها الشابه الرسوم . . . وإلى هذا فإننا كانت بين أسلافنا ، تقبل الله تعالى جهادهم . . . وبين تلك الأبواب . . . مراسلة ينم عرف الخلوص من خلالها وتسطع أنوار السعادة من آفاق كالألحاح . . . اشتبقنا إلى أن نجددها بحسن منابكم ونواصلها بمواصله جنابكم . . . نخاطبنا الأبواب الشريفة في هذا الغرض مخاطبة خجلة من التقصير وجلة من الناقد البصير . . . وهذه البلاد مباركة . . . والله عز وجل يجمع القلوب على طاعته وينفع بوسيلة النبي صلى الله عليه وسلم الذي يعول على شفاعته ويبقى تلك الأبواب ملجأ للإسلام والمسلمين . . . وإقامة لشعائر الحرم الأمين ويتولى إعانة إمارتكم على وظائف الدين . . . ولا شك أن هذا الخطاب يعطينا صورة صحيحة عما كان بين سلاطين مصر وملوك غرناطة من علاقات ودية ، وعن موقف هؤلاء الملوك من مصر وكيف كانوا ينظرون إليها نظرة إكبار وإجلال على اعتبار أنها مركز العالم الإسلامي .

على أن الأمر الجدير بالذكر أن حرص ملوك غرناطة على التقرب إلى مصر وتوثيق عرى الصداقة بها لم يظهر جلياً إلا منذ عهد محمد الغنى بالله ذلك السلطان الذى لم يكتف بالرسالة التي بعثها إلى يلـبـغـا الحاصـكى ، بل أنفذ سفارة وخطاباً آخر إلى السلطان الملك الأشرف شعبان يتضمن قيامه بمحاربة المسيحيين في إسبانيا واستعادته ملكه سنة ٧٦٥ هـ نعد أن اغتصبه منه بعض

أقاربه ؛ وفي هذا دليل قاطع على توثق العلاقات بين مصر وغرناطة وعلى روح الإخاء والمودة التي كانت سائدة بين حكام البلدين . وقد بعث الأشرف شعبان إلى محمد الغنى بالله رسالة رد فيها على كتابه نقتطف منها ما يأتي (١) :

« ... نوضح (لعلك) الكريم أن كتابك ورد علينا مشتتلا على المحاسن الغراء . مغرباً بل مغرباً لنا بحمرة لونه أن نسبته إلى الحمراء ... فوقفنا على مضمونه جميعه ، وعلينا ما فيه : من (استمرارك) على عادة (سلفك) في القيام بأمر الجهاد . وقطع دابر الكفرة ذوى الشقاق والعناد وتوطيد ما (لديك) من تلك البلاد ... وأما غير ذلك فقد وصل رسول الحضرة العلية إلينا وتمثل بمواقفنا المعظمة ... وأقبلنا عليه . وضاعفنا الإحسان إليه ، وأدى إلينا ما تحمله من المشافهة الكريمة ورسائل المحبة والمودة القديمة ، فرسمنا بإجابة قصده ... وقضاء شغله الذى حضر فيه ، وتسهيل مآربه ... ومساحة الحضرة العلية بما يتعين على ما قيمته ألفا دينار مصرية حسب ما عينه (رسولك) . »

ولم تقف العلاقات بين مصر وغرناطة عند تبادل السفارات والرسائل ، بل كان من أثر المركز السامى الذى تبوأته مصر بين أمم العالم الاسلامى أن أصبح مسلمو غرناطة يوجهون أنظارهم إلى سلاطينها لينقذوهم من الأخطار الخارجية التى هددت دولتهم وأزالتها فى النهاية : فحين شدد فردناند Ferdinand ملك قشتالة الحصار عليهم بعثوا بالرسول يطنبون النجدة من سلطان الممالك بمصر : ولكن هذه المحاولة ذهبت أدراج الرياح ، فلم تأت اليهم أية مساعدة واضطر أبو عبد الله Boabdil ملك غرناطة إلى تسليم المدينة لفردناند (٢) .

(١) الفلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ٤١٤ — ٤١٦ .

(٢) Stanley Lane Poole. Moors in Spain, P. 266.

الفصل الثاني

سياسة مصر إزاء بلاد النوبة والحبشة

(١) بلاد النوبة

كان نفوذ مصر قد استقر في بلاد النوبة ، في عهد الملك الظاهر بيبرس ، وظل ملوكها يؤدون الجزية ويقدمون فروض الطاعة لسلطان مصر إلى أن امتنع سيامون Shemamun ملك دنقلة عن دفعها . ولما علم بذلك قلاوون عول على غزو النوبة ، فأنفذ إليها جيشاً سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م) تحت قيادة الأمير علم الدين سنجر المسروري وإلى القاهرة ، والأمير عز الدين السكوراني . كما كتب للأمير عز الدين أيدير السيفي وإلى قوض أن يسير معهما بما عنده من الممالك السلطانية وعربان الأقاليم . ثم انقسم الجيش إلى نصفين ، سار أحدهما تحت قيادة المسروري محاذياً شاطئ النيل الغربي ، أما الفريق الآخر فقد سار به أيدير من البر الشرقي وهو الجانب الذي فيه مدينة دنقلة (١) .

ولم يحاول سيامون أن يوقف تقدم هذا الجيش ، بل كتب لنائبة جريس Gurays صاحب بلاد الجبل يأمره بأن يتبع سياسة الانسحاب المنظم حتى يتيسر له ضم بعض القوات إليه . وكان الجيش المصري إذ ذاك يتابع زحفه وما لبث أن أوقع الهزيمة بالنوبيين في دنقله وأسر جريس وفريقاً كبيراً منهم أما سيامون ، فقد ولى هارباً (٢) ، ثم ملك الأمير عز الدين أيدير ابن أخت سيامون على بلاد النوبة وعين جريس نائباً له ، وأبقى معهما فريقاً من الجند ، كما قرر عليهما جزية يؤديانها لسلطان مصر كل سنة (٣) .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٢٦ — ٧٢٧

النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٢٧٣ ب

(٢) Macmichael, A History of the Arabs in the Sudan vol I. p. 184

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٢٧

على أن سيامون سرعان ما عاد ثانية إلى دنقلة على رأس جيش كبير بعد رحيل الحملة المصرية ، وأوقع الهزيمة بالحامية التي أبقاها عز الدين أيدير بالنوبة ، واستعاد بذلك مملكته ^(١) ، وفر كل من الملك الجديد ونائبه جريس بمن بقي معهما من الجند إلى مصر ^(٢) .

ولما علم السلطان الملك المنصور قلاوون أن سيامون استرد مملكته وتغلب على جنده ، جهز سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) مع متملك النوبة وجريس قوة من الجند بقيادة الأمير عز الدين أيك الأفرم ، وأمره بتسليم البلاد إليه ؛ غير أنه في أثناء سيرهم توفي هذا الملك ؛ فأحل السلطان محله ابن أخت داود أحد ملوك النوبة السابقين ، وأرسل إلى عز الدين أيك ، يأمره بأن يملكه . ثم تابعت الحملة سيرها ، وتقدمها جريس نائب ملك النوبة ومعه أولاد كنز ليحاولوا بالطرق السلية عمل ما تستطيع القوات نيله بأسلحتها الحربية . ولما وصل الجنود دنقله ، وجدوا أن سيامون قد هرب إلى جزيرة تقع إلى الجنوب منها على مسافة خمسة عشر يوما ^(٣) ، فأخذوا يتعقبونه حتى اقتربوا من هذه الجزيرة التي لجأ إليها وبعثوا إليه يطلبون منه الدخول في طاعتهم ، ولم يكتفوا بذلك بل أمنوه ؛ فلم يقبل الاذعان لهم وسار منهزماً إلى جهة الأبواب ؛ فافترق عنه الأمراء والأسقف والقسس ومعهم الصليب الفضي الذي كان يحمله الملك فوق رأسه ، وتاج الملك ، وطلبوا الأمان من قائد الجند الأمير عز الدين أيدير ؛ فأجابهم إلى طلبهم ، ثم مد سباط في كنيسة المسيح (Jesus) بدنقله ، وملكوا الأمير الذي بعثه السلطان قلاوون ، وألبسوه التاج ، وقرروا أن يقوم أهل النوبة بأداء الأموال التي فرضها المسلمون عليهم بعد فتحهم لها ؛ وبعد أن أبقوا طائفة من العسكر مع ملك النوبة عادوا إلى القاهرة محملين بالغنائم سنة ١٢٩٠ م ^(٤) .

(١) Macmichael, A History of the Arabs in the Sudan vol I p. 184

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٤٣

(٣) Macmichael, A History of the Arabs in the Sudan vol I p. 184.

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٤٩ — ٧٥٢

النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٢٧٣ — ٢٧٤ ب

ولم يمحض على رحيل الجند المصرى من بلاد النوبة زمن طويل ، حتى عاد سيامون متخفياً إلى دنقله وأخذ بطرق كل باب حتى اجتمع حوله سائر عسكره ، ثم زحف على دار الملك ، واستطاع أن يستعيد ملكه دون أى عناء ، وما لبث بعد ذلك أن قتل الملك الذى حل محله ، كما قتل نائبه جريس ، وكتب إلى قلاوون يسأله العفو عنه ، ويتعهد له بدفع الجزية ، كما بعث إليه رقيقاً وبعض الهدايا^(١) . وكان السلطان إذ ذاك مشغولاً بأمور أخرى ، وفى حالة لا تساعد على رفض طلبه ، ومن ثم أقره ملكاً على النوبة^(٢) .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل كتبت نسخة من الشروط التى تعهد سيامون باتباعها وحلفوه عليها ، وفيما يلى نص هذه اليمين^(٣) :

والله والله والله ، وحق الثالوث المقدس ، والإنجيل الطاهر والسيدة الطاهرة العذراء أم النور ، والمعمودية ، والأنبياء ، والرسل ، والحواريين ، والقديسين ، والشهداء الأبرار ، وألا أجحد المسيح كما جحده بودس ، وأقول فيه ما يقول اليهود وأعتقد ما يعتقدونه ، وألا أكون بودس الذى طعن المسيح بالحربة . إننى أخلصت نيتى وطوبى من وقته هذا وساعتى هذه للسلطان الملك (المنصور قلاوون) ، وإنى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته ، وإنى ما دمت نائبه لا أقطع المقرر على فى كل ستة تمضى : وهو ما يفضل من مشاطرة البلاد على ما كان يتحصل لمن تقدم من ملوك النوبة ، وأن يكون النصف من المتحصل للسلطان مخاضاً من كل حق ، والنصف الآخر مرصداً لعمارة البلاد وحفظها من عدو يطررها ، وأن يكون على فى كل سنة كذا وكذا . وإننى أقرر على كل نفر من الرعية الذين تحت يدي فى البلاد من العقلاء البالغين ديناراً عينا . وإننى لا أترك شيئاً من السلاح ولا

(١) Budge, A History of Ethiopia, Nubia and abysinia vol 1 p. 106

(٢) المقرئى : الملوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٥٣

Macmichael, A History of the Arabs in the Sudan p. 184.

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٩٠ — ٩١ .

أخفيه ، ولا أمكن أحداً من إخفائه ، ومتى خرجت عن جميع ما قررتة أو عن شيء من هذا المذكور أعلاه كله ، كنت بريئاً من الله تعالى ومن المسيح ومن السيدة الطاهرة ، وأخسر دين النصرانية ، وأصلى إلى غير الشرق ، وأكرس الصليب ، وأعتقد ما يعتقد اليهود ، وإتني مهما سمعت من الأخبار الضارة والنافعة طالعت (بها) السلطان في وقته وساعته . ولا أنفرد بشيء من الأشياء إذا لم يكن مصلحة . وإتني ولى من وإلى السلطان وعدو من عاداه ، والله على ما نقول وكيل .

على أن سيامون ما لبث أن عاد إلى إثارة القلق لمصر : فأنفذ إليه الأشرف خليل بن قلاوون ، حملة لإخضاعه ، ثم انتهى به الأمر بأن حل محله Boudemma الذى كان قبل قدومه إلى النوبة مسجوناً بمصر . وقد حمل الأمير عز الدين أيبك الأفرم تقليد توليته ، كما تسلم منه ومن القسس في دنقلة يمين الإخلاص والولاء للسلطان ، ثم عاد إلى مصر بعد أن خلف وراءه بيلاد النوبة حامية من المشاة ، وكمية كبيرة من القمح^(١) .

وقد حرص ملوك النوبة منذ ذلك الوقت على إظهار ولائهم لسلطين مصر ؛ فقدم أمى Amái بنفسه إلى القاهرة (١٣٠٤ - ١٣٠٥ م) مزوداً بالهدايا للسلطان الناصر محمد بن قلاوون^(٢) .

ولما ولى كرنبس Kerenbes آخر ملوك دنقلة المسيحيين عرش تلك البلاد ظل يدفع الجزية ، لكنه كان ألين عريكة من أسلافه ؛ ولذلك بعث الناصر إلى النوبة حملة في سنة ١٣١٥ م ، وعول في العام التالى على تعليق الأمير النوبى المسلم عبد الله برشنبو Abdulla ibn Sambu على أهل بلاده ؛ ومن ثم جهز معه حملة سنة ١٣١٦ م تحت قيادة الأمير عز الدين أيبك .

ولم يكد يصل إلى كرنبس نبأ مسير هذه الحملة إلى بلاده حتى بعث إلى

(١) Macmichael, A History of the Arabs in the Sudan vol I, p. 185.

(٢) المفريزى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٧ — ٨

Macmichael, A History of the Arabs in the Sudan, vol I, P. 186.

السلطان ابن أخته كنز الدولة ومعه كتاب يسأله فيه أن يشمله بعطفه ، ويوليه الملك ، وقال له : « إذا كان يقصد مولانا السلطان أن يولى البلاد لمسلم ، فهذا مسلم وهو ابن أختي والملك ينتقل إليه من بعدى ، ؛ غير أن السلطان لم يجب كرنيس إلى طلبه واعتقل كنز الدولة (١) .

ولما وصل الجيش المصرى إلى دنقلة ، اضطر كرنيس وأخوه أبرام Abraam إلى الفرار ، فأخذ الجنود يطاردانها حتى تمكنوا من القبض عليهما ثم أرسلوا إلى القاهرة ، وتقلد عبد الله برشنيو عرش دنقلة . غير أنه لم يتمتع طويلا بالحكم ؛ فقد احتال كنز الدولة على السلطان حتى أذن له بالسفر إلى أسوان لجمع ما عليه من الخراج ، وما لبث بعد ذلك أن رحل قاصداً دنقلة . وكان عبد الله برشنيو إذ ذاك قد غير كثيراً من نظر بلاد النوبة وتملكه شيء من الكبر والزهو لم تجر عادة ملوك النوبة بمثله ، وعامل أهل البلاد بغلظة وشدة ، فكبر هوا حكمه . فلما قدم إليهم كنز الدولة ، احتفلوا بقلعته وحيوه بتحية الملك وهي قولهم « موشاى ، موشاى ، ودخلوا تحت طاعته . وما لبث كنز الدولة أن أوقع الهزيمة بعبد الله برشنيو وقتله ، وتقلد عرش النوبة ؛ غير أنه لم يضع تاج الملك على رأسه رعاية لحق أخواله وتعظيمهم وحفظاً لحرمتهم .

ولما بلغ السلطان نبأ قتل برشنيو وتملك كنز الدولة سنة ١٣١٧ م ، أطلق سراح أبرام أخى كرنيس وأرسله إلى النوبة بعد أن وعده بأن يملكه عرش تلك البلاد ، ويفرج عن أخيه كرنيس إذا تمكن من القبض على ابن أخته كنز الدولة . وبعث به إليه

ولما قدم أبرام إلى دنقلة ، استقبله كنز الدولة أحسن استقبال ، وسلم إليه مقاليد الملك وصار في خدمته ؛ غير أن أبرام ما لبث أن قبض عليه وعزم على إرساله إلى مصر ؛ لكنه توفى ثم اجتمع أهل النوبة حول كنز

(١) التويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٩٥

الدولة وملكوهم عليهم^(١).

١ على أن الناصر محمد ما لبث أن أعاد السكره على كنز الدولة ، فجهرز مع كرنيس سنة ١٣٢٣ م حملة لمحاربته ، لكنه سرعان ما ولى هاربا وتقلد كرنيس الحكم للمرة الثانية . ولما غادرت الجنود المصرية بلاد النوبة ، عاد كنز الدولة إلى الظهور ونصب نفسه ملكا على تلك البلاد^(٢) .

وكان من أثر سياسة الحزم التي اتبعها الناصر إزاء بلاد النوبة وتدخله في تعيين ملوكها أن أصبحت لمصر مكانة سامية في تلك البلاد : فحرص ملوكها على دفع الاتاوة المقررة عليهم ؛ ولم يقتصر الأمر على ذلك بل صار الخطباء في بلاد النوبة منذ أن ولى عرشها أولاد السكندر يدعون على المنابر للخليفة العباسي بالقاهرة وسلاطان مصر^(٣) .

على أن بلاد النوبة وإن كانت قد خضعت خضوعا حقيقيا للنفوذ الإسلامي في عهد السلطان الملك الظاهر بيبرس^(٤) ، فإن المسيحية لم يضعف شأنها في تلك البلاد إلا بعد أن مهد السلطان الناصر السبيل لتقليد أمير بوبي مسلم عليها واعتلى عرشها ملوك مسلمون من أولاد كنز الدولة^(٥) الذين أصبحوا أصحاب السيادة على جزء كبير من مصر العليا ، وظلوا يحكموا على النوبة حتى فتح السلطان سليم مصر سنة ١٥١٧ م^(٦) .

(١) الويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٩٦

المقرىزى : الملوك ج ٢ القسم الأول ص ١٦١—١٦٢

Macmichael, A History of the Arabs in the Sudan vol I pp. 186-187

Macmichael, Op, Cit vol I p. 187. (٢)

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٨ ، ج ٨ ص ٦

Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 28. (٤)

(٥) أولا السكندر : أصلهم من ربيعة ، وقد هاجر كثير منها إلى مصر سنة ٢٤٠ هـ (٨٤٥ م) في خلافة المتوكل العباسي وزلوا بأعلى الصعيد . ثم بسطوا نفوذهم على منطقة أسوان ولاحظ شيخهم أبو المسكارم عبة الله سنة ٣٩٧ هـ (١٠٠٦ م) بأبي ركوة الخارج على الحاكم بأمر الله العاطمي ، منعه هذا الخليفة لقب كنز الدولة ، وأصبح صاحب هذا اللقب يسمى فيما بعد أمير أسوان ، كما صارت ربيعة تعرف ببني كنز .

المقرىزى : البيان والاعراب عما نزل بمصر من الأعراب ص ٤٨ ، ٥٠

Macmichael, A History of the Arabs in the Sudan vol I pp. 148-150

Budge, A History of Ethiopia, nubia, and Abyssinia vol I p. 106 (٦)

وقد أخذ كثير من القبائل العربية الرحالة في الهجرة إلى السودان منذ أوائل القرن الرابع عشر الميلادي ؛ فأطلقت جبهة (١) وحلفاؤها من فزارة قبائلهم في الجنوب والغرب تاركين بني كنز وعكرمة في شمال النوبة ومصر العليا (٢). ولما عاثت جبهة فسادا في بلاد النوبة وعجز ملوك تلك البلاد عن إخضاعهم اضطروا إلى مصاهرتهم مصانة لهم ؛ وبذلك انتقل الملك في بلاد النوبة إلى بعض أبناء جبهة من أمهاتهم طبقا لنظام وراثة العرش السائد عند ملوك تلك البلاد الذي يقضى بتمليك الأخت وابن الأخت .

على أن هؤلاء العرب لم يحسنوا سياسة الملك ، كما لم ينقد بعضهم إلى بعض وأصبحوا شيعا وأحزابا ؛ وفضلا عن ذلك فإنهم عادوا إلى ما كانوا عليه من التبدي ، ولم يبق لهم أى مظهر من مظاهر الملك (٣) .

(ب) بلاد الحبشة

كان من أثر تبعية كنيسة الحبشة (٤) لبطاركة الاسكندرية وعدم تعيين أى مطران بها إلا من طائفة الأقباط اليقافة بالديار المصرية (٥) ، أن صار ملوك تلك البلاد يبعثون إلى سلاطين مصر بهداياهم وكتبهم مع بعض الرسل يطلبون فيها تعيين مطران لهم (٦) . كما حرصوا على إحكام أواصر الصداقة معهم . وقد تجلت هذه الظاهرة بوضوح في عهد الظاهر بيبرس ؛ فأرسل إليه

(١) جبهة إحدى قبائل اليمن التي هاجرت إلى مصر واستقرت في أعالي الصعيد .

(٢) المقرئى : البيان والاعراب عما نزل بمصر من الأعراب ص ٣٨

(٣) Macmichael, A History of the Arabs in the Sudan vol 1 p. 187.

(٤) ابن خلدون : ج ٥ ص ٤٢٩ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .

(٥) كان أغلب أهالي الحبشة يدينون بالمسيحية على المذهب يعقوبى . وقد بلغ من تعصبهم لهذا المذهب أن صاروا يعادون الطائفة المسكية من النصارى ؛ فإذا دخل أحد رجالها بلاد الحبشة أظهر أنه يعقوبى خشية إلحاق الأذى به وقتله .

(٦) المقرئى : الامام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ص ٣

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا ج ٥ ص ٣٠٨

(٦) المقرئى : الامام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ص ٣

ملكها كتابا يتودد فيه إليه ويطلب منه مطران ، فرد عليه يبرس بكتاب أظهر فيه اهتمامه بالعمل على تلبية طلبه (١) .

وقد ظل ملوك الحبشة يعملون على التودد لسلطين مصر ويعثون الرسل مزودين بالهدايا إلى أن ولى عرش تلك البلاد Amda Seyon الذى عرف باسم « جبره مصقل » Gabra Maskai بعد تقلده زمام الحكم (٧١٢ - ٧٤٤ هـ ١٣١٢ - ١٣٤٤ م) ، فأنفذ كتابا مع بعض رسله إلى الناصر محمد سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٥ م) يطلب فيه إعادة ما خرب من الكنائس بالديار المصرية ، كما التمس منه أن يعامل النصارى بالحسنى ، وهدده بأنه إذا لم يرعاهم رعاية حسنة ، عامل بالمثل رعاياه المسلمين وخرب مناجدهم ، ولم يكتف بذلك بل أنذره بتحويل مجرى النيل إلى الصحراء (٢) ، وقال : « نيل مصر الذى به قوام أمرها وصالح أحوال ساكنيها ، مجراه من بلادى وأنا أبيده » : فسخر منه السلطان وأعرض عن رسله ثم ردهم إلى بلادهم (٣) .

وقد قضى « جبره مصقل » معظم حكمه فى شن الحروب ضد مسلى الحبشة . ولما اشتدت وطأته عليهم قدم الفقيه عبد الله الزيلعى إلى مصر وطلب من السلطان أن يعمل على منع هذا الملك من التماذى فى سياسته العدائية نحو مسلى بلاده : فأصدر مرسوماً للبطرك بأن يرسل لملك الحبشة ، كتاباً يأمره فيه بالإقلاع عن إلحاق الأذى برعاياه المسلمين . فكتب البطرك إليه خطاباً أنكر فيه الأعمال التى اقترفها مع مسلى الحبشة وذكر له أنه حرم ارتكاب هذه الأفعال (٤) .

وعلى الرغم مما كان يتمتع به ملوك الحبشة من نفوذ عظيم فى بلادهم ،

(١) مفضل بن أبى الفضائل ، النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ٢١٩ - ٢٢٢

الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ١٢٠ ، ٤٠ - ٤١

الظاهر يبرس وحضارة مصر فى عصره ص ١٢٣ - ١٢٤

(٢) Budge, A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia. vol 1 pp.288.289

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ص ٦٦ والمقرئى السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٧٠

(٤) الفلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ٣٣٣

فإنهم كانوا يحرصون على اكتساب رضا بطاركة الإسكندرية واحترام أوامرهم وتقديسها ؛ فاذا أرسل البطرك إلى أحدهم كتابا ، خرج وإلى الأقليم المجاور لحدود المملكة لاستلامه ، ثم يضعه فوق علم ويسير به في مركب من القنس والشمامسة وولاية الأقاليم التي يمر بها في طريقه ؛ ويظلون على هذه الحال حتى يصلوا إلى أحرار^(١) ، فيخرج صاحبها بنفسه لاستقبالهم ويتسلم المطران الكتاب ؛ غير أن الملك لا يستطيع أن يتصرف فيه إلا بعد أن يعقد اجتماعا بالكنيسة ثم يتلى عليه وهو واقف ، ولا يجلس حتى ينفذ ما أمر به^(٢) .

لهذا لا نعجب إذا رأينا «نوايا كرسوس» Newaya Krestos ملك الحبشة (١٣٤٤ — ١٣٧٢ م) الذي خلف أباه « جبره مصقل » يلقي القبض على من يبلاده من التجار المصريين ويمنع القوافل المصرية من دخول حدود بلاده حين وصله نبأ اعتقال Abbà mark بطرك الإسكندرية بسبب رفضه دفع الضرائب الفادحة التي طلبها منه سلطان مصر .

ولما رأى المصريون أن ملك الحبشة — بوقوفه في وجه التجارة المصرية — أنزل خسائر فادحة بالتبادل التجاري بين مصر والحبشة ، ضجوا بالشكوى ؛ فلم ير السلطان بداً من أن يطلق سراح البطرك ؛ ثم طلب منه أن يستخدم نفوذه لدى ملك الحبشة ليهد للقوافل المصرية سبيل سيرها كما كانت الحال من قبل^(٣) .

على أن الحروب لم تنقطع بين ملوك الحبشة ومسلمي بلادهم ، فقد شغل

(١) يقول المقرئ (اللام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ص ٦) إن أحرار كانت في عهده « مدينة مملكة الحبشة . وملكها يتسلط على جميع ممالك الحبشة السبع وهي : « أوقات » و « دوارو » و « رايني » و « هدية » و « شرخا » و « نان » و « دارة » ، ويأخذ منها القطيعة في كل سنة وهي قاش وغيره .

(٢) الفاقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٠٨ — ٢٠٩

(٣) Budge, A History of Ethiopia, Nubia, and Abyssinia vol I pp. 298-299

Newaya Moryam (١٣٧٢ - ١٣٨٢ م) بمحاربتهم حتى توفي وخلفه أخوه داود الأول David I (١٣٨٢ - ١٤١١ م) ، فاشتدت في عهده نار الحرب بين العرب والأحباش المسيحيين ^(١) . ولما علم بذلك الظاهر برقوق سلطان مصر ، طلب من متى بطريرك الاسكندرية سنة ٧٨٨ هـ (١٣٨٨ م) أن يرسل إلى داود ملك الحبشة كتاباً ، يأمره فيه بالكف عن شهر الحروب عليهم . وقد حمل هذا الكتاب إلى ملك الحبشة برهان الدين الدمياطي ^(٢) ، ثم قدمت رسل الملك داود ومعهم كتاب منه إلى السلطان وهدية محملة على عشرين جملاً ، تشتمل على كثير من طرائف الحبشة ؛ ومن بين محتوياتها قدور ملئت بقطع من الذهب على شكل الحصص ^(٣) .

(١) Budge, a History of Ethiopia, Nubia, and Abyssinia vol 1 pp. 299-300

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ٣٣٣

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الثاني ص ٣٨٣ (طبعة كاليفورنيا)

Budge A History of Ethiopia, Nubia, and Abyssinia vol 1 p. 301

الفصل الثالث

موقف مصر من المغول

(١) مغول فارس

كان المغول منذ أيام هولاكو يتطلعون إلى فتح مصر . وقد رأى سلاطين المماليك بدورهم أن يضعفوا من شوكتهم ويتقمصوا منهم لما حل بالإسلام من الخطوب على أيديهم .

ومما لا شك فيه أن موقعة عين جالوت التي دارت بين قطز وهولاكو كانت صدمة قوية لهؤلاء المغول لعظم الخسائر التي حلت بهم في الرجال والعتاد . وقد أزمع هولاكو بعد تلك الهزيمة النكراء التي حلت به على مهاجمة المماليك والقضاء عليهم ، لكن الموت عاجله سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٥ م) . فلما خلفه ابنه أباقا باذر إلى العمل على إعادة سمعة المغول الحربية إلى سابق عهدها ، ومن ثم سار على سياسة أبيه في مناوأة المماليك ومصادقة الصليبيين ، فراسل كلمنت Clement IV ، وجريجورى العاشر Gregory X ، ونيقولا الثالث لتنظيم حملة مشتركة ضد المماليك في مصر وسورية (١) .

على أن الآمال التي كان يرمى أباقا إلى تحقيقها من وراء محالفتة المسيحيين لم تتحقق ؛ فقد ضعفت الروح الدينية والمعنوية عند الصليبيين ، كما ضعفت سلطة البابوات حتى أصبحوا أتباعا للأباطرة والملوك .

وقد ظهر العداء في عهد أباقا خان بينه وبين بيت جغتاي Toghatay وعلى رأسه بورك Bùrak الذي انضم إليه أحد أقربائه واسمه تسكودر Tukudor سنة ١٢٦٨م - وكان هولاكو قد ولاه بعض بلاد جورجيا -

(١) Browne Literary History of Persia pp. 18—19 ، الظاهر بيبرس وحضارة

مصر في عهده من ١٠٢ — ١٠٣

فأغار على حدود بلاد أباقا الشرقية وتفاقم شره وهدد خراسان وبلاد فارس ؛ وكان ذلك مما أقلق بال أباقا واضطره إلى مناضلته طويلا حتى استطاع اقصاءه عن بلاده سنة ١٢٧٩ م .

ولاشك أن هذا الخلاف الذى قام بين أفراد البيت المغولى قد ساعد على ضعف اليلخانات المغول فى فارس الذين أصبحوا يحاربون أقرباءهم من ناحية ، ويحاربون السلاطين المماليك من ناحية أخرى .

وقد نجح السلطان الملك الظاهر بيبرس فى دفع خطر المغول عن مصر : فهزم جند هولاكو قبيل اعتلائه العرش ، كما أوقع بهم هزيمة منكرة فى موقعة البستان Abulustayn سنة ١٢٧٧ م ؛ ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى رحل أباقا إلى قيسارية ليأثر لجيشه المهزوم وليعيد نفوذ المغول وحكمهم فيها . ولما دخلها صب على أهلها وابلا من العذاب وانتقم من مسلميها شر انتقام لمقابلتهم سلطان مصر بالتجلة والترحاب ^(١) .

وعلى الرغم من مهاجمة المغول لقيسارية التى استولى عليها المماليك ، فإن الملك الظاهر بيبرس لم يعد لمقاتلتهم لأنه بعد إستيلائه على هذه المدينة وإتجاهه إلى حارم ، أمر بتسيير جيشه إلى مصر ، كما أن الجيش المصرى كان قد بلغ به الضعف غاية أقعدته عن الرجوع دفاعا عن قيسارية ، إذ قل العدد وهلكت المواشى ونفقت الأقوات وعدم العلف لكثرة مالاتى الجيش فى هذه المعركة من وعورة الطريق وصعوبة المسالك وزمهرير الشتاء ، فضلا عن ذلك فإنه بعد أن فارق قيسارية إلى دمشق لم يلبث أن عاجلته منيته قبل أن يتمكن من إعادة الكرة على الأعداء ويردهم على أعقابهم ^(٢) .

لم يقف تيار العداء بين المغول فى فارس والمماليك فى مصر بعد وفاة الملك الظاهر بيبرس ، بل ظل مستحكما حتى استقر الأمر للسلطان الملك المنصور

(١) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt pp 28-29

الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ص ١٠٨

(٢) كتاب الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ص ١٠٩

قلاوون ، فأخذت جيوشهم تحتاح الحدود السورية ثانية مرتكبين نفس الفضائع التي ارتكبوها منذ عشرين عاماً^(١) ؛ وكان مما شجعهم على ذلك ما سمعوه من إختلاف كلمة المماليك ، هذا إلى إعتقادهم أن سنقر الأشقر الذي خرج على طاعة الملك المنصور قلاوون ونادى بنفسه سلطاناً على دمشق ، سيعمل على مؤازرتهم ويتفق معهم على قتال سلطان المماليك^(٢) .

على أن الملك المنصور قلاوون رأى من ناحيته أن يوجه همهته إلى صد غارات المغول ؛ فلم يكذب يعلم أنهم سائرون في طريقهم إلى بلاد الشام حتى أنفذ إليهم سنة ٦٧٩ هـ حملة عسكريت بجاه ، كما أن أمراء المماليك من ناحيتهم أرسلوا إلى سنقر الأشقر يقولون له : « وهذا العدو قد دهمنا وما سيبه إلا الخلف بيننا وما ينبغي هلاك الإسلام ، وكان لذلك القول أثره في نفس سنقر الأشقر ؛ فنع جنده من محاربة المصريين .

ولما وصلت الأنباء بزحف المغول إلى أطراف حلب ، أخلاها أهلها ومن كلن معسكراً فيها من الجنود ونزحوا إلى حماة وحمص ؛ ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى هجمت طوائف المغول على أعمال حلب واستولوا على عين تاب وبغراض ودر بساك ، ودخلوا حلب نفسها فأحرقوا ما بها من الجوامع والمدارس ودور الأمراء كما ارتكبوا في هذه الولاية من صنوف الوحشية والعسف ما اضطر الأهالي إلى الفرار نحو الجنوب ، ثم رحلوا عنها عائدين إلى بلادهم بما أخذوه من الأسلاب والغنائم . أما أهالي دمشق فقد تملكهم الطلع والرعب ، وهاجر منهم خلق كثير إلى مصر ليحتموا فيها^(٣) . على أن المغول سرعان ما عاودوا الكرة على بلاد الشام سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) ؛ فنازل أباخان قلعة الرجة ، وتقدم منكوتمر بن هولاكو

(١) Muir, The Mamluke or Slave Dynasty of Egypt p. 34

(٢) ذكر المقرئى (السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٦٩٧) أن الأمير طرطضاى لما أسر سجن أصحاب منكوتمر ، ومن بينهم حامل محفظته ، عثر فيها على كتب من سنقر الأشقر وأتباعه من الأمراء ، يعرضون فيها المغول على دخول الشام ويعدونهم المساعدة .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٦٨٠

حتى وصل حماءه ؛ وكان جيشه يضم عدة فرق من الأرمن والسكرج ، وكذلك الفرنجة . وقد التقت هذه الطوائف بجيوش السلطان الملك المنصور قلاوون التي كانت تتكون من جنود مصر والشام وفريق كبير من الأكراد والتركمان ؛ ثم دار القتال بين الفريقين بالقرب من حمص ، حيث حمل جيش المماليك على المغول حملة صادقة انتهت بهزيمتهم وقتل كثير منهم (١) .

ولما علم أباقا خان بانهزام أتباعه - وهو على الرحبة - رحل إلى بغداد ، ولحق به من نجا من المغول ، وفيهم أخوه منكوتمر الذي استاء منه أباقا فعجزه عن إلحاق الهزيمة بجند المماليك وصاله : ولم لائمت أنت والجيش ولا انهزمت .

وقد كتبت البشائر بهذا النصر الذي أحرزه المماليك إلى سائر البلاد واحتفل أهالي القاهرة باستقبال السلطان الملك المنصور قلاوون على أثر عودته مظفراً من بلاد الشام (٢) .

ولما توفي أباقا خان ، خلفه أخوه تنكودار سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) الذي اتخذ اسم أحمد عندما اعتنق الإسلام قبل سلطته (٣) ، واستهل عهده بإظهار إخلاصه وتمسكه بالدين الإسلامي ؛ فأرسل كتباً إلى فقهاء بغداد وإلى قلاوون سلطان المماليك في مصر ، أعلن فيها رغبته في حماية الإسلام والدود عنه والعمل على إعلانه شأنه ، كما أظهر رغبته في أن يظل في سلام ومودة مع جيرانه المسلمين .

(١) بيمص الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ١١٣ ب

النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٨-٩

(٢) المقرئزي : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٦٩٠

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٠٤ - ٣٠٦

(٣) نشأ تنكودار هذا على المسيحية وتعبد في صباه باسم نيقولا . ولا بلغ سن الرشد ،

اعتنق الاسلام وذلك على أثر اتصاله بالمسلمين الذين كان كلفاً بهم .

Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam p. 229.

Browne, Literary History of Persia. vol. III pp. 25-26.

وقد بعث تشكودار^١ أحمد نبأ اعتناقه الاسلام إلى السلطان الملك المنصور^٢ مع رسولين هما الشيخ قطب الدين محمود الشيرازي قاضي سيواس وأتابك السلطان مسعود ، سلطان السلاجقة الروم ، وفيما يلي نص هذا الكتاب^(١) « بسم الله الرحمن الرحيم ، بقوة الله تعالى ، بإقبال قان فرمان أحمد إلى سلطان مصر ؛ أما بعد ، فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ونور هدايته ، قد كان أرشدنا في عنقوان الصبا ، وريعان الحداثة ، إلى الإقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، بصدق نبوته ، وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبريته (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين ، وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين إلى أن أفضى إلينا بعد أينا الجليل ، وأخينا الكبير ، نوبة الملك ، فأضنى علينا من جلايب الطافه ولطائفه ما حقق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه ، وجلى هذه المملكة علينا ، وأهدى عقليتها إلينا فاجتمع عندنا في قوريلتاى المبارك — وهو المجتمع الذى تقدح فيه الآراء — جميع الإخوان والأولاد والأمراء الكبار ، ومقدمو العساكر ، وزعماء البلاد . واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير في إنفاذ الجمل الغفير . من عساكرنا التى ضاقت الأرض برحبها من كثرتها ، وامتلأت الأرض رعبا من عظيم صولاتها ، وشديد بطشتها ، إلى تلك الجهة بهمة تخضع لها صم الأطواد وعزمة تلين لها الصم الصلاد ، ففكرنا فيما تمخضت زبد عزائمهم عنه . واجتمعت أهواؤهم عليه ، فوجدناه مخالفا لما كان في ضميرنا من اقتفاء الخير العام الذى هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام ، وألا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يوجب حقن الدماء وتسكين الدهماء ، وتجرى به في الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان ، ويستريح به المسلمون في سائر الأمصار في مهاد الشفقة والإحسان ، تعظيما لأمر الله وشفقة على خلق الله ،

فألهما الله تعالى إطفاء تلك النائرة ، وتسكين تلك الفتن النائرة ، وإعلام من أشار بذلك الرأي بما أرشدنا الله إليه : من تقديم ما يرجى به شفاء مزاج العالم من الأدواء . وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء ، وأتأنا لا نحب المسارعة إلى هز النصال للنضال إلا بعد إيضاح الحجة ، ولا نبادر لها إلا بعد تبين الحق وتركيب الحجة ، وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعي الصلاح وتنفيذ ما يظهر لنا به وجه النجاح ، إذ كان الشيخ قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن الذي هو نعم العون لنا في أمور الدين ؛ فأرسلناه رحمة من الله لمن (لي) دعاه ، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه ؛ وأنفذنا أفضى القضاة قطب الملة والدين ، والأتابك بهاء الدين ، اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ليعرفوهم طريقتهما ، ويتحقق عندهم ما تنطوى عليه لغنوم المسلمين جميل نيتنا ، وبيننا لهم أنا من الله تعالى على بصيرة ، وأن الإسلام يجب ما قبله وأنه تعالى ألقى في قلوبنا أن تتبع الحق وأهله ، ونشاهد أن عظيم نعمة الله للكافة بما دعانا إليه من تقديم أسباب الإحسان ، ألا يحرموها بالنظر إلى سائر الأحوال فكل يوم هو في شأن . فإن تطلعت نفوسهم إلى دليل تستحكم بسببه دواعي الاعتماد وحبوة يشقون بها من بلوغ المراد ؛ فليتنظروا إلى ما ظهر من أمرنا بما اشتهر خبره ، وعم أثره ، فإننا ابتدأنا بتوفيق الله بإعلاء أعلام الدين وإظهاره ، في إيراد كل أمر وإصداره تقديماً لنا موس الشرع المحمدى ، على مقتضى قانون العدل الأحمدي ، إخلالا وتعظيما . وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور وعفونا عن كل من اجترح سيئة واقترب ، وقابلناه بالصفح وقلنا عفا الله عما سلف . وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس وعمارة بقاع الدين والربط الدوارس ، وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة إلى مستحقيها بشروط واقفيها . ومنعنا أن يلتبس شيء بما استحدث عليها ، وبألا يغير أحد شيئاً مما قرر أولاً . وأمرنا بتنظيم أمر الحجاج وتجهيز وفدها ، وتأمين سبلها ، وتسيير قوافلها ، وإنا أطلقنا سبيل التجار المترددين

إلى تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم ؛ وحرمانا
على العساكر والقراغولات والشحاني في الأطراف التعرض لهم في مصادرهم
ومواردهم . وقد كان قراغول صادف جاسوسا في زى الفقراء كان سييله
أن يهلك ، فلم نهرق دمه لحرمة ما حرمة الله تعالى وأعدناه إليهم . ولا يخفى
عنهم ما كان في إنفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين ، فإن عساكرنا
طالما رأوهم في زى الفقراء والنسك وأهل الصلاح ، فسادت ظنونهم في تلك
الطوائف ، فقتلوا منهم من قتلوا ، وفعلوا بهم ما فعلوا ، وارتفعت الحاجة
بحمد الله إلى ذلك بما صدر إذنتنا به من فتح الطريق وتردد التجار . فإذا
أمعنوا الفكر في هذه الأمور وأمثالها لا يخفى عنهم أنهم أخلاق جبلية
طبيعية ، وعن شوائب التكلف والتصنع عرية . وإذا كانت الحال على ذلك
فقد ارتفعت دواعي المضرة التي كانت موجبة للمخالفة ، فإنها إن كانت ضريقتا
للذب والدود عن حوزة الإسلام ، فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا
النور المبين ، وإن كانت لما سبق من الأسباب فن يتحرى الآن طريق الصواب
فإن له عندنا لزلتي وحسن مأب . وقد رفعنا الحجاب ، وأتينا بفصل الخطاب
وعرفناهم (طريقتنا) وما عزمنا بنية خالصة لله تعالى على استئنافنا ، وحرمانا
على جميع العساكر العمل بخلافها ، لنرضى الله والرسول ، ويلوح على
صفحاتها آثار الإقبال والقبول . وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة
وتنجلى بنور الإئتلاف ظلمة الاختلاف والغمة ، ويشكر سابغ ظلمة
البوادي والحواضر ، وتقر القلوب التي بلغت من الجهل الحناجر ، ويعفى
عن سالف الجرائر . فإن وفق الله سلطان مصر إلى ما فيه صلاح العالم وانتظام
أمر بني آدم ، فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى ، وسلوك الطريقة
المثلى ، بفتح أبواب الطاعة والاتحاد ، وبذل الإخلاص بحيث تعمر تلك
الممالك وتيك البلاد وتسكن الفتنة الثائرة ، وتغمد السيوف الباترة . . . !
وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهون . وإن غلب سوء الظن

بما تفضل به واهب الرحمة ، ومنع معرفة هذه النعمة ، فقد شكر الله مساعينا وأبلى عذرنا (وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا) والله تعالى الموفق للرشاد والسداد ، وهو المهيمن على البلاد والعباد ، إن شاء الله تعالى .

وقد علق السير توماس أرنولد ^(١) على ما كان للإسلام من أثر في نفس تسكودار أحمد ، ذلك الأثر الذي وضح وضوحا جليا في كتابه إلى سلطان الماليك . بقوله : « إن من يدرس تاريخ المغول ليرتاح عند ما يتحول فجأة من قراءة ما اقتربوه من الفضائع وما سفكوه من الدماء إلى أسمي عواطف الإنسانية وحب الخير التي أعلنت عن نفسها في تلك الوثيقة التاريخية التي كتبها تسكودار أحمد إلى سلطان الماليك في مصر والتي يدهش الإنسان لصدورها من مثل ذلك المغولي . »

وقد رد قلاوون على ايلخان المغول بكتاب رحب فيه بدخوله الإسلام وبزوال الأحقاد التي كانت بين ايلخانات فارس والماليك في مصر ؛ وإليك ما جاء في هذا الكتاب ^(٢) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، بقوة الله تعالى ، بإقبال دولة السلطان الملك المنصور . كلام قلاوون إلى السلطان أحمد ؛ أما بعد حمد الله الذي أوضح بنا ولنا الحق منهجاً ، وجاء نجاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجا ، والصلاة على سيدنا ونبينا محمد الذي فضله الله على كل نبي نجي به أمته وعلى كل نبي ناجا ، صلاة تنير مادجا ؛ فقد وصل الكتاب الكريم الملتقى بالتكرم ، المشتعل على النبا العظيم ، من دخوله في الدين ، وخروجه عن سلف من العشيرة الأقربين . »

ولما فتح هذا الكتاب بهذا الخبر العلم المعلم والحديث الذي صحح عند أهل الاسلام إسلامه وأصح الحديث ما روى عن مسلم ، توجهت الوجوه بالدعاء

(١) The Preaching of Islam p. 232.

(٢) الفتشندی : صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٣٧ — ٢٤٣

إلى الله سبحانه في أن يمجته على ذلك بالقول الثابت ، وأن ينبت حبّ حُبّ
هذا الدين في قلبه كما أنبت أحسن النبت من أخشن المنابت ، وحصل التأمل
للفصل المستدّ بذكره من حديث إخلاصه في أول عنقوان الصبا إلى الإقرار
بالوحدانية ، ودخوله في الملة المحمدية ، بالقول والعمل والنية ، فالحمد لله على
أن شرح صدره للإسلام وألهمه شريف هذا الإلهام ؛ فحمدنا الله على أن
جعلنا من السابقين إلى هذا المقال والمقام ، وثبت أقدامنا في كل موقف
إجتهاد وجهاد تنزل دونه الأقدام .

وأما إفضاء النوبة في الملك وميراثه بعد والده وأخيه الكبير إليه وإفاضة
جلابيب هذه النعمة العظيمة عليه وتوقله الأسرة التي ظهرها الله بإيمانه ،
وأظهرها بسلطانته ؛ فقد أورثها الله من اصطفاؤه من عباده ، وصدق المبشرات
من كرامة أولياء الله وعباده .

وأما حكاية اجتماع الإخوان والأمراء النصارى ومقدمي العساكر وزعماء
البلاد في مجمع قوريلتاي الذي يتقدح فيه زند الآراء ، وأن كلمتهم اتفقت
على ما سبقت به كلية أخيه الكبير في إنفاذ العساكر إلى هذا الجانب ، وأنه
قد فكر فيما اجتمعت عليه آراؤهم ، وانتهت إليه أهواؤهم ؛ فوجده مخالفا لما
في ضميره ، إذ قصده الصلاح ورأيه الإصلاح ، وأنه أطقاً تلك النائرة ،
وسكن تلك النائرة ؛ فهذا فعل الملك المتقّ المشفق من قومه على من بقي ،
المفكر في العواقب بالرأى الثاقب ؛ وإلا فلو تركوا وآراءهم حتى تحملهم
الغرة ، لكانت هذه السكرة هي السكرة ؛ لكن هو كمن خاف مقام ربه ونهى
النفس عن الهوى ، فلم يوافق قول من ضل ولا فعل من غوى

وأما القول منه إنه لا يجب المسارعة إلى المقارعة إلا بعد إيضاح الحجّة
وتركيب الحجّة ، فبانتظامه في سلك الإيمان صارت حجتها وحجته مترتبة
على من غدت طواغيته عن سلوك هذه الحجّة متنكية ، فإن الله سبحانه
وتعالى والناس كافة قد علموا أن قيامنا إنما هو لتصرة هذه الملة ، وجهادنا

واجتهادنا إنما هو لله ؛ وحيث قد دخل معنا في الدين هذا الدخول ، فقد ذهبت
الاحقاد وزالت الدهول ، وبارتفاع المنافرة تحصل المظاهرة . فالإيمان
كالبنيان يشد بعضه ببعض ، ومن أقام مناره فله أهل بأهل في كل مكان
وجيران بحيران بكل أرض .

وأما ترتيب هذه الفوائد ألحمة على إذكرار شيخ الاسلام قدوة العارفين
كمال الدين عبد الرحمن ، أعاد الله تعالى من بركاته ، فلم ير لولى قبله كرامة كهذه
الكرامة ، والرجاء ببركته وبركة الصالحين أن تصبح كل دار إسلام دار
إقامة حتى تتم شرائط الإيمان ويعود شمل الاسلام مجتمعاً كالحسن ما كان ؛
ولا ينكر لمن بكرامته ابتداء هذا التيسير في الوجود ، أن كل حق ببركته
إلى نصابه يعود .

وأما إنفاذ أقصى القضاة قطب الملة والدين ، والآتاك بهاء الدين الموثوق
بنقلهما في إبلاغ رسائل هذه البلاغة ، فقد حضرا وأعادا كل قول حسن من
أحوال أحواله . وخطرات خاطره ومسطرات ناظره ، ومن كل ما يشكر
ونحمد ويعتبر حديثهما فيه عن مسند أحمد .

وأما الإشارة إلى أن النفوس إن كانت تبطلع في إقامة دليل ، تستحکم
به دواعي الرد الجميل ، فلينظر إلى مآثر من مآثره ، في موارد الأمر ومصادره :
من العدل والاحسان باللقب واللسان والتقدم بإصلاح الأوقات ؛ فهذه صفات
من يريد لملكه الدوام ، فلما ملك عدل ، ولم يلتفت إلى لؤم من عدا ولا لوم
من عدل ؛ على أنها وإن كانت من الأفعال الحسنة والثوبات التي تستنطق
بالدعاء الألسنة ، فهي واجبات تؤدي ، وهو أكبر من أنه يؤخر غيره أو
عليه يقتصر ، أوله يدخر ، إنما يفتخر الملك العظيم بأن يعطى بمالك وأقاليم
وحصون ، أو يذل في تشييد ملكه أعز مصون .

وأما تحريمه على العساكر والقراغولات والشحاني بالأطراف التعرض
إلى أخذ بالأذى و (تحميم) إصفاء موارد الواردين والصادرين من القذى .

فمن حين بلغنا تقدمه بذلك تقدمنا أيضاً بمثله إلى سائر النواب بالرجة وحلب وعينتاب ، تقدمنا إلى مقدم العساكر بأطراف تلك الممالك ، بمثل ذلك ؛ وإذا اتحد الإيمان وانعقدت الأيمان ، تحتم إحكام هذه الأحكام وترتب عليه جميع الأحكام .

وأما الجاسوس الفقير الذي أمسك وأطلق ، وأن بسبب من تزييا من الجواسيس بزي الفقراء ، قتل جماعة من الفقراء الصالحاء رجماً بالظن ، فهذا باب من ذلك الجانب ستروه ، وإلى الاطلاع على الأمور صوره ، فظفر النواب منهم بجماعة فرفع عنهم السيف ، ولم يكشف ما غطيه خرقه الفقر ولا كيف

وأما الإشارة إلى أن في اتفاق الكلمة يكون صلاح العالم ، وينتظم شمل بني آدم ، فلا راد لمن طرق باب الاتحاد ، ومن جنح للسلم فما جار ولا حاد ، ومن ثنى عنائه عن المكافأة ، كمن يريد المصافحة للمصالحة ؛ والصلح وإن كان سيد الأحكام ، فلا بد من أمور تبني عليها قواعده ، وتعلم من مدلولها فوائده فإن الأمور المسطورة في كتابه عن كليات لازمة ينعم بها كل معنى معلوم ، إن تهيأ صلح أو لم ، وثم أمور لا بد أن تحكم ، وفي سلكها عقود العهود تنظم . تحملها لسان المشافهة التي إذا أوردت أقبلت من معنى دخوله في الدين ، نظام عقده بسلك المؤمنين ، وما بسطه من عدل وإحسان ، وسيرة مشهورة بكل لسان ؛ فالمنة لله في ذلك فلا يشيها منه بامتان ؛ وقد أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم في حق من آمن بإسلامه : (قل لا تمتنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان) .

ومن المشافهة أنه قد أعطاه الله من العطاء ما أغناه به عن امتداد الطرف إلى ما في يد غيره من أرض ومال ، فإن حصلت الرغبة في الاتفاق على ذلك فالأمن حاصل ؛ فالجواب أن ثم أموراً متى حصلت عليها الموافقة ، تمت المصاحبة والمصادقة . ورأى الله تعالى والناس كيف يكون إذلال معادينا .

وإعزاز مضافينا. فكم من صاحب وجد حيث لا يوجد الأب والأخ والقرابة. وما تم أمر الدين المحمدي واستحكم في صدر الإسلام إلا بمظاهرة الصحابة. فإن كانت له رغبة مصروقة إلى الاتحاد وحسن الوداد وجميل الاعتضاد، وكبت الأعداء والأضداد، والاستناد إلى من يشتد به الأزر عند الاستناد فقد فهم المراد.

ومن المشافهة إذا كانت رغبتنا غير ممتدة إلى ما في يده من أرض ومال، فلا حاجة إلى إنقاذ المعيرين الذين يؤذون المسلمين بغير فائدة تعود. فالجواب أنه لو كفف كف العدوان من هنالك، وخلى للوك المسلمين ما لهم من ممالك سكنت الدهماء وحقت الدماء، وما أحقه بالأناهي عن خلق وبأق مثله. ولا يأمر بشيء وينسى فعله. وقنصر طاب بالروم الآن، وبين بلاد في أيديكم خراجها يجبي اليكم، فقد سفك فيها وفتك، وسبي وهتك، وباع الأحرار، وأبى إلا التماهى على ذلك والاصرار.

ومن المشافهة أنه إن حصل التصميم على ألا تبطل هذه الاغارات. ولا يقتصر على هذه الاغارات؛ فتعين مكاناً يكون فيه اللقاء، ويعطى الله النصر لمن يشاء، فالجواب عن ذلك أن الأماكن التي اتفق فيها متلقى الجمعين مرة ومرة ومرة قد عاف مواردنا من سلف من أولئك القوم، وخاف أن يعاودها فيعاوده مصرع ذلك اليوم. ووقت اللقاء عليه عند الله لا يقدر، وما النصر إلا من عند الله لمن أقدر لا لمن قدر. وما نحن ممن ينتظر فله. ولا من له إلى غير ذلك لفته. وما أمر ساعة النصر إلا كالساعة التي لا تأتى إلا بغتة، والله تعالى الموفق لما فيه صلاح هذه الأمة والقادر على إتمام كل خير ونعمة، إن شاء الله تعالى.

وكان من أثر المكاتبات التي تبودلت بين إيلخان فارس، وسلطان الممالك في مصر، أن وقف العداء بين الدولتين؛ على أن المغول سرعان ما نقموا على تكودار أحمد لاعتناقه الإسلام وإرغامهم على التدين به؛ فذبر نبلاؤهم

المؤامرات لخلعه وتولية ابن أخيه أرغون الذى تمكن من قتل عمه تكودار أحمد في ١٠ أغسطس سنة ١٢٨٤ م ، ونودى به سلطانا في اليوم التالى .

وقد اضطهد أرغون المسلمين في بلاده وصرفهم عن كافة المناصب التى كانوا يشغلونها في القضاء والمالية ، كما حرم عليهم الظهور في بلاطه . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل أمعن وزيره سعد الدولة اليهودى في السكيد للاسلام والتأمر عليه والخط من شأنه .

وكان لهذه السياسة أسوأ الأثر في مصر ، فعادت العلاقة بين دولتي الممالك والمغول في فارس سيرتها الأولى . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أخذ الممالك يتطلعون في عهد السلطان الملك الأشرف خليل إلى إجلاء المغول عن العراق وضم هذا القطر إلى مصر؛ ويتضح لنا ذلك من الخطبة التى ألقاها الخليفة الحاكم بأمر الله في القبة المنصورية ، وحرص فيها على أخذ العراق (١) .

على أن الممالك وإن لم يقدموا على تنفيذ هذا المشروع في عهد الأشرف خليل ، فإنهم أخذوا يتربصون الدوائر بالمغول ؛ فلما أغاروا على الرحبة خرجت إليهم طائفة من جند دمشق لصددهم ، وتمكنت من ردهم على أعقابهم سنة ٦٩١ هـ (٢) .

كذلك عول السلطان الملك الأشرف خليل على ضم قلعة الروم (٣) إلى حوزته حين علم أن أهلها يوادعون التتار ويمالتونهم على المسلمين ؛ ولا أدل على المصاعب التى كان يثيرها أهالى هذه القلعة ضد دولة الممالك بما ورد في الكتاب الذى أرسله علم الدين سنجر الشجاعى نائب السلطنة بدمشق

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٧٤

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٧٧

(٣) قلعة غربى الفرات مقابل البيرة [ياقوت : معجم البلدان]

إلى شهاب الدين بن الخوي قاضي القضاة بهذه المدينة على أثر نجاح السلطان الأشرف خليل في الاستيلاء عليها ، حيث يقول : « . . . وكانت هذه القلعة المذكورة للغور الإسلامية بمنزلة الشجى في الحلق ، والغلة في الصدر ، والخسوف الطارىء على طلعة البدر ، لا تخلو من غل تضره ، في لين تظهره ، وغدر تستره في غدر تورده وتصدده . وقد سكن أهلها إلى مخادعة الجار وموادعة التار وممالاتهم على الإسلام بالنفس والمال ، ومساواتهم لهم حتى في الزى والحال ، يمدونهم بالهدايا والألطف ، ويدلونهم على عورات الأطراف ، وهم يثقون بمسألة الأيام ، ويدعون أن قلعهم لم تزل من الحوادث في ذمام^(١) . . . »

وقد رحل السلطان الملك الأشرف خليل من القاهرة قاصداً بلاد الشام في ٨ ربيع الآخر (سنة ٦٩١ هـ) على رأس جيش كبير وبصحبه وزيره صاحب شمس الدين بن السلعوس ، ثم زحف من دمشق إلى حلب قاصداً قلعة الروم . ولما اقترب منها . أخذ في محاصرتها حتى تمكن من فتحها عنوة بعد حصار دام ثلاثة وثلاثين يوماً ، وسماها قلعة المسلمين^(٢) ؛ وما لبث أن عاد بعد ذلك إلى دمشق وبين يديه الأسرى وبطريك الأرمن ؛ فرحب به أهلها وبسطوا له شقق الحرير التي لم تجر العادة بإعدادها إلا عند قدومه من مصر ؛ لكن وزيره شمس الدين بن السلعوس ، أشار بوضعها في طريقه احتفاء بفتحه قلعة الروم^(٣) .

ولما تم للملك الأشرف خليل الاستيلاء على قلعة الروم ، بعث إلى شهاب الدين بن الخوي قاضي القضاة بدمشق كتاباً جاء فيه : « . . . ولما أذن الله بالفتح الذي أغلق على الأرمن والتتار أبواب الصواب ، والمنح الذي

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣٠١

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٧٨

أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٢

(٣) ابن أبي القضاة : التهجد ج ٢ ص ٣٨٩ — ٣٩٠

أضفى على أهل الإيمان من المجاهدين أثواب الثواب ، فتحت هذه القلعة بقوة الله ونصره ، في يوم السبت حادى عشر شهر رجب الفرد . فسبحان من سهل صعبها وعجل كسبها وأمكن منها ومن أهلها ، وجمع شمل الممالك الإسلامية بشملها ، فالجلس السامى يأخذ خطابه من هذه البشرى . . . فإنه بفتح هذه القلعة . . . وحيازة ثغرها ومعقلها ، تحقق من بسيجون وجيجون ، أنهم بعدفتح باب الفرات بكسر أقفالها أقفال هذه القلعة لا يرجون أنهم يرجون ؛ وما يكون بعد هذا الفتح إن شاء الله إلا فتح المشرق والروم والعراق^(١) . . . ولم تكن حالة دولة المغول فى فارس فى عهد جيخاتو الذى خلف أخاه أرغون سنة ١٢٩١ م مما تجعلها توالى هجماتها على بلاد الشام ، فقد كان من أثر إسراف هذا السلطان فى إنفاق الأموال الكثيرة على ملذاته أن نفدت خزانة دولته^(٢) .

وكان جيخاتو مكروها من المغول لسوء خلقه ، فرفعوا شكواهم من تصرفاته إلى ابن عمه بيدو . ولما أحس بالخطر الذى يهدده فرهاربا ، غير أنه ما لبث قبض عليه وقتل سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٥ م) ، خلفه بيدو الذى توج فى همدان وظال يتولى الحكم بضعة أشهر . أظهر فيها انحيازه إلى المسيحية وبذل كثيرا من الجهد لوضع العقبات فى سبيل نشر الإسلام بين المغول ، كما استهل عهده بالقضاء على مناوأة ابن أخيه غازان الذى كان يلى بلاد خراسان ؛ لكن غازان ما لبث أن خرج على بيدو ودارت بينهما معركة بالقرب من همدان انتهى الأمر فيها بفرار بيدو وقتله . وبذلك آل عرش المغول إلى غازان بن أرغون فى ذى الحجة سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٥ م) ، فكافأ نوروز بأن فوض إليه نيابة المملكة ، كما عين أخاه خدابنده واليا على بلاد خراسان^(٣) .

(١) التويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣٠٠ ب — ١٣٠١

(٢) Browne, Literary History of Persia vol III p. 37

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٣١ — ٣٢

وقد اعتنق غازان الدين الاسلامي في السنة الأولى من ولاية الملك العادل زين الدين كتيغا سلطان المماليك في مصر^(١). ويرجع الفضل في إسلامه إلى وزيره نوروز المسلم الذي كان على علم بالتصوف والتاريخ. وكان غازان قد نذر بين يدي هذا الوزير أن يعتنق دين الاسلام إذا انتصر على بيدو. وسرعان ما نفذ وعده بعد تغلبه عليه^(٢)، وذلك بمساعدة عالم كبير يدعى الشيخ صدر الدين.

ولم يخالط الاسلام قلب غازان أول الأمر، فقد روى الشوكاني^(٣)، أنه لما أسلم غازان قيل له: وإن دين الاسلام يحرم نكاح نساء الآباء، — وكان قد استحوذ على نساء أبيه ومن يبنهن خاتون التي حازت رضاه —، فتمرع بفسكر في الارتداد عن الاسلام. ولما وقف على هذه الرغبة بعض خواصه، قال له: وإن أباك كان كافرا، ولم تكن خاتون معه في عقد صحيح، إنما كان مسافحا بها، فاعقد أنت عليها، فإنها حل لك؛ فلقى هذا القول قبولا من نفسه وعمل على تنفيذه.

على أن غازان ما لبث بعد ذلك أن أظهر تحمسا لدينه الجديد، فأمر بهدم الكنائس والبيع ومعابد الأوثان في تبريز، وقد سبقه إلى هذا العمل وزيره نوروز الذي حطم جميع المعابد الدينية التي لا تمت للاسلام بصلة، وقتل القساوسة البوذيين، وجبى الضرائب من رجال الكنيسة؛ كما تغالى في اضطهاد المسيحيين حتى أصبح من المتعذر عليهم السير في شوارع بغداد، وصار نساؤهم يذهبن إلى الحوانيت للبيع والشراء بدلا منهم لصعوبة التمييز بينهن وبين نساء المسلمين^(٤).

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٧١

(٢) Browne, Literary History of Persia vol III p. 40

(٣) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ج ٢ ص ٢ — ٣

(٤) Howorth, History of Mongols, vol III p. 396

كذلك اتخذ غازان هو ورجال بلاطه العمامة لباسا للرأس^(١) ، وسك عملة جديدة نقشت عليها بعض العبارات الاسلامية ، كما أصدر في مايو سنة ١٢٩٩م قرارا بتحريم الربا لمنافاته للشريعة الاسلامية^(٢) .

ولم يكن لاعتناق غازان الاسلام أثر في توطيد علاقته بالمماليك في مصر ، بل سار على سياسة من سبقه من ايلخانات المغول في بسط نفوذ دولته على ما جاورها من البلاد ، وخاصة بلاد الشام التي كانت خاضعة لنفوذ دولة المماليك ؛ ومن ثم قضى فترة طويلة من حكمه في محاربتهم . وقد سهل عليه مهمة السير في هذه السياسة هروب قبحق نائب دمشق وكشفه حقيقة الحال في بلاد الشام إليه^(٣) .

وقد اتخذ غازان من غدر الجيش الذي أرسله سيف الدين بلبان الطباخي نائب حلب بأهل ماردين ونهبه أرضها فرصة سانحة لغزو سورية ، فعهد إلى سلامش أن يذهب إلى بلاد السلاجقة الروم بآسيا الصغرى ليضم جندها إلى الحملة التي معه ، ثم يتوجه إلى حلب من ناحية سيس حيث يشترك معه في غزو بلاد الشام^(٤) .

بيد أن سلامش سرعان ما خدثته نفسه بالاستقلال ببلاد الروم ؛ فخلع طاعة غازان وكتب إلى الملك المنصور لاجين سلطان مصر يطلب نجدة لقتاله فأجابه إلى طابه وأرسل إلى نائب دمشق يأمره بإتخاذ العساكر لمساعدته . ولما علم غازان بخروج سلامش عليه ، أعرض عن المسير إلى الشام وجهز العساكر إلى بلاد الروم تحت قيادة بولاي ، وعاد إلى تبريز بصحبة الأمير قبحق ؛ ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى انتحاز إلى جانب بولاي

(١) Howorth, History of Mongols. vol III p. 421

(٢) Browne, Literary History of Persia, vol III p. 41 .

(٣) أبو القدا : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٣٧

(٤) تاريخ سلاطين المماليك ص ٤٤

من كان مع سلامش من التتار ، كما اعتصم التركان الذين كانوا من بين جنوده في الجبال ؛ وبذلك انفرد سلامش بفريق صغير من الجند واضطر إلى النزوح إلى دمشق ثم إلى مصر حيث رحب بقدمه السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون ؛ غير أنه ما لبث أن طلب العودة إلى بلاده ليحضر أولاده ؛ وبينما كان مارا بحلب في طريقه إليها ، قبض عليه بعض المغول وأرسلوه إلى غازان بحيث أمر بقتله .

على أن غازان ما لبث أن أعد جيشا لبيسط سلطانه على بلاد الشام واسترجاع ما فقده المغول على يد الملك المنصور قلاوون . ولما وصل إلى الناصر محمد نبأ عبور غازان نهر الفرات سنة ٦٩٩ هـ عهد إلى بعض الأمراء بالخروج إلى بلاد الشام لصد غارات المغول ، ثم تبعهم على رأس جيش كبير بعد أن أناب عنه في مصر الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار .

ولم يكد الجيش المصرى يصل غزة حتى عولت إحدى فرقه التي تعرف بالأويراتية على إثارة الفتنة لإعادة الملك العادل كتبغا إلى العرش والأخذ بشار إخوانهم الذين قتلوا في عهد سلطنة الملك المنصور لاجين ؛ فدبروا مؤامرة بالاتفاق مع بعض المماليك السلطانية للتخلص من السلطان الملك الناصر والأميرين بيبرس ، وسالار . وقد أخرجت هذه المؤامرة زحف الجيش المصرى كما كانت سدياً فيما حل به من الفوضى والإرتباك وفقد كثير من معداته الحربية . على أن الأمراء سرعان ما أظهروا نشاطا عظيما في القضاء على هذه الفتنة فقبضوا على الأويراتية وقتل منهم نحو الخمسين ، ونودى عليهم « هذا جزاء من يقصد إقامة الفتنة بين المسلمين ويتجاسر على الملوك »^(٢) ؛ ومن ثم استأنف الجيش المصرى سيره حتى نزل بعسقلان ، وسار منها إلى دمشق : على أنه ما كادت تصل الأخبار بكثرة جند المغول حتى وقع الرعب في قلوب

(١) النورى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣٢٢ ب

المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٧٦ — ٨٧٨

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٨٤

الممالك ، ثم لم يلبثوا أن تقدموا شمالا والتقى الفريقان بمجمع المروج (١) .
وكان في جيش الممالك صفوة القواد الأكفاء وقد أخذ ابن دقيق العيد
وغيره من رجال الدين يخترقون صفوف الجند ليثبتوا فيهم روح الحماس
وحب النصر ؛ فقويت بذلك عزائمهم على الثبات وبدأوا يهاجمون المغول
ويلقون عليهم النفط حتى تمكنوا من إلحاق الهزيمة بيمينتهم ؛ غير أن غازان
سرعان ما حمل عليهم ، فقام بهجوم هزم فيه قلب جيش الممالك . وظل السلطان
في اعتزله يحوطه اثنا عشر ملوكا وهو إذ ذاك يبكي ويبتهل ويقول : « رب
لا تجعلني كعباً نحسا على المسلمين » ؛ وكان كلما هم بالقرار منعه بعض
حراسه وطمأنه .

وقد رأى غازان أن يكف عن مطاردة جيوش الممالك المنهزمة خشية أن
يكونوا قد وضعوا له كميناً كعادتهم في الحروب ؛ فكان ذلك كما قال المقرئ :
« من لطف الله بهم ، فلو تتبعهم لهلكوا عن آخرهم » (٢) .

أما السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فإنه اتجه بعد هذه الهزيمة التي
لحقت بجيوشه مع فريق من الأمراء وطائفة يسيرة من الجند إلى بعلبك تاركا
خلفه كثيراً من المؤن والذخائر ، ثم تابع سيره حتى دخل دمشق ؛ غير أنه
لم يكند يصل إليها حتى جاءت الأخبار بزحف غازان على هذه المدينة بعد
استيلائه على ما كان يحمص من الذخائر وخزائن السلطان ؛ فوقع الرعب في
قلوب الأهالي وخرجت النساء باديات الوجوه وترك الناس حوانيتهم
وأموالهم وازدحموا جميعاً على أبواب المدينة يريدون الخروج منها ودفعوا
اللاجور الباهظة في سبيل نقلهم على الخيل والحمير ، بل توجه كثير من الأهالي
إلى مصر وتركوا دمشق خاوية ليس بها غير جماعة اتفقوا فيما بينهم على اختيار
وفد من كبارهم وعلمائهم لطلب الأمان من غازان ؛ كان من بينهم قاضي
القضاة بدر الدين محمد بن جماعة ، وشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية

(١) يقع هذا المكان في وادي الحازندار بين حمه وحمس .

(٢) المقرئ : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٨٧ — ٨٨٨

وبعض الفقهاء والقراء والأعيان ؛ فلما التقى هذا الوفد بغازان أخبرهم أنه أرسل أماناً لأهالي مدينتهم مع بعض رسله ؛ فعادوا إلى دمشق ، ثم عقد اجتماع بالمسجد الأموي في اليوم التالي لقدومهم تلا فيه أحد رجال التار ضرورة الأمان^(١) ، الذي كان يتضمن تأمين الأهالي جميعاً على اختلاف أديانهم وإيجاد حكومة تقرر العدل والنظام إذا ما ضُمَّت مصر إلى حوزة المغول ؛ وفيما يلي نص هذا الأمان^(٢) : « بقوة الله تعالى لي علم أمراء التومان^(٣) والآلوف والمائة وعموم عساكرنا المنصورة . . . أن الله لما نور قلوبنا بنور الإسلام ، وهدانا إلى ملة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام (أفن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه . قويل للقياسية قلوبهم من ذكر الله . أولئك في ضلال مبين .)

ولما أن سمعنا أن حكام مصر وأنشام خارجون عن طريق الدين ، غير متمسكين بأحكام الإسلام ، ناقضون لعبودهم حالفون بالإيمان الفاجرة ، ليس لديهم وفاء ولا ذمام ، ولا لأمورهم التمام ولا انتظام . وكان أحدهم إذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد . وشاع من شعارهم الحيف على الرعية ، ومد الأيدي العادية إلى حريمهم وأمواتهم ، والتخطى عن جادة العدل والإنصاف ، وارتكبهم الجور والإعساف ، حملتنا الحمية الدينية والحفيظة الإسلامية على أن توجهنا إلى تلك البلاد لإزالة هذا العدوان ، وإمطة هذا الطغيان ، مستصحبين الجم الغفير من العساكر .

ونذرننا على أنفسنا إن وفقنا الله تعالى بفتح تلك البلاد ، أزلنا العدوان

(١) تاريخ سلاطين المماليك ص ٨٥ — ٦٢ ، المقرئى : الملوك ج ١ القسم الثالث

ص ٨٨٩ — ٨٩٠

(٢) التويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣٢٥ ب — ٣٢٦ ا .

تاريخ سلاطين المماليك (Zetterstéén) ص ٦٢ — ٦٤

(٣) تومان الفرقة التي يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل

Quatremère. Histoire Des Sultans Mamlouks II, 2, p. 152+

والفساد وبسطنا العدل والإحسان في كافة العباد ممثلاً للأمر الإلهي . (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) وإجابه لما نذب إليه الرسول صلى الله عليه وسلم إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن . وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا .

وحيث كانت طويتنا مشتملة على هذه المقاصد الحميدة والتذور الالكيدة ، من الله علينا بتبليج تبشير النصر المبين والفتح المستبين ، وأتم علينا نعمته ، وأنزل علينا سكينته ، فقهروا العدو الطاغية والجيوش الباغية ، وفرقناهم أيدى سا ، ومزقناهم كل ممزق ، حتى جاء اخق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً . فازدادت صدورنا انشراحاً للإسلام ، وقويت نفوسنا بحقيقة الأحكام ، منحرفين في زمرة من حجب إنيهم الإيمان ، وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ، فضلاً من الله ونعمة .

فوجب علينا رعاية تلك العهود الموثقة . والتذور المؤكدة . فصدرت مراسيمنا العالية ألا يتعرض أحد من العساكر المذكورة على اختلاف طبقاتها لدمشق وأعمالها وسائر البلاد الشامية الإسلامية ، وأن يكفوا إظهار التعدي عن أنفسهم وأموالهم وحریمهم ولا يحوموا حول حماهم بوجه من الوجوه ، حتى يشتغلوا بصدور مشروحة ، وآمال مفسوحة بعمارة البلاد وبما هو كل واحد بصدده . من تجارة وزراعة وغير ذلك وكان هذا المهرج العظيم وكثرة العساكر ، فتعرض بعض نفر يسير من السلاحية وغيرهم إلى نهب بعض الرعايا وأسرهم ، فقتلناهم ليعتبر الباقون ، ويقطعوا أطماعهم عن النهب والأسر ، وغير ذلك من الفساد . وليعلموا أنا لا نسأح بعد هذا الأمر البليغ التة . وألا يتعرضوا لأحد من أهل الأديان على اختلاف أديانهم من اليهود والنصارى والصائفة . فإنهم إنما يبدون الجزية عنهم من الوظائف

الشرعية . لقول على عليه السلام: إنما يذلون الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودمائهم كدمائنا . والسلاطين موصون على أهل الذمة المطيعين كما هم موصون على المسلمين ، فإنهم من جملة الرعايا . قال صلى الله عليه وسلم : الإمام الذي على الناس راع عليهم وكل راع مسئول عن رعيته .

فسين القضاء والخطباء والمشايخ والعلماء والشرفاء ، والأكابر والمشاهير وعامة الرعايا ، الاستبشار بهذا النصر الهني ، والفتح السني ، وأخذ الحظ الوافر من السرور ، والنصيب الأكبر من البهجة والحبور ، مقبلين على الدعاء لهذه الدولة القاهرة والمملكة الظاهرة آناء الليل وأطراف النهار .

على أن المغول لم يحافظوا على العهود التي تضمنها هذا الإمان . فسرعان منازل غازان على دمشق وعانت جيوشه فسادا في ظاهر المدينة وامتدت أيدي جنده إلى بيت المقدس والكرنك تنهب وتأسر ؛ ونزل بدمشق منازل بغيرها من المدن ؛ فأخذت أموال أهلها بالباطل . ولم تسلم من المغول إلا قلعة دمشق الحربية التي اعتصم بها واليها أرجواش المنصوري وحال دون استيلاء المغيرين عليها^(١) . وكان قد تحدث معه في تسليمها الأمير قبجق وبعض الأمراء الذين التجأوا لغازان ؛ فقالوا له : « دم المسلمين في عنقك إن لم تسلمها ، فأجابهم على ذلك بقوله : « دم المسلمين في أعناقكم أتم الذين خرجتم من دمشق وتوجهتم إلى غازان وحستم إليه المجيء إلى دمشق وغيرها ، ثم وبختم وامتنع عن تسليمهم القلعة وظل متحصنا بها^(٢) .

على أن عدم نجاح المغول في احتلال قلعة دمشق لم ينهم عن بسط نفوذهم في بلاد الشام ؛ فخطب لغازان على منابر دمشق بهذه الألقاب : السلطان الأعظم ، سلطان الاسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين محمود غازان ، وعين الأمير قبجق واليا على هذه البلاد ، كما أسند إليه ولاية القضاء والخطباء ؛

(١) المقريري : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٩٠

Howorth, History of the Mongols vol III pp. 444-445

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٢٥

وقرىء تقليد تعيينه على منبر المسجد الأموى ؛ وفيما يلي نص ماورد فيه^(١) :
 « بقره الله تعالى وميثاق الملة المحمدية فرمان السلطان محمود غازان . الحمد لله
 الذى أيدنا بالنصر العزيز والفتح المبين ونشهد أن لا اله إلا الله وحده
 لا شريك له شهادة تنظمنا فى سلك المخلصين ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله
 سيد الأنبياء والمرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة تصله إلى يوم الدين .

أما بعد فإن الله تعالى لما ملكنا البلاد ، وفوض إلينا النظر فى أمور العباد
 وجب علينا أن ننظر فى مصالحهم وأن نهتم بنصائحهم ، وأن نقيم عليهم نائبا يتخلق
 بأخلاقنا فى كرم السجايا ويبلغنا الأغراض من مصالح الرعايا ، فأجلنا الفكر
 فيمن نقلده الأمور ، وأنعمنا النظر فيمن نفوض إليه مصالح الجمهور واختارنا
 لها من يحفظ نظامها المستقيم يقول فيسمع مقاله ويفعل فتقتنى أفعاله ،
 يكون أمره من أمرنا وحكمه من حكمنا وطاعته من طاعتنا ومحبه هى الطريق إلى
 محبتنا ؛ فرأينا أن الجنب العالى الأوحى المؤيدى العضدى النصيرى العالمى
 العادلى الذخرى الكفيل السيفى ، سيف الدين ، ملك الأمراء
 فى العالمين ، ظهير الملوك والسلاطين ، قبجق هذا المخصوص بهذه الصفات
 الجميلة ، والمحتوى على هذه السمات الجليلة ، وله حرمة المهاجرة إلى أبوابنا
 ووسيلة القصد إلى ركابنا ؛ فعرفنا له هذه الحرمة . وقابلناه بهذه النعمة .
 ورأينا أنه لهذا المنصب حفيظ قين ، وعلى ما استحفظ قوى أمين ، وأنه
 يبلغنا الغرض من حفظ الرعايا ، فأقنناه مقامنا فى العدل والقضاي .

فلذلك رسمنا أن نفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة ، بالملك الدمشقية
 والبلبكية والحصصية ، والساحلية والجبليّة والعجلونية والرحبية ،
 من العريش إلى سلبية ، نيابة تامة عامة كاملة شاملة ، يؤتمر فيها بأمره ،
 ويزدجر فيها بزجره ، ويطاع فى أوامره ونواهيه ، ولا يخرج أحد عن حكمه
 ولا يعصيه ، له الأمر التام والنظر العام ، وحسن التدبير وجميل التأثير
 والإجسان الشامل لأهل البلاد ، واستجلاب الغزاة والقواد ، وتأمين من

يطلب الأمان ، والطاعة والامتنان ، متفقاً في الاستخدام والتأمين ، مع ملك الأمراء ناصر الدين ، فإن اجتماع الآراء بركة ، والهمم تؤثر إذا كانت مشتركة ، وكل من أمّناه فإنه أماننا أجريناه على قلبهما ولسانهما .

١ وقد أنعمنا عليه بالسيف والسنبق الشريف والكوس والبايزة^(١) الذهب برأس السبع ، ورسمنا له بألف فارس من المغل يركبون لركوبه ، وينزلون لتزوله ، وليكونوا تحت حكمه ، رفعة لقدره ، وتنوياً بإسمه .

وسيل الأمراء والمقدمين وأمراء العربان والتركمان والأكراد والدواوين . والصدور والأعيان والجمهور ، أن يتحققوا أنه نائيننا في السلطنة الشريفة ، وأن له المنزلة المنيفة ، وليطيعوه طاعة تزلهم لديه ، وتقربهم إليه ، ويحصل لهم بها رضاه عنهم ، وإقباله عليهم ، وقربهم منه . وليلزموا عنده الأدب في الخدمة كما يجب ، وليكونوا معه في الطاعة والموافقة على ما يجب .

وعلى ملك الأمراء سيف الدين بتقوى الله في أحكامه ، وخشيته في نقضه وإبرامه ، وتعظيم الشرع وحكامه ، وتنفيذ أفضية كل قاض على قول إمامه ؛ وليعتمد الجلوس للعدل والإنصاف ، وأخذ حق المشروف من الأشراف ، وليقم الحدود والقصاص على كل من وجبت عليه ، وليكف الكف العادية عن كل من يتعدى إليه

ولما رأى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ما قام به المغول في دمشق من أعمال العنف والسلب ، عود على العودة إلى مصر ، فسار إليها بصحبة خواصه . أما الجنود المصرية والشامية فقد اضطربت حالهم وصارت العامة توبخهم بسبب الهزيمة التي ألحقها المغول بهم ، وعجز أكثر الأمراء والجند عن العودة إلى مصر لضعف خيلهم عن متابعة السير ، كما اضطرت

(١) البايظة : لوح صغير من ذهب مرسوم على أحد وجهيه رأس سبع الدكتور زيادة : حاشية رقم ٣ (كتاب السلوك ج ١ ص ١٠١٤)
(Dozy : Supp. Dict.)

بعض الجند إلى تغيير زتهم حتى يتيسر لهم بذلك الإقامة بدمشق بعيدين عن إيذاء العامة^(١).

وقد واصل المغول زحفهم إلى الشمال، فنزلوا بالصالحية ونهبوا مافي مدارسها وجامعتها من البسط والقناديل، كما نبشروا دقاتها العديدة، وقتلوا من أهلها زهاء تسعة آلاف؛ وكان ذلك مما حمل تقي الدين بن تيمية على الخروج في عدة جموع إلى شيخ الشيوخ نظام الدين محمود ليحثه لشكواه من أعمال المغول، فسار معهم إلى الصالحية ليتبين حقيقة الأمر. ولم يكد يصل إلى المغول خبر قدومه حتى ولوا الأدبار ورأى تقي الدين بن تيمية أن يقابل غازان بمرج راهط ليشتكوا له ما ارتكبه المغول من الأحداث على الرغم من ذلك الأمان الذي أعطاه لأهالي دمشق؛ غير أن حاشية غازان لم تمكنه من الاجتماع به^(٢).

ولم يتمتع أهالي دمشق بالأمن والطمأنينة، فقد شدد المغول الحصار عليهم واشتطوا في جمع الأموال حتى عجز كثير من الناس عن أداء ما فرض عليهم. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل اشتد الغلاء في دمشق حتى بلغ ثمن الشيء سبعة أضعافه، واقتربت هذه الأحداث بكثرة عدد القتلى من الجند والعامة؛ وقال في ذلك أحد الشعراء:

رمتنا صروف الدهر منها بسبعة فما أحد منا من السبع سالم
غلاء وغازان وغزو وغارة وغدر وإغبان وغم ملازم^(٣)
ولم ينبج من قسوة غازان أحد من الناس، لافرق في ذلك بين الرجال والنساء والصبيان والفقهاء والقراء والعلماء؛ وبلغ من شدة الرعب الذي وقع في قلوب الأهالي أن امتنعوا عن الخروج من منازلهم خوفاً من أن يستخرجهم

(١) تاريخ سلاطين المماليك ص ٦٠، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤

(٢) تاريخ سلاطين المماليك ص ٧٠،

المقريزي: السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٩١ — ٨٩٢

(٣) المقريزي: السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٩٣ — ٨٩٤

تاريخ سلاطين المماليك ص ٧١ — ٧٢

المغول في ردم الخنادق وأداء بعض الأعمال الحربية ؛ وكان من أثر ذلك أن عطلت الشعائر الدينية في المساجد فترة قصيرة من الزمن .

ولم يكن هذا كل ما حل بأهالى دمشق ، بل غنم منهم غازان مغانم كثيرة ، قبلغ ما خيل لخزائنه ٣,٦٠٠,٠٠٠ درهم (١) ، غدا ما استولى عليه من الأسلحة والثياب والدواب والغلال ، وما نهه أتباعه (٢) .

وقد ظل أهالى دمشق يعانون كثيرا من الضيق حتى عاد غازان إلى بلاده فى جمادى الأولى سنة ٦٩٩ هـ بعد أن أقر فى نيابة دمشق الأمير قبچق وأقام قطلوشاه قائد الحامية المغول ببلاد الشام .

ولم تمض أيام قلائل على رحيل غازان إلى بلاده حتى قرىء على منبر الجامع الأموى بدمشق كتاب تولية قبچق نيابة الشام ، وآخر بتولية الأمير ناصر الدين يحيى بن جلال الدين الختنى الوزارة وبهذا الكتاب إشارة إلى عزم غازان على العودة قريبا لغزو الديار المصرية ، ونصها : « إنا توجهننا إلى البلاد وتركنا بالشام مستين ألفا من جيشنا لحفظه وإتفاقى فصل الخريف نرجع إلى البلاد قاصدين مصر (٣) . »

على أن قطلوشاه مالبث أن لحق بغازان وخرج قبچق لوداعه ، ثم نودى فى المدينة : « طيبوا قلوبكم واقتحروا دكا كينكم وتهيئوا غدا ملتقى ساحات الاسلام والشام الأمير سيف الدين قبچق بالشموع . . . قد دفع الله عنكم العدو المخذول » ؛ ومن ثم انفر دقبچق بحكومة دمشق . وقد استهل هذا الأمير عهده ، بأن طلب من سكان المدينة العودة إلى بلادهم وقراهم ، ثم أمر بأن ينادى : « لا يغتر أحد بنفسه ولا يخرج إلى الجبل ولا إلى الحواضر ، ومن فعل ذلك قدمه فى عنقه . » ومالبث قبچق أن قوى تقوده بانضمام فريق من الجند إليه ،

(١) ذكر صاحب كتاب تاريخ سلاطين المماليك (ص ٧٧) ، أن هذا المبلغ

٣,٦٠٠,٠٠٠ دينار .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٩٤ .

(٣) التويرى : هاية الأرب ج ٢٩ ص ١٣٢٧ . تاريخ سلاطين المماليك ص ٧٥ .

وصار موكبه يضاهي موكب السلطان ، وكثر ازدحام الناس على بابه .^(١) وعلى الرغم من استقرار الأمور لقبجق بدمشق ، فإن قلعتها ظلت في يد أرجواش ؛ وما زال النزاع قائما بين هذين الأميرين حتى رأى كل من بدر الدين بن جماعة وتقي الدين بن تيمية أن يعملوا على إحلال الوئام محل الخصام بينهما ؛ غير أن مجهودهما ذهب أدراج الرياح ، ولم يمحض على ذلك زمن طويل ، حتى خرج الأمير سيف الدين قبجق من دمشق بصحبة بعض الأمراء قاصدا مصر لمقابلة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون . وكان لرخیل هؤلاء الأمراء من دمشق أثر سيء في نفوس الأهالي ؛ فاضطربوا اضطرابا شديدا ، وأمر أرجواش بأن ينادى في المدينة : « احفظوا البلد والزموا الأسوار وأخرجوا العدد » ، وما لبث هذا الأمير أن أصبح يشرف بنفسه على شئون دمشق ، ثم أصدر أوامره بأن يذكر اسم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في الخطبة مقرؤنا باسم الخليفة العباسي بالقاهرة ، وكان لهذا التغيير رنة فرح في قلوب الأهالي^(٢) .

أما موقف الناصر محمد فإنه لما عاد إلى مصر أخذ يعد العدة لمحو العار الذي لحق به من جراء الهزيمة التي أوقعها المغول بحمده ؛ فقرض ضرائب جديدة ورغب الأثرياء في التبرع بالمسال حتى يتيسر بذلك لمصر صد تيار المغول ، كما جهزت الأسلحة وكثرت الرغبة في امتياط الجياد ، حتى زاد ثمن الفرس من ٤٨٠ درهما إلى ١٦٠٠ درهم ، وارتفعت قيمة الإبل ، فبيع ما كان بمائة ، بسبعائة ، وألف درهم .

كذلك أنفذ السلطان ، إلى نواب القلاع ببلاد الشام يأمرهم بحمايتها ، ويخبرهم بما استقر عليه رأيه من العودة ثانية إلى هذه البلاد ، كما كتب إلى

(١) تاريخ سلاطين المماليك ص ٧٦ — ٧٧ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٢٧ .

(٢) تاريخ سلاطين المماليك ص ٧٨ — ٧٩ .

قبجق وغيره من الأمراء يدعوه إلى طاعته ، فأجابوه إلى طلبه (١) .

١ ولما أتم السلطان إعداد حملته ، خرج من القاهرة متجها إلى بلاد الشام ثم تبعه الجيش بقيادة الأميرين سالار نائب السلطنة وبيبرس الجاشنكير الاستادار ، فتقابلوا مع الأمير قبجق وأتباعه في منتصف الطريق بين غزة وعسقلان ، وطلبوا إليهم التوجه إلى السلطان بالصالحية ، فلبوا الدعوة . ولما بلغ السلطان خبر قدومهم ، ركب إلى لقاءهم وبالغ في إكرامهم ثم عاد بهم إلى قلعة الجبل حيث عفا عنهم وخلع عليهم وعهد إلى قبجق بولاية الشوبك إجابة لطلبه ؛ وما لبث أن عاد الأميران بيبرس وسالار على رأس الجيش المصرى من دمشق ، ورحب السلطان بمقدمهم (٢) .

على أن العداء لم ينته بين المغول والمماليك ؛ فقد ذاع في المحرم سنة ٧٠٠ هـ بدمشق نبأ مسير غازان إلى بلاد الشام ؛ ولما وصل إلى الناصر محمد نبأ زحف المغول على تلك البلاد . استدعى الوزير شمس الدين سنقر الأعسر والأمير ناصر الدين محمد بن الشينى وإلى القاهرة ، وأمرهما بحماية الأموال من الناس كما ألزم أصحاب الأراضى بأداء مال معين . قرر على كل منهم ، فبلغ جملة ما جبي من القاهرة ومصر والوجهين البحرى والقبلى مائة ألف دينار ، هذا إلى فرضه ضرائب أخرى . أرهقت الأهلى حتى ضجوا بالشكوى وانطلقت أسنتهم بالطعن فى حق رجال الدولة ، واستخف العامة بالجند وصاروا يقولون لهم : « بالأمس كنتم هاربين واليوم تريدون أخذ أموالنا » . ولما كثر تجرؤ العامة على الجند ، نودى فى القاهرة بأن كل من يتعرض لجندى قتل وصودرت أمواله (٣) .

ولما أتم الناصر محمد إعداد معداته ، سافر إلى بلاد الشام بصحبة الأمراء

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٩٧ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٩٠ — ٩٠٢

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٩٠٦ — ٩٠٧

والعساكر . ولم يكذب يستقر مقامه بغزة حتى ورد إليه خبر عبور غازان نهر الفرات ، فأمر جيوشه بالرحيل للملاقاته ، لكنها لم تلبث أن قاست كثير أمن الشدائد بسبب البرد وهطول الأمطار ، ثم عاد الناصر محمد إلى مصر بعد أن أصاب جنده الجهد الشديد وانقطاع المدد عنهم .

أما فيما يتعلق بموقف غازان ، فإنه بعد أن عبر الفرات ، سار متجها إلى أنطاكية ؛ غير أن شدة البرد حملته على عدم مواصلة الزحف ، فرجع أدراجه بعد هجومه على أنطاكية وجبل السماق ونهبه الأموال وأسره العدد الوفير من الرجال ، حتى بيع الواحد منهم بعشرة دراهم ؛ وحالت الأمطار الغزيرة والثلوج المتكاثفة دون دخول المغول دمشق . وقد عقب صاحب تاريخ سلاطين المماليك ^(١) وأبو المحاسن ^(٢) على هذه الغزوة بقولهما : (ورد الله الذين كفروا بضيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال)

وكان غازان يأمل أن تساعد الدولة الأوربية في انتزاع سورية من قبضة المماليك ، فأرسل إلى ملكي إنجلترا وفرنسا عدة سفارات تطلب العون ضد المماليك ؛ فلم يلق طلبه قبولا ^(٣) .

ولما يتس غازان من مناصرة ملوك أوربا له ، عول على مهادنة المماليك فأرسل في رمضان سنة ٧٠٠ هـ (مايو سنة ١٣٠١ م) رسالة إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون مع وفد مكون من الفقيه كمال الدين موسى ابن يونس قاضي الموصل ، والأمير ناصر الدين علي خواجا . وحين وصل هذا الوفد إلى القاهرة ، استقبل بمظاهر الحفاوة والتكريم ، ثم دعي إلى قلعة الجبل ، حيث اجتمع الأمراء والعسكر . ولما التأم عقد المجلس ، قام قاضي الموصل — أحد سفراء غازان — وخطب خطبة بليغة نوه فيها بالصلح ودعا للسلطان ولغازان وللأمراء ، ثم قدم للجمعين كتاب غازان . وقد عاب فيه

(١) ص ٨٣ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٣٢ .

(٣) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 56.

السلطان طجومه على أملاكه من غير سبب ، وتوعده الانتقام إذا اتصل بعلمه أن المماليك قد عولوا على الأجد بثأرهم ومقاتلتهم بنواحي حلب والفرات ، وناشده الله والدين أن يعمل على تلافى ما قد يقع ببلاده من الخراب ، وطلب منه أخيراً أن يسعدله الهدايا والتحف ؛ وفيما يلي نص هذا الكتاب : (١)

وبسم الله الرحمن الرحيم . بقوة الله تعالى وميامين الملة المحمدية . فرمان السلطان محمود غازان .

ليعلم السلطان المعظم الملك الناصر ، أنه في العام الماضي بعض (عساكرهم) المفسدة دخلوا أطراف بلادنا ، وأفسدوا فيها لعناد الله وعنادنا ، بكاردين ونواحيها ، وجأهروا الله بالمعاصي فيمن ظفروا به من أهلها ، وأقدموا على أمور بدعية ، ولادتكبوا آثاراً شنيعة ، من محاربة الله وخرق ناموسه الشريعة ، فأنقنا من تهجمهم ، وغرنا من تقحمهم ، وأخذنا نخبة الإسلامية ، فخذنا على دخول بلادهم ومقاتلتهم على إفسادهم ، فركنا بمن كان لدينا من العساكر . وتوجهنا بمن اتفق منهم أنه حاضر . وقبل وقوع الفعل منا واشتجار الفتك عنا . سلكنا سنن المرسلين ، واقتضينا آثار المتقدمين وأقدينا بقول الله : (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) . وأنفذنا صحة يعقوب الشكرجي جماعة من القضاة والأئمة الثقات ، وقلنا هذا تدير من النذر الأولى . أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة (فقابلتم ذلك بالإصرار وحكتم عليكم وعلى المسلمين بالآضرار ، وأهتتموهم وسجتموهم وخالفتم سنن الملوك في حسن السلوك ، فصبرنا على تماديكم في غيكم وخلودكم إلى بغيكم إلى أن بصرنا الله ، وأراكم في أنفسكم قبضاة (أفأمنوا مكر الله فلا

(١) بيري المنصوري : رتبة الفكرة ج ٩ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ ح .

النوري : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ١٣٣١ .

تاريخ سلاطين المماليك ص ٩٣ — ٩٤ .

القلعشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٩ — ٧١ .

يأمن مكر الله) وظننا أنهم حيث تحققوا كنه الحال وآل بهم الأمر إلى ما آل ، أنهم تداركوا الفارط من أمرهم ، ورتقوا ما فتقوا بغدرهم ، ووجه إلينا وجه عذرهم ، فإنهم ربما سيّروا إلينا حال دخولهم إلى الديار المصرية ، رسلا لإصلاح تلك القضية ، فتبيننا بدمشق غير متحشّين ، وتثبطنا تثبط المتمكنين ؛ فصدّهم عن السعي في صلاح حالهم التواني وعملوا نفوسهم عن اليقين بالأمانى ؛ ثم بلغنا بعد عودنا إلى بلادنا ، أنهم ألقوا في قلوب العساكر والعوام ، وراموا جبر ما أوهنوا من الإسلام ، أنهم فيما بعد يلقوننا على حلب والفرات ، وأن عزيمتهم مصير على ذلك لاسواه ؛ فجمعنا العساكر وتوجهنا للقاهم ، ووصلنا الفرات مرتقبين ثبوت دعواهم ، وقلنا لعل وعساكم ، فما لمع لهم بارق ، ولاذر شارق ، فقدمنا إلى أطراف حلب وتعجبنا من بطئهم غاية العجب ، فبلغنا رجوعهم بالعساكر ، وتحقيقنا نكوصهم عن الحرب . وفكرنا أنه متى تقدمنا بعساكرنا الباهرة ، وجموعنا العظيمة القاهرة . ربما أخرج البلاد مرورها وباقامتهم فيها فسدت أمورها وعم الضرر العباد ، والخراب البلاد . فعدنا بقيا عليها . ونظرة لطف من الله إليها .

وهنا نحن الآن أيضا مهتمون بجمع العساكر المنصودة ، ومشحذون غرار عزوماتنا المشهورة ، ودشتغلون بصنع المجانيق وآلات الحرب ، وعازمون بعد الإنذار (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

قد سيرنا حاملي هذا الفرمان الأمير الكبير ناصر الدين على خواجا ، والإمام العالم ملك القضاة كال الدين موسى بن يونس ؛ وقد حملناهما كلاما يشافهما به ، فليثقوا بما تقدمنا به إليهما ، فإنهما من الأعيان المعتمد عليهما ، لتكون كما قال الله تعالى : (قل فله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين) ؛ فتعدوا لنا الهدايا والتحف ، فما بعد الإنذار من عاذر ، وإن لم تداركوا الأمر فدما المسلمين وأموالهم مطلولة بتدبيرهم ، ومطلوبة منهم عند الله على طول تقصيرهم .

فليمنع السلطان لرعيته النظر في أمره ، فقد قال صلى الله عليه وسلم ، من ولاه الله أمرا من أمور هذه الأمة ، واحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم ، احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره . وقد أعذر من أنذر وأنصف من حذر ، والسلام على من أتبع الهدى .

ولما اطلع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون على هذه الرسالة ، دعا رجال الدولة واستشارهم في الأمر ؛ فاستدعوا ضياء الدين قاضى الموصل - وهو أحد سفراء غازان - وقالوا له : « أنت من أكابر العلماء وخيار المسلمين ، وتعلم ما يجب عليك من حقوق الإسلام والنصيحة للدين ، ما تتقاتل إلا لقيام الدين ، فان كان هذا الأمر قد فعلوه حيلة ودهاء ، فنحن نخلف لك بالله أن ما يطلع على هذا القول أحد من خلق الله تعالى » : فخلف لهم « إنه لا يعلم عن غازان غير الرغبة في الصلح وتأمين التجار والمسافرين » ، ثم زاد على ذلك بقوله : « والمصلحة أنكم تنفقون وتيقون على ما أتم عليه من الاهتمام بعدوكم ... فان كان هذا الأمر خديعة ، فيظهر لكم ، وإن كان الأمر صحيحا ، فتكونون قريبين منهم ، فينتظم الصلح وتحقق الدماء فيما بينكم » . وكان لهذا الحديث أحسن الأثر في نفوسهم ، فأيقنوا أن هذا السفير لم يجد عن طريق الحق وأنه بذل النصيح لهم ، ومن ثم استقر رأيهم على إنفاذ كتاب لغازان يتضمن الرد على رسالته ، وقام بمهمة حمله إليه حسام الدين المجيرى والقاضى عماد الدين بن السكرى .

وقد فند الناصر محمد في هذا الكتاب أقوال غازان ، وأثبت أن المغول هم الذين بدموا بالعدوان ، كما ذكر له أنه لن يهاديه حتى يبدأ هو بارسال الهدايا إليه ، وعاب على غازان إذلاله المسلمين في دمشق وما جاورها من البلاد وتخريبه المساجد والآثار بما لا يتفق مع تعاليم الإسلام ، وختم الناصر كتابه لغازان مؤكدا له استعدادة لمصادقته إذا جنح للسلم ، وأبعد الكفار الذين لا يحل له أن يتخذهم بطانة له ؛ وفيما يلي نص هذا الكتاب (١) :

(١) بيرس المنصورى : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ص ١٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ .

« فليعلم السلطان المعظم محمود غازان أن كتابه ورد ، فقابلناه بما يليق بمثلنا
لمثله من الإكرام ، ورعينا له حق القصد ، فقلقناه منا بسلام ، وتأملناه
تأمل المتفهم لدقائقه ، المستكشف عن حقائقه ، فالفينا قد تضمن مؤاخذه
بأمور ، هم بالمؤاخذه عليها أخرى مفتندوا في التجدي بما جعله ذنوبا لبعض
طالب بها الكل ، والله تعالى يقول : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) .

أما حديث من أغار على ماردين من رجاله بلادنا المتطرفة ، وما
نسبوه إليهم من الإقدام على الأمور البديعة ، والآثام الشنيعة ، وقولهم إنهم
أنفوا من تهجمهم ، وغاروا من تهجمهم ، واقتضت الحية ركبهم في مقابلة
ذلك ، فقد تلحنا هذه الصورة التي أقاموها عذرا في العدوان ، وجعلوها
سببا إلى ما ارتكبوه من طغيان . والجواب عن ذلك أن الغارات من
الطرفين لم يحصل من المهادنة والمواذعة ما يكف يدها الممتدة ، ولا يغير همهما
المستعدة . وقد كان آباؤكم وأجدادكم على ما علمتم من الكفر والتفاق ، وعدم
المصافاة للإسلام والوفاق ؛ ولم يزل ملك ماردين ورعاياه متغذين ما يصدر
من الأذى للبلاد والعباد عنهم ، متولين كبر مكرهم ، والله تعالى يقول :
(ومن يتوهم منكم فإنه منهم) .

وحيث جعلتم هذا ذنبا للحمية الجاهلية ، وحاملا على الانتصار الذي
زعمتم أن همكم به مسليته ؛ فقد كان هذا القصد الذي ادعيتموه يتم بالانتقام
من أهل تلك الأطراف التي أوجب ذلك فعلها ، والاقتصار على أخذ الشر
من ثار ، اتباعا لقوله تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) لا أن تقصدوا
الإسلام بالجوع الملققة على اختلاف الأديان ، وتطنوا البقاع الطاهرة بعبد
الصلبان ، وتنهكوا حرمة البيت المقدس الذي هو ثاني نبي الله الحرام ،
وشقيق مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وإن احتججتم بأن زمام تلك

الغارة بيدنا وسبب تعديهم من سنتنا ؛ فقد أوضحنا الجواب عن ذلك وأن الصلح والمواذعة أوجب سلوك هذه المسالك .

وأما إمامادعوه من سلوك سنن المرسلين ، واقتفاء آثار المتقدمين في إنفاذ الرسل أولاً ، فقد تلحننا هذه الصورة وفهمنا ما أوردوه من الآيات المسطورة ؛ والجواب عن ذلك أن هؤلاء الرسل ما وصلوا إلا وقد دنت الحيام من الخيام ، وناضلت السهام عن السهام ، وشارف القوم القوم ، ولم يبق للقاء إلا يوم أو بعض يوم ، وأشرعت الأسنة من الجانبين ، ورأى كل خصمه رأى العين . وما نحن ممن لاحت له رغبة راغب فتشاغل عنها ولهى ولا بمن يسالم فيقابل ذلك بحفرة النفار ، والله تعالى يقول : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) . كيف والكتاب بعنوانه ، وأمير المؤمنين على بن أبي طالب يقول : ما أضمر الإنسان شيئاً إلا ظهر في صفحات وجهه وفلتات لسانه . ولو كان حضور هؤلاء الرسل والسيوف وأدعة في أعمادها والأسنة مستكنة في أعوادها ، والسهام غير مفوكة والأعنة غير مطلقة ، لسمعنا خطابهم وأعدنا جوابهم .

وأما ما أطلقوا به لسان قلوبهم وأبدوه من غليظ كلبهم في قولهم : فصبرنا على تماديكم في غيكم وإخلادكم إلى بغيكم ، فأى صبر ممن أرسل عنانه إلى المكافأة قبل إرسال رسل المصالحة ، ونجاس خلال الديار قبل مازعمة من الاعتذار والإندار ؟ وإذا فسكروا في هذه الأسباب ونظروا فيما صدر عنهم من خطاب وعلموا العذر في تأخير الجواب ، (وما يتذكر إلا أولوا الألباب) .

وأما ما تبجحوا به بما اعتقدوه من نصرة ، وظنوه من أن الله جعل لهم على حزبه الغالب في كل كرة السكرة ، فلو تأملوا ما ظنوه ربحاً لوجدوه هو الخسران المبين ، ولو أنعموا النظر في ذلك لما كانوا به مفتخرين ، ولتحققوا أن الذي اتفق لهم كان غرماً لا غنماً ، وتدبروا معنى قوله تعالى : (إنما نملى لهم

ليزدادوا إثمًا). ولم يخف عنهم ما نالته السيوف الإسلامية منهم ، وقد رأوا عزم من حضر من عساكرنا التي لو كانت مجتمعة عند اللقاء ما ظهر خبر عنهم فإننا كنا في مفتاح ملكنا ومبتدى أمرنا ، حللنا بالشام للنظر في أمور البلاد والعباد ، فلما تحققنا خبركم وقفونا أثركم ، بادرنا نقد أديم الأرض سيراً . وأمرنا لندفع عن المسلمين ضرراً وضيراً ، وتؤدي من الجهاد السنة والفرض ونعمل بقوله تعالى : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض) فاتفق اللقاء بمن حضر من عساكرنا المنصورة وثوقاً بقوله تعالى : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة) وإلا فأكابركم يعلمون وقائع الجيوش الإسلامية التي كم وطئت موطنًا يغيب الكفار ، فكتب لها به عمل صالح ، وسارت في سبيل الله ، ففتح الله عليها أبواب المناجح ، وتعددت أيام نصرتها التي لو دققتم الفسك فيها لأزالت ما حصل عندكم من لبس

وأما إقامتهم الحجة علينا ، ونسبتهم التفريط إلينا ، في كوننا لم نسير إليهم رسولاً عند حلولنا بدمشق ؛ فنحن عندما وصلنا إلى الديار المصرية لم نزد على أن اعتدنا وجمعنا جيوشنا من كل مكان ، وبذلنا في الاستعداد غاية الجهد والإمكان ، وأنفقنا جزيل الأموال في جمع العساكر والجحافل ، ووثقنا بحسن الخلف لقوله تعالى : (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل) .

ولما خرجنا من الديار المصرية بلغنا خروج الملك من البلاد ، لأمر حال بينه وبين المراد ، فتوقفنا عن المسير توقف من أغنى رعه عن حث الركاب ، وثبتنا ثلث الراسيات (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) وبعثنا طائفة من العساكر لمقابلة من أقام بالبلاد ، فما لاح لها منهم بارق ولا ظهر ، وتقدمت فتخطفت من حملة على التأخر الغرر ووصلت إلى الفرات فما وقعت للقوم على أثر .

وأما قولهم أننا ألقينا في قلوب العساكر والعوام أنهم إفيما بعد يتلقونا

على حلب أو الفرات ، وأنهم جمعوا العساكر ورحلوا إلى الفرات ، وإلى حلب مرتقبين ؛ فالجواب عن ذلك أنهم من حين بلغنا حركتهم جزمنا ، وعلى لقائهم عزمنا ؛ وخرجنا وخرج أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ابن عم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الواجب الطاعة على كل مسلم ، المفترض المبايعة المتابعة على كل منازع ومسلم ، طائعين لله ولرسوله في أداء فرض الجهاد باذلين في القيام بما أمرنا الله غاية الاجتهاد ، لا يتم أمر دين ولا دنيا إلا بمشايعته ، ومن والاه فقد حفظه الله وتولاه ، ومن عانده أو عاند من أقامه فقد أذله الله ؛ فحين وصلنا إلى البلاد الشامية تقدمت عساكرنا تملأ السهل والجبل ، وتبلغ بقوة الله في النصر الرجاء والأمل ، ووصلت أوائلها إلى أطراف بلاد حماة وتلك النواحي ، فلم يقدم أحد منهم عليها ، ولا جسر أن يعد حتى ولا الطرف إليها ؛ فلم نزل مقيمين حتى بلغنا رجوع الملك إلى البلاد ، وإخلافه موعد اللقاء ، والله لا يخلف الميعاد . فعدنا لاستعداد جيوشنا التي لم نزل تندفع في طاعة الله تعالى اندفاع السيل ، عاملين بقوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) .

وأما ما جعلوه عذرا في الإقامة بأطراف البلاد وعدم الإقدام عليها ، وأنهم لو فعلوا ذلك ودخلوا بجيوشهم ربما أخرج البلاد مرورها وبأقامتهم فسدت أمورها ؛ فقد فهم هذا المقصود ، ومتى ألقت العباد والبلاد منهم هذا الإشفاق ؟ ومتى اتصفت جيوشهم بهذه الأخلاق ؟ وها آثارهم موجودة ، ودعاوى خلافتها بمشاهدة الحال مردودة ؛ وهل هذا اعتماد من رفق شخص الاسلام بإنسانه ؟ كيف ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : المسلم من سلم الناس من يده ولسانه . وأسارى المسلمين عندهم في أشد وثاق ، وفي يد الأرمين والتكفور منهم ما يخالف ما ادعوه من إشفاق ... وأما ما أوردوا به وأبرقوا ، وأرسلوا فيه عنان قلوبهم وأطلقوا . وما أبدوه من الاهتمام بجمع العساكر ، وتهيئة المجانيق إلى غير ذلك مما ذكره من التهويل فآله تعالى يقول :

(الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) .

وأما قولهم وإلا فدماء المسلمين مطلولة ، فما كان أغناهم عن هذا الخطاب وأولاهم بالألا يصدر إليهم عن ذلك جواب . ومن قصده الصلح والإصلاح ، كيف يقول هذا القول الذي عليه فيه من جهة الله تعالى ومن جهة رسوله أى جناح ؟ والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « نية المرء أبلغ من عمله » . وبأى طريق تشهد دماء المسلمين ، التى من تعرض إليهما يكون الله له فى الدنيا والآخرة مطالباً وغريماً ، ومؤاخذاً بقوله تعالى : (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً) وإذا كان الأمر كذلك فالبشرى لأهل الإسلام ، بما نحن عليه من الهم المصروفة إلى الاستعداد

وأما رسلهم . . . فقد وصلوا إلينا ووفدوا علينا وأكرمنا وفادتهم . . . وسمعنا خطابهم ، وأعدنا جوابهم ، هذا مع كوننا لم يخف عنا انحطاط قدرهم ، ولا ضعف أمرهم . . . وما كان ينبغي أن يرسل مثل هؤلاء لمثلنا من مثله . . .

وأما ما التمسوه من الهدايا والتخف ، فلو قدّموا من هداياهم حسنة لحوّضناهم بأحسن منها ، ولو اتحفونا بتحفة لقابلناهم بأجلّ عوض عنها . وقد كان عمه الملك أحمد راسل ولدنا السلطان الشهيد وناجاه بالهدايا وللتخف من مكان بعيد ، وتقرب إلى قلبه بحسن الخطاب ، فأحسن له الجواب ، وأتى البيوت من أبوابها بحسن الأدب وتمسك من الملائقة بأقوى سبب . . . والآن حيث انتهت الأجوبة إلى حدها . . . فنقول : إذا جنح الملك للسلم جئنا لها ، وإذا دخل فى الملة المحمدية بمثلاً ما أمر الله به مجتنباً ما عنه نهى ، وانضم فى سلك الإيمان . . . وتجنب التشبه بمن قال فى حقهم (قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمتن عليكم أن هذاكم للإيمان) . وطابق فعله قوله ورفض الكفار الذين لا يحل له أن يتخذهم حوله ، وأرسل إلينا رسولا

من جهته يرتل آيات الصلح ترتيباً

١٠ على أن هذه المراسلات لم تأت بشمرتها المرجوة ، فاستؤنفت الحرب من جديد بعد عام واحد ، وتحرك المغول بجيوشهم الجاردة حتى نزلوا على نهر الفرات ، ثم تقابلوا مع جيوش أمراء الشام بمكان يقال له السكوم بالقرب من عرض سنة ٧٠٢ هـ حيث دارت رحى الحرب بين الفريقين ، وانتهى الأمر بهزيمة المغول . وقد علق أبو الفداء (١) - وكان ممن حضروا هذه الموقعة - على ما ناله المماليك من نجاح في صد المغول بقوله : « وكان هذا النصر عنوان النصر الثاني » .

ولم يكفد يتم النصر للمماليك في موقعة عرض حتى تأهب المغول للحرب ، فسار قطلوشاه في مائة ألف من التار والكرج ، والأرمن ؛ ولما وصلوا حماء ، اشتد الرعب في قلوب الناس وأقبل أهالي حلب وحماء إلى دمشق خوفاً من المغول ، كما تأهب أهالي دمشق للقرار ، ولم يمنعمهم عن تنفيذ غرضهم إلا ذلك النداء الذي نودى به في المدينة وهو « من خرج حلّ ماله ودمه » (٢) .

أما السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فقد خرج بعساكره وتشاوروا في الخروج لصد المغول أو انتظار قدوم السلطان ، ثم قر رأيهم على الرحيل منها حتى لا يفاجئهم المغول واضطر أهالي دمشق إلى الجلاء عنها ؛ ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى التقى نواب الشام بالسلطان في ضواحي هذه المدينة ؛ ومن ثم اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية بمرج الصفر وأخذ السلطان والخليفة المستكني بالله يحثان الجنود على القتال ، ودارت بينهم وبين جيش المغول بقيادة قطلوشاه عدة معارك انتهى الأمر فيها بأن أوقع المماليك الهزيمة بالمغول وفر قطلوشاه إلى الفرات مع قلوب جيشه ؛ فخرق بعضهم ومات البعض الآخر في الصحراء من شدة الجوع والعطش .

(١) المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٤٨

(٢) أبو المحاسن : النبوم الزاهرة ج ٨ ص ١٥٧

وكان لهذا الانتصار الذى ظفر به المماليك على المغول ، رفة فرح وسرور عند أهالى دمشق ، فخرجوا لاستقبال الناصر محمد وهم يضجون بالدعاء والتهليل والشكر لله سبحانه وتعالى ؛ وسار السلطان فى طرق تعلوها الزينات حتى نزل بالقصر الأبلق ، ثم خلع على نواب الشام ، وشرع بعد ذلك فى العودة إلى مصر متوجا بالنصر ومحاطا بالفخار .

وقد أخذ الفرح من أهل مصر كل مأخذ ؛ فأقيمت الزينات على المنازل والخوانيت ، وفى الشوارع والميادين العامة ورفعت الأعلام ، كما أقيمت أقواس النصر ابتهاجا بقدوم السلطان ، ومنع العمال من مزاوله أعمالهم إلا إقامة الزينات وأقواس النصر التى بلغ عددها سبعين قوسا — وكانت تسمى إذ ذاك القلاع — ودفعت الأجور الباهظة للحجر المطة على الطرق التى مر بها السلطان . وقد بلغت أجره البيت الواحد من خمسين درهما إلى مائة ، وفرشت الأرض بالبسط الحريرية من باب النصر إلى القلعة . ولما وصل السلطان باب النصر ، ترجل جميع الأمراء ، ومر السلطان بين الجموع الغفيرة التى استقبلته بالبشر والسرور وسط هذه الزينات يحوطه حراسه والتبلاء من رجال الدولة ويتبعه أسرى المغول . وكان يتقدم الفصائل المصرية ١٦٠٠ أسير من المغول مكبلين بالسلاسل والأغلال ، ويتدلى من رقبة كل منهم رأس مغولى آخر ، كما حملت ألف رأس من رموس قتلاهم على الرماح تعلوها طبول الحرب المغولية الكبيرة بجلودها الممزقة .

وقد أورد القاضى علاء الدين على بن عبد الظاهر فى كتابه « الروض الزاهر فى غزوة الملك الناصر ، الذى نقله النويرى ^(١) وصفا لقدوم السلطان إلى القاهرة عقب انتصاره على المغول فى موقعة مرج الصفر ، يوضح لنا كيف احتفل المصريون باستقبال سلطانهم ؛ وما ورد فيه « وصل السلطان ديار مصر المحروسة ، وقد زفت عروسا تجلى فى أبهى الحلل ، وجمعت أنواع

(١) نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٢٣٧ ب *

المحاسن ، فلا يقال لشيء منها كمل ، لو أن ذا كمل : وفضح الدجى إشراقها
وبهر العيون جمالها ، فالى أقصى حدائق حسناتها رنت أحداقها وسبت النفوس
منازلها ، وكيف لا وهى المنازل التى لم نزل نشاتها وشغلت القلوب أبحاثها ...
وحل - خلد الله ملكه - بظاهر القاهرة فكادت تسير لخدمته بأهلها
وجدرانها ، غير أنه أثقلها الحلى فأخرجها لتبدو إليه فى أوانها المراد وما
أحسن الأشياء فى أوانها ؛ وهم نيلها أن يجرى فى طريقه لبيكنه آخره النقص
والتقصير ، واستحي أن يقابله وهو فى دون غاية التمام أو يسير فى مواكب
أمواله فى عدد يسير . . . وكان عمود مقياسه قد آلى ألا يضع أصابعه فى
اليمن إلا بأذن سلطانه . .

وركب السلطان مسجروم الاثنين الثالث والعشرين من شوال سنة
اثنين وسبعائة من ظاهر القاهرة فى موكب حلف به الظفر ، وأضحى حديثاً
للأنام وذكرى للبشر . . . ودخل السلطان البلد وقد تزايدت بمقدمه سروراً
وبشراً وأنشدته :

أنت غيث إذا وردت إلى الشا م ونيل إذا يمت مصر
أطلع الشرق من جبينك شمساً ليس تخفى ومن محياك بدرا
كان أمر التار يستصعب الحال فصيرت عسر ذلك يسرا

وفتحت له أبواب نصرها التى يفهى منها إلى نعمة ونعيم ، وشاهدت
عيون أهلها . فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيهدين وقلن حاش لله ما هذا بشراً
إن هذا إلا ملك كريم ، والرعايا قد أصبحوا كما أمسوا بالدعاء له مبتلين ،
والألسنة تتلو عليه وعلى أمراته أدخلوا مصر إن شاء الله آمين . . . ولما
سلك بين قصرها تحقق الناس أن أيامه زادت على أيام الخلفاء ، فإنها أنشأت
قصرين وهذا أنشأ لها قصوراً ما بها من قصور ، فن بروج تمت البدور لو
كانت لها منازل ، ومن قلاع لو تحصن بها جان لما دارت عليه دوائر الدهر
الغوائل ، ومن قباب علت وليس لها غير الهمم من عمد ، ومن أنواع

احتفال يعجز عن وصفها البديع الفطن . . . والأسارى قد جعلوا بين يديه مقرنين فى الأصفاد ، يشاهدون مدينة ما ثلت إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد . . . واستقلوا ما مروا به فى المدائن والأمصار ، وغدوا وعيونهم فى جنة وقلوبهم فى نار واستصغروا ملكهم المخذول وملكه ، . . . وتحققوا أنه من أوتى هذا السعد لا يؤخر إن شاء الله إمساك كبيرهم وهلكه . .

ووصل مولانا السلطان تربة والده السلطان الشهيد — قدس الله روحه — وأمرأؤه قد بذلوا فى محبته نفائس النفوس وجزيل الأموال وأخاير الذخائر ، وركبوا بالأمس للبفاضة عن دولته فى سبيل الله وقد بلغت القلوب الحناجر ، وترجلوا اليوم فى خدمته تعظيما لشعائر سلطنته . وقص مولانا السلطان — خلد الله ملكه — عند قبره المبارك من غزوته أحسن القصص ، وأسهم له من بركة جهاده أوفر الحصص ؛ فلو استطاع — رحمه الله — أن ينطق لقال : هذا الولد البار ، والملك الذى خلفنى وزاد فى نصره الاسلام وكسر التتار ، . . . وركب من التربة الشريفة والرعايا يدعون بدوام دولته التى أضحت قواعد الأمس بها متينة ، ويرتعون بالمدينة فى لهو ولعب وزينة ، وسار جواده بين حلى وحلل فاستوقف الأبصار مسلك حفت به غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار ؛ وعاد إلى قلعه ظافرا عود الحلى إلى العاقل ، وغدت ربوعها الموحشة لبعده بقربه أو اهل ، وطلعتها فى أيمن طالع لا يحتاج معه إلى اختبار أو رصد ، وجلت شمس ملكه فى برجها وكيف لا وهو فى برج الأسد ، فالله تعالى يمتنع الدنيا منه بملكه حتى شاما ومصر ، وأذاق التتار بعزائمه مصائب تترى ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

أما فيما يتعلق بالمغول ، فانه لما وصل خبر هزيمتهم إلى همدان ، سقط فى أيديهم واضطربوا اضطراباً شديداً ، كما حق غازان على ما حل بجنده

من التكبّات وزاد غضبه حين وصل إليه كتاب من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون يحقر فيه من شأنه ، ويطلب منه الجلاء عن العراق ، ويتوعده بأنه سيأتى إليه بجيوشه ليقصيه عن هذه البلاد ؛ وفيما يلى نص هذا الكتاب (١) :

« الحمد لله على ما جدد لنا من النعمة التامة ، وسمح به من الكرامة العامة ، حين أعاد البدر إلى كاله والسرور إلى أتم أحواله ، وبعد ، فليعلم الملك الجليل محمود ، جامع الجيوش وحاشد الجنود ، أنه تظاهر بدين الإسلام واشتهر ذلك بين الأنام وتظاهر بالباطل وللحق ستر ، ثم فعل ما قدره الله عز وجل وما حكم به القدر فحملنا ذلك على أنه من ربنا تقدير وأن ليس لأحد مما أراد الله نذير ، فإلث الملك إلا أيسر مدة ، ثم أرسل رسله إلينا بحدة يطلب الصلح ويحض عليه ، ويذكر الإسلام ويندب اليه ، ويزعم أنه ليس يختار الفساد فى الأرض وأن الواجب علينا وعليه إصلاح ذات البين ، وأن ذلك فرض ، فعلنا مقصوده فى مقاله ، ويستتره منا بستر صلح يلوح لنا وجه البدر من خلاله ، فأكرمنا رسله إكراماً يليق بحمىل فعالنا ، وسمعنا رسالتهم وجاوبناهم على مقتضى حالهم لا على حالنا وأعدناهم اليه ، وقلدناه ما كان مضمراً عليه ، فعاد رسوله يطلب منا رسولاً يسمع كلامه ولم يخف عنا مقصده ولا مرامه . فأرسلنا إليه ما طلب . . . فما كان إلا عند وصول رسلنا اليه ، جهز عسكره وأظهر من الغدر ما كان مضمراً عليه ، وحرصهم بما عاد وباله عليهم وبما رأوه حاضراً لديهم ، ثم تعادوا وعدى بهم الفرات وجهزهم ورجع وما علم أن السلامة من ورائه فما كان إلا أن دخلوا البلاد وعملوا ما أمرهم به من الفساد ، وتفرقت جيوشهم فى الأوساط والأطراف وقطعوا أيدي الأشجار وأرجل الزرع من خلاف ، ونزلوا بالقرب من حلب وشنوا من الغارات وجدوا فى الطلب ؛ وجيوشنا

الشامية له بالمرصاد ، وقد أخلصوا لله عز وجل وقدموا نية الجهاد ، ونحن نتقدم إليهم في كل وقت وأوان أن يظهروا لهم الضعف والتأخير ، ليتوسطوا البلاد ويقع هناك التدبير فأعاد منهم طوعمانين إلى القريتين ، فتجهز من جيشنا إليهم ألفان ، فوجدوهم قد أخذوا غنائم التركمان ، فواقوهم بالقرب من عُرْض فكانوا كفسرَتي رهان ، فإلبشوا الباغين إلا ساعة من النهار وعجل الله بأرواحهم إلى النار ، وبقيت أجسامهم ملقاة بأرض عرض إلى يوم العرض . . . وأخذ منهم أسارى ، أرمن وكُرْج ونصارى ، ثم ساروا وهم طالبين الغوطة ولم يعلموا أن من حولها رماحاً مركوزة وجياداً مربوطة . . . فلما عاينوا دمشق ظنوا أنهم يدخلون بأسرون . . . فعبروا عليها وطلعوا على جبل يعرف بالمانع ، وتأملوا جيوشنا ، فأخذهم الرعب في قلوبهم بالجماع . . . فلم تغب الشمس حتى فرشنا بهم أديم الأرض والوعر والسهل ، والتجأ من بقي منهم إلى جبل ليعضمهم من القتل ، . . . ونادى لسان حالهم ، وقد قصرت آمالهم ، أعتقنا أيها الملك الرحيم واعف عنا في هذا الشهر العظيم ، فإننا جميعاً مسلمون . . . فأمرنا جيوشنا أن يفتحوا لهم باباً ليذهبوا . . . ففروا فر الشاة من الأسد ، ولم يلتفت منهم والد على ولد ، فلو رأيت أيها الملك ذلك اليوم ، لبقيت زماناً مرعوباً في النوم ، ولم تلق من أصحابك إلا قتيلاً وأسيراً . . .

فبادر أيها الملك إلى حمد الله تعالى الذي لم تر بعينيك الخطب الجسيم . . . ولقد نصحتك أيها الملك فما ارعويت . . . فمن أجل ذلك صار كل حي من جيشك ميت . . . فبدل الميل بالإيمان ودع ما سول لك الشيطان . . . وأنت تزعم أن الإسلام معك وبه تدين ، نقف نحن وأنت على الكتاب المبين ، ولا تعشوا في الأرض مفسدين ، ونخرج نحن وأنت من بغداد والعراق ، ونعيدها إلى خليفة رسول الله بالاطلاق ، وتتبع نحن وأنت أوامره . . . ومن يفعل غير ذلك فعليه اللعنة إلى يوم الدين ، وإن سولت

لك نفسك خلاف ذلك ، فأنت لا محالة هالك ، وعن قريب يخلو منك العراق والعجم ، وتبدل وجودك بالعدم ، فقد أوضحنا لك الحق فلا تميل . وهديناك إلى أقدم السبيل ، تم تتقدم بإرسال رسلنا المسيرة إليك في أتم الكرامة وتسير معهم من يوصلهم إلى الشام في أتم السلامة ، وترحل فيمن بقي من جيشك إلى خراسان ، ودع ماسول لك الشيطان ؛ فقد بلغنا أن خليلك ورجلك تعبر الديار المصرية ، فقد صدقوا في القول لكن غلطوا في القضية . أما الخيل فقد عبرت بجنوبة ، وأما الرجال ففي رقابهم طبول وبأيديهم السناجق مقلوبة . فاختر لنفسك إما الدخول إلى خراسان سريعا وإما الخروج عن الروم والعراق جميعا ، وعن قريب نأتيك بجيوشنا تميل بجنبي الأرض ونزحف ، وتروى ما يهولك ولو على قعود تزحف ، وقد أعذر من أنذر ، والسلام على من اتبع الهدى .

وقد اعتلت صحة غازان بسبب الهزيمة التي أوقعها المماليك بجنده واشتد الضيق به حين علم بالمؤامرة التي دبرت لخلعه وتولية ألفرانك Alafrank ابن جيخاتو بدله ، فمات كندا في ١٧ مايو سنة ١٣٠٥ م وهو في الثالثة والثلاثين من عمره بعد أن ظل في الحكم تسع سنوات (١) . خلف غازان على العرش أولجايتو (٢) بن أرغون . وقد تحسنت العلاقات

Browne, Literary History of Persia, Vol III, pp. 42 — 43, Howorth, (١)

History of the Mongols, Vol. III. p. 485.

(٢) ذكر ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ج ١ ص ١٤٣) إن لاسمه مختلف فيه ؛ ف قيل خذا بنده ؛ خذا (بضم الحاء معناها بالفارسية لاسم الله ، وبنده معناها غلام أو عبد ؛ فيكون معنى لاسمه عبد الله ؛ — وقيل خر بنده ؛ خَرَّ (بفتح الحاء) معناها بالفارسية الحمار ، بنده معناها غلام ؛ فيكون معنى لاسمه غلام الحمار . وقال (Browne, Literary History of Persia p. 46.) إنه كاد يطلق عليه في صباه لاسم خَرَّ بنده Khar-Banda ومعناه راعي الخيزر أو البغال ، ثم اتخذ لنفسه اسم خدا بنده ومعناه عبد الله .

وقد نشأ أولجايتو على المسيحية دين أمه ، ونعمد باسم نيولا ؛ لكنه مالبت أن اعتنق الاسلام بعد وفاتها ، محققا لرغبة زوجته .

Howorth, History of the mongols, Vol. III. p. 535.

في بداية عهده بين دولته وبين سلاطين المماليك في مصر ؛ فأوفد إلى الناصر محمد السفراء تؤكد له حرصه على توثيق غرا الصداقة به ، وخاطب سلطان المماليك في خطابه بالأخوة وسأل إخماد الفتن وطلب الصلح ، وقال في آخر كلامه : عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه . ، كما بعث إليه هدية ، فلبى السلطان طلبه وجهز له هدية مع بعض الرسل (١) .

على أن أولجايتو مالبت أن أظهر عداوه للمماليك السفين بعد أن اعتنق مذهب الشيعة (٢) وعمل على نشره في الجهات الغربية من دولته ؛ ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أرسل السفراء إلى البابا كلبنت الخامس وإدوارد الثاني ملك إنجلترا وفيليب الجميل ملك فرنسا يطلب منهم أن يساعده في الاستيلاء على سورية ومصر ، لكنهم لم يعنوا بتحقيق رغبته (٣) .

وقد استأنف المغول في عهد أولجايتو هجومهم على سورية ويرجع السبب في ذلك إلى وقوفه على حالة هذه البلاد من كل من قراسنقر والأفرم اللذين لجآ إليه خشية أن ينكل بهما السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وقد رحب أولجايتو بهذين الأميرين ورتب لهما الرواتب السنية ثم استقبل كلا منهما على انفراد ؛ فحسن له قراسنقر عبور الشام وهون عليه أمره ، أما الأفرم ، فإنه وإن كان قد حسن له أيضا الاستيلاء على بلاد الشام إلا أنه حذره من قوة السلطان وكثرة عساكره .

وقد كافأ أولجايتو هذين الأميرين على المعلومات التي أدليا بها إليه عن حالة دولة المماليك ، فمنح قراسنقر ولاية مراغة ، وأقطع همدان للأفرم (٤) . ولما شرع المغول في الهجوم على بلاد الشام سنة ٧١٢ هـ ، أرسل نائب

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٦ .

(٢) ذكر ابن الوردي في تاريخه (ص ٢٦٤) أن أولجايتو ظل سنة سنيا ثم ترفض وبقى على هذه الحال إلى أن مات وماتت قتن في بلاده بسبب ذلك .

(٣) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 69.

(٤) المقرئى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ١١٥ .

حلب إلى الناصر محمد يخبره بحقيقة الأمر ؛ فجهز السلطان جيوشه الجارية وأشرف على خروجها بنفسه ، فكان يعرض كل يوم أميرين من مقدمي الألو ف بمن معهم من الجند ، ثم رحل إلى بلاد الشام بعد أن عهد لسيف الدين أيتمش المحمدي المحافظة على القلعة . ولم يسكد يعلم المغول بأمر هذه الجيوش حتى عاهاوا أدراجهم من مدينة الرحبة ؛ ومن ثم عول السلطان على الذهاب إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج بعد أن أمر نائبه الأمير سيف الدين أرغون ووزيره أمين الدين بجمع الأموال من دمشق^(١) .

على أن المغول ما لبثوا أن اشتبكوا مع المماليك في حرب سنة ٧١٥ هـ في ماردين ؛ ويرجع السبب في ذلك إلى أن نائب حلب ، كان قد عهد إلى الأمير شهاب الدين قرطاي بالذهاب إلى ماردين لاختضاع واليها الذي خالف أوامر السلطان الملك الناصر — وكان للمغول أموال سنوية يحصلونها من هذه الجهة — فصادف وجودهم وجود قرطاي ؛ ومن ثم رأى هذا الأمير أن يحاربهم ؛ فاشتبك معهم في حرب ، انتهى الأمر فيها بقتل بعضهم وأسر فريق منهم ، وسبق الجميع إلى حلب . ولما علم بذلك السلطان سرور عظيم وأرسل الخلع والهدايا لنائب حلب وقرطاي^(٢) .

ولما توفي أوجايتو سنة ٧١٦ هـ ، خلفه ابنه « بوسعيد »^(٣) وهو في الثالثة عشرة من عمره . وقد آلت الوصاية عليه إلى الأمير جوبان الذي

(١) تاريخ سلاطين المماليك ص ١٥٩ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ القسم الأول ص ١٤٧ .

(٣) يلاحظ أن المقرئى (السلوك ج ٢ القسم الأول ص ١٩٥) تارة يذكر اسم هذا الخان بلفظ السكنية « أبو سعيد » ، وطورا يورده بهذه الصيغة « بوسعيد » .

وقد أورد ابن حجر (الدرر الكامنة ج ١ ص ٥٠١) تحقيقا لاسم هذا الخان نقلا عن الصفي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، وفيما يلي نصه : « الناس يقولون أبو سعيد بلفظ السكنية ، لكن الذى ظهر لى أنه علم ليس فى أوله ألف ، فأنى رأته كذلك فى الكتابات التى كانت ترد منه إلى الناصر هكذا بوسعيد » .

أصبح أميراً للامراء ، - بينما اشترك على شاه مع رشيد الدين فضل الله في الوزارة .

وكان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون لا يزال يحمل العداوة والبغضاء للمغول إلى حد كبير حتى إنه أرسل سنة ٧٢٠ هـ ثلاثين رجلاً من طائفة الحشاشين في سوريا إلى فارس لاغتيال قراسنقر حاكم مراغة من قبل المغول . وعلى الرغم من فشل هذه المؤامرة فإنها أخافت المغول إلى حد كبير ؛ فقد ذاع بينهم أن هؤلاء الاسماعيلية ، حضروا لقتل السلطان « بوسعيد » ، وجوبان ، والوزير على شاه ، وقراسنقر ، وأمراء المغول ؛ واحتجب « بوسعيد » بخيمته خوفاً على نفسه ، كما أنكر جوبان على محمد الدين اسماعيل السلامي الذي كان يقوم بالسفارة للسلطان الملك الناصر هذه المؤامرة وهدده بالقتل ، وقال له : « ويلك ! أنت كل قليل تحضر إلينا هدية وتريد منا أن نكون متفقين مع صاحب مصر لتمسك بنا حتى تقتلنا الفداوية (١) ، والاسماعيلية (٢) . »

(١) يقول القلقشندي (صبح الأعشى ج ١ ص ١١٩ — ١٢٠ ، ١٢٢) في تعريف الفداوية ما نصه : « هم طائفة من الاسماعيلية المنتسبين إلى اسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهم فرقة من الشيعة معتقدتهم معتقد غيرهم من سائر الشيعة أن الإمامة بعد النبي صلى الله عليه وسلم انتقلت بالنسبة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ثم إلى ابنه الحسن ، ثم إلى أخيه الحسين ، ثم انتقلت في بني الحسين إلى جعفر الصادق ، ثم هم يدعون انتقال الأمانة من جعفر الصادق إلى ابنه اسماعيل ثم انتقلت في بنيه . »

« وسموا الفداوية لأنهم يفادون بالمال على من يقتلونهم ، ويسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية » -

أما عن موقف الفداوية إزاء سلاطين مصر ؛ فيروى لنا القلقشندي عن ابن فضل الله العمري صاحب كتاب مسالك الأبصار أنهم كانوا « يعتقدون أن كل من ملك مصر كان مظهراً لهم ، ولذلك يتوآونهم ويرون اتلاف نفوسهم في طاعته لما ينتقل إليه من التعميم الأكبر بزعيمهم » ويزيد على ذلك فيقول : « ولصاحب مصر بعشائرتهم مزية يخافه بها (عدوه) لأنه يرسل منهم من يقتله ولا يبالي أن يقتل بعده ، ومن يشة إلى عدوه له جبين عن قتله ، قتله أهله إذا عاد إليهم ، وإن هرب تبعوه وقتلوه » .

(٢) المقرئزي : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٠٩ .

على أن الفريقين سرعان ما جنحا للصلح ؛ فرأى بوسعيد أنه من الحكمة وبعد النظر أن يخطب ود المماليك ؛ ومن ثم أنفذ المجد السلاحي إلى مصر ليهد السبيل لعقد الصلح ؛ ولم يمض على قدوم هذا السفير زمن طويل حتى وصلت رسل الملك بوسعيد بصحبة نصير الدين قاضي القضاة بتوريز ومعهم كتاب بشأن الصلح ، كان من شرطه :

- ١ - ألا تدخل الاسماعيلية بلاد المغول .
 - ٢ - لا يرد أى فرد قدم من مصر إلى بلاد المغول .
 - ٣ - من يفد إلى مصر من المغول ، لا يرد إلى بلده إلا برضائه .
 - ٤ - ألا يعهد سلطان مصر إلى العرب أو التركمان بالإغارة على بلاد المغول .
 - ٥ - أن يكون الطريق بين دولة المغول في فارس ودولة المماليك خاليا من الموانع التي تعوق سير التجارة بين الدولتين .
 - ٦ - أن يسير المحمل كل عام من العراق إلى الحجاز رافعا علم سلطان مصر مع علم بوسعيد .
 - ٧ - ألا يسعى سلطان مصر في القبض على الأمير قراستقر حاكم مراغة .
- وقد جمع السلطان الملك الناصر محمد الأمراء وشاورهم في هذا الصلح ؛ فاتفق الرأي على إمضائه ؛ وجهزت الهدايا لبوسعيد ومن بينها خلعة أطلس وقباء تترى^(١) .

وكان من أثر هذا الصلح أن حل الوثام بين المغول والمماليك محل الخصام وقدم رسول بوسعيد يطلب من الناصر محمد تجهيز « السنجق السلطاني » ليسير مع المحمل إلى بلاد الحجاز ؛ فأجيب إلى طلبه وكتب لصاحب مكة يا كرام حاج العراق ، كما عمل السلطان على منع العرب من التعرض لهؤلاء الحجاج

(١) المقيري : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

فصار يدعى لبوسعيد بعد الدعاء لسلطان مصر على منابر مكة (١).

وكان لترحيب الناصر محمد وموافقته على مسير الحمل الذي عني بوسعيد بتجميله بالحرير المرصع باللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر أحسن الاثر؛ فاصبح الحجاج آمين على أنفسهم من شر اعتداء الأعراب عليهم أثناء الطريق. ويتبين لنا ذلك مما حدث سنة ٧٢١ هـ؛ فقد تصدى الحجاج العراق ألف فارس من عرب البحرين ثم توسط بعض الناس بينهم ليركبوهم وشأنهم في مقابل ثلاثة آلاف دينار، فقبلوا ذلك ولما قيل لهم إنهم جاءوا من العراق بأمر الملك الناصر صاحب مصر وأنه أرسل كتاباً بالسماح لهم بالمسير إلى الحجاز أعادوا المال، وقالوا: «لأجل الملك الناصر نخفركم بغير شيء» وسمحوا لهم بالسير إلى بلاد الحجاز. ولما علم بذلك الناصر محمد أنعم على هؤلاء العربان بالعطايا الجزيلة (٢).

وكان من أثر سياسة حسن التفاهم التي سادت بين دولة المغول في فارس ودولة المالك في مصر أن أرسل بوسعيد سنة ٧٢٧ هـ سفارة إلى الناصر محمد بصحبة محمد بيه بن جوق ومعهم رسالة تتضمن خطبة ابنة السلطان للأمير دمشق خواجه ابن الأمير جوبان نائب الملك بوسعيد. وقد وافق السلطان على هذه المصاهرة؛ لكنه اشترط لتنفيذها حضور ابن جوبان إلى القاهرة وأنعم على محمد بيه بن جوق بإمرة طيلخانا، كما أكرم ضيافة الرسل أحسن إكرام وأعادهم إلى بلاد العراق بهدية جليلة (٣).

ولم تسكن الحالة مستقرة في دولة المغول؛ فقد انصرف بوسعيد إلى اللهو واستأثر الأمير جوبان بالنفوذ؛ فأتاب عنه ابنه دمشق خواجه بالاردو (٤).

(١) المقرئى: السلوك ج ٤ ص ٢١١—٢١٢.

(٢) المقرئى: السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢١٤—٢١٥.

(٣) النويرى: نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ٧٨.

المقرئى: السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٨٣—٢٨٤.

(٤) الأردو: لفظ مقول معناه المعسكر (ابن أبي الفضائل: النهج الجديد ج ١ ص ١١٦).

وعين ابنه الثاني دمر داش حاكما على آسيا الصغرى .

وقد أخذ الأمير جوبان يضيق على بوسعيد حتى لم يبق له من الملك إلا الاسم . وبلغ من تضيقه عليه أنه احتاج في أحد الأعياد إلى بعض المال فلم يجده ، فأعطاه إياه أحد التجار (١) .

ولما بلغ بوسعيد الحادية والعشرين من عمره ، أثار ازدياد نفوذ الأمير جوبان حسده وعول على التخلص منه . وقد حاول بوسعيد القبض عليه حين ذهب مع ابنه حسين إلى الحدود الشرقية لصد الغارات التي قام بها مغول بلاد ماوراء النهر على خراسان ؛ لكنه لم يستطع إلى ذلك سيلا و قبض على دمشق خوفا و قتله بسبب المؤامرة التي دبرها لاغتياله .

ولما علم جوبان بما يضمره بوسعيد من الشر نحوه ، جمع زهاء سبعين ألف مقاتل ويم شطر الغرب ؛ فوصل مشهد ثم سار إلى سمنان Simnán حيث أرسل الشيخ علاء الدين ليصلح بينه وبين بوسعيد ؛ لكن هذه المحاولة ذهبت أدراج الرياح وتقدم جوبان نحو الغرب حتى أصبح على مسيرة يوم واحد من بوسعيد .

وكانت كفة النصر أول الأمر في جانب جوبان لولا خيانة أحد قواده وتسلمه إلى بوسعيد هو وثلاثون ألفا ، كما انفض أشياجه من حوله حتى لم يبق معه سوى سبعة عشر رجلا ؛ فعول على الالتجاء إلى غياث الدين كود في هراة (٢) ؛ لكن هذا الأمير غدر به وقتله وبعث بجثمانه إلى بوسعيد سنة ٧٢٨ هـ ، فأمر بدفنه بمقبرته التي بناها بالقيع في المدينة المنورة (٣) .

أما فيما يتعلق بوقف الأمير دمر داش بن جوبان نائب الملك بوسعيد بآسيا الصغرى ، فإنه لما اتصل به خبر مقتل أخيه دمشق خوفا ووقف على

(١) ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ج ١ ص ١٤٤ .

(٢) من أمهات مدن خراسان . ياقوت : معجم البلدان .

(٣) ابن بطوطة : ج ١ ص ١٤٤ - ١٤٥ .

ما آل إليه أمر أبيه خشي أن يغدر به بوسعيد ؛ ومن ثم عول على الالتجاء إلى الناصر محمد سلطان المماليك في مصر سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٨ م) . وكان الأمير دمرداش قد استبد بالأمور في بلاد آسيا الصغرى ، وصار يضيق على أتباع الناصر محمد الذين يفدون إلى بلاده ، وفضلاً عن ذلك فإنه منع التجار وغيرهم من إرسال المماليك إلى مصر .

وقد رأى الناصر محمد أن يلجأ إلى سياسة المخادعة لعله يستطيع الحد من تغت هذا الأمير . فأخذ يترضاه ويهاديه . وكان لهذه السياسة أثرها البالغ فتبادل مع السلطان الهدايا وارتدى الخلع التي أرسلها إليه الناصر محمد ، كما أنفذ إليه كتاباً ، يعلن فيه دخوله في طاعته ويستأذنه في القدوم عليه بعساكره ليكون نائباً عنه بآسيا الصغرى ^(١) ؛ فرد عليه السلطان بكتاب رحب فيه بقدومه . ومالئث الأمير-دمرداش أن عول على الرحيل إلى مصر بعد أن أوضح لأمرائه أن بما حمله على مغادرة ولايته مسير عساكر مصر إليها ورغبة الناصر محمد في تعيينه نائباً عنه ^(٢) .

وقد أرسل السلطان إلى نوابه ببلاد الشام يطلب منهم أن يحسنوا استقبال الأمير دمرداش ؛ فتلقاه بدمشق نائب السلطنة الأمير سيف الدين تنكز بمظاهر الحفاوة والتكريم ، ووفر له سبل الراحة حتى رحل إلى القاهرة حيث حظى بمقابلة السلطان الذي أنعم عليه بالخلع المزركشة وخصص لاقامته جناحاً بالقلعة ، كما قرر له ولأتباعه الرواتب السنية ، وصار يركب في موكب السلطان مرتدياً الأقبية الإسلامية ^(٣) .

ولم يمض على قدوم دمرداش إلى القاهرة زمن طويل حتى طلب من الناصر أن يرسل إلى بلاد آسيا الصغرى فريقاً من جيشه ؛ فأمله السلطان

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ٨٥ ،
المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٩٢-٢٩٣ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٩٣-٢٩٤ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ٨٥ .

قليلا وكتب إلى بدر الدين محمود ملك دولة بني قرمان ^(١) يطلب منه أن ينزل على القلعة التي يقيم بها أولاد دمرداش ويرسلهم مكرمين إلى مصر ^(٢). فبعث إليه ذلك الملك يعرفه أنهم آثروا البقاء في بلادهم وقالوا له: ولا حاجة لنا في مصر، وأثار بدر الدين في خطابه غضب السلطان على دمرداش؛ فأوضح له أن دمرداش هو الذي أمر أبناءه بعدم مغادرة بلادهم وأنه ما قدم إلى مصر إلا طمعا في مسكنها. ولما وصل هذا الكتاب إلى السلطان استدعى دمرداش لمقابلاته وأخبره بما ورد في كتاب بدر الدين ثم واجهه بنجم الدين اسحق سفير هذا الملك فتحاقا بحضرة الأمراء وماليت السلطان أن وقف على ما يضره دمرداش من الشر نحوه؛ فقبض عليه وعلى من قدم معه من كبار رجال ولايته ^(٣).

وهناك أسباب أخرى حملت الناصر محمد على اعتقال دمرداش، منها إسرافه في توزيع أغنامه التي وردت إليه من بلاد آسيا الصغرى على بعض الأمراء، وإثارته الأحقاد بين الأمراء والخاصكية ^(٤).

ولم يكف يعلم بو سعيد ايلخان فارس بقدم دمرداش بن جوبان إلى مصر حتى أرسل سفارة إلى السلطان تحمل كتابا يتضمن رغبته في إنقاذ دمرداش إليه، على أن يرسل إليه في مقابل ذلك الأمير شمس الدين قراستقر المنصوري. قال السلطان إلى تحقيق هذه الرغبة أول الأمر، لكنه ما لبث أن عدل عن ذلك وعول على قتله حتى لا تشفع له أخته بغداد خاتون والوزير

(١) قامت دولة بني قرمان بمجرات أرمنك وفسطاطونية بمجنوى آسيا الصغرى في أواسط القرن السابع الهجرى. وقد أسسها قرمان بن نورا صوفى المتوفى سنة ٦٢٠ هـ (١٢٦١ م).

القلقشندى: صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٦٥،

Enc. Isl. Art, Karaman Oghlu,

Lane — Poole, Muh. Dynasties pp. 184—185.

الدكتور زيادة: حاشية رقم ٥ كتاب السلوك ج ١ ص ٦٣٠، ج ٢ ص ١٨٥.

(٢) المقرئى: السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٩٥.

(٣) التويرى: نهاية الأرب ج ٣٩ ورقة ٨٦.

(٤) المقرئى: السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٩٧.

غياث الدين بن رشيد الدين عند بوسعيد ؛ فأمر بشنقه يوم الخميس ٤ شوال سنة ٧٢٨ هـ (٢٢ أغسطس سنة ١٣٢٨ م) ثم حنط رأسه وأرسل إلى «بوسعيد» (١).

وقد ظل الصفاء سائداً بين دولتي الممالك والمغول حتى توفي بوسعيد سنة ٧٣٦ هـ (١٣٢٥ م) في قرا باغ Qara-Bagh قرب أران حين كان يتأهب لقتال أذربك رئيس القبيلة الذهبية بسبب محاولته الإغارة على بلاده (٢).

وقد ذكر ابن بطوطة (٣) أن بغداد خاتون حقدت على «بوسعيد» ودست له السم لأنه أحب دلشاد خاتون Dilshad Khatun ابنة دمشق خواجا حبا شديداً وهجرها. ولما علم الأمراء بذلك عولوا على التخلص منها فقتلها أحدهم وهي في الحمام حيث ظلت جثتها أياماً.

ولم يترك بوسعيد أولاداً، فاعتلى العرش من بعده Arapagaun من سلالة Arikbuka أخى هولوكو، بمساعدة الوزير غياث الدين محمد، ولقب بمعز الدنيا في الدين. وقد عمد هذا الخان على أثر توليته الحكم إلى تقوية مركزه بزواجه من Satibeg أرملة جوبان وأخت بوسعيد ليضمن بذلك ولاء بيت هولوكو له؛ ثم سار لمحاربة أذربك رئيس القبيلة الذهبية وأوقع به الهزيمة (٤). على أن الفتن والاضطرابات ما لبثت أن قامت في دولة المغول بفارس، فخرج الأمير على يادشاه Ali Padishah على Arapagaun، وانضم إلى دلشاد خاتون أرملة بوسعيد، كما دعا الأمراء والعرب إلى انتخاب خان جديد؛ فوقع الاختيار على موسى من سلالة هولوكو. ثم اضطُر Arapagaun إلى الفرار سنة ١٣٣٦ م حين سار على يادشاه لمحاربته (٥).

(١) النويري: نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ٨٦.

Browne, Literary History of Persia, Vol III p. 56.

Browne, Literary History of Persia Vol. III. p. 57. (٢)

(٣) تحفة النظار في غرائب الأمصار ج ١ ص ١٤٥.

Howorth, History of the Mongols, Vol III. pp. 634—635. (٤)

Howorth, History of the Mongols, vol III, p. 637. (٥)

ولم تستقر الأمور في دولة الممولى بتولية الخان موسى ، بل تصدعت أركان هذه الدولة في عهده ؛ فاستقل الأمراء بولاية الأقاليم ؛ فنحس بالذكر منهم الشيخ حسن الجلايري الذي كان يلي حكم الروم بآسيا الصغرى ، وحاجي توغاي Haji Toghai حاكم أرمينية وديار بكر منذ سنة ٧٣٢ هـ . وكان هذا الأخير يعادى على بادشاه ؛ فأرسل إلى الشيخ حسن الجلايري يطلب منه إعداد قواته ؛ فسار الشيخ حسن قاصداً تبريز لمحاربة على بادشاه على رأس جيش من التركمان والجرجان وأوقع به الهزيمة وقتله سنة ١٣٣٦ م (١) ، ثم دخل بغداد واستولى عليها (٢) .

وقد بلغ من اضطراب الأمور في دولة الممولى بفارس أن أصبح بها ثلاث سلاطين : موسى خان ، ومحمد شاه الذي أقامه الشيخ حسن الجلايري واتخذ تبريز مقراً لحكمه ، وتوغاي تيمور Tughai Timur الذي استدعاه الأمراء من مازندران بعد تولية محمد شاه وولوه سلطانا بخراسان وصار يدعى له في الخطبة وينقش اسمه على السكة (٣) .

على أن توغاي تيمور ما لبث أن سار قاصداً تبريز . وعند وصوله إلى حدود أذربيجان انضم إليه موسى خان ، ثم تابعا سيرهما حتى التقيا بالشيخ حسن الجلايري ومحمد شاه وجهيشه بمراغة في يولية سنة ١٣٣٧ م ؛ فدارت رحى الحرب بين الفريقين ، وانتهى أمرها بفرار توغاي وهزيمة موسى وأسرته ثم قتله على يد الشيخ حسن في يولية سنة ١٣٣٧ م (٤) .

وكانت هذه الفتن والقلاقل التي أعقبت موت بوسعيد ، سبباً في اتجاه مطامع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون نحو بلاد الفرس (٥) . فلما

(١) Howorth, History of the Mongols, Vol. III. pp. 637—638

(٢) المقرئى : السلوك ج ٢ القسم الثانى ص ٢٤١ .

(٣) Howorth, op. Cit, Vol. III, p. 638.

(٤) Howorth, op. Cit, Vol. III. p. 639.

(٥) Muir, The Momeluke or Slave Dynasty of Egypt p. 70.

قدمت عليه في أوائل سنة ١٢٣٧ هـ بعثات من الشيخ حسن الجلايري والخان محمد، تطلب مساعدته، أرسل السلطان بعض قواته إلى حدود دولة المغول ! كذلك عقد الناصر محمد حلفاً مع علاء الدين أرتنا حاكم آسيا الصغرى المغولى الذى استقل بإمارة سيواس وما تبعها من البلاد سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٥ م) وكان مهتداً من ناحية بالشيخ حسن الجلايري، ومن ناحية أخرى بالأمير قراجا بن أبى دلقادر Karaja Ibn Abi Dulkadr^(١). وقد كتب الأمير علاء الدين إلى الناصر محمد يقول : « أريد أن أكون نائبك بممالك الروم » ، فأجابته بالموافقة ، وأرسل إليه الخلع السنية ، وصارت ترد إليه الكتب باسم « نائب السلطنة الشريفة بالبلاد الرومية » ، كما أصبح اسم الناصر يذكر على منابر تلك البلاد^(٢).

على أن السلطان الناصر ما لبث أن أعرض عن تحالفه مع علاء الدين أرتنا ومال إلى جانب كل من الشيخ حسن الجلايري وقراجا Karaja الذى استولى على قلعة طرندة^(٣) Darenda الخاضعة لحكومة أرتنا ، وسأل حاكم حلب أن يبعث إليها حاكماً مصرياً وحامية إسلامية^(٤) ، وأقام فيها الدعوة للناصر . ولم تزل هذه القلعة بأيدي سلاطين مصر إلى أن توفي الظاهر برقوق^(٥) ، ولما زالت مخاوف أرتنا من جانب الشيخ حسن الجلايري أمر بحذف اسم الناصر من الخطبة في بلاده ، وعدم نقش اسمه على السكة . لكنه سرعان ما عدل عن ذلك وجدد العهد الذى أخذه على نفسه حين أغارت قوات من سورية متحالفة مع التركمان بقيادة قراجا بن أبى دلقادر ، على إقليمه^(٦).

(١). Howorth, The History of the Mongols Vol. III. p. 640.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ١٣٧ ،

القفقندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٦٣ .

(٣) بلدة على مسافة ثلاث مراحل من ملطية بأطراف آسيا الصغرى .

ياقوت : معجم البلدان .

(٤) Howorth, op. cit, Vol. III. p. 640.

(٥) المقرئى : السلوك ج ٢ القسم الثانى ص ٤٩٤ — ٤٩٥ .

(٦) Howorth, op. cit, Vol. III. p. 640 .

ولم يزل علاء الدين أرتنا منذ ذلك الوقت ، يدين بالطاعة لدولة المماليك وتتردد رسله إلى الديار المصرية حتى توفي في أوائل المحرم سنة ٧٥٣ هـ ، خلفه بعض أبنائه . وظلت سلالاته تتداول إمارة سيواس حتى أواخر القرن التاسع الهجري حيث استبد بالسلطة برهان الدين أحمد قاضي هذه الإمارة دون أحد أعقاب بني أرتنا الأبطال الذي آل إليه الملك سنة ٧٨٠ (١) هـ .

وقد ظلت الأمور غير مستقرة في دولة المغول بفارس لتولية أكثر من سلطان واحد على البلاد وطموح بعض الشخصيات المغولية إلى الاستئثار بالنفوذ ، الأمر الذي أدى إلى قيام المنازعات بينهم ويتجلى لنا ذلك في الحركة التي قام بها الشيخ حسن بن دمر داش (٢) الذي عرف بالصغير تميزاً له عن الشيخ حسن الجلادى الملقب بالكبير ؛ فقد أدى به حرصه على أن يكون له نصيب من السلطة في دولة المغول إلى إحضاره رجلاً تركيا يسمى Karajar وزعمه أنه والده وادعائه أنه هرب من سجون القاهرة وظل مشتتاً عدة سنين في دهل بعيدة (٣) ؛ ولعله كان يرى من وراء ذلك الإدعاء إلى كسب كثير من الأنصار حوله .

ولما وصل إلى الناصر نبأ ثورة حسن الصغير ، وظهر والده دمر داش خشي أن يكون هؤلاء الرجال الذين عهد إليهم بقتله قد خدعوه ، وأنه إذا ما استعاد مركزه يصبح عدواً لدوداً له ؛ ومن ثم أرسل أحمد الشهابى إلى Haji Toghai أمير ديار بكر ليعقد معه حلفاً ، يزداد قوة بزواج ابنه بإحدى بنات السلطان . فاستقبل توغاي سفير الناصر بالترحاب ، وبعث إليه يخبره بأنه لم يثق بما زعمه ذلك المدعى ، وأنه تحالف مع حسن الكبير ضده . على أن الناصر ما لبث أن أعاد الكرة على الأمير توغاي ، فجدد ما طلبه

(٢) ابن خلدون : ج ٥ ص ٥٦٠ — ٥٦١ .

(٣) كان دمر داش بن جويان ساكاً على آسيا الصغرى في عهد بوسعيد ثم فر إلى

مصر وأمر الناصر بقتله سنة ٧٢٨ هـ .

(٣) Howorth, History of the Mongols, Vol. III, p. 641.

في سفارته الأولى ؛ فاجاب توغاي بأن هذا الوقت ليس مناسباً للتفكير في الزواج ، ورجاه أن يرسل بضعة آلاف من رجاله إلى حلب لتعاونيه عند الضرورة وتكون عضدا له ^(١) .

وقد احتدم النزاع بين حسن الكبير ، وحسن الصغير ؛ ودارت بين جيشيهما في يولية سنة ١٢٣٨ م عدة معارك ، اضطر أثناءها حسن الكبير إلى الفرار ؛ وظل الخان محمد يحارب بشجاعة مع قوات خراسان حتى وقع أسيرا في يد الشيخ حسن الصغير ، الذي قتله ^(٢) .

وقد رأى حسن الصغير بعد هذا النصر الذي ظفر به ، أن ينضم إلى جانب الأميرة Satibeg - التي رفضت الانحياز إلى حسن الكبير - ثم عاد معها إلى تبريز . واتفق رأى الأمراء على أن لهذه الأميرة الحق في العرش مادام لم يبق هناك ذكر من سلالة هولاكو على قيد الحياة ؛ ومن ثم ارتقت Satibeg عرش المغول بفارس سنة ٧٢٩ هـ ، وصار يذكر اسمها في الخطبة وينقش على السكة ، وما لبثت هذه الأميرة أن سارت بصحبة حسن الصغير على رأس الجيش الذي التف حولها ، إلى مدينة ساطانية . ولما سمع بذلك حسن الكبير تقدم ليواجه منافسه ، ثم دارت المفاوضات بينهما ، وحل الوثام بين المتحاربين محل الخصام واعترف حسن الكبير بأحقية Satibeg في عرش المغول ^(٣) ؛ وبذلك قضى بالفشل على آمال الناصر وأطاعه في بلاد الفرس ^(٤) .

ولم تبد محاولة من جانب خلفاء الناصر للتوسع في بسط نفوذهم على دولة المغول في فارس لانصرافهم الى توطيد سلطتهم ، والقضاء على الفتن التي يثيرها الأمراء طمعا في الاستئثار بالحكم .

على أن حادثا سياسيا وقع ببغداد حمل الأشرف شعبان سلطان مصر

(١) Howorth. History of the Mongols, Vol. III. pp. 641—942.

(٢) Howorth, Op. CP.t, Vol III, p. 642.

(٣) Howorth, Op. Cit, Vol. III. pp. 642—643.

(٤) Muir, The Mameluke Or Slave Dynasty of Egypt, p. 70.

على الطموح إلى مد رقعة دولته على حساب المغول ؛ ذلك أن حاكم هذه المدينة التتاري خواجا مرجان تمرد على الخان أويس سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٦م) وخطب ببغداد للسلطان الأشرف ، كما بعث رسله إلى القاهرة ومعهم كتاب يتضمن أنه خلع أويس وأقام الخطبة وخرب السكة باسم الأشرف شعبان ، وأخذ له البيعة ببغداد ؛ فاستقبل السلطان رسله استقبالا حافلا وزودهم بالهدايا النفيسة ، وجهز له « أعلاما سلطانية وخليفته »^(١) ، كما بعث إليه تقليدا بناية بغداد^(٢) .

على أن ما كان يطمح إليه السلطان الأشرف شعبان من توسيع نطاق مصر ، أسفر عن الخيبة التامة ، إذ هزم حاكم بغداد المتمرّد وعادت بغداد إلى دولة المغول^(٣) .

(ب) مغول القفجاق

لم تكن العلاقة بين دولة المماليك في مصر ومغول القفجاق^(٤) كما كانت بينها وبين مغول فارس ، بل استمرت العلاقات الودية قائمة بين الدولتين منذ عهد بركة خان (١٢٥٦ — ١٢٦٧ م) الذي اعتنق الاسلام ودخل في حلف مع السلطان الملك الظاهر بيبرس ، كما اتفق خلفه منكوتمر مع هذا السلطان على مناوأة بيت هولاكو والقضاء عليه^(٥) .

(١) يلاحظ أن كلمة « خليفته » من التعبيرات السائدة في ذلك العهد ؛ والصواب « خلفيه » بحذف الياء والتاء أيضا ، لأن النسبة إلى فعيلة فعلى بحذف الياء والتاء كما نقول في النسبة إلى صحيفة ومدينة صحفى ومدنى في المذكر ، وصحفية ومدنية في المؤنث .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١٤٩ — ٤٩ ب .

(٣) Muir, The Mameluke Or Slave Dynasty of Egypt, b. 98.

(٤) كانوا يسكنون حوض نهر الفولجا ؛ ويطاق عليهم أيضاً اسم القبيلة الذهبية (Golden Horde) نسبة إلى خيام معسكراتهم ذات اللون الذهبى . وقد اتخذ باطو بن جوجى ابن جنكيزخان بعد أن استتر له الأمر في مملكة القفجاق عاصمة لها سماها (Sarai) (Enc. Isl. arts : Batu-Khan, Kipeck) .

(٥) كتاب الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ص ١١٠ — ١١٣ .

وكان من أثر سياسة حسن التفاهم بين دولتي المماليك ومغول القفجاق أن أنفذ طقطاي ملك القفجاق سفارة إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٤ هـ تحمل هدية وكتاباً يعرض فيه استعداداه لمساعدته في محاربة غازان؛ فأرسل إليه سلطان المماليك رداً، ذكر فيه أن الله قد كفاهم شر غازان وأن أخاه أوجلايتو خدابنده أذعن للصلح^(١).

على أن طقطاي ما لبث أن أعاد الكرة بعد سنتين؛ فأرسل إلى مصر سفيره نامون بهدية سنوية وكتاب يعان فيه رغبته في إرسال جيش يصحب الجيش المصري إلى الفرات للاستيلاء على بلاد غازان على أن يكون لسلطان المماليك وملك مغول القفجاق ما يفتح به جيش كل منهما. ولما وصل هذا السفير إلى القاهرة، احتفل الناصر محمد باستقباله وأنفذ معه هدية للملك طقطاي ورداً يتضمن أنه عقد الصلح مع أوجلايتو خدابنده إيلخان المغول بفارس، ولا يليق نقضه، وأنه إن حدث ما يستوجب ذلك عمل على تلبية طلبه^(٢).

وقد ظل الصفاء سائداً بين هاتين الدولتين حتى آلت زعامة القبيلة الذهبية بعد وفاة طقطاي إلى أزبك (١٣١٣ - ١٣٤٠ م) الذي حذا حذو بركة خان في نشر الإسلام حتى أصبح ثابت الأركان في عهده.

وعلى الرغم من تحمس أزبك للدين الإسلامي وتفانيه في الإخلاص له؛ فإنه كان كثير التسامح نحو رعاياه من المسيحيين؛ فقد منحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية، وذهب في تسامحه معهم إلى أبعد من هذا؛ فسمح لهم بالتبشير لدينهم ونشره في بلاده^(٣).

وكان لاعتناق أزبك خان الإسلام أثر كبير في استمرار العلاقات الودية

(١) المقریزی : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٧ .

(٢) ابن أبي الفضايل : النهج السديد ج ٢ ص ١١٧ ،

المقریزی : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٧ .

(٣) Sir Thomas Arnold. The Preaching of Islam pp. 240-241. (٣)

بينه وبين دولة المماليك في مصر ؛ فتبادل كل من السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون وأزبك خان المراسلات والهدايا ، كما اقترنت العلاقة بينهما بمصاهرة سلطان المماليك بيت أزبك خان ؛ ذلك أن الناصر محمد أنفذ الأمير علاء الدين أيدغدى الخوارزمي سنة ٧١٦ هـ إلى أزبك خان ومعه رسالة يطلب فيها ربط أواصر الصداقة بينهما عن طريق المصاهرة . ولما تحدث هذا السفير مع أمراء أزبك خان في مسألة زواج الناصر محمد بإحدى بنات ملوك البيت الجتكرخاني ، نفروا منه أول الأمر وقالوا : « هذا لم يقع مثله فيما تقدم من حين ظهور جتكرخان وإلى هذا الوقت ، وفي مقابلة ماذا تجزم ابنة ملك من الذرية الجتكرخانية إلى الديار المصرية ؟ » ورفضوا الموافقة على طلب الزواج ؛ لكنهم ما لبثوا أن اجتمعوا بعد أن وصلت إليهم الهدايا التي بعثها السلطان إليهم وعدلوا عن رأيهم الأول ، وعملوا على تذليل صعاب مسألة زواج الناصر محمد وقالوا : « ما زالت الملوك تخطب إلى الملوك وملك مصر ملك عظيم يتعين إجابته إلى ما طلب ، إلا أن هذا الأمر لا يكون إلا بعد أربع سنين ، ستة كلام ، وستة خطبة ، وستة مهادة ، وستة زواج ، واشتروطوا لإتمام الزواج أن يقدم السلطان مليون دينار ، ومليون فرس ، وألف عدة كاملة للحرب ، وأن يحضر بعض الأمراء ونسائهم لمصاحبة الأميرة في سفرها إلى مصر ، وغير ذلك من الشروط التي يتعذر إجابتها . ولما وقف السلطان على هذه الشروط عدل عن الخطبة (١) .

وعلى الرغم من فشل مشروع زواج الناصر محمد بإحدى بنات بيت أزبك خان ، فإن الرسل ظلت تتبادل بينهما حاملة رسائل المودة والصداقة ، دون أن تتعرض لمسألة المصاهرة ، واستمر الحال على ذلك إلى أن توجه الأمير سيف الدين أطوجي سفيرا من قبل الناصر محمد إلى أزبك خان حاملا الهدايا والتحف وخلعة سلطانية مزركشة ؛ فتحدث معه أزبك خان في مسألة

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ١٣٧ .

زواج الناصر محمد وقال له : « قد جهزت لأخي السلطان الملك الناصر ما كان قد طلب وعينت له ابنة من البيت الجنكزخاني » ، فقال له الأمير : « إن السلطان لم يرسلني في هذا الأمر » . ولما تحدث معه بشأن الصداق ، اعتذر الأمير عن التحدث في هذا الموضوع لعدم وجود مال معه ، ثم طلب أزيد من التجار أن يقرضوا هذا الأمير بعض الأموال . فاقترض منهم سبعة وعشرين ألف دينار ، ثم جهزت الخاتون دلنبيه^(١) مع جماعة من الأمراء والخواتين وصحبهم قاضي مدينة صراى ، فركبوا جميعا البحر في رمضان سنة ٥٧١٩ هـ ، قاصدين مصر ، فمروا في طريقهم بالقسطنطينية ، حيث بالغ أمبراطورها في إكرامهم ، ثم تابعوا سفركم إلى الإسكندرية ، فوصلوا إليها في ربيع الأول سنة ٥٧٢٠ هـ ، حيث كان في انتظارها الأمير أقيغا عبد الواحد وبعض الحجاب وثمانية عشر حراقة .. فركبت الخاتون في الحراقة السلطانية الكبرى وركبت حاشيتها في الحراقة الأخرى ، واستقر ركابها عند ساحل مصر حيث حملت إلى القلعة في عجلة موشاة بالذهب والطنافس^(٢) .

وقد تغالى الناصر محمد في إكرام الوفد الذى قدم مع خطيبته ، ودعاهم لمقابلته . ولما مثل كبير رسل الملك أزيد بين يديه سلمه رسالة هذا الملك وقال له : « ... قد سيرنا لك من بيت كبير ، فإن أعجبتك خذها بحيث لا تخلى عندك أكر منها ، وإن لم تعجبك ، فاعمل بقوله تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) ، فقال له السلطان : « نحن ما نريد الحسن ، وإنما نريد كبر البيت والقرب من أخى ، ونكون نحن وإياه شيئا واحدا » .

ولم تمض أيام قلائل على وصول وفد الملك أزيد ، حتى تولى عقد الزواج قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة على صداق قدره ثلاثون ألف دينار ، وكتب علاء الدين على بن الأثير كاتب السر هذا العقد بخطه^(٣) .

(١) يقال لها أيضا طولونية .

(٢) النويرى ج ٣٠ ورقة ١٣٧ — ١٣٨ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

وكان من أثر هذه المصاهرة أن زادت الصلات وثقا بين دولة المماليك في مصر ، ودولة مغول القفجاق ، وعادت الحال بين هاتين الدولتين إلى ما كانت عليه أيام السلطان الملك الظاهر بيبرس الذى حالف بركه خان وتزوج بابنته : وبذلك ارتبطت دولة مغول القفجاق بدولة المماليك في مصر ، برباط المصاهرة ..

وقد استمرت عرا الصداقة مستحكمة بين هاتين الدولتين في عهد نجانبك ابن أربك خان ، فقبودلت المراسلات بينه وبين السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون سنة ٧٥٦ هـ (١) .

ولم يكن للانحلال الذى أصاب دولة مغول القفجاق بعد وفاة بردى بك (٢) ابن جانبك أثر فى تغيير مجرى العلاقات بينها وبين دولة المماليك فى مصر ، بل ظل الصفاء سائدا بينهما ؛ فأرسل السلطان الملك الأشرف شعبان إلى « أرض خان » الذى انتزع الملك من أحفاد أربك ، وفدا مزودا بهدية من الأقمشة المنسوجة بالاسكندرية وبعض الطرف ، كما بعث إليه برسالة يتباهى فيها بعظمة ملكه وتوارث الحكم فى أسرته ، ويعتذر عن تأخره فى الكتابة إليه بانشغاله بمحاربة الفرنجة الذين أغاروا على الاسكندرية ؛ وبما ورد فى هذه الرسالة (٣) : « الحمد لله الذى وهبنا ملكا دانت له ملوك الأقطار .

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٩٥ .

(٢) كانت دولة مغول القفجاق قد تطرق إليها الوهن بعد وفاة بردى بك ، فتنازع الأمراء السلطة واستقلوا بولاية الأقاليم ؛ فاستقر « أرض خان » بصرای (Sarai) عاصمة مغول القبيلة الذهبية ، والأمير « مامای » بالقرم سنة ٧٧٦ هـ ؛ ثم طمع طاقته ابن بردى بك إلى عرش آباءه ؛ فسار لمحاربة أرض خان وأوقع به المزعمة . ولا توفى هذا الخان فى منتصف سنة ٧٧٦ هـ ، سمل على طاقته الاستيلاء على أعماله بحبال خوارزم كما تمكن من ضم صراى إلى حوزته ، ولا زال يوالى انتصاراته حتى استعاد ملك آباءه من أيدي الأمراء المتقلبين .

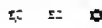
(٣) ابن خلدون : ج ٥ ص ٥٣٧ — ٥٣٩ .

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٩٣ — ٢٩٨ .

وازدانت الأسرة واليتيمان بما له من عظمة ونفاز ، . . . نحمده على أن جعل
ملكتنا الشريفة هي محل الإمامة العباسية ، فلا جحود ولا إنكار . . . ونشكره
على أن أورثنا ملك أسلافنا الشهداء ، فأقر العيون وسر الأسرار ، وجعل
السلطنة المعظمة في بيتنا المكرم تنتقل تنتقل الدور في بروجها . . .

وكان لنا مدة مديدة ، وقد تأخرت رسلنا عن (حضرتك) ولم تصدر
من جهتنا الشريفة . . . ولا وردت رسل من (جهتك) ؛ ولم يشغلنا عن ذلك
إلا موافقة الفرنج المخذولين أعداء الدين ، ومقارعتهم في سائر السواحل
بشدة البأس والتسكين . . .

وقد وجهنا إلى المقام العالى أعلى الله شأنه حجة رسلنا المذكورين من
الأقشة الإسكندرية (هكذا في الأصل) وغيرها على سبيل الهدية والمواهب
السنية . . .



وصفوة القول أن علاقة مغول القبيلة الذهبية بالمماليك كانت مبنية على
أساس متين نظراً للصلات الوثيقة التي تربط ملوك القفجاق بسلاطين مصر ؛
فإلى جانب الوحدة الدينية ، كان هناك المنفعة السياسية المتبادلة وهي العداوة
المتأصلة لبيت هولاكو ؛ على حين أن علاقة ايلخانات فارس بالمماليك لم تكن
موطدة توطيداً تاماً حتى بعد اجتماعهم في ظل الإسلام وتبادل المراسلات
الودية بينهم ؛ ويمكننا أن نستدل على صحة هذا الرأي من موقف تكودار أحمد
إزاء دولة المماليك فلم يكن خطابه المتضمن عبارات الود والصداقة الذي بعثه
إلى قلاوون صادراً عن نية خالصة ، لأن انشغاله بمحاربة أحد منافسيه على
العرش حال دون شنه الغارات والحروب على تلك الدولة ؛ وكذلك كان
شأن غازان محمود فإنه لما خلا له الجو في دولته قام بنفس الدور الذي قام به
أجداده الوثنيون ؛ فبدأ بالعدوان في موقعة مرج الصفر كما بدأ هولاكو من

قبل بتهديد المماليك إن لم يدعوا له ، وانتهى الأمر بهزيمة أتباعه من المغول في موقعة عين جالوت (١) .

ولعل السبب في تلك العداوة راجع إلى أن دولة المغول دأبت منذ عهد جنكيز خان على التوسع ومد رقعة بلادها . وقد رأت دولة المماليك في استمرار هذه الحركة ما يهدد كيانها وخاصة أنها كانت تعنى بأن يكون لها مركز ممتاز بين الدول المجاورة لها .

(١) بإيدة بين ييسان ونابلس من أعمال فلسطين . ياقوت : معجم البلدان . انظر كتاب الظاهر برس وحضارة مصر في عصره للمؤلف ص ٤٨ — ٥٠ .

الفصل الرابع

علاقة مصر بأرمينية الصغرى

بدأت العلاقات تظهر لأول مرة بين المماليك والأرمن في عهد الظاهر بيبرس الذي حاربهم سنة ٦٤٤ هـ (١٢٦٦ م) وأوقع بملكهم الهزيمة ، كما تمكنت جيوشه من دخول سيس^(١) . وغنمت من بلاد أرمينية مغانم كثيرة سنة ٦٧٣ هـ^(٢) .

وقد واصل المماليك الإغارة على بلاد أرمينية في عهد السلطان الملك المنصور قلاوون ؛ فوصل جنده إلى مدينة أياس^(٣) سنة ٦٨٢ هـ ، وحاربوا الأرمن عند باب اسكندرونه ؛ وبعد أن أوقعوا بهم الهزيمة عادوا محملين بالغنائم^(٤) .

وكان الأرمن يؤدون إتاوة معينة لسلطين المماليك بمصر ؛ غير أنه يظهر لنا أنهم عمدوا إلى قطعها في عهد الأشرف خليل ؛ فأرسل إلى ملكهم كتاباً بعد فتح عكا ، أشاد فيه بعظم مجهود جيوش المماليك الذين حاصروا تلك المدينة ، كما دعاه إلى إرسال القطيعة المقررة والحضور لمقابلته ؛ وفيما يلي نص هذا الكتاب^(٥) : « ليعلم الملك تكفور الأرمن ، وفقه الله في سره وجهه ،

(١) وهي عاصمة أرمينية الصغرى ، وموقعها بين أنطاكية وطرسوس .
ياقوت معجم البلدان .

(٢) مفضل بن أبي الفضائل : ج ١ ص ١٥٢ .

كتاب الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ص ١١٤ — ١١٥ .

(٣) أياس : عاصمة بلاد ما وراء نهر جيحان ، (وتقع في الجزء الجنوبي من آسيا الصغرى على ساحل البحر الأبيض) الفلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٣٣ ، ج ٨ ص ٣٠ ، Le Strange, Palestine Under Moslems, p. 405 .

(٤) القرينى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧١٦ .

(٥) تاريخ سلاطين المماليك ص ٨ .

ولما وصل إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون نبأ خروج ملك أرمينية على طاعته سنة ٧٠١ هـ وتحالفه مع غازان ، أمر بإفاد جيش لمحاربه ؛ فخرج الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى على رأس حملة ؛ وسار إلى حماة حيث انضم إليه نائبها كتبغا مع فريق من الجند ؛ وبذلك تعاونت القوتان على محاربة الأرمن . فلما نزل جنودهما بلاد سيس عاثوا فيها تخريباً ونهباً ، ثم عادوا مظفرين بعد . أن مكثوا في هذه البلاد بضعة أيام (١) .

لم يقلع الأرمن عن مناوأة المماليك ، وسرعان ما انضمت جيوشهم إلى المغول في حملتهم على بلاد الشام سنة ٧٠٢ هـ التي تغلب عليها المصريون . فلما هدأ بال السلطان الملك الناصر من ناحية المغول ، وجه إلى الأرمن في أواخر سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٤ م) جيشاً من مصر والشام تحت رئاسة ثلاثة من أكفأ القواد : بدر الدين بكتاش الفخرى ، وعلم الدين سنجر الصوابي ، وشمس الدين سنقر شاه المنصوري ؛ فدخلوا أسيس وخرّبوا مزارعها وأسروا كثيراً من أهلها ، ثم حاصروا تل حمدون وتمسكوا من فتح قلعتها صلحاً ، وبذلك عادت هذه البلاد تدين بالطاعة للسلطان الملك الناصر (٢) .

ولما تأخر هيثوم Haithon ملك أرمينية عن دفع الإتاوة ، بعث إليه نائب حلب الأمير شمس الدين قراسنقر سنة ٧٠٥ هـ (١٣٠٥ م) جيشاً تحت قيادة الأمير سيف الدين قشتمر ، فعرض عليه ملك أرمينية مبلغاً من المال في مقابل رجوعه عن بلاده ، فأبى وواصلت جنوده زحفها ، وأخذت في إحراق بعض القرى حتى صدمتهم جيوش المغول والأرمن وأوقعت بهم الهزيمة (٣) .

(١) أبو الفدا : المختصر في أحوال البشر ج ٤ ص ٤٢ — ٤٧ . تاريخ سلامين

الماليك ص ١٢٨ — ١٢٩ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ، المقرئ : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٩٤٩ .

(٣) ابن خلدون : ج ٥ ص ٤٢٠ .

ولما علم الناصر محمد بتلك الهزيمة التي لحقت بجنوده في بلاد أرمينية ،
جهز جيشاً تحت قيادة بكتاش الفخرى لإضعاف شوكة الأرمن وبسط سيادته
على دولتهم ، فخشى ملك أرمينية عاقبة هجوم هذا الجيش على بلاده ، وكتب
إلى نائب حلب يعرفه أن المغول وخدمهم يتحملون تبعه مخاربة جنوده ؛
وأرسل إليه هدايا ثمينة ، كما وعده بأنه سيؤدي الإتاوة بانتظام ؛ فكان ذلك
سبباً كافياً لجل الناصر محمد على أن يبعث في طلب الجيوش المصرية من بلاد
أرمينية (١) .

وعلى الرغم من هذه الحملات التي وجهها الناصر محمد إلى أرمينية الصغرى ،
فإن نفوذ المصريين لم يتوطد فيها ، فقد اضطروا إلى الجلاء عن كثير من البلاد
والقلاع التي ضموها إلى حوزتهم في عهد الملك المنصور لاجين ، وأصبح مظهر
سيادتهم على هذه الدولة محصوراً في الإتاوة السنوية التي يدفعها ملك أرمينية
لسلطان مصر .

ولم يكن الناصر محمد بالسلطان الذي يقنع بهذه الإتاوة ، بل كانت سياسته
ترمي إلى تأمين حدود بلاد الشام الشمالية ، والوقوف في وجه الأرمن الذين تحالفوا
مع المغول ضده ؛ ومن ثم طلب من أوشين Oshin ملك أرمينية النزول عن
البلاد والقلاع التي فتحها المصريون في عهد المنصور لاجين . ولما لم يجبه هذا
الملك إلى طلبه ، أرسل حملة إلى بلاده تحت قيادة الأمير شهاب الدين قرطاي .
حاكم إمارة طرابلس سنة ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م) . وقد تقدم جنود هذه الحملة في
سيرهم حتى وصلوا نهر جيحان ، ثم عبروه وتابعوا زحفهم على سيس ، فشددوا
الحصار عليها ، وخرّبوها مع غيرها من البلاد التي مروا بها ، وعادوا بعد ذلك
إلى بلاد الشام محملين بالغنائم . وكان ملك سيس إذ ذاك مريضاً ، فتضاعف
مرضه حين وصل إليه نبأ دخول القوات المصرية بلاده ، وما لبث أن توفي
وخلفه ابنه ليو الخامس Leo V سنة ١٣٢٠ م — وله من العمر عشر سنوات —

(١) النويري: نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٢٤ ، المقرئى : السلوك ج ٢ القسم
الأول ص ١٧ .

وجعله من يلتقى المصيبة فى أهل ملته إذا عجز أن يلتقيها بصدوره . أما بعد ، فإننا فتحنا عكا التى هى على دين الصليب ، فى هذا الأمد القريب ؛ فصار فتوحها حقاً بعد أن كان فتوحها يقيناً شكاً . فلو رأيت خندقها العميق مردوماً . وكل برج منيع مهدوماً ، وفرسانها فى خنادقها جاثية ، قد أصبحوا بسيوفنا صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية . ولما أحاط بها ركابنا المنصور ، أحاط بها كما يحيط بها السور ، أظهروا الجلال فى القتال ، ورموا بالمجانيق والنبال ، وحسبوا أن بأسها يصونهم ، وأنهم ما نعتهم حصونهم . فما نفعمهم الحديد ، ولا كثرة العدد والعديد ، لما قومنا لهم كل سنان ، وجاءهم الموت من كل مكان ، أشرفنا عليه من الأسوار ، وأحطنا بهم كما يحيط اليد السوار ، فولوا من بين أيدينا منهزمين ، وأصبحوا على ما فعلوا نادمين ، فكل منهم يرى طريقاً أو أسيراً لما دمرناهم وديارهم تدميراً . وأما الديوية فقامنهم طارقة ولا جنوية ، وأما الاسبتار فأفناهم سيفنا البتار ، وأما الزنادقة البنادقة فالقوا أنفسهم فى البحر لما رأوا حملاتنا الصادقة . وأنت أيها الملك إذا لم تعتبر بعكا ، لأنكيناك على أقصى وجودك وتندم ندامة أهل عكا ، حيث لا ينفع الندم : فتحمل القطيعتين الأولى والثانية ، وتحضر بنفسك إلى أبوابنا العالية . وإن أطعت المخالفة لإبليس لييطان حزنك على بلاد سيسى ، فكل منكم يقول ما بقى بعد عكا إلا أنا . فاج بنفسك قبل أن يقع الويل والعناء ، واعتمد بما رستمنا الملك والسلام .

كذلك أمر السلطان الأشرف خليل سنة ٦٩٢ هـ ، بانقاذ حملة لاستعادة بهسنا من الأرمن ؛ غير أن رسل ملك أرمينية سرعان ما قدموا إلى دمشق يطلبون العفو من السلطان ؛ فتم الاتفاق معهم على أن ينزل الأرمن للمالك عن بهسنا ومرعش وتل حمدون ؛ وأكسد ملك أرمينية حرصه على طاعة السلطان بإرساله الأتاوة إليه^(١) .

على أن الأرمن ما لبثوا أن حاولوا استعادة نفوذهم على بعض البلاد

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٨٤ .

التي نزلوا عنها للمالِك بما حمل سلطان مصر الملك المنصور حسام الدين لاجين على تجهيز حملة لغزو بلاد أرمينية . وكانت الأحوال ملائمة في ذلك الوقت بما كان قائما في تلك البلاد من الخلاف على وراثة العرش ، وفضلا عن ذلك فإن غازان إيلخان المغول في فارس وحليف أرمينية كان مشغولا بمعاربة أعدائه في الشرق^(١) .

وقد هاجمت حملة المالِك مدينة سيس ، ثم استأنفت سيرها إلى تل حمدون فوجدتها خالية من الأرمن ، وبذلك تيسر لها الاستيلاء عليها . واضطر الأرمن أمام قوة المالِك إلى تسليم بعض قلاعهم^(٢) .

وقد حمل الأرمن ملكهم سمباد Sempad تبعة تلك الانهزامات التي حلت بهم ، واستدعوا أخاه قسطنطين Constantine ليولوه ملكا عليهم ؛ فسار إلى سيس وخلع سمباد من العرش وحل محله سنة ١٢٩٨ م ؛ ومالبث سمباد بعد ذلك أن فر إلى القسطنطينية .

وقد أظهر قسطنطين للبصريين دخوله في طاعة السلطان واتفق معهم على أن تسكون لهم الأراضي الواقعة جنوبي نهر جيحان^(٣) ؛ وبذلك دخل في حوزتهم كثير من البلاد والقلاع نخص بالذكر منها : حميص وتل حمدون ومرعش^(٤) . وظلت هذه البلاد في يد المالِك حتى قدم غازان بقوات المغول إلى بلاد الشام سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩ م) فحاول الأرمن استعادتها إليهم ، ومالبث المالِك أن اضطروا إلى النزوح عنها بعد أن عجزوا عن الاحتفاظ بها^(٥) .

(١) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 50

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٣٦ — ٣٧ ، المقرئ : السلوك

ج ١ القسم الثالث ص ٨٣٨ — ٨٤٠

(٣) يخرج هذا النهر من آسيا الصغرى عند زبطره Zabatarah وتقع عليه المنيصة ؛

ويصب في بحر الروم على مسافة قريبة منها . ياقوت : معجم البلدان

Le Strange, Palestine Under Moslems p.62

(٤) Howarth, History of The Mongols. vol III, p. 431

(٥) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٣٦ و ٤٥

حرص ليو الخامس على إظهار ولائه نحوه ، وأرسل إليه خلعة ونيفاً وقرساً^(١) .
على أن سياسة حسن التفاهم بين الممالك والأرمن لم تدم طويلاً ؛ فقد
أخذ ليو الخامس ملك أرمينية ينحرف عن ولائه لمصر . ويرجع السبب في
انتهاجه هذه السياسة إلى ما كان يأمله من مساعدة الحملة الصليبية التي شرع
فيليب السادس ملك فرنسا في إنفاذها ؛ غير أن مشروع تلك الحملة مالبث أن
تلاشى عند موت البابا حنا الثاني والعشرين^(٢) .

ولما وصل إلى الناصر محمد أن الأرمن قاموا ببعض غارات على الحدود
السورية ، سير إليهم عدة جيوش من القاهرة ودمشق وطرابلس وحماه ،
وعهد إلى علاء الدين الطنغا نائب حلب بقيادتها سنة ٧٣٧ هـ ؛ فأوغلت هذه
الجيوش في بلاد أرمينية وظلت تحاصر بلدة أياس حتى قدم رسول الأرمن
من دمشق ومعه كتاب من نائب الشام يطلب فيه من قائد جيوش الممالك
السكف عن محاربتهم ، على أن يتسلم البلاد والقلاع الممتدة إلى نهر جيحان ؛
فأوقف نائب حلب الحرب وتسلم هذه البلاد من الأرمن^(٣) .

وعلى الرغم مما أصاب أهل أرمينية من الذل والهوان ، فإن دولتهم ظلت
قائمة ، كما عجز الممالك في عهد السلطان الملك الناصر محمد عن توطيد نفوذهم
في أراضي هذه الدولة ؛ فظلوا يهاجمون بلادهم ويشنون عليهم الغارات سنة
بعد أخرى حتى تمكن الأمير أشقتمر الماردني — نائب حلب — من قبل
السلطان الملك الأشرف شعبان سنة ٧٧٦ هـ من الاستيلاء على سيس وسائر
قلاعها بعد أن ظل يحاصرها مدة ثلاثة شهور ، ومن ثم زالت دولة الأرمن^(٤) .

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٩٩

Howorth, History of the Mongols Vol III p. 604 :

(٢) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 71.

(٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ١١٩

(٤) ابن خلدون : ج ٥ ص ٤٣٠ ، والتجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ٢٢٤
(طبعة جامعة كاليفورنيا) .

الفصل الخامس

سياسة مصر إزاء الصليبيين

كان الصليبيون يرجون تحويل المغول إلى المسيحية لإيجاد جبهة متحدة من آسيا وأوربا تستطيع الإطباق على دولة المماليك في مصر والشام ، وبذلك يتسنى لهم الاحتفاظ بالأراضي المقدسة ؛ لكن هذا المشروع ما لبث أن تضاعف واختفى ، فانصرف خانات المغول في فارس إلى موالاة الزحف والإغارة على بلاد الشام واعتنقوا الإسلام ، ولم ينتصف القرن الرابع عشر الميلادي حتى عم هذا الدين أواسط آسيا .

وقد رأت دولة المماليك إزاء الخطر الذي يهددها من ناحيتي الصليبيين والمغول أن تعمل على الفل من شوكتهم والقضاء عليهم : فبذل سلاطين مصر قصارى جهدهم — كما رأينا — في دفع خطر المغول حتى ردوهم على أعقابهم . وكانوا في نفس الوقت الذي شغلوا فيه بمحاربة المغول يعملون على التخلص من الصليبيين ؛ فوجه الظاهر بيبرس الجيوش إلى بلاد الشام لإجلائهم عنها ، ولكنه توفي قبل أن يتم له ذلك ؛ فظلوا مقيمين في بعض جهات سواحل الشام وخاصة طرابلس وعكا . فلما ولي قلاوون سلطنة مصر ، عول على مهادة الصليبيين حتى لا يفاجأ بخروجهم عليه وهو يحارب المغول ؛ فجدد الهدنة التي عقدها بيبرس مع الفرسان الاستبارية بحصن المرقب ، كما عقد معاهدة في ٣ مايو سنة ١٢٨١ م مع الفرسان الاستبارية بعكا ، تقررت بمقتضاها الهدنة بين الفريقين لمدة عشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات^(١) . وأبرم في ١٦ يولية سنة ١٢٨١ م معاهدة أخرى مع

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ من ١٢٤

فقام Bailiff oshin بالوصاية عليه^(١).

وقد أرسل ليو ووصيه على أثر إعتلائه العرش إلى البابوية يطلب منها أن تمد له يد المساعدة. فأرسل إليه البابا حنا الثاني والعشرون يعرفه بانشغال ملوك أوروبا في الحروب الدائرة بينهم؛ لكنه مع ذلك وعده بأن يمدّه ببعض القوات.

ولما علم الناصر محمد بما يقوم به ليو لتحريض ملوك أوروبا ضده، عول على الانتقام منه؛ فأوعز إلى دمر داش حاكم بلاد آسيا الصغرى بمهاجمة أرمينية. فزحف على سيس وخرّبها، كما عاث فيها فساداً أحد أمراء الترك. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تقدمت إليها القوات المصرية واستولت على عدة مدن وأحرقت أطنّة، وغنمت منها كثيراً من الغنائم.

ولما وقف البابا على هذه الأحداث التي حلت بأرمينية، دعا رعاياه المسيحيين إلى مساعدة الأرمينيين بالمال والرجال، وأرسل إلى ليو مبلغاً من المال، يستعين به على إعداد قواته. ولم يكن هذا كل ما قام به البابا لمعاونة ملك أرمينية بل بعث إلى بوسعيد ايلخان المخول بفارس كتاباً في ١٣ يولييه سنة ١٣٢٢م يذكره فيه بمخالفة أسلافه للملوك أرمينية وانضمامهم إلى المسيحيين ورجاه أن يرسل إليه نخبة؛ فجهر إليه عشرين ألف رجل^(٢).

ومع أن الدعوة التي قامت بها البابوية لمساعدة ملك أرمينية، بالوقوف في وجه المماليك فإن كبار رجال الأرمن أظهروا الرسول الناصر محمد — الذي قدم إلى بلادهم لأخذ الإتاوة — استعدادهم للاتفاق مع السلطان؛ فقالوا له: «إذا أراد السلطان أن يقاسمنا على ما نتحصل عليه من بلادنا، وأن يفرض علينا جزية سنوية مقدارها دينارين على كل شخص بما في ذلك ملكنا، أجبناه إلى طلبه، وإن أراد أن يسلم إلى نوابه القلاع والبلاد التي تمتد من نهر

(١) أبو الفدا: ج ٤ ص ٧٨ ، ٨٨

Howorth, History of the Mongols. vol. III p. 602.

(٢) Howorth, History of The Mongols. vol III pp. 603 — 604 .

جيجان إلى المملكة الحلبية حققنا له رغبته ، على أن يضع عنا في مقابل استيلائه على هذه القلاع ثلث المال المقرر وهو أربعمائة ألف درهم .
على أن الجنود المصرية والشامية سرعان ما زحفت على بلاد أرمينية سنة ٧٢٢ هـ تحت قيادة نائب حلب ، قبل أن يطلع السلطان على المقترحات التي أدلى بها الأرمن لسفيره . ولما وصلوا أياض ، وجدوا أن أهلها قد أخذوا المدينة ، فدخلوها دون مقاومة ، ثم تقدموا إلى القلعة التي احتوى بها أهل سيس ، فحاصروها واستولوا عليها عنوة ؛ وما لبثوا أن عادوا إلى بلاد الشام ومصر محملين بالغنائم (١) .

ولم يمض عام واحد على إغارة جيوش السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون على بلاد أرمينية حتى أنفذ ليو الخامس ملك سيس ، قسطنطين Constantine بطرك الأرمن سفيراً إلى مصر ومعه الإتاوة وهدية من الجواهر الثمينة . ولما مثل هذا الرسول بين يدي السلطان . اعتذر له عما حدث من ملك أرمينية ، واستأذنه في تجديد بناء مدينة أياض ، على أن يرسل إليه هذا الملك مائة ألف درهم كل سنة ؛ فأجاب بالموافقة . وعقدت هدنة بين المصريين والأرمن لمدة خمسة عشر عاماً حين وصلت قوات المغول إلى أرمينية (٢) .

ولما رأى ليو الخامس ملك أرمينية أن وصيه Oshin الذي يعرف بصاحب كرك (٣) Lord of Kurk استأثر بالتفوذ دونه ، عول على التخلص منه ؛ فقتله وبعث برأسه إلى سلطان المالك بمصر . وقد سر الناصر محمد من

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ١٢ — ١٤ ، المقريزي : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٣٧ ، أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ص ٩١ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٤٦ .

Howorth, History of the Mongols, vol III p. 604 .

D' Ohsson, Histoire Des Mongols, vol IV pp. 664—565.

(٣) قلعة صغيرة تقع في أطراف مدينة سيس من جهة الغرب والشمال م

بوهمند السابع أمير طرابلس^(١) : كان من بين شروطها^(٢) :

- ١ — تعقد هدنة بين بلاد السلطان الملك المنصور قلاوون وولده السلطان الملك الصالح على ، وبين بلاد صاحب طرابلس لمدة عشر سنين .
- ٢ — يقيم نواب السلطان وصاحب طرابلس بمدينة اللاذقية للإشراف على استخراج الجبايات وتقسيمها مناصفة .
- ٣ — على صاحب طرابلس ألا يبني خارج مدينته ولا في البلاد التي وقعت الهدنة حصناً أو قلعة ، وكذلك يتعهد السلطان ألا ينشئ قلعة تجاور البلاد التي وقعت هذه الهدنة .

٤ — لا تنقضى هذه الهدنة بوفاة أحد الطرفين المتعاقدين أو بانتقال الحكم إلى غيره .

كذلك عقد السلطان مع صاحب عكا^(٣) هدنة في ٣ يولية سنة ١٢٨٣ م ، تعهد فيها الطرفان بعدة التزامات ، سنكتفي بإيراد أهمها فيما يأتي^(٤) :

- ١ — تعقد هدنة بين بلاد السلطان الملك المنصور سيف الدين أبي الفتح قلاوون المملوكي الصالح وولده السلطان الملك الصالح علاء الدين على ، وبين حكام مملكة عكا وصيدا وعثليت وبلادها لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام .

٢ — يكون جميع رعايا السلطان وتجار بلاده آمنين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم أثناء ترددهم على مدينة عكا والبلاد الساحلية الداخلة في الهدنة .

٣ — لا يتعرض الفرنجة — الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية

(١) Stanley Lane-Poole. A History of Egypt in the Middle ages pp. 278—279.

Stevenson. The Crusaders in The East p. 347 .

(٢) بيبس الدودار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ص ١٢٤ ب — ١٢٦ ا

الزويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ١٢٧٨ — ٢٧٨ ب

(٣) كانت عكا وصيدا وعثليت من بقايا مملكة بيت المقدس ، وملسها في تلك السنة Charles of Anjou . وقد تولى نائبه ببلاد الشام أودو بواسيان Odo Poilechien مفاوضة

السلطان في الهدنة . King. The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 284 .

(٤) ابن المرات : تاريخ الدول والملوك - ١٤ ص ١٨٨ — ٩٣ ب .

الداخلة في الهدنة — بأى سوء لأراضى السلطان وولده ، ولا لرعاياهما على اختلاف أجناسهم ؛ وكذلك تكون جميع بلاد عكا وما عين في هذه الهدنة من البلاد الساحلية آمنة من السلطان وولده ، ومن عساكره ورعاياه .

٤ — لا يجدد الفرنجة في عكا وعثايت وصيداً حصناً أو سوراً .

٥ — إذا هرب أحد من بلاد السلطان وولده إلى عكا والبلاد الساحلية المعينة في هذه الهدنة ورغب في اعتناق النصرانية يرد جميع مامعه من الأموال وإن كان لا يرغب في اعتناق النصرانية يعاد إلى السلطان بجميع مامعه بعد أن يعطى الأمان ، وكذلك إذا حضر أحد من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة بقصد الدخول في الإسلام وأسلم بإرادته يرد جميع مامعه من الأموال ، وإن كان لا يميل إلى اعتناق الإسلام يرد إلى حكم عكا بعد أن يعطى الأمان .

٦ — إذا وجد — بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة — مع أحد تجار المسلمين شيء من الممنوعات مثل الأسلحة ، ترد إلى الشخص الذى باعها له ويعاد اليه ثمنها .

وكذلك إذا سافر أحد تجار الفرنجة من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في الهدنة إلى البلاد الإسلامية ووجد معه شيء من الممنوعات ترد إلى صاحبه الذى باعها له ويعاد اليه ثمنها .

٧ — إذا أصيبت إحدى مراكب تجار بلاد السلطان وولده بعطب في موافى عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، يكون كل من فيها آمناً على نفسه وأمواله وأمتعته ؛ وإذا عثر على أصحاب هذه المراكب ، تسلم اليهم مراكبهم وأموالهم .

أما إذا تعذر العثور عليهم ، فيحتفظ بأموالهم وتسلم لتواب السلطان ؛ وكذلك الحال فيما يتعلق بمراكب الفرنجة الذاهبة إلى بلاد السلطان ، يحتفظ بما يجدونه بها ويسلم لحاكم مملكة عكا إذا عد صاحبها من المفقودين .

٨ — إذا توفي أحد تجار بلاد السلطان بعكا وصيدا وعثليث والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة يسلم ماله لنواب السلطان ؛ وكذلك الحال إذا توفي أحد تجار عكا وصيدا وعثليث ببلاد السلطان ، يرسل ماله لحاكم عكا^١ ٩ — إذا أقدم أحد ملوك الفرنجة أو التتار على المسير لمهاجمة بلاد السلطان ، يلزم نائب المملكة بعكا أن يخبر السلطان بحركته قبل وصوله إلى البلاد الإسلامية الداخلة في الهدنة بمدة شهرين .

١٠ — يبادر فلاحو البلاد الإسلامية المقيمون ببلاد الفرنجة التي اشتركت في هذه الهدنة بالعودة إلى بلادهم ؛ وكذلك الحال فيما يتعلق بفلاحى بلاد الفرنجة لا يسمح لهم بالإقامة في بلاد المسلمين .

١١ — يكون الحجاج المسيحيون الذين يقدون من عكا والبلاد الساحلية لزيارة كنيسة الناصرة آمنين في ذهابهم وقدومهم إلى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة ، ولا يتعرض إلى الأقسام والرهبان بسوء .

١٢ — يتعهد السلطان بحماية البلاد التي عقد معها هذه الهدنة ، من اعتداء جنوده والمتلصصين والمفسدين ، كما يلزم حاكم عكا بدفع أخطار المفسدين الداخلين تحت حكمه ، عن بلاد المسلمين .

وقد تمهد قلاوون ، بأن يعمل على تنفيذ نصوص هذه الهدنة ؛ وفيما يلي نص يمينه^(١) .

« والله والله والله ، وبالله وبالله وبالله ، وتالله وتالله وتالله . والله العظيم الطالب الغالب ، الضار النافع ، المدرك المهلك ، عالم ما بدا وما خفا ، عالم السر والعلانية ، الرحمن الرحيم . وحق القرآن ومن أنزله ، ومن أنزل عليه وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وما يقال فيه من سورة سورة وآية آية ، وحق شهر رمضان ، إننى أنى بحفظ هذه الهدنة المباركة التي استقرت بيني وبين مملكة عكا والمقدمين بها ، على عكا وعثليث وصيدا وبلادها ، التي تضمنتها هذه الهدنة ، التي مدتها عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ١٤ ص ٩٣ ب — ٩٤ ا

ساعات ، أولها يوم الخميس خامس شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستمائة للهجرة ، من أولها إلى آخرها ، وأحفظها وألتزم بجميع شروطها المشروحة فيها ، وأجرى الأمور على أحكامها إلى انقضاء مدتها ، ولا أتأول فيها ولا في شيء منها ، ولا أستفتي فيها طلبا لنقضها ما دام الحاكمون بمدينة عكا وصيدا وعثليت ، وهم كافل المملكة بعكا ، ومقدم بيت الديوية ومقدم بيت الاسبتار ، ونائب مقدم بيت الاسبتار ... ، ومن يتولى بعدهم في كفالة مملكة أو مقدم بيت عنهم ، بهذه المملكة المذكورة ، وافين باليمين التي يحلفون بها لي ولولدي الملك الصالح ولأولادي ، على استقرار هذه الهدنة المحررة الآن ، عاملين بها وبشروطها المشروحة فيها إلى انقضاء مدتها ، ملتزمين بأحكامها . وإن نكثت في هذه اليمين فيلزمني الحج إلى بيت الله الحرام بمكة المشرفة ، حافيا ، حاسرا ، ثلاثين حجة ، ويلزمني صوم الدهر كله ، إلا الأيام المنهى عنها . . . والله على ما نقول وكيل ..»

كذلك تعهد أودو بوالشيان — نائب الملك شارل بالبلاد الشامية — بأن يلتزم الوفاء بشروط الهدنة إذا ظل السلطان الملك المنصور قلاوون حريصا على تنفيذها ؛ وفيما يلي يمينه التي حلف بها في هذه الهدنة :

والله والله والله ، وبالله وبالله وبالله ، وتالله وتالله وتالله ، وحق المسيح وحق المسيح وحق المسيح ، وحق الصليب وحق الصليب وحق الصليب ، وحق الأقانيم الثلاثة من جوهر واحد ، المسكن بها عن الأب والابن وروح القدس إله واحد ، وحق اللاهوت المكرم الحال في الناسوت المعظم ، وحق الانجيل المطهر وما فيه ، وحق الأناجيل الأربعة التي نقلها متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، وحق التلاميذ الاثني عشر ، والاثني وسبعين ، والثلاثمائة وثمانية عشر المجتمعين بالبيعة ، وحق الصوت الذي نزل على نهر الأردن فزجره ، وحق الله منزل الانجيل على عيسى بن مريم ... ، وحق الست مارية أم النور . . . ، وحق الصوم الكبير ، وحق ديني ومعبودي وما أعتقده من

النصرانية ، وما تلقنته من الآباء والأقساء المعمودية ، إني من وقى هذا ومساغى هذه ، قد أخلصت نيتي ، وأصفيت طريقتي في الوفاء للسلطان المنصور ولولده الملك الصالح ولأولادهما ، بجميع ما تضمنته هذه الهدنة المباركة التي انعقد عليها الصلح ، على مملكة عكا وصيدا وعثليت وبلادها الداخلة في هذه الهدنة المسماة فيها ، التي مدتها عشر سنين كوامل وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، أولها يوم الخميس ثالث حزيران سنة ألف وخمسمائة وأربعة وتسعين للإسكندر بن فيلبس اليوناني ، وأعمل بجميع شروطها شرطا شرطا ، وألتزم الوفاء بكل فصل في هذه الهدنة المذكورة إلى انقضاء مدتها .

« وإني والله والله وحق المسيح وحق الصليب وحق ديني ، لا أتعرض إلى بلاد السلطان وولده ، ولا إلى من حوته وتحويه من سائر الناس أجمعين ، ولا إلى من يتردد منها إلى البلاد الداخلة في هذه الهدنة ، بأذية ولا ضرر . في نفس ولا في مال . وإني والله وحق ديني ومعبودي أسسلك في المعاهدة والمهادنة والمصافاة والمصادقة ، وحفظ الرعية الإسلامية والمتريدين من البلاد السلطانية . والصادرين منها وإليها ، طريق المعاهدين المتصادقين ، كلف الأذية والعدوان عن النفوس والأموال وألتزم الوفاء بجميع شروط هذه الهدنة إلى انقضائها ، ما دام الملك المنصور وافيًا باليمين التي حلت بها على الهدنة ولا أنقض هذه اليمين ولا شيئًا منها ، ولا أستثنى فيها ولا في شيء منها طلبًا لتقصها ؛ ومتى خالفها أو نقصتها فأكون بريئًا من ديني واعتقادي ومعبودي ، وأكون مخالفًا للكنيسة ، ويكون على الحج إلى القدس الشريف ثلاثين حجة ، حافيا حاسرا ، ويكون على فك ألف أسير مسلم من أسر الفرنج وإطلاقهم ، وأكون بريئًا من اللاهوت الحال في الناسوت . . . »

ولما زالت مخاوف السلطان قلاوون من ناحية المغول ، عول على إخضاع المدن الصليبية ؛ فهاجم فجأة حصن الإسبتارية بالمرقب سنة ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) رغم المعاهدة التي عقدها معهم لمدة عشر سنين ^(١) ؛ وذلك بسبب اعتراضهم

قافلة من التجار المسلمين . وظل هذا الحصن محاصراً ثمانية وثلاثين يوماً حتى رحب الفريقان بعقد معاهدة التسليم ؛ فالاستراتيجية رأت أن موقفها أصبح من المتعذر الدفاع عنه ، أما السلطان فرغب في المحافظة على أسوار الحصن من خراب مطبق ؛ وانتهى الأمر بإجلاء الحامية إلى طرابلس تحت حراسة جند السلطان ، وسمح لهم بنقل ما يستطيعون حمله من أموالهم (١) . وكان لاستيلاء السلطان قلاوون على حصن المرقب أثره في المدن الصليبية الأخرى ، فاضطر أمير طرابلس أن يسلم له مرقية ، كما اشترى Margaret of Tyre الصلح لمدة عشر سنوات بنزوله عن نصف دخل صور السنوي ، وتعهده بعدم تجديد تحصيناتها (٢) .

ولم تمض ثلاث سنوات على استيلاء السلطان قلاوون على حصن المرقب حتى ورد إليه كتاب من نائبه ببلاد الشام يذمه فيه بأن الفرنجة بطرابلس نقضوا الهدنة واعتدوا على التجار المسلمين رغم تعهدهم ألا يتعرضوا للتاجر ولا يقطعوا الطريق على مسافر . فأعد قلاوون العدة سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) للاستيلاء على هذه المدينة (٣) ، وحفره على السير في تحقيق تلك الغاية ما حدث بينه وبين بارثليميو Bartholomew صاحب جبيل من خلاف ؛ ذلك أن بارثليميو كان قد عرض على قلاوون أن يعاونه على امتلاك طرابلس ، على أن تكون مناصفة بينهما ؛ فلما استقر له الأمر فيها ، شرع في التسويق والمغالطة لاعتقاده أن الفرنجة لا توافق على تنفيذ ما تعهد به للسلطان . لذلك لم ير قلاوون بدا من محاربته قبل استفحال نفوذه (٤) ؛ فسار إلى طرابلس على رأس قوات من الفرسان والمشاة ؛ وبعد أن دار قتال عنيف بين الفريقين ، تمكن المسلمون من إحداث ثغرة في الأسوار ، واحتشدت جنودهم داخل

(١) Stevenson, The Crusaders in The East p. 349

(٢) Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle ages p. 281

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ القسم الثالث ص ٧٤٦

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٠ — ٣٢١

المدينة ، وما لبثت طرابلس أن سقطت في ٢٩ ابريل سنة ١٢٨٩ م بعد حصار دام تسعة وثلاثين يوماً ، ثم تلا ذلك وقوع معركة كبيرة قتل فيها سبعة آلاف من أهالي طرابلس ، وأقلع فريق كبير منهم بالسفن إلى قبرص ، ولجأ الفريق السيئ الحظ من سكان هذه المدينة إلى جزيرة St Nicholas (١) حيث ماتوا جوعاً (٢) .

ولما تم للسلطان قلاوون الاستيلاء على طرابلس ، أبقى للأميرة Lucia أخت الأمير المتوفى بوهمند السابع وصاحبة طرابلس من بعده (٣) قريتين من قراها ، كما أقر بارثليميو على بلدة جبيل على سبيل الإقطاع ، وأخذ منه معظم أموالها (٤) .

كان من أثر سقوط طرابلس أن أصبحت المدن اللاتينية ببلاد الشام تحت رحمة السلطان قلاوون ، وصار أملها الوحيد أن تلبى أوربا نداء البابا في العمل لمصلحتهم . غير أن هذا الأمل ذهب سدى ؛ فقد تنصل ملك فرنسا من كل مسؤولية ، كما أن ملكاً أرجونة وصقلية وقعا معاهدة سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) تلزمهم بمساعدة السلطان قلاوون ضد أى حرب صليبية وضد اللاتين بسورية إذا نقضوا الهدنة التي أبرموها مع هذا السلطان ، أما ادوارد الأول ملك إنجلترا فكان عازماً على القيام بحرب صليبية أخرى ، لكن

(١) ذكر أبو الفدا (المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٢٣) أن جنود المسلمين عبروا البحر وراء الفارين إلى تلك الجزيرة التي تقع بالقرب من طرابلس ، وقتلوا جميع من فيها من الرجال وسبوا النساء والأطفال ، كما عاثوا في الأرض فساداً . وقد شاهد بنفسه مبلغ ما حدث بها من التخريب والقتل ؛ ووصفه بقوله : « وهذه الجزيرة بعد فراغ الناس من النهب عبرت إليها في مركب فوجدتها ملاءى من القتل بحيث لا يستطيع الإنسان الوقوف فيها من تنن القتل » .

(٢) King, The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 288

(٣) Stevenson, The Crusaders in The East, p. 349

(٤) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ١ ص ٢٦١

هذا ، وقد ذكر (Stevenson, The Crusaders in the East P. 350) أن بارثليميو

حاكم جبيل تعهد للسلطان بدفع جزية سنوية .

الجدال الكبير بين الشرق والغرب انتهى قبل الوقت المحدد لقيام هذه الحرب . وقد حملت المجهودات التي بذلها البابا نيقولا الرابع في سبيل نصرته اللاتين بسورية مئات من الحجاج ، بل ألفاً أو ألفين على المبور إلى عكا في صيف سنة ١٢٩٠ م . وقد عجل حضورهم النكبة التي حلت بالصليبيين ؛ ذلك أن بعضهم انتهك حرمة المسلمين الذين كانوا يعيشون في أمان بالقرب من عكا بمقتضى المعاهدة المبرمة بين السلطان واللاتين ^(١) ، وقتلوا جماعة من تيجارهم ^(٢) (شعبان سنة ٦٨٩ هـ ، أغسطس سنة ١٢٩٠ م) ؛ فاشتد قلاوون من ذلك ذريعة لإعلان الحرب على هذه المدينة التي أصبحت في عهده سلباً للصليبيين الذين وقعت مدنهم في أيدي المسلمين . ولما أظهر أمراء المماليك تخوفهم من مهاجمتها لمنع حصونها ، دعا السلطان القضاة وأخبرهم باعتماد الفرنجة على التجار المسلمين بالقرب من عكا ، فأفتوه بأن مالحق التجار من الإهانات هو مبرر كاف لإعلان الجهاد على الصليبيين ^(٣) ، ثم نزع في إعداد المعدات لحصار عكا ، لكنه ما لبث أن توفي (ذو القعدة سنة ٦٨٩ هـ ، نوفمبر سنة ١٢٩٠ م) .

ولم يكن لوفاة قلاوون أي أثر في تبدل موقف مصر إزاء الصليبيين ، فقد عمل ابنه الأثرش خليل على إتمام مشروعه ، ولم يقبل من اللاتين ما اعتدروا به وأخذ في الاستعداد للحرب بنشاط ^(٤) ، كما أصر على إخراج الصليبيين كافة من سورية . فأرسل إلى ولايته ببلاد الشام يطلب منهم تجهيز وسائل النقل لحمل الذخائر وعدد الحرب إلى أسوار عكا ^(٥) . ونودي في الجامع الأموي بدمشق بالاستعداد لغزو عكا ، فشرع الأهالي في جر المجانيق .

(١) Stevenson, The Crusaders in the East, pp.351—352

(٢) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ج ٢ ص ٣٨٦

(٣) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p. 39.

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٦٧

Stevenson, The Crusaders in the East p, 352.

Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 44 (٥)

وأعد الأمير حسام الدين لاجين نائب الشام جيشه ، ثم غادر دمشق قاصدا عكا ، كما زحف كل من الملك المظفر صاحب حماه ورجالهم وسيف الدين بلبان الطباخي نائب طرابلس والحصون الساحلية بعساكره^(١) . وأذن السلطان لبيبرس الداودار نائب السكر بالسير إلى عكا لمحاربة الصليبيين ؛ وفيما يلي نص ما قاله هذا النائب عن اشتراكه في تلك الغزوة^(٢) : وكنت حينئذ بالسكر فلما بلغتني أمر هذه الغزاة ، ووردت على مراسيم السلطان بتجهيز الزردخانات والآلات تاقت نفسي إلى الجهاد ، وحننت إليه حنو الأرض الظامئة إلى صوب العهاد ، فطالعت السلطان بذلك . وسألته أن أصير إلى هناك لأساهم في ثواب الغزو وأشارك ، فأذن لي في الحضور ، وسمح بالدستور ، فسكنت كمن فاز أمله بنجاح وانجلي ليله بصباحه . فجهزت من الزردخانات المانعة والآلات النافعة ، والرجال المجتهدين ، والرماة والحجارين ، والغزاة والنجارين . وتوجهت ملاقيا السلطان ، فوافيته وقد وصل إلى غزة : فلقيت منه إكراما وبشرا وابتساما وسرت في ركابه إلى عكا . . .

ولما عزم الأشرف خليل بن قلاوون على التوجه إلى عكا ، أقام احتفالا دينيا بالقبلة المنصورية ، دعا إليه القضاة والعلماء والأعيان^(٣) ، ومالئ أن سار على رأس جنده إلى بلاد الشام .

وكان جيش السلطان الذي احتشد أمام عكا في ربيع سنة ١٢٩١ م مهيبا بصعب كفاية مدفعيته وما لديه من آلات الحصار التي بلغ عددها اثنين وتسعين منجنيقا^(٤) .

(١) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ج ٢ ص ٣٧٤ — ٣٧٥ .

المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٦٣ — ٧٦٤ .

(٢) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ص ١١٦٩ — ١٦٩ ب .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٦٤ .

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 285 .

(٤) Stevenson, The Crusaders in the East p. 352

أما عن الحالة في داخل أسوار عكا ، فقد اجتمع بها ممثلون للملوك أوربا وبيت المقدس والهيئات الدينية . وكان لكل من هؤلاء حكومة منفصلة عن الأخرى حتى أصبح بها سبعة عشر دولة مستقلة . وليس غريبا أن تصبح تلك المدينة في ظروف كهذه الملجأ الذي تتخذ جميع مساويء المسيحية طريقها إليه ؛ فقد أهملت بها فروض الدين والقانون والفضيلة حتى أصبحت في أواخر أيامها مضغة في أفواه المسيحيين لانغماس أهلها في الترف والزيلة^(١) .

وقد بذلت حامية عكا كثيرا من الجهد في سبيل الدفاع عنها ، وشدت أزرها النجدة التي أرسلتها جزيرة قبرس^(٢) . غير أن استعدادها لم يكن تاما ؛ فلما بدأ المسلمون هجومهم الأخير في ١٨ مايو سنة ١٢٩١ م ، أحدثت آلات حصارهم ثغرة في الأسوار . ثم اتخذ الجند طريقهم إلى المدينة ، فهرب كثير من أهلها إلى الأبراج وقصور الأشراف والهيكلين ، كما أقلع عدد كبير منهم بالنسف التي كانت راسية في المرفأ إلى قبرس . وكان من بينهم هنرى الثاني صاحب هذه الجزيرة ، وقد تبعه رئيس الاسبتارية وفريق آخر من اللاتين ؛ غير أنه بقي بالمدينة ٦٠٠٠ مسيحي ، كان مصيرهم بين السبي والقتل . أما الهيكليون ومن لاذ بهم ، فقد انتهت حياتهم أشرف نهاية ، ذلك أنهم ظلوا يقاومون حتى قوض حصنهم وهلكوا في خرابته^(٣) .

وبذلك سقطت عكا بعد حصار دام ثلاثة وأربعين يوما ، ثم أحرقت المدينة ودمرت ، بعد أن لبثت في أيدي الصليبيين مائة عام كاملة^(٤) . وكان السلطان الملك الأشرف خليل حين مهاجمته عكا ، قد أنفذ فريقا من جنده تحت قيادة الأمير علم الدين سنجر الصوابي لحفظ الطرق والتضييق

(١) Archer and Kingsford, The Crusades p. 414

(٢) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p.44

(٣) Archer and Kingsford, The Crusades p. 418.

(٤) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 44.

Stevenson, The Crusaders in the East p. 354.

على صور ؛ فقام هذا الأمير بمهمته وحال دون دخول المراكب المحملة بالمنهزمين من عكا ، ميناء صور ؛ وأخذ يشدد الحصار على هذه المدينة حتى اضطر أهلها إلى طلب الأمان ؛ فأمّنهم على أنفسهم وأموالهم وتسلم المدينة . وقد شجعت هذه السهولة التي تمّ بها فتح صور الأشرف خليل على أخذ ما بقي من المدن الصليبية ؛ فندب الأمير علم الدين سنجر الشجاعى نائب الشام لفتح صيدا^(١) ولما ظهر أسطول المسلمين على بعد منها أخلى اللاتين المدينة ، ومالبت أن سلمت بيروت وعثليث وأنطرطوس^(٢) . وقد علق أبو الفدا^(٣) على تسليم هذه المدن بقوله : « وافق لها السلطان من السعادة ما لم يتفق لغيره ، من فتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال ولا تعب ... وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للإسلام ، وكان أمر الأيوبيين فيه ولا يرام ... ولما عاد السلطان إلى القاهرة بعد قضائه على الصليبيين بعكا ، زينت له أحسن زينة واحتفل باستقباله احتفالا باهرا ؛ فدخلها وبين يديه عدد عظيم من أسرى الفرنجة ، مقيدون في الأصفاد وفي أثرهم الفاتحون يحملون الأعلام المسيحية منكسة ورموس أعدائهم على أسنة رماحهم^(٤) .

ولم يقض سقوط عكا في يد المماليك على فكرة الحروب الصليبية ، بل ظلت عالقة بأذهان الناس ؛ فأخذ الهيكلليون الذين كانوا لا يزالون مستجودين على جزيرة أرواد^(٥) يغيرون من حين لآخر على ساحل طرابلس مما حمل السلطان الناصر على إرسال حملة لمحاربتهم سنة ١٣٠٣ م ، كما أبحر إليها الأمير سيف الدين استدمر الكرجى نائب السلطنة بطرابلس على رأس فريق من

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٨ ، ١٠ .

(٢) Stevenson, The Crusaders in the East p. 355

(٣) المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٢٥٠ .

(٤) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt pp. 44-45.

(٥) تقع في الجهة الشمالية من طرابلس الشام على بعد خمسين كيلو مترا ، وفي الجنوب الغربي من أنطرطوس على بعد ثلاث كيلو مترات .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ حاشية رقم ١ ص ١١١ ، ١٥٤ ، ١٥٦ .

الجند . وما لبث المماليك أن تمكنوا من الاستيلاء على تلك الجزيرة ، وقتل من أهلها ما يقرب من ألف نسمة ، ووقع في الأسر ما يناهز نصف هذا العدد ، كما غنم الجند جميع ما عثروا عليه بالجزيرة ، وبذلك قضى على البقية العسة من جنود الحرب الصليبية العظمى ^(١) .

ولم يكن الفرسان الاستتارية الذين استقروا برودس ^(٢) أقل حماسا من إخوانهم الهيكلين في العمل على استعادة الأراضي المقدسة ، فأخذوا يعملون على مناوئة المسلمين ، وانضموا فيما بعد إلى حملة بطرس الأول Pierre I ملك قبرس التي هاجمت الإسكندرية في النصف الأخير من القرن الرابع عشر الميلادي .

على أن فكرة القيام بحرب صليبية لم تخرج عن أنها بقيت حية في أوائل القرن الرابع عشر لأن البابوية لم تكن من القوة بحيث تستطيع تعهدها وخاصة بعد نقل الكرسي البابوي إلى أفنيون سنة ١٣٠٥ م .

ولما أصبح القيام بالحرب الصليبية حجة مقبولة يستطيع أن يتذرع بها الملوك لأخذ الأموال من الكنيسة ، جاهر فيليب الرابع ^(٣) ملك فرنسا بعدائه للمسلمين في سبيل الحرب المقدسة . وقد اتخذ هذه السياسة بشكل جدي كثير من الشخصيات من مختلف طبقات مجتمع العصور الوسطى ، فوضعوا مشروعات صليبية معينة ، ورفعت إلى البابا وملك فرنسا والمجلس الديني المنعقد

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٤ .

أبو انقضا : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٤٧ .

Muir, The Mameluke or Slave Dyrasty of Egypt p, 57.

(٢) كان الفرسان الاستتارية بعد خروجهم من عكا مع بقية الصليبيين سنة ١٢٩١ م قد اتخذوا جزيرة قبرس ملجأ لهم ؛ وبعد أن حاولوا عبثا المفاوضة مع القسطنطينية لنقل حقوق ملكية الجزيرة اليهم ، هاجموا جزيرة رودس بتحرير فيليب الجميل والبابا واستولوا عليها سنة ١٣١٠ م .

Gibbons, The Foundation of the Ottoman Empire pp. 43-44.

(٣) كان فيليب الرابع قد اعتقد بعد نقله الكرسي البابوي الى أفنيون أن البابوات أصبحوا في قبضة يده وفي الامكان فرض ضرائب باعظة عليهم لملء خزائنه .

Aliya, The Crusade in the Later Middle Ages p. 48.

في فيينا (١٣١١ - ١٣١٢ م) المشروعات العظمى لإنعاش فكرة الحروب الصليبية . وقد تقدم بهذه المشروعات رجال قضوا زمنا طويلا بالشرق وغيرهم ممن لم يذهبوا وراء البحار ^(١) .

ولما كانت مصر مركز العالم الاسلامى فى القرن الرابع عشر ، والقرن الخامس عشر ، أخذ ملوك أوروبا وبابواتها وأصحاب الرأى فيها يدعون إلى توجيه الحملات الصليبية ضد دولة المماليك .

ولم يكن رجال مصر غافلين عما يدبره لهم الصليبيون ؛ فحين وصل اليهم سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) أن ملك قبرس هنرى الثانى لوسجنان Henry II Lusignan (١٢٨٥ - ١٣٢٤ م) اتفق مع بعض ملوك الفرنجة على بناء ستين قطعة حربية لغزو دمياط ، دعا السلطان بيبرس الجاشنكير الأمراء وشاورهم فى هذا الأمر ؛ فاتفقوا على بناء جسر يمتد من القاهرة إلى دمياط خشية نزول الفرنجة وقت فيضان النيل ، وعهد إلى الأمير جمال الدين أقوش الرومى الحسامى بالإشراف على هذا العمل ، وطلب من الأمراء والولاة أن يخرج كل منهم رجاله ليساهموا فى بناء هذا الجسر ؛ وبذلك تيسر للأمير أقوش إنجازاه فى أقل من شهر . وكان يبتدىء من قليوب وينتهى عند دمياط ويسير عليه الزاكب يومين . ولما عاد هذا الأمير إلى القاهرة بعد فراغه من إعداد الجسر ، خلع عليه السلطان وشكره على همته . ثم استقر الرأى بعد ذلك على بناء جسر آخر بطريق الاسكندرية وندب للإشراف عليه الأمير سيف الدين الجرهمي ^(١) .

ويتبين لنا من اهتمام سلطان مصر باتخاذ الحيلة لدفع خطر الصليبيين عنها سنة ١٣٠٨ م أن أخبار المشروعات الصليبية كانت تصل إلى القاهرة كأنها حملات توشك أن تهاجم البلاد مع أن شيئا من تلك المشاريع لم يكن فى حيز التنفيذ حوالى ذلك الوقت .

(١) Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages. p. 48.

(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ القديم الأول ص ٤٨ - ٤٩ .

وكان هنرى الثانى ملك قبرس من بين الشخصيات الكبيرة التى أخذت تدعو بعد وقعة عكا الحاسمة إلى معاودة الحرب ضد سلاطين الممالك لإعادة الدولة الصليبية إلى مكانها القديم ؛ وتحقيقا لهذا الغرض ، أرسل سفيرين ليرفعا آراءه فى الحرب الصليبية إلى البابا كلنت الخامس Clement V ، والمجلس الدينى المنعقد فى فيينا ؛ وكان من بين ما تضمنته أنه لاضعاف القوة الحربية للسلطان والمسلمين لابد من أن يكون الحصار البحرى ضد مصر وسورية والولايات الإسلامية أداة نافذة المفعول ؛ فتجهز عدد من الزوارق الكبيرة لأسر المسيحيين الخونة الذين ينقلون الممالك الجدد لتقوية الجيش المصرى ، والشرط الجوهرى لنجاح هذا الأسطول فى مهمته استقلاله عن حكومات البندقية وبيزا وجنوة وجميع القوات البحرية الإيطالية الأخرى ، لأن ولاهم لقضية المسيحية ضد الاسلام ، كان ينظر اليه الملك هنرى الثانى بعين الريبة ؛ وإذا ما روعيت هذه التقييدات ، فإن القوة البحرية المصرية تمضى وتنفذ مصادرها (١) .

وقد ظلت فكرة مهاجمة دولة الممالك بمصر سائدة فى أوروبا إلى أن تكفل بتنفيذها بطرس الأول Pierre I ملك قبرس سنة ١٣٦٥ م . ذلك الرجل الذى كان من حيث الأخلاق والثقافة أصلاح الملوك اللاتين المعاصرين لقيادة الحرب المقدسة (٢) .

ولم تخف على بطرس الأول الدعايات التى قامت بأوروبا فى القرن الرابع عشر الميلادى لإثارة حماس المسيحيين للإستيلاء على الاسكندرية تلك المدينة التى كانت حقيقة ملكة البحر الأبيض . وكان الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت أن الملك المسيحى الذى يضع يده على مينائها يستطيع بمساعدة أسطول صغير إعراض كل المواصلات بين مصر والعالم الخارجى ، وبمعاونة جيش مدرب

(١) Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages p.58

(٢) Atiya, Op. Cit p. 319

يجتاح كل الاستحكامات الداخلية ثم يتقدم إلى القاهرة حيث يتيسر له القضاء على عاصمة الامبراطورية التي استحوذت على الاراضى المقدسة .

وكان لهذه الاعتبارات أثرها في تطلع بطرس الأول إلى الاستيلاء على الاسكندرية ؛ فشرع في تجهيز حملة صليبية للإغارة عليها سنة ١٣٥٦ م ، وكتب اليه البابا إربان الخامس في ١٩ يولييه من هذه السنة كتابا بآرك فيه حملته .

وقد لبى أهالى جنوة والبندقية دعوة بطرس الأول ؛ فأمدوه بالرجال والسفن الحربية وأبحر أسطولهم إلى رودس حيث استقبل بمظاهر الفرح والسرور وانضم إليه بجانب النقلات التي حصل عليها من تلك الجزيرة أربع سفن جهزها Raymond Berenger رئيس طائفة الاسبتارية ، ومائة من الفرسان بقيادة أميرال هيئة الاسبتارية Ferlino d'airasca^(١) .

وقد حرص بطرس الأول على كتمان الجمة التي سيقصدها الأسطول لعدم إطمئنانه إلى إخلاص الجمهوريات الإيطالية له وخشيته من أن تدب سر حملته وتحذر سلطان مصر منها ؛ فأصدر الأوامر للقواد في ٤ أكتوبر سنة ١٣٦٥ م بأن يتبعوا في سيرهم ساحل آسيا الصغرى إلى جزيرة Crambusa . ولما رسا الأسطول بتلك الجزيرة أذيع غرض الحملة ، ثم أبحر إلى الإسكندرية فوصلها بعد خمسة أيام^(٢) (٩ أكتوبر سنة ١٣٦٥ م) .

ولم يواجه الصليبيون في هجومهم على الإسكندرية مقاومة جدية ، بل كان سبيل فتحها ممهدا لهم للأسباب الآتية :

أولا : غياب والى الإسكندرية صلاح الدين خليل بن عرام ببلاد الحجاز .
لأداء فريضة الحج وقيام الأمير جنفرا بالعمل مكانه . وقد عرف هذا الأمير بالضعف والتردد ، كما أنه لم يكن بالحاكم المحرب الذى يستطيع أن ينظم وسائل الدفاع عن المدينة .

(١) Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages pp. 341-343

(٢) Atiya, Op, Cit pp. 345-348

ثانياً : ضعف حامية الإسكندرية وعدم اهتمام السلطة المركزية في القاهرة بتقويتها .

ثالثاً : فيضان النيل وماتج عنه من غمر الدلتا بالمياه ؛ فأصبح من المتعذر إمداد حامية الإسكندرية بنجدة من القاهرة على وجه السرعة .

رابعاً : اضطراب الحالة الداخلية بمصر ؛ فلم يكن على رأس الحكومة سلطان قوى يستطيع أن يقود حملة لصد هجوم الصليبيين^(١) ، بل استأثر بالنفوذ الأمير يلبغا دون السلطان الملك الأشرف شعبان الذي كان لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره^(٢) .

لما رسا أسطول ملك قبرص وحلفائه من الفرنجة ، في مياه الإسكندرية ، خرج الأمير جنفرا حاكم المدينة ورجاله لصددهم ؛ فرماهم الصليبيون من المراكب بالسهام . وظل القتال دائراً بين الفريقين حتى هزم المسلمون واستشهد عدد كبير منهم ، ومضى الأمير جنفرا مع بعض أهالي الإسكندرية إلى دمنهور بعد أن نقل ما كان في بيت المال من الذهب والفضة ، كما قاد معه خمسين تاجراً من تجار الفرنجة . ومالبت أن اخترق ملك قبرص المدينة راكباً ، وأطلق الفرنجة يد السلب والنهب فيها وانضم إليهم النصاري الذين كانوا يقيمون بالشر ودلوهم على دور الأغنياء . فأخذوا ما فيها وظلوا أربعة أيام يعيشون في المدينة فساداً ثم خرجوا بالأسرى والغنائم إلى مراكبهم^(٣) .

وقد خربت الإسكندرية ونهبت في خلال فترة الاحتلال الصليبي بدرجة يصعب إدراكها ؛ فأحرقت الفنادق والمدارس والقصور والمساجد ، وكثير من الأحياء حتى أصبح منظر المدينة مروعا . وحمل الصليبيون معهم كثيراً من أهالي الإسكندرية الذين نجوا من تلك المعركة . وكان يبلغ عددهم خمسة آلاف ، وقعوا جميعاً أسرى في أيديهم . وهؤلاء كانوا لا يشملون فقط

(١) Atiya, The Crusade in The Later Middle Ages pp. 351—352

(٢) أبو المحاسن : النجدة الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٤ .

(٣) المقرئى : السوك ج ٣ ص ١١٧ — ١٤٧ ب .

الرجال المسلمين ، بل بينهم نساء ، ويهود ، ومسيحيون شرقيون^(١) .
وقد علق المقرئى^(٢) على ماحل بالإسكندرية من جراء حملة بطرس
الأول ملك قبرس بقوله : « فكانت هذه الواقعة من أشنع مامر بالإسكندرية
من الحوادث ، ومنها اختلت أحوالها واتضع أهلها وقلت أموالهم وزالت
نعمهم . »

وتتجلى لنا الإساءة التى ألحقها الفرنجة بالإسكندرية فيما يرويه ابن إياس^(٣)
عن الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبى حجلة التلسانى الذى قال فى رثائها بعد
أن دخلها الفرنجة المحرم سنة ٧٦٧ هـ (أكتوبر سنة ١٣٦٥ م)
ألا فى سبيل الله ماحل بالثغر على فرقة الإسلام من عصبة الكفر
أتاها من الإفرنج سبعون مركبا وضائق بها العربان فى البر والبحر
وصير منها أزرق البحر أسودا بنوا الأصفر الباغون بالبعض والسمر
أتوا نحوها هجما على حين غفلة وباعهم فى الحرب يقصر عن فتر
فكم من فقير عاش فيها من الغنى وكم من غنى مات فيها من الفقر
نثرت دموعى يوم فرط نظامهم فياليت شعرى من يبلغهم نثرى
ولما سقطت الإسكندرية فى يد الفرنجة عقد بطرس الأول ملك قبرس
اجتماعا ، دعا إليه جميع أعوانه للتشاور فى الموقف الجديد ، وكان من رأى
هذا الملك ألا يجلبوا الصليبيون عن المدينة ، بل يدافعون عما فتحوه ؛ أما
أغلبية أتباعه ، فكانوا يرون رأيا مخالفا لرأيه وقد نادى به Vicomte de Turenne
فقال إنه من المتعذر أن يظل الأسطول حيث هو ويقوم بمهمة الدفاع نظرا
لقلة عدد الحامية المسيحية ، بينما أبواب المدينة مفتحة للعدو الذى يستطيع
بوفرة عدده أن يوقع الصليبيين فى شرك^(٤) .

(١) Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages pp. 365—367.

(٢) السلوك ج ٣ ص ٤٧ ب .

(٣) تاريخ مصر ج ١ ص ٢١٥ .

(٤) Atiya, The Crusade in The Later Middle Ages p 364

ولما وصل إلى القاهرة نبأ قدوم الفرنجة بأسطولهم إلى الإسكندرية ، ظن الأمير يلبغا أن وراء أخبار هذه الحملة مؤامرة يراد بها القضاء على نفوذه ، فأسرع إلى داره ولم يجب طلب الأمير جنفرا حتى ثبت لديه من تدفق اللاجئين من الاسكندرية أن الفرنجة اقتحموا المدينة . ونودى في القاهرة بالتأهب لقتال الفرنجة ، فخرج الناس أفواجا ، وسار السلطان الأشرف شعبان برفقة الأتابك يلبغا والعساكر الإسلامية ، فلما وصلوا إلى الطرانة ، أنفذ السلطان جيشاً تحت قيادة الأمير قطلوبغا المنصوري والأمير كوندك والأمير خليل بن قوصون لإنجاد أهالي الاسكندرية . وبينما كانوا يجدون في سيرهم جاءت الأخبار بأن الصليبيين جلوا عن المدينة حين سمعوا بقدوم السلطان ؛ فسر الناس بذلك^(١) ، وأرسل السلطان مرسوماً إلى الأمراء الذين تقدموه في السير إلى الإسكندرية بأن يقيموا بتلك المدينة للإشراف على إصلاح ما تهدم منها وإقرار الطمأنينة في نفوس الأهالي^(٢) .

وقد حسب الأمير يلبغا غمضه على المسيحيين ، انتقاماً لما أحدثه الصليبيون بالإسكندرية ؛ ففرض عليهم مبالغ فادحة^(٣) ليفدى بما يجمعه منهم الأسرى^(٤) . كذلك وجه يلبغا عنايته إلى إنشاء أسطول حربي لغزو بلاد الفرنجة ،

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ . القسم الأول ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٢) ابن اياس : تاريخ مصر ج ١ ص ٢١٥ .

(٣) ذكر ابن كثير (البداية والنهاية ج ١٤ ص ٣١٥) أنه صدر مرسوم من مصر إلى نائب السلطنة بالشام ، بالقبض على النصارى ، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم لإصلاح ما خرب من الاسكندرية ولإعداد أسطول لغزو الفرنجة ؛ ثم أبدى عدم موافقته على تلك السياسة بقوله : « ولم تكن هذه الحركة شرعية ، ولا يجوز اعتمادها شرعاً ، وقد طلبت يوم السبت السادس عشر من صفر إلى الميدان الأخضر للاجتماع بنائب السلطنة ... فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتياده في النصارى ، فقال إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير السكبير بذلك ، فقلت له : هذا مما لا يسوغ شرعاً ولا يجوز لأحد أن يفتي بهذا ، ومتى كانوا ياقين على الذمة ، يؤدون الجزية ملتزمين بالذلة والصغار وأحكام الملة قائمة لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد - الفرد - فوق ما يبذلونه من الجزية » .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤٧ ب .

فبعث في طلب البحارة وعمال السفن ، كما كتب إلى نواب الشام بإخراج جميع النجارين لقطع الأخشاب ونشرها من جبل شغلان بالقرب من أنطاكية ، وأن يعملوا على نقلها إلى مصر (١) .

على أن الفرنجة (٢) ما لبثوا أن بعثوا برسولهم إلى الإسكندرية . وقد طلب هؤلاء الرسل عند وصولهم إلى مرفأ المدينة رهائن حتى ينزلوا من مراكبهم ويؤدوا رسالتهم ، فأرسل اليهم رجال الدولة بعض المسجونين بخزانة شمائل (٣) بعد أن ألبسوه ثيابا فاخرة ؛ ولكي يدخلوا هذه الحيلة على الفرنجة ، شيعوا خلفهم نساء وأطفالا يصيحون ؛ ويكون كأنهم أهلوه . فنسلم الفرنجة الرهائن ، ونزلت رسولهم من المراكب ، وقدموا إلى قلعة الجليل ، ثم بعث بهم إلى الجزيرة حيث كان يقيم السلطان ؛ غير أنهم لم يحظوا بلقائه ، وجلس الأمير يلبغا لاستقبالهم يحيط به الأمراء والحجاب ؛ فلما دخل عليه الرسل ، هالطهم مجلسه وظنوا أنه السلطان ، فقبلوا الأرض بين يديه ، ثم سلموا إليه كتاب ملكهم وقدموا هديته ؛ فوزعها الأمير يلبغا على من حوله من الأمراء ، واختار لنفسه طستا وإبريقا من ذهب وصندوقا لم يعرف مافيه .

وقد تضمنت رسالتهم أنهم في طاعة السلطان وأنهم مساعده على ملك قبرس حتى يرد الأسرى الذين أخذوا من الإسكندرية ، كما سألوا تجديد الصلح وأن يمكن تجارهم من القدوم إلى هذه المدينة ، وأن يفتح كنيسة القيامة بالقدس — وكانت قد أغلقت بعد أن هاجم ملك قبرس الإسكندرية على أن يلبغا سرعان ما رفض هذه الطلبات التي تقدم بها رسل الفرنجة وقال لهم إنه لا بد من غزو قبرس وتخريبها ، ثم بعث بهم إلى القاهرة حيث نزلوا

(١) أبو المحاسن : التجوم القاهرة ج ٥ القسم الأول ص ١٩٥ .

(٢) كان البنادقة قد أخذوا هؤلاء الرسل إلى سلطان مصر .

Atiya, The crusade in the Later Middle Ages p. 370.

(٣) كانت هذه الخزانة بجوار باب زويلة على يسار الداخل منه وصميت بذلك نسبة إلى الأمير غلم الدين شمائل والى القاهرة في أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب . وكان يسكن بها مرتكبو الحرائم الكبيرة (المزيلى . خطط ج ٢ ص ١٨٨) .

بدار الضيافة . فلما عاد السلطان من الجيزة حظوا بمقابلته وأدوا له رسالتهم ، فلم يجيبهم إلى ما طلبوه ، وأعيدوا إلى بلادهم يحرون أذبال الخيبة^(١) .

كذلك قدم إلى مصر ، رسل ملك جنوة ومعهم ستون أسيرا ، من أهل الإسكندرية ، وهدية للسلطان وأخرى للأمير يلبغا . وقد ذكر الرسل أن هؤلاء الأسرى كانوا من نصيب ملك جنوة ، وأن ملكهم لم يعلم بواقعة الإسكندرية إلا بعد وقوعها ، وأنه سيظل وفيا لعهد الصلح ، ومتى تمكن من ملك قبرس ، قبض عليه وقتله^(٢) . ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى أعاد ملك جنوة الكرة ، فبعث برسله إلى السلطان لتسأله أن يمكن تجارهم من القدوم إلى الإسكندرية ؛ فأجاب طلبهم^(٣) .

ولما كان سلطان مصر قد رأى ألا يتفاهم مع أى شعب مسيحي مادام في حالة حرب مع قبرس ، وأن الصلح يجب أولا أن يعقد مع ملك هذه الجزيرة ؛ لذلك عول رسل البنادقة بعد تركهم الإسكندرية على الإبحار إلى قبرس ليقتنعوا ملكها بطرس الأول بالدخول في مفاوضات مع السلطان ؛ ومن ثم بدأ تبادل السفراء بين مصر وقبرس للوصول إلى حل ودى ولتتأى الأحقاد القديمة . فبعث بطرس الأول رسله مزودين بالهدايا . ولما مثلوا بين يدي السلطان طلب عنهم كشرط أساسى لتحقيق غرضهم أن يعيدوا إليه الأسرى الذين أخذهم ملك قبرس من الإسكندرية . فلما وقف ذلك الملك على رغبة سلطان مصر ، سارع إلى تليتها ؛ فأمر بإحضار من بقى لديه من الأسرى ، ثم أرسلهم إلى مصر على زورق خاص أعده لهم^(٤) .

وقد استمرت المفاوضات بين مصر وقبرس أكثر من أربع سنوات ؛ وكان يعترضها من حين لآخر غارات القبرسيين على سواحل سورية ومصر .

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١٥١ — ٥١ ب .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٥٢ ب .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١٥٨ .

(٤) Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages pp. 371—372 (٤)

ولما رفض السلطان ما عرض عليه من شروط لحسم النزاع بين مصر وقبرس واصل بطرس الأول ملك هذه الجزيرة إغاراته على ساحل بلاد الشام^(١)؛ فجهز في أوائل سنة ٧٦٨ هـ (نوفمبر سنة ١٣٦٦ م) أسطولا لهذا الغرض؛ لكن عاصفة شديدة قذفت ببعض سفنه، فلم يصل منه إلى طرابلس سوى بخمس عشرة سفينة، أطلق رجالها يد النهب في المدينة، ثم عادوا إلى قبرس^(٢). وعلى الرغم من هذه الغارة التي قام بها ملك قبرس على طرابلس، فإن محاولة توطيد السلام بين مصر وقبرس ما لبثت أن تجددت؛ فقدمت من أجل ذلك سفارة إلى القاهرة في يولية سنة ١٣٦٧ م برئاسة Jacques de Norès؛ لكنها أخفقت في مهمتها؛ ومن ثم أبحر إلى طرابلس في سبتمبر من هذه السنة أسطول بلغ عدد قطعه مائة وخمسين بما في ذلك الزوارق والنقلات. وكانت تضم هذه الحملة البحرية عناصر مختلفة من أهالي قبرس وجنوة والبندقية وكريت ورودس ومن الفرنسيين والهنغارين^(٣)، كما رافقها ملك قبرس، وصاحب جزيرة رودس، ورئيس الفرسان الإيستارية^(٤). ولما رسا أسطول الفرنجة في مياه طرابلس، كان نائبها إذ ذاك غائبا، فاخذت حاميتها تقاتلهم، لكنها عجزت أول الأمر عن صددهم، فاقتمحوا المدينة وأطلقوا يدهم في أسواقها^(٥). على أن حامية طرابلس ما لبثت أن جمعت شتاتها، واشتدت في قتال الفرنجة حتى اضطرتهم إلى الجلاء بأسطولهم عن ساحل تلك المدينة^(٦).

(١) Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages p. 372

(٢) النويري: الإمام بما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الاسكندرية ج ٣ ورقة ٢٧

Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages p. 372

(٣) Atiya, Op. Cit p. 373

النويري: الإمام بما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الاسكندرية ج ٣ ورقة ٢٧

٣٠ ، ٢٨

(٤) المقرئى: السلوك ج ٣ ص ٦٠ ب

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ٢١٢—٢١٣ (طبعة كاليفورنيا)

(٦) المقرئى: السلوك ج ٣ ص ٦٠ ب

وقد روى محمد بن قاسم النويرى المالكي الإسكندري في كتابه : « الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الإسكندرية »^(١) ، أن صاحب قبرس أنفذ قبل خروجه منهزماً من طرابلس قارباً من مراكيه ، به رسالة معلقة فوق رمح - إلى الأمير جرجى^(٢) - الذى كان إذ ذاك معسكراً مع الجيوش الإسلامية على ساحل تلك المدينة . وقد أتى بعض المسلمين بهذه الرسالة من القارب وسلبوها للأمير جرجى ، وفيما يلي نصها :

« أما بعد ، فإن مراسيمنا الشريفة برزت بعمد إحراق طرابلس ، ولو اقتضت مراسيمنا الشريفة ذلك لفعلناه ، ولكن البلاد بلادنا والقدس قدسنا فإن مكتتمونا من بلادنا فنحن وإياكم على العهد والصلح ، وإن لم تمكتمونا فبيننا وبينكم السيف ومع ذلك يعطى الله النصر لمن يشاء من عباده . »

وقد بعث الأمير جرجى إلى صاحب قبرس رداً على رسالته ، جاء فيه :

« أما قولكم برزت مراسيمنا الشريفة ، فهذا الكلام لا يصدر إلا عن سلطان ذى رأى ، وأما أنت فإص من لصوص النصارى ولست بسلطان ؛ فلو كنت سلطاناً لأقت بالاسكندرية وناضلت عنها حين ظفرت بها . بل هربت بسرعة والهروب من شأن اللصوص ؛ وأما قولك البلاد بلادنا فالأمر غير ذلك لأن البلاد بلاد الله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ؛ وأما قولك القدس قدسنا ، فحاشا لله أن يكون القدس لك لأنك رجس نجس ، والقدس طاهر مطهر ، وما ينبغى للرجس النجس الكافر المشرك أن يكون مجاوراً للطاهر المطهر ، وأما قولك السيف بيننا وبينكم ، فتفقد عسكرك كم خرج منه من قتل وجرح ورهين ، ولم يكن بطرابلس مقاتل لك غيرى ، وأنا أقل بمالك السلطان ، فانزل وقاتلنى بما معك ومعى . »

(١) ج ٣ ورقة ٤٣

(٢) هو الأمير جرجى الإدريسي الذى كان يلى حذب في عهد السلطان الأشرف شعبان ثم خلعه عن هذه الولاية سنة ٧٦٨ هـ لمجزه عن حسم النزاع بينها وبين التركان ، وولى عوضاً عنه الأمير منكلى بقالا الشمشى ؛ وأسند السلطان بابة طرابلس إلى الأمير جرجى بعد عزل منجك اليوسفى عنها .

(أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ١٩٩ طبعة كاليفورنيا) .

ولم تثبط تلك الهزيمة التي حلت بملك قبرس عند طرابلس عزيمته عن مواصلة الحرب ضد دولة المماليك . فلما اجتمعت له مراكبه ، أبحر بها إلى Tortosa حيث أطلق أتباعه من الفرنجة يدهم في سلبها وأحرقوا قطع الأخشاب المعدة لبناء أسطول السلطان ، ثم عرجوا على اللاذقية ؛ لكن الرياح الشديدة وقوة تحصينات مرفأ المدينة حالاً دون نزولهم بها^(١) ، كما أنه بسبب الرياح العاصف الذي هب في ذلك الوقت ، غرقت ثلاث من سفنهم ، واستولى المسلمون على أربع مراكب دفعها الرياح إلى طرابلس ؛ وكان بها كثير من المعدات الحربية والمؤن التي غنمها الفرنجة من طرابلس^(٢) .

ولما حلت الهزيمة بصاحب قبرس باللاذقية ، عول على الاستيلاء على مدينة آياس — وكانت إذ ذاك تدين بالطاعة لسلطان المماليك — فأبحر إليها بأسطوله سنة ٧٦٩هـ (١٣٦٧م) . ولما وصل إلى المسلمين من أهلها نبأ قدومه اجتمعوا بنصارى الأرمن المقيمين معهم بهذه المدينة ، وشاوروهم فيما يعملون لتلافي خطره ؛ فأشاروا عليهم بأن يتحالفوا معهم على محاربه ؛ وأن يبعثوا إلى المراكز القريبة منهم لترسل إليهم النجندات ، ثم طلب المسلمون من الأرمن أن يتقدموهم في مقابلة صاحب قبرس وأتباعه ويحتالوا عليه بالمكاييد والخيال حتى تهمل إليهم النجندات^(٣) . فلما رسا أسطول صاحب قبرس بميناء آياس ، تقدم نائب ملك أرمينية بمن معه من النصارى الأرمن وركبوا القوارب حتى وصلوا إليه ، ثم قالوا له : « أيها الملك المظفر ، نسألك حقن دماثنا لتستريح من غضب السيد المسيح ، واسمع كلامنا ففيه لنا ولك النجاح والرشد والصلاح . فقال لهم : « وما تريدون وبأى شيء تقولون ؟ ، قالوا :

(١) النويري : الإلام ، عا حرت به الأحكام المقضية في وقعة الاسكندرية ج ٣ ورقة ٥٦

Atiya. The Crusade in the Later Middle Ages p. 373

(٢) النويري : الإلام عا حرت به الأحكام المقضية ج ٣ ورقة ٥٦ ، ٥٧

(٣) المقرزي : السلوك ج ٣ ص ٦٠ ب .

(٤) النويري : الإلام عا حرت به الأحكام المقضية ج ٣ ورقة ٥٩ ، ٦٠

« اهبط أيها الملك من المراكب فأنت وحق المسيح الظافر والغالب ، وتسلم البلاد ، واطرد عنا هؤلاء المسلمين الذين تركونا ببلدنا دليين بما نسمع لهم من التسبيح على منابر مساجدهم .. » فقال الملك : « إني أعذر كما عما يصعله المسلمون بكم ، لكن أريد أن أسمع كلام المسلمين الذين عندكم لئلا يكون كلامكم حيلة ومكيدة منكم . » فقالوا : « وكيف نواجهك بالحيل ؟ اعلم ييقين أن المسلمين منك الآن خائفون ، فقال : « احضروا لي أميرهم لأسمع كلامه وأعلم خطابه ونظامه ، فبعثت الأرمن في طلب أمير المسلمين . فركب قارباً وأتى إليه في زى الفقراء ثم قبل الأرض بين يدي الملك وأظهر المودة والمحبة ، وقال : « إن والدك السلطان ريوك^(١) — نبيح الله روحه — كان في أيام دولته يهادى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر ، وهو الآخر يهاديه لما كان بينهما من المودة والصحبة . وكان من هدية الملك الناصر مراكب القمح . فلما سمع ملك قبرس بمراكب القمح ابتسم ، وقال : « ما مراكب القمح ؟ قال الأمير : هي التي أرسلها (السلطان) لما وقع الغلاء بجزيرة قبرس ، إعانة للملك ولأهل جزيرته^(٢) . فقال الملك : صدقت ، أخبرني بذلك والدي ، أنها أتت له

(١) كان ملك قبرس في ذلك الحين Henri II Lusignan (١٢٨٥ — ١٣٢٤ م) .

(٢) كان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قد أصدر أوامره عندما وقع الغلاء بالعام أن يرسل إليها بعض المراكب محملة بالقمح لتباع بها ، غير أن ريحا هبت ، دفعتها إلى قبرس ، فغشى ربانها ومن معه من البحارة أن يقوموا أسرى في يد نصارى هذه الجزيرة ويختطف مراكبهم . فلما استدعى الربان لمقابلة الملك قال : « أتيت من مصر من عند الناصر إلى مولانا الملك ، وأنه يسام عليك — وقد بانته أن يتلكك الغلاء — فأرسل لك القمح ترفق به إلى أن يعن الله تعالى على عباده بالرخاء » . فسر ملك قبرس بتلك الهدية التي كان في أشد الاحتياج إليها ، وجهز للسلطان هدية عوضاً عن القمح . ولما علم الناصر أن مراكب القمح عادت إلى ساحل دمياط ، وفيها هدية صاحب قبرس ، دهمش لذلك ، وبعث في طلب الربان . فلما مثل بين يديه حدث السلطان عما وقع له فاعجب السلطان ببجيلة التي احتال بها حتى ألقط نفسه وبخارته من الأسر ، ونجى مراكبه من المصادرة (التوبيخ : الامام فيما جرت به الأحكام القضائية ، ج ٣ ورقة ٦١) .

موسوقة بالقمح من عنده قبل أن أخاق^(١) . ثم شاور ملك قبرس أمير المسلمين فيما يفعله بآياس . فقال الأمير : « إن هذا البلد كان فيما مضى لأبيك وجدك وصار نصفه الآن لصاحب مصر ، والنصف الآخر لملك أرمينية . وانت أولى به منهما لأنك وارث آبائك وأجدادك » . فطمع ملك قبرس في آياس وأنزل جنده ومعداته بها ؛ غير أن قواته ما لبثت أن أطلقت يدها في نهبا ؛ فأقبلت جيوش المسلمين ومن تبعها من العربان والتركمان في الليل واندفعت على صاحب قبرس وجنوده كالسيل ؛ فلم ينبج من الفرنجة إلا من ولى هارباً إلى المراكب ؛ وبذلك فشلت حملة ملك قبرس في الاستيلاء على آياس وعاد إلى جزيرته منهزماً مع الذين نجوا من جنده^(٢) .

وقد ظلت العلاقات متوترة بين مصر وقبرس إلى أن ذهب بطرس الأول Pierre ضحية المؤامرة التي دبرها نبلاؤه . لكن وفاته لم يكن لها أى أثر في إحداث أى تغيير على سياسة القبرسيين إزاء السلطان . ففي خلال السنة الأولى من حكم خلفه بطرس الثانى Pierre II (١٣٦٩ - ١٣٨٢ م) استمرت الغارات الخربة في طريقها . فأبحرت في يونية سنة ١٣٦٩ م قافلة من أربع سفن إلى ساحل سورية وأوقعت التخريب بموانئ صيدا وتورتوزا واللاذقية ؛ وبعد أن مونت هذه السفن من أرمينية في الشهر التالى . أبحرت إلى الإسكندرية . ولما رست في مياه تلك المدينة ، بعث الفرنجة إلى حاكمها يسألونه فيما إذا كان السلطان يود الاتفاق أم لا . ولما أجيب عنهم بالنفى ، اتجهوا بسفنهم إلى رشيد ، حيث حاولوا النزول إلى النهر ، لكن الرياح الشديدة حالت دون تحقيق رغبتهم . فأبحروا منها إلى صيدا وبيروت حيث اشتبكوا في معركة عند المدينة الأولى ، ثم عادوا إلى قبرس^(٣) .

(١) الوبرى : الإلام بما جرت به الأحكام المقتضية ج ٣ ورقة ٦٠ - ٦١ .

(٢) الوبرى : الإلام بما جرت به الأحكام المقتضية ج ٣ ورقة ٦١ - ٦٢ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٦٧ ، ٦٨ .

وقد رأى سلطان مصر بعد أن اقتقرت دولته وقلت إيراداتها من جراء تعطيل تجارتها مع الصليبيين ، وما حل بها من الوباء والمجاعة أن يخفض من كبريائه . فقبل الدخول في مفاوضات الصلح مع قبرس^(١) ، كما رحب برسل الفرنجة وخلع عليهم حين قدموا إلى القاهرة سنة ٧٧٢ هـ (١٣٧٠ م) لطلب الصلح ، وأوفد معهم بعض سفرائه ليحلفوا ملكهم على الوفاء بشروط الصلح . ومالبت الفرنجة بعد ذلك أن يعثوا إلى السلطان بالأسرى الذين كانوا ببلادهم^(٢) . وتم عقد الصلح بين مصر وقبرس (أكتوبر سنة ١٣٧٠ م) ، وأعيد فتح كنيسة القيامة للحجاج المسيحيين ، كما استعاد المسيحيون في مصر والشام حريتهم^(٣) .

(١) Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages p. 375.

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١٧١ ، ١٧٢ ب .

(٣) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 99.

Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages. p. 376.

الفصل السادس

العلاقات السياسية بين مصر والدول الأوربية

(١) الدولة البيزنطية

بدأت دولة المماليك في مصر تعنى بإنماء العلاقات بينها وبين الدولة البيزنطية في عهد السلطان الملك الظاهر بيبرس الذي تحالف مع ميخائيل باليولوجس — امبراطور هذه الدولة — ليستعين به على الصليبيين ، وليفسح المجال للتجارة المصرية حتى يصير التجار آمنين على أنفسهم وأموالهم ، هذا إلى وقوفه في وجه اللاتين الذين كانوا يوالون إمداداتهم إلى إخوانهم بالشام (١) .

ولما ولي قلاوون سلطنة مصر ، حرص على إحكام أواصر المسالمة مع الملوك المعاصرين له ؛ فأرسل إل منكوتر سلطان مغول القفجاق يخبره بارتقائه العرش ، ويحدد معه علاقات المودة ، ويحرضه على قتال أعدائه ؛ كما بعث إلى امبراطور القسطنطينية ميخائيل الثامن رسالة مع بطرك الأقباط خنثا السابع والأمير ناصر الدين بن الحسن الجزرى ، يعلمه فيها بتوليته السلطنة في مصر ، ويمد إليه يد الصداقة والحلف ؛ فأرسل إليه الأمبراطور كتاباً ، يطلب فيه مودته ، ويظهر استعداداه لتسهيل سبل السفر على رسله التي تمر ببلاده ويسأله أن يبعث إليه يميناً يتمسك بها ؛ فأرسل إليه قلاوون نسخة يمينه ، كما سير إليه رسلاً لتخليفه (٢) .

ولما ولي Andronicus II عرش الدولة البيزنطية ، سار على سياسة أبيه ميخائيل الثامن في التماس ود سلطان مصر ؛ فأرسل إلى الملك المنصور قلاوون هدية تشتمل على حمل من الحرير الأطلس وأربعة أحمال من البسط ؛ فخازت

(١) كتاب الظاهر بيبرس وحملة مصر في عصره ص ١١٧ — ١١٨ .

(٢) بيبرس الدؤادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ص ١٢٣ ب — ١٢٤

قبوله وغير الرسل بعطاياه (١) .

كذلك أوفد الإمبراطور Andronicus II سفارة برفقة رسل ملك الكرج David II إلى الناصر محمد سنة ١٣٠٥ م ومعهم هدية ورسالة تتضمن سؤال السلطان أن يعيد كنيسة المصلبة ببית المقدس إلى أصحابها (٢) .

على أنه يظهر أن الناصر محمد لم يستجب إلى ما طلبه هؤلاء السفراء بدليل وصول رسل الإمبراطور البيزنطي وملك الكرج بعد ذلك بخمس سنين ، ترجو السلطان مرة ثانية أن يعيد تلك الكنيسة - وكان الشيخ خضر قد انتزعها في عهد الظاهر بيبرس وحوّلها إلى مسجد -- كما سأل الإمبراطور سلطان مصر أن يسير أهل الذمة بالديار المصرية طبقاً لما جرت به عادتهم وأن يأذن بفتح كنائسهم ، فسمح الناصر محمد بإعادة كنيسة المصلبة إلى المسيحيين بعد أن أفقى العلماء بعدم جواز اغتصابها ، كما وافق أيضاً على ما طلبه منه الإمبراطور فيما يتعلق بمعاملة أهل الذمة ، وأمر بفتح كنيسة للسلوكية ، وأخرى لليعاقة ، وكنيس لليهود بمصر (٣) .

ولم يمض عامان على وصول هذه السفارة حتى قدمت رسل إمبراطور الدولة البيزنطية بهدية للسلطان الناصر محملة على اثنين وأربعين جملاً ، ومن بين محتوياتها أقمشة من الجوخ والأطلس ، وغير ذلك من طرائف تلك البلاد (٤) .

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٢٨٥ ب .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٧٨ .

هذا ، وقد ذكر المقرئ (السلوك ج ٢ القسم الأول ص ١٧) أن الرسالة التي حملها سفراء الإمبراطور البيزنطي وملك الكرج كان مضمونها أن يأذن السلطان بفتح كنيسة المصلبة ، وليس لمعادتها إلى أصحابها ، وأن الكرج سيكونون في طاعته وهو له متى احتاج إليهم .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٦ .

ابن أبي الفضائل : النهج السديد ج ٣ ص ١٩٥ .

(٤) ابن أبي الفضائل : النهج السديد ج ٣ ص ٢٢٩ .

وكان رسل الإمبراطور Andronicus II يفقدون مراتب حين لاخر إلى القاهرة مزودين بهداياهم ومؤيدين حرصه على توثيق عرا الصداقة بين البلدين ، كما ترددت بعثاته على مصر في سنتي ١٣١٧ - ١٣٢٦ م للتفاوض في عقد تحالف مع الناصر محمد ضد التركان الذين كانت قوتهم آخذة في الازدياد في آسيا الصغرى مما يهدد الإمبراطورية الرومانية الشرقية^(١) .

وقد بلغ من حرص الإمبراطور Andronicus II على مسالمة مصر أنه لم يرفض فقط معاونة الحرب الصليبية^(٢) التي وضع خطتها Marino Sanudo بل كان أيضاً لا يوافق على قطع علاقاته الودية مع سلطان مصر^(٣) .

ولما تقلد Andronicus III عرش الدولة البيزنطية (١٣٢٨ - ١٣٤١ م) حذا حذو سلفه في المحافظة على العلاقات الودية بين دولته ومصر ؛ فلم يسد من جانبه ما يشعر بانحرافه عنها ، كما أنه من ناحية أخرى شغل بالقضاء على الفتن الداخلية ومحاربة العثمانيين الذين كانوا إذ ذاك يعملون على توسيع دولتهم في آسيا الصغرى على حساب البيزنطيين حتى تمكنوا سنة ١٣٣٨ م من الإستيلاء على Nicomedia ، والأراضي البيزنطية الواقعة في الركن الشمالي الغربي من آسيا الصغرى^(٤) .

كذلك ظل الصفاء سائداً بين مصر والدولة البيزنطية في عهد John V (١٣٤١ - ١٣٩١ م) . فقدم رسوله بصحبة بطرك المملكانية إلى القاهرة سنة ٧٧٠ هـ^(٥) (١٣٦٩ م) ؛ ومع أن المراجع لم تشر إلى سبب قدوم هذا

(١) Stanley Lane- Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 310.

(٢) كان مارينو سانودو من بين الذين تقدموا بعشاريح للحرب الصليبية بعد سقوط عكا . وقد رأى أنه لضمان نجاحها لا بد من إضعاف مصر اقتصادياً ؛ وإذا ما تم ذلك أصبح من السهل الإغارة على أراضي الممالك .

Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages p. 120.

Gibbons, The Foundation of the Ottoman Empire p. 49. (٣)

Gibbons, The Foundation of the Ottoman Empire pp 66-69, 312 (٤)

(٥) المقريري ، السلوك ج ٣ ص ١٦٦ .

البعث ، فإننا نرى أنه يحتمل أن يكون الإمبراطور البيزنطي قد أنفذ هذه السفارة لتلتمس من سلطان مصر الأشرف شعبان أن يعيد للنصارى حريتهم - وكان الأمير يلبغا الناصري قد أمر بتتبعهم والقبض على جميع من بديار مصر وبلاد الشام من الفرنجة انتقاماً لما ارتكبه الصليبيون في غارتهم على الإسكندرية^(١) سنة ١٣٦٥ م .

وقد عني John V إمبراطور الدولة البيزنطية بتنمية العلاقات السياسية والتجارية مع مصر ، فقدمت رسله سنة ٧٨٧ هـ (١٣٨٦ م) مزودة بالهدايا ، وطلبت من السلطان أن يكون للبيزنطيين قنصل بالإسكندرية أسوة بالقنصل بالبنادقة فأجيب طلبهم^(٢) .

(ب) قشتالة وأرجونة

كذلك تبودلت الرسل والهدايا بين مصر وبعض الإمارات المسيحية بإسبانيا ، فأرسل ألفونس صاحب قشتالة Alfonso of castile سنة ٦٨١ هـ (١٢٨١ م) رسولين إلى السلطان الملك المنصور قلاوون ومعهما هدية من الخيل والبغال : فأحسن السلطان ضيافتهما وأجزل لهما في العطايا^(٣) . ولم تقتصر العلاقة بين قلاوون وألفونس صاحب قشتالة على تبادل الرسل ، بل أبرمت بينهما معاهدة دفاعية سنة ١٢٨١ م^(٤) .

وكانت إمارة أرجونة أيضاً من بين إمارات إسبانيا المسيحية التي ارتبطت بعلاقات الود مع مصر ؛ فحقد ملكها وملك صقلية اللذان كانا أخوين معاهدة سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) تعهدا فيها بمساعدة السلطان قلاوون ضد أي حرب صليبية ، وضد اللاتين بسورية إذا نقضوا الهدنة التي أبرموها مع هذا السلطان^(٥) .

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤٧ ب .

(٢) ابن حجر العسقلاني : أنباء الغر بأبناء العمر ج ١ ورقة ٢٢٣ .

(٣) بيري الدوا دار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٢٩ .

(٤) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt P. 38.

(٥) Stevenson, The Crusaders in the East p. 351.

وكان من أثر علو مكانة دولة المماليك في عصر الناصر محمد بن قلاوون بين عمالك الشرق الإسلامي ، وسيادتها على الأماكن المقدسة في فلسطين التي يحج إليها المسيحيون أن حرص Jaime II ملك أرجونة على توطيد العلاقات السياسية والاقتصادية بينه وبين سلطنة المماليك ابتغاء رعاية شئون المسيحيين في الشرق ، وتنمية موارد بلاده بفتح أسواق تجارية لها في مصر ؛ وقد تبودلت بينه وبين السلطان الناصر خطابات في ذلك الصدد .

وكانت أولى السفارات بين مصر وأرجونة سنة ١٣٠٠ م حيث بعث Jaime II رسالة إلى الناصر محمد ، يسأله فيها أن يكون التجار المترددين بين دولتيهما آمنين على أنفسهم ، وأن يسهل لحجاج أرجونة زيارة بيت المقدس . ولما وصل هذا الكتاب إلى الناصر محمد ، أنفذ إلى ملك أرجونة ردأ في ١٣ شوال سنة ٦٩٩ هـ (٦ أبريل سنة ١٣٠٠ م) أشار فيه إلى غارات التتار على أراضي المماليك في آسيا وما أحرزه من نصر عليهم ، كما تضمن أيضا موافقته على تردد تجارهم إلى بلاده وتزجييه بزيارة رعاياه لبيت المقدس ، وفيما يلي بعض ما ورد في هذا الكتاب ^(١) الذي يعتبر بداية حسنة لتبادل العلاقات السياسية بين مصر وأرجونة :

« وعلمنا من مضمون كتابه ومشافهته ما قصده في معنى التجار والمترددين من بلاده بالبضائع وما سأل من أن يكونوا يترددون من بلاده إلى بلادنا ، ومن بلادنا إلى بلاده آمنين مطمأنين وأجبناه إلى ما قصده في ذلك . »

« . . . في معنى من يختار الحضور من بلاده لزيارة بيت المقدس الشريف وما سأل من تمكينهم من ذلك ، وأن يكونوا آمنين مطمئنين ، فقد علمنا بذلك ، وأجبناه إلى قصده من هذا الأمر . »

« وإنا قد أجبناه سؤاله إلى ما طلبه في الصحة والمودة ، فنحيط عليه بذلك ونواصل بكتبه وأخباره . . . »

وكان من أثر ما نزل بطوائف المسيحيين من عنفت وإرهاق ، وما ترتب عليه ذلك من إغلاق كنائسهم أن أرسل Jaime II سفارته الثانية ، إلى الناصر محمد سنة ١٣٠٣م مزودة بهدايا جلييلة القدر له ولأمرائه ، ورسالة تتضمن إعادة فتح الكنائس المسيحية ، وإرجاع تجار برشلونة الذين قبض عليهم بالإسكندرية (١) ، كما طلب منه أيضا إطلاق سراح أسير مسيحي كان ممن أسر بنجيزة أرواد ، فأجاب السلطان منتهمة وبعث إليه برقة مع الأمير فخر الدين عثمان (٢) تضمن سياسته إزاء المسيحيين ، وإعادة فتح بعض كنائسهم ؛ وفيما يلي نص هذا الكتاب (٣) :

فأما ما ذكره بسبب الكنائس بالديار المصرية ، وأنه بلغه أنه أغلقت أبوابها ، ومنع التصاري من الصلاة فيها . وما ذكره في هذا الفصل وما يتعلق

(١) Atiya, Egypt and Aragon. p. 20.

(٢) ذكر المقرئزي (السلوك ج ١ القمم الثالث ص ٩٥٠-٩٥١) أنه حينما كان وفد ملك أرجونة عائدا إلى الإسكندرية ليبيع منها ، رأى السلطان أن يأخذ فديرة الأسير الذي أطلقه ، وأرسل يسترجعه ، فأعيد إليه . ولما ركب الرسل وابتعدوا عن الإسكندرية أنزلوا الأمير فخر الدين عثمان في قارب وأمروه بالعودة بعد أن أخذوا أمواله .

كذلك روى النويري (نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٢٠) رواية لا تختلف كثيرا عما أورده المقرئزي عن سفارة الأمير فخر الدين ، فقال : « لما عزم الأمير فخر الدين ورسول ملك أرجونة على الإقلاع من الإسكندرية تفاوضا مفاوضة أدت إلى أن طرح هذا الرسول الأمير فخر الدين إلى القارب الذي أبحر من الميناء لتوديعهم ولم يعطه شيئا مما كان معه ، وأقطع من فوره ، وعاد فخر الدين إلى السلطان سنة ٧٠٤ هـ . »

على أن خطاب السفارة الأرجونية الثالثة يزيل كل شك حول وصول فخر الدين إلى برشلونة في السفارة الثانية ؛ فقد افتتح بإشارة إلى ظهور الأمير فخر الدين في هذه المدينة . (Atiya, Egypt and Aragon. p. 26.)

وبناء على ذلك فإن ما أورده كل من النويري والمقرئزي عن إقلاع سفير أرجونة من الإسكندرية سنة ٧٠٣ هـ دون أن يستصحب معه الأمير فخر الدين إلى برشلونة غير صحيح وبما يؤيد هذا القول ما ذكره ميور ، فقال في كتابه (The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 60) : « لأن الأسبان رفضوا طلب السلطان الخاس بفدية الأسير وأخذوا معهم الرسل الذين جاءوا من القاهرة . »

(٣) Atiya, Egypt and Aragon pp. 21-22.

به ؛ وكذلك حديث الأسرى الذى قصد قبول شفاعته فى الإفراج عنهم وإطلاقهم ، فقد أحطنا علما بجميع ما ذكره فى هذه الأمور . . . وسيرنا الآن رسولنا الأمير نجر الدين عثمان الناصرى . فيشأفه الإعتداد على ذلك . . . ولأجل منزلته ومودته الأكيدة عندنا ، أجبنا سؤاله فى أمر الكنائس ورسمنا بفتح كنيسةين بمدينة القاهرة المحروسة ، مع أن أمر الكنائس الرجوع فيه إلى الشرع الشريف ؛ ومقتضى الشرع الشريف ألا يبقى منها شيء مفتوحا إلا ما هو من العهد العمرى ؛ وكلما تجدد بعد العهد العمرى يقتضى شرعنا وديننا ألا يفتح ؛ واتفق أنه تجددت بعد العهد العمرى كنائس كثيرة . والملك يعلم أنكم كما يجب عليكم الوقوف عند شرعكم وأحكام دينكم ، كذلك نحن أيضا يجب علينا أن نقف عند شرعنا وأحكام ديننا . . . وقد سيرنا له الهدية . . .

ولما رأى Jaime II أن سفارته الثانية قد نجحت فى تحقيق أغراضه ، عول على إنفاذ سفارة ثالثة ، فزود سفير بعثته السابقة Dusay بكتاب للسلطان الناصر (سبتمبر سنة ١٣٠٥ م) ، تضمن التماسه حماية المسيحيين المقيمين بأراضى دولته وتسليم بعض الأسرى المسيحيين ، والعناية بأمر الحجاج الذين يحملون رسالة ملكية . والسماح لهم بحق حرية دخول القبر المقدس ، وأن يمنح رعاياه جوازا يبيع لهم التجول بأراضى السلطان دون أن يدفعوا رسوما (١) . ولما وصل هذا الخطاب إلى الناصر ، أولى التماسات ملك أرجوة عنايته . وقد ظهر ذلك بوضوح فى الرسالة التى أنفذها إليه فى شعبان سنة ٧٠٥ هـ (فبراير سنة ١٣٠٦ م) ؛ وتتلخص الموضوعات التى تضمنتها فيما يلى (٢) .

- ١ — التكفل بتأمين الحجاج المسيحيين .
- ٢ — تأمين تجار ورعايا أرجوة المقيمين بالإسكندرية .
- ٣ — إطلاق سراح الأسرى المسيحيين بالقاهرة .

(١) Atiya, Egypt and Aragon p. 26.

(٢) Atiya, Op. Cit pp. 27- 28.

كذلك بعث الناصر محمد إلى ملك أرجونة برسالة صغيرة تتضمن قائمة
بالعطايا التي منحها له ؛ وإليك ما جاء فيها (١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ،

« المعنى : من الخزانة العالية المملوكة السلطانية الملكية الناصرية ، خلد الله

ملك مالسكها ، مسيراً إلى الملك الريدراغون صاحب برجلونة ، صحبة المجلس

السامي الأمير نقر الدين عثمان الأفرمى فى العشر الأول من شعبان سنة

خمس وسبعائة . . . »

تعبية قماش عشرون قطعة ، تفصيل ذلك :

« تفاصيل كنجى بظهر نقش ومُصممت إثنان .

« عمل الدار مصمت ثلاث قطع : أحمر اثنان ، أصفر واحد .

« عمل الدار ملون ثلاث (قطع) .

« تفاصيل مقترحة حريرى مظهره أربع (قطع) ..

« مقطع بياض بظهر .

« تفاصيل بندقي مظهره ثلاث (قطع) .

« سُوسِيَّة حريرى شَرُوب مخدومه .

« سُوسِيَّة حريرى محمر مصوره .

« فوطه حريرى مخوخة .

« قسى حلق للبد عشرة .

« رَقسىّ بندق بأوتارها خمسة .

« دهن بلسم ضمن فقاعة زجاج ، مائة وعشرين مثقالاً .

« عود بخور ، زنة ، للقم .

« الحمد لله وصلاته على سيدنا محمد . . . »

على أن العلاقات السياسية ما لبثت أن توترت بين مصر وأرجونة بسبب الإهانة التي ألحقها Dusay سفير Jaime II ملك أرجونة بالأمير نخر الدين رسول السلطان الملك الناصر سنة ٧٠٥ هـ^(١)، وما تبع ذلك من القبض على جميع رعايا أرجونة بالإسكندرية ومصادرة أموالهم. وقد قوبل هذا العمل في برشلونة باستياء عظيم؛ غير أنه من المشكوك فيه أن يكون لتوقيع Jaime II الشر من الناصر أى مبرر؛ فالسلطان نفسه لم يكن غير راغب في مواصلة التفاهم مع أرجونة بل على العكس من ذلك، قد برهن على حسن نواياه بإجابته لمتمسات Jaime II في أول فرصة عاد فيها الوثام بين الدولتين سيرته الأولى^(٢).

وقد قطعت العلاقات السياسية بين مصر وأرجونة بعد ذلك الحادث الذى أساء فيه سفير أرجونة إلى الأمير نخر الدين عثمان، مدة ثمان سنوات ثم استأنف ملك أرجونة هذه العلاقات سنة ١٣١٤ م؛ فأرسل مع سفيريه Arnaldo de Bastida، Guillèn de casnat خطاباً اعتذر فيه عن حادثة الأمير نخر الدين. كما سأله أن يمنح الحرية للمسيحيين في أراضى دولته، ويعطى حجاج الأراضى المقدسة جوازاً للسفر بأمان، ويسلم الأسرى المسيحيين.

ولما وصل أعضاء هذه السفارة إلى القاهرة، أولاهم الناصر إحترامه وأنفذ إلى ملك أرجونة رداً؛ يفهم من مضمونه موافقة السلطان على منح الحرية لرعاياه المسيحيين، وأن يكون للحجاج اللاتين حرية دخول الأراضى

(١) أورد المقرئى (الملك ج ١ القسم الثالث ص ٩٥٠ - ٩٥١، هذا الحادث تحت سنة ٧٠٣ هـ، لكن ثبت - كما بينا - أن الأمير نخر الدين سافر إلى برشلونة بصحبة سفير ملك أرجونة في هذه السنة؛ وعلى ذلك فن المرجح أن توتر العلاقات بين الدولتين قد ظهر في أواخر سنة ٧٠٥ هـ. بدليل رجيل Dusay السفير الأرجونى في هذه السنة إلى صقلية ليحتمى بملكها فدرريك الثانى، وتأخره عن العودة إلى برشلونة خوفاً من غضب Jaime II وعقابه.

Atiya, Egypt and Aragon, pp, 23, 33.

Atiya, Egypt and Aragon, p, 34. (٢)

المقدسة (١) ؛ وفيما يلي نص هذا الكتاب (٢) :

« محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون ،

بسم الله الرحمن الرحيم ،

« أطلال الله تعالى بقاء حضرة الملك الجليل المسكرم الخطير الباسل الضرغام الزائر : جام (٣) العالم في ملته ، العادل في مملكته ، عز الأمة المسيحية ، نصرة دين النصرانية ، نحر الملة العيسوية ، عمدة بني المعمودية ، صاحب أرغونة وبلنسية وجزيرة سردينية وكرسقه ، وقومص برجلوثة ، ومقدم البحر ، وأمير علم كنيسة رومية — ولا زالت مودته ثابتة في القلوب ، ومحبه مقربة من اعتائنا كل مطلوب ، ومصافاته مستدنية له من جميل ودادنا كل مفترح ومن جليل وفائنا كل مرغوب — صدرت هذه المكاتبة مبهجة بوده ، معلية بقربه من الخواطر على بعده ، شاهدة بما هو مستقر في الضمائر من الوثوق بمحافظته وعهده ، مهدية اليه من السلام ما يعذب في الاستماع الإرتواء من ورده ، وموضحة لعلهم ورود كتابه على يدرسه الفارس المحتشم كليم مرتنت ندال ، وأرناط سابستيد ، وقابلنا كتابه بالتكريم الدال على الوداد ، والقبول الشاهد باجتماع القلوب على البعاد ، والابتهاج المخبر بماله في الضمائر التي هي كل يوم في ازدياد ؛ وأحضرنا رسله بين أيدينا ، وعاملناهم من الإكرام بما تحققوا به رفعة مكاتته لدينا ، وقابلناهم من الإحسان والقبول بما علموا به ابتهاجنا بكل ما يرد من جهته إلينا ؛ وضاعفنا إكرامهم واحترامهم ، ووجدوا من إحساننا كل ما حقق بسؤلهم ومرامهم ؛ وأتوا إلينا ما حملهم الملك من المشافهة التي وجدت منا حسن القبول والإقبال ، وأحطنا علماً بمضمونها — فأما ما ذكره من محبه لنا وتقربه إلى خواطرنا . وإيثاره العمل بما تقتضيه آراؤنا الشريفة ، فقد علمنا جميع ما ذكره من ذلك وأقبلنا على إخلاص محبه

(١) Atiya, Egypt and Arsgon, pp. 35—36.

(٢) Atiya, op.Cit pp, 36—38.

(٣) جام : هو Jaime II ملك أرغونة .

وشكرنا هذا القصد الجميل والنية الصالحة ، وتحققنا بذلك حسن مودته وعمله على التقرب من خواطرننا وإن كان بعيداً غنا ، وصار له بذلك المكانة الجيدة والمحل الذى يسره ، فيستمر على ما وصفه من موالاته وإخلاصه فى المحبة لأيامنا الشريفة ، ويواصل بكتبه وأخباره ، وما لعله يعرض له من المقاصد والمطالب — وأما ما ذكره فى مشافهته التى تحملها رسله عنه من أمر الأسرى الذى قصده إطلاعهم بمقتضى الورقة التى أحضروها صحبتهم فقد علمنا ذلك ؛ والذى نعلمه به أن هؤلاء الذين حصل طلبهم من المفسدين ومن كانوا يوافقون على الأذية فى البلاد ، وإنما لأجل خاطر كلام حضرة الملك وإرساله بسببهم وسؤاله فى معنائهم ، أطلقنا الموجود منهم فى هذا الوقت . وهم الأكابر المعتبين منهم الأعيان وهم إفيرير كيام وإفيرير دلماط ورفقته ستة نفر ، مع علم الملك محيط بأن هؤلاء ما فيهم من أخذ من بلاد الملك ولا من حصل التعرض إليه فى جهته ، وإنما حضروا إلى نجدة أعداء البلاد الإسلامية المحروسة فاستأسرتهم الجيوش والعساكر المنصورة مع من أسروا ؛ ومع ذلك لأجل الملك ومكانته من خواطرننا وما نؤثره من إجابة قصده ، أطلقنا له هؤلاء الجماعة الذين سيرناهم إليه — وأما ما جهزه مع رسله من الهدية المباركة المسيرة بذلك ، فقد وصل ذلك صحبة رسله ، وعرض بين أيدينا ، وقابلناه بالقبول وحسن موقعه من إقبالنا — وقد سيرنا لحضرة الملك من أبوابنا الشريفة على سبيل البركة ما تضمنته المسيرة (...) (١) مثالنا هذا من الخزائن العالية لما للملك — أبقاه الله — فى خواطرننا من علو المكانة والمنزلة فيحيط عليه بذلك — والله تعالى يسلك به أجمل المسالك إن شاء الله تعالى ، كتب يوم عيد النحر المبارك سنة أربع عشرة وسبعمائة حسب المرسوم الشريف —

« الحمد لله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه ، حسبنا الله ونعم الوكيل » .

(١) كلمة غير واضحة فى الأصل .

ولم يمض أربع سنوات على هذه السفارة حتى عول Jaime II سنة ١٣١٨م على إرسال سفارة أخرى إلى السلطان الناصر ، وندب لها — أحد نبلاء برشلونة — F. de villafrancha كسفير أصلي ، وصحبه في السفر Arnaldo Sa Bastida الذى اشترك في السفارة الرابعة ؛ وكان بما تضمنته الرسالة التي حملها هذان السفيران ، اعتراف ملك أرجونة بما أسداه إليه السلطان في خطابه الودى الذى أجاب فيه ملتبساً الخاص بإطلاق سراح ستة نفر من المسيحيين ، ورجاؤه تسليم ماتبقى لديه من الأسرى . لكن الناصر لم يجب على هذه الرسالة بخلاف ما جرت به عادته ^(١) .

وقد حرص Jaime II ملك أرجونة على أن يرسل الناصر كلها سنحت له الفرصة ؛ فأنفذ إليه خطاباً في سبتمبر سنة ١٣٢٢م مع السفيرين Berenger و Geraldus ؛ وكان من أهم ما ورد فيه :

- ١ — أن يعهد السلطان إلى الإخوان الدومينيكان الأرجونيين بحراسة القبر المقدس وإدارة شؤنه ، ويترك لهم تحديد إقامة البطريرك .
 - ٢ — أن يسلم السلطان لسفراء ملك أرجونة الآثار المقدسة التي في حوزته وهي تحوى الأجزاء الحقيقية من صليب السيد المسيح ^(٢) .
- ويتبين لنا من تلك الرسائل التي بعث بها Jaime II إلى سلطان مصر أن ذلك الملك لعب بنجاح دور الحامى الأعظم للمسيحيين الشرقيين الخاضعين لحكم المماليك ، وأنه تحت تأثير إغراء نفوذه طالب بتحويل إحدى الحقوق المخولة لهم إلى من هم على دينه من اللاتين ، ونقل ملكية إحدى آثارهم المقدسة إلى درلته ^(٣) :

وقد بعث الناصر إلى Jaime II بكتاب ، تنبئ منه أنه وافق على قيام الإخوان الدومينيكان بخدمة القبر المقدس ، على حين أغفل مسألة نقل

(١) Atiya, Egypt and Aragon pp. 42—43

(٢) Atiya, Op.Cit., p. 44.

(٣) Atiya, Egypt and Aragon, p. 46,

جثمان القديسة بربارة St Barbara إلى الكنيسة التي أنشئت بمملكه أرجونة .
وقد جاء في كتابه ما يلي (١) .

« بسم الله الرحمن الرحيم .

« أطال الله بقاء حضرة الملك الجليل المكرم المجل الموقر المفخم الباسل
الخطير ، العالم في ملته ، العادل في أهل مملكته ، ملك أرغون وبلنسية وسردانية
وكرسقة ، وقومص برجلونة ، وأمير علم كنيسة رومية ، عز الأمة المسيحية ،
نفر الملة العيسوية ، أكبر ملوك المعمودية ، ذخري دين النصرانية ، — ولا
زالت مودته تؤدي لنا النصائح ، ومحبه تؤكد له أسباب المصالح ، وهمته يثني
عليها كل غاد ورائح — صدرت هذه المكاتبه إلى حضرة الملك الجليل
توضح لعله ورود مكاتبته ، فوقفنا عليها ، وعلينا مضمونها . — فأما
ما وصفه من محبه وصداقته السالفة من قديم الزمان فقد عليناها ، ونحن نتحقق
ذلك منه ولا نشك في مودته الخالصة من الشوائب ، ومحبه التي سلكت
منها أجمل المذاهب ، ولأجل هذا لا نزال نوقر جهته ، ونكرم كل من ينسب
إلى بلاده ، ونبتهج بورود من يرد من تلقائه . — وأما تجهيز رسله فقد
وصلوا إلينا وعاملناهم بالكرامة والرعاية ، وأوردوا علينا ما تحملوه من
المشاقفات والمقاصد ، وأحضروا ما صحبتهم من التقدمة ، وأجملنا ملقاهم ،
وأجبننا إلى ما ساغ من مقاصدهم ، وأحسننا مرجعهم ، وأعدنا عليهم
ما يعرفون به ، وأطلقنا من أمكن إطلاقه لهم من الأسرى وأعدناهم إليه ،
وحملناهم من السلام عليه ما يبدونه له — وأما ما ذكره في مكاتبه ثانية بسبب
الرهبان الذين أرسلهم ، فقد أجبناهم إلى ملتسمهم — وأما بقية النصارى
فهم عندنا موقرين الجانب على ما يسره لأنهم رعايانا ، وبحمد الله ما يكون
أحد من رعايانا إلا موقراً من جميع المكاره ، آمنا من كل ما يسوءه أو يشوش
عليه ، فيكون مستقر الخاطر بهذا السبب — ونحن نعرفه أنه بلغنا أن جماعة

من المسلمين الذين في بلاده ، الذين أُنقروا بها بعد ما استفزت عليهم
أحوالهم لهم عوائد متقدمة بالكرامة والرعاية وعدم المعارضة في المساجد
المستقرين بها ، وأنهم الآن ربما تغيرت عوائدهم في ذلك وصاروا لا يتمكنون
من التأذين في مساجدهم وإقامة الصلاة بها ؛ والمراد من محبته الصادقة أن يتقدم
بالوصية النامة بجميع من في بلاده من المسلمين وإجراتهم على أجل عوائدهم
وأكمل قو عدهم ، ولا يغير عليهم مغير في مساجدهم ، والإعلان بصلاتهم ،
وكف الضرر عنهم ، ورعاية جانبهم ؛ فهو يعلم أننا قد ألقى الله تعالى إلينا مقاليد
سائر أهل الإسلام حيث كانوا وأين كانوا ، فأى مكان وجد به أحد المسلمين
كانوا متعلقين بنا ، ويتعين علينا رعايتهم . فيفعل في أمرهم ما نتخذ له به أكمل
المودة ، وأجل الصحة ، وهمته تغنى عن التوكيد في ذلك ، والله تعالى يشكر
وداده ويوفق اعتياده — إن شاء الله تعالى . وكتب في خامس عشر صفر
المبارك سنة ثلاث وعشرين ومبعمائة ، حسب المرسوم الشريف — الحمد لله
وحده وصلى الله على سيدنا محمد نبي الرحمة وآله وصحبه وسلم .

« حسبنا الله ونعم الوكيل »

وإذا ما دققنا النظر في هذا الكتاب الذى بعث به الناصر إلى ملك أرجونة
نجد أنه يلقي ضوءاً عن المسكاة التى يشغلها سلاطين المماليك في العالم الاسلامى
خلال أواخر العصور الوسطى ؛ فقد لُق الناصر نفسه بالحامى الأكبر لجميع
الشعوب الإسلامية ؛ وبهذا المنصب يستطيع أن يتوسط لمصلحة المسلمين
الذين تحت حكم المسيحيين في إسبانيا ، كما أن التوفيق بين المسلمين والعمل على
رفاهيتهم أصبح أمانة ملقاة على عاتقه (١) .

وكان Jaime II يحرص على نيل شرف رعاية المصالح المسيحية بالشرق عامة
ومصالح أتباعه خاصة ؛ ومن ثم ندب خادمه المخلص Pero de mijaville
(أغسطس سنة ١٣٢٧ م) للسفر إلى مصر ، وزوده برسالة إلى السلطان

الناصر ، رجاء فيها أن يعمل على إحلال الفرنسيين الأراجونيين محل الدومينيكان في القيام بخدمة القبر المقدس ؛ لكنه لم يشر صراحة في هذه الرسالة إلى القصر البطريركي الذي حاول سابقا أن يملكه للدومينيكان (١) . ولم يأت سفير ملك أرجونة بمفرده إلى مصر بل قدم معه Guillaume de Bonnesmains ، الذي كان شارل الرابع ملك فرنسا قد ندبه بعد موافقة البابا حنثا الثاني والعشرين (١٣١٦ - ١٣٣٤م) ليتوسط لدى السلطان للعمل على رعاية المسيحيين بالشرق . :

وقد بدأ الخلاف يدب بين هذين السفيرين وهما على مقربة من الإسكندرية ، ثم تجدد مرة أخرى في القاهرة حين تبين لسفير أرجونة أن الناصر أكرم وفادة زميله سفير فرنسا ، وأشيع أنه يرغب في تسليم بيت المقدس للملك فرنسا ، فأثار ذلك مكان الحقد في نفس Pero de Mijaville سفير ملك أرجونة ودبر مؤامرة ضد رفيقه الفرنسي ، فأكد أن سفارته ماهي إلا خدعة دبرت استر ما وراها من الأغراض الخفية ، وأن ملك فرنسا يقوم بتدبير خطة عدائية ضد مصر . وفي الحقيقة إنه كان يعمل بنشاط في تجهيز أسطول يتكون من ثلاثمائة سفينة لمهاجمة ساحل مصر — على غرة (٢) .

وليس من شك في أن الناصر قد تأثر بما سمعه عن موقف ملك فرنسا العدائي إزاءه ؛ فرفض أن يمنحه ملكة بيت المقدس ، وأساء معاملته سفيره ، بينما نال Mijaville سفير ملك أرجونة كل ماسعى إليه ، وأكرم الممالك وفادته .

وقد بعث الناصر برسالة إلى Jaime II سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٨ م) لم يشر فيها صراحة إلى ما طلبه هذا الملك في خطابه الذي أنفذه مع سفيره Mijaville لكننا نتبين منها دهاء هذا السلطان في محاولته استغلال تدين ملك أرجونة لينال منه صفقة رابحة في مقابل نقله جثمان القديسة بربارة إلى الكنيسة التي

(١) Atiya, Egypt and Aragon, p. 53.

(٢) Atiya, Op. Cit. pp 55 56.

بنيت بأرجونة (١) ؛ وفيما يلي نص ماورد في هذه الرسالة (٢) :

« من السلطان الملك الناصر السيد العالم العادل . . . المظفر المنصور ،
وناصر الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين . محيى العدل فى العالمين ،
منصف المظلومين من الظالمين ، وارث الملك ، سلطان العرب والعجم والترك
اسكندر الزمان ، . . . ، صاحب القبلتين ، خادم الحرمين الشريفين ، سيد
الملوك والسلاطين ، أبى الفتح محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين
قلاوون ، خلد الله سلطانه .

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« أطال الله بقاء حضرة الملك الجليل المكرم المفخم الموقر ، الباسل
الضرم الخاطر ، العالم فى ملته ، العادل فى أهل ملكته ، دون الفونس
الريدر اغون ، صاحب ملك أرغون وبلنسية وبرجلونة ، نحر الملة الصليبية ،
عماد الأمة المسيحية ، كبير دين النصرانية ، صديق الملوك والسلاطين —
وأدام بمحبته ، ووالى باتباع المراضى الشريفة ، مسرته ، وجعل تمسكه بأسباب
المخالصة وقايتة وجنته — صدرت هذه المكاتبة إلى حضرة تشكر مودته ،
وتصف صداقته ، وتعلمه أن مكاتباته وردت ، فوقفنا عليها ، وعلينا مضمونها —
فأما ما ذكره بسبب الكنيسة التى عمرت فى بلاده ، وقصد نقل ما قصده من
جسد بر بارة إليها ، فقد علنا الصورة وصارت عند خواطرننا الشريفة ؛ وإذا
تقدم بأرسال مراكب جيدة فيها بضائع كثيرة ، فرسم عند ذلك بقضاء شغله
وإجابته إلى ملتسمه ، فيعلم ذلك . . .

« كتب فى خامس عشر جمادى الأولى سنة ثمان وعشرين وسبعائة ،

على أن اهتمام السلطان الناصر بالتخلى عن بقايا جثمان القديسة بر بارة
St Barbara أمر مشكوك فيه ، لأن الكنيسة التى تضم جثمان هذه القديسة قد

(١) Atiya, Egypt and Aragon. pp. 46—47.

(٢) Atiya, Op. Cit, pp. 57—59.

سويت بالأرض في الهياج الذي قام به العامة في القاهرة سنة ٧١٨ هـ^(١) (١٣١٨ م) ، وأهمل موضعها - كما قال المقرئى^(٢) - ، حتى صار كوم تراب .

وقد ظل السلطان الناصر يحرص على إحكام أوامر الصداقة مع أرجونة حتى بعد وفاة ملكها Jaime II ؛ فبعث إلى Alfonso IV (١٣٢٧ - ١٣٣٦ م) الذي سار على سياسة سلفه في المحافظة على علاقات الصداقة مع مصر ، رسالة في ٢٠ فبراير سنة ١٣٣٠ م ؛ يتبين لنا منها أن هذا الملك أوفد سفيره Francesco Marco إلى السلطان مزودا بكتاب وهدية ، كما تعطينا برهانا كافيا على استمرار الوفاق بين مصر وأرجونة الذي امتاز به عهد Jaime II . وحرص السلطان على التمسك به بعد تولية Alfonso IV العرش^(٣) ؛ وفيما يلي نص كتاب الناصر الذي أنفذه إلى ألفونس الرابع ملك أرجونة^(٤) :

« » ولا زالت وسائله مقبولة ، ورسائله غر النسيم مقبولة ، ووسائله بأحسن جواب موصولة - صدرت هذه المكاتبة تحمل إلى حضرته من الود ما يتضوع ، ومن الشكر ما يتنوع ، ومن الثناء ما يظن أن الشمس من أزراره تتطلع ؛ وتعلمه أن مكاتبتيه وردت على يد رسوله المحتشم الجليل افرنسيس مركس ومن معه ، فحلت من أبوابنا العالية بالرحب والسعة ، وتحملت من الإكرام بقول يطرب سمعه ؛ وعرضت من أيديهم في أبوابنا الشريفة عرضاً جميلاً ، وصادفت من عواطفنا إقبالا وقبولا ؛ وأحطنا علماً بما تضمنته من ود صريح ، وعهد صحيح ؛ ومحبة لم تزل ملحوظة من صدق وداده ، محفوظة في كل قلب لا يشك من المخالصة في جميل اعتقاده

(١) Atiya, Egypt and Aragon, p. 47.

(٢) السلوك ج ٢ القسم الأول ص ١٨٣

(٣) Atiya, Egypt and Aragon, pp. 61-64

(٤) Atiya, Op. Cit, p. 62.

ووصل ما أتخف بإهدائه السناقر^(١) التي هي من آخر جنسها ، وأكرم ما توصف بنفاسة نفسها ، ورسمنا بتسليمها ممن حضر بها ، وتضاعف الشكر والثناء على ما اختار من نخها — وقد أعدنا رسله إليه مشمولين بالقبول . موصولين بالكرامة لأنه من إلزام المرسل كرامة الرسول ؛ فواصل الملك الجليل أطال الله بقاءه بكتبه التي هي أحسن ما يحمل من بلاده ، وتقربه من خواطرننا الشريفة مع ما هو عليه من بعباده ؛ والله تعالى يهديه لرشاده ، ويوفقه من حسن اعتياده .

« إن شاء الله تعالى ، كتب في مستهل جمادى الأولى سنة ثلاثين وسبعائة حسب المرسوم الشريف .
« الحمد لله وحده . . . »

(ح) فرنسا

لم يكن Alfonso IV و Jaime II هما اللذان حرصا وحدهما على التودد للناصر في سبيل خدمة المصالح الصليبية ، بل سار أيضاً على هذه السياسة البابا حنا الثاني والعشرون (١٣١٦ — ١٣٣٤ م) فقدمت رسله إلى القاهرة سنة ١٣٢٧ م برفقة سفراء من قبيل ملك فرنسا شارل الرابع Charles IV (١٣٢٢ — ١٣٢٨ م) ومعهم هدية ورسالة للسلطان . ولما مثلوا بين يديه تحدثوا معه فيما تحويه هذه الرسالة ؛ وكانت تتضمن الرغبة في أن يعامل السلطان رعاياه المسيحيين برفق وأنه إذا سار على هذه السياسة ، سيلقى المسلمون في بلاد الفرنجة كل أسباب الراحة والطمانينة^(٢) ؛ فوعدهم بأنه سيعمل على

(١) السناقر جمع سنقور (كلمة فارسية) يقال في العربية صدر (جمعها سنقور) .

حاشية رقم ١ (Atiya, Egypt and Aragon p. 62)

(٢) يفهم مما ذكره Dr. Atiya في كتابه (Egypt and Aragon p. 56) أن السفير الفرنسي الذي قدم القاهرة سنة ١٣٢٧ م طالب من الناصر أن يمنح ملك فرنسا بيت المقدس وأن السلطان لما وقف على نوايا هذا الملك العدائية نحوه رفض أن يجيبه إلى طلبه وأساء معاملته سفيره .

إجابة طلبهم (١) .

كذلك رأى فيليب السادس ملك فرنسا (١٣٢٨ - ١٣٥٠ م) أن يلجأ إلى سياسة المسالمة مع سلطان مصر لعله يستطيع بذلك أن يستعيد نفوذ الصليبيين ببيت المقدس ؛ فأرسل سفارة إلى الناصر تتألف من مائة وعشرين رجلاً . أبحروا إلى عكا ، ثم قدموا إلى القاهرة سنة ١٣٣٠ م حيث مثلوا بين يدي السلطان . وكان معهم كتاب التمس فيه ملكهم إعادة بيت المقدس وبلاد ساحل الشام إلى الصليبيين (٢) ؛ فرفض الناصر هذا الالتماس بغضب شديد وأظهر استيائه من ملك فرنسا ، كما أهان سفراءه وأمر بإعادتهم إلى بلادهم (٣) . وما لبث ذلك الملك أن انصرف عن الإهتمام بالمصالح الصليبية في الشرق حين شغل بحروب المائة سنة التي قامت بين فرنسا وإنجلترا ،

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ٨٠ ، المقرئى : السلوك ج ٢ القسم الأول

ص ٢٨٦ — ٢٨٧

Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 73 (٢)

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ١٠٤

Stanley Lane-Poole, a History of Egypt in the Middle Ages p. 310

الباب الثالث

حالة مصر الاقتصادية في عهد أسرة قلاوون

- الفصل الأول — الثروة الزراعية في مصر .
- الفصل الثاني — مظاهر تقدم الصناعة في مصر .
- الفصل الثالث — تجارة مصر الداخلية .
- الفصل الرابع — العلاقات التجارية بين مصر والدول الشرقية والأوربية .

الفصل الأول

الثروة الزراعية في مصر

كانت حكومة المماليك في مصر ترى أن تعزيز كيان دولتها ، ونجاح سياستها الخارجية لا يتم تحقيقهما إلا بالعمل على تنمية موارد الثروة ؛ فبذلت قصارى جهدها في هذا السبيل حتى عم الرخاء البلاد وتوفر وجود المال لدى خزانة دولة بني قلاوون .

وكان للزراعة المحل الأول من رعاية سلاطين مصر على اعتبار أنها عماد الثروة المصرية ؛ فوجهوا اهتمامهم إلى إنمائها وإكثار محصولها حتى يتيسر لهم بذلك سد حاجة الشعب .

وقد كثرت زراعة القمح في مصر وخاصة في بلاد الصعيد . ولم تسكن غلة الفدان متعادلة في جميع البلاد المصرية ، بل كانت تتراوح من أردبين إلى عشرين . وكثيراً ما يفيض محصول القمح عن حاجة البلاد ويعمد السلاطين إلى إمداد بلاد الشام والحجاز بمقادير وفيرة منه ؛ وأحسن مثل لذلك ما قام به السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حين اشتد الضيق بهذه البلاد وأصبح محصول القمح بها لا يكفي لتأمينها .

وكان بمصر أهراء تخزن بها الغلال ولا يسمح بفتحها واستهلاك ما بها إلا عند الحاجة القصوى^(١) . وقد بلغ من شدة الحرص على عدم المساس بمحصول القمح المودع بها أنه لما وصل سعر الأردب منه سنة ٦٨٢ هـ إلى خمسة وثلاثين درهماً ، استاء السلطان قلاوون من ذلك وأمر العسكر بالتوجه إلى الشام ليقبل استهلاك القمح وينخفض السعر ؛ غير أن هذه الوسيلة لم تؤد

(١) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك من ١٢٢

إلى انخفاض سعر القمح : ومن ثم رغب السلطان في فتح أهراء مصر وبيع الأردب منها بخمسة وعشرين درهما ؛ لكن الأمير بدر الدين يلبك الأيدمرى عارضه في ذلك وقال : « قلوب الناس متعلقة بما في الأهراء ، فإنها خزانة المسلمين ، كلما نظروا إليها ملأته شجعت نفوسهم ، وما يؤمن ارتفاع السعر أيضاً والرأى أن الأمراء بأسرهم يكتبون بفتح شونهم وبيع القمح بخمسة وعشرين درهما الأردب ، فإذا وقع البيع فيها دفعة واحدة — مع بقاء الأهراء ملأته — رجي انحطاط السعر ، والأمراء لا يضرهم إذا نقصت شونهم نصف ما فيها . فأعجب السلطان بهذه الفكرة وفتح الأمراء شونهم ، فبيع أردب القمح منها بخمسة وعشرين درهما ، ثم انخفض السعر إلى عشرين ، فثمانية عشر ، وظل الحال على ذلك حتى ظهر محصول القمح الجديد ^(١) .

وكان من بين أنواع الحبوب التي تزرع بمصر في ذلك العهد ، الشعير والذرة والأرز والبقول والحبص والعدس واللوبياء والسمسم والقرطم والخشخاش والخروع والبرسيم ^(٢) .

كذلك كان السكتان من أهم مزروعات مصر في عصر المماليك . وقد حرصت الأقطار المجاورة على استيراد مقادير وفيرة منه لسد حاجة سكانها من المنسوجات السكتانية .

وكان قصب السكر من بين الزراعات التي عنى بها المصريون منذ الفتح الإسلامي . وقد زادت مساحة الأراضي المزروعة قصباً في عهد دولة بني قلاوون ، فبلغت زراعة أولاد فضل بملوى في أيام الناصر محمد بن قلاوون ألفاً وخمسمائة فدان كل سنة من القصب ، كما اشتهرت فقط أيضاً بزراعته ، وأصبح بها سنة ٧٠٠ هـ ست معاصر لصناعة السكر ؛ وفضلاً عن ذلك فإن

(١) القرينى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧١٧ — ٧١٨

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٧

سمهود^(١) ضربت بسهم وافر في زراعة القصب^(٢).

وكان يزرع بأرض مصر الفواكه كالرمان والتفاح والموز والأجاص والحوخ والتين والعنب والتوت والنبق والبرقوق والقراصيا والسفرجل والكثيرى والليمون التفاحى الذى يؤكل بغير سكر لقلة حمضه ولذة طعمه والبطيخ وهو ثلاثة أصناف : هندى ويسمى البطيخ الأخضر ، وصينى ويسمى الأصفر (الشمام) ، وخراسانى ويعرف بالعبدلى نسبة إلى عبد الله بن طاهر والى مصر من قبل المأمون الذى أدخل زراعته بمصر .

كذلك كثرت بمصر زراعة الخضروات كالباذنجان والقلقاس والقنبيط واللفت والجزر، وأنواع البقول المختلفة كالثوم والبصل والسكرات والفجل^(٣). وكان الزيتون يزرع أيضاً بمصر وخاصة بإقليم الفيوم ، ولا يستخرج منه زيت البتة ، بل يؤكل ملحاً^(٤).

وكان ينبت بمصر الرياحين والأزهار على اختلاف أنواعها ، كالورد وهو على عدة أصناف : الأحمر والأبيض والأزرق والأصفر — الذى كثيراً ما كان يفرس بحدائق الإسكندرية — والترجس والبنفسج وهو نوعان : جبلى وبستانى ؛ فالجبلى دقيق الورق أزرق اللون ، والبستانى عريض الورق حاتك اللون ؛ وهناك نوع ثالث أبيض لا يوجد إلا بمصر ويسمى الكوفى . ومن بين الأزهار التى انتشرت زراعتها بمصر فى ذلك العهد : اللينوفر ويكثر فى الأماكن المنخفضة التى يقف فيها الماء . وكانت الحدائق لا تخلو من الياسمين والأقحوان الذى قال فيه الجلال على بن ظافر المصرى^(٥) :

انظر فقد أبدا الأقاح مباسماً ضحككت تهلل فى قدود زبرجد

(١) بلدة قريبة من فرشوط مركز نجع حمادى بمديرية قنا (على مبارك : الحائط التوفيقية

١٢ ص ٥١ — ٥٢)

(٢) المقرئى : خطط ج ١ ص ٢٠٤ ، ٢٢٢ ، ٢٠٣

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩٧ ، ٢٥٢

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٨

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٣٦ — ٢٥٠

وقد كثرت زراعة أشجار السنط في البهنساوية والأشمونين والاسيوطية والإخيمية والقوصية وكان لها حراس ، يحولون دون المساس بها حتى يقطع منها الخشب اللازم لصناعة الأسطول المصري . أما أطراف تلك الأشجار التي ينتفع بها في الوقود ، فيباع الحمل منها بأربعة دنائير للتجار . وقد جرت العادة ألا يباع مما في البهنسا من أخشاب شجر السنط إلا ما يفضل عن حاجة السلطان (١) .

وكان بالقاهرة وضواحيها كثير من البساتين ؛ نخص بالذكر منها بستان السراج في أرض باب اللوق ، وبستان الجمال محمد بن جن حلوان التاجر في ثمار البساتين ، وبستان الفرغاني الذي انتقلت ملكيته إلى الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب في أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وبستان ابن ثعلب (٢) بظاهر اللوق ومساحته خمسة وسبعون فداناً ؛ وكان يغرس به النخيل والسكرم والفرجس والورد والياسمين والخوخ والكمثرى والتارنج والليمون التفاحي والجوز والقراصيا والرمان والزيتون والتوت الشامى والمصرى والتمر حنا واللبان . وقد بقي من هذا البستان قطعة أرض عرفت في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ببستان الأمير أرغون (٣) .

وكان يغرس بأرض بركة الخبش بظاهر الفسطاط النخيل وأشجار الفواكه والأزهار والرياحين على اختلاف أنواعها ، كما كثرت بها المتنزهات . وقد قال في ذلك أخذ الشعراء (٤) .

أما ترى البركة الغناء لابسة . وشيا من التور حاكته يد السحجب
وأصبحت من جديد الروض في حبل قد أبرز القطر منها كل محتجب

(١) المقرئى : خطاط ج ٢ ص ١١٠ — ١١١

(٢) هو الشريف الأمير فخر الدين اسماعيل بن ثعلب الجسفرى - الزينى — أحد أمراء مصر في أيام الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب (المقرئى : خطاط ج ٢ ص ١١٨)

(٣) المقرئى : خطاط ج ٢ ص ١١٨

(٤) المقرئى : خطاط ج ٢ ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .

من سوسن شرق بالطل محجرة وأقحوان شهي الظلم والشنب
فانظر إلى الورد يحكى خد محشم ونرجس ظل يبدى لحظ مرتقب
وكان بأرض بركة الشعبية التي تجاور بركة الحبش عدة بساتين ومزارع
غرست بها الأشجار والكروم والخضروات بأصنافها المختلفة . وقد بلغت
مساحتها أربعة وخمسين فدانا (١) .

ولما انحسر الماء عن جزيرة أروى التي تقع بين الروضة وبولاق ، في
أوائل القرن الثامن الهجري ، بنى الناس بها الدور والأسواق ، كما غرسوا
فيها البساتين وحفروا بها الآبار حتى صارت من أحسن متنزهات مصر (٢) .
كذلك كثر غرس البساتين بجزيرة الفيل في أيام السلطان الملك المنصور
قلاوون ، كما سكن بها المزارعون ؛ ولم يزل يتتابع الناس في إنشاء البساتين
بها حتى أصبح عددها ينيف على مائة وخمسين بستانا في أواخر عهد السلطان
الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وكان السلطان الناصر لا يألو جهداً في العناية بغرس البساتين ؛ فحول
الميدان الظاهري الذي أنشأه الملك الظاهر بيبرس بأطراف أراضى اللوق
إلى بستان كبير ، وجلب إليه أصناف الشجر المختلفة من دمشق ، كما بعث في
طلب مهرة الزراع والمطعمين من الشام فغرسوها فيه (٣) . ولم يزل السلطان
الناصر يعنى بهذا البستان حتى أصبح بمثابة معهد زراعي ، يتلقى فيه أهالى مصر
طريقة تطعيم الأشجار ، كما حاك فواكه بحسنها فواكه الشام .

كذلك أنشأ السلطان الناصر ميدان سرياقوس سنة ٧٢٣ هـ ، وبنى فيه
قصوراً فخمة وعدة منازل للأمراء ، كما غرس فيه بستاناً كبيراً ، نقل إليه
أصناف الفواكه التي تنبت ببلاد الشام . وكانت ثماره تحمل مع فواكه

(١) المقرئى : خطط ٢ ص ١٥٨ — ١٥٩

(٢) المقرئى : خطط ج ٢ ص ١٨٦

(٣) . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ القسم الأول ورقة ٢٢٠

البستان الذي غرسه بالميدان الظاهري إلى الشراب خاناه السلطانية بقلعة الجبل ولا يباع منها شيء مطلقاً^(١).

ولم يفت السلطان الناصر أن يعيد ميدان قلعة الجبل إلى ما كان عليه في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ؛ فنقل إليه الطين وحفر به الآبار ، وأجرى إليه الماء من السواقي ، وغرس فيه النخل والأشجار المثمرة ، ثم بنى حوله سوراً من الحجر^(٢).

وقد حذا الأمراء والأهالي حذو الناصر ، في الإكثار من غرس البساتين فلما تم حفر الخليج الناصري سنة ٧٢٥ هـ ، اشتد إقبالهم على شراء الأراضي التي على جانبيه وغرسوا فيها الأشجار وصارت بعد قليل بساتين مشمرة^(٣). وكان من أثر اهتمام السلطان الناصر بإعادة حفر خليج الإسكندرية سنة ٧١٠ هـ ، أن بادر الناس بالعمارة على جانبيه ؛ ولم يمض على ذلك غير قليل حتى أصبح نحو من مائة ألف فدان من الأراضي المجاورة له صالحة للزراعة بعد ما كانت سباخاً ، كما استجد عليه ما يربى على ستائة ساقية لزراعة القلقاس والنيلة والسمسم^(٤).

كذلك كان للأديرة بمصر أراض تستغل في زراعة الحبوب والفواكه . وقد اشتهرت تلك الأراضي بجودة محصولها ؛ ويتبين لنا ذلك مما قاله ابن فضل الله العمري^(٥) في وصف ما شاهده بالدير الأبيض^(٦) ومزارعه حين زاره بصحبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون :

يوم لنا بالدير ، دير الأبيض قد انقضى وطيبه لم ينقض .
قد جثته في العسكر المنصور فخلق الأبواب كالمحصور .

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ١٩٨ — ١٩٩

(٢) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٢٨ — ٢٢٩

(٣) المقرئى : خطط ج ٢ ص ١٤٥

(٤) المقرئى : خطط ج ١ ص ١٧١ — ١٧٢

(٥) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ج ١ ص ٣٧٥ — ٣٧٦

(٦) يقع في غرب النيل فيما يقابل لإخميم (ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٧٥)

ونزل الرهبان بالدبوس فيه إلى قرارة الديموس .
 واطلعت نحوى هناك راية قد خضعت من جانبيها الوهد
 كأنما تطلب منى المائى وللربيع مذ أتى اعتدال
 والشمس قد دب بها السقام والليل قد هيا صف عسكره
 والجو فى ردائه المصنل وبجر الشقيق فيها موقد
 وزهر الفول ادعى بالحق وزهر السكتان كالبنفسج
 تبدو على أعطافه الترافه كأنه فى مائه الممتزج
 وسائر الزرع شقاق خضر وسائر الزرع شقاق خضر
 والنخل حول الدير كالعراس مجلوة فى فاخر الملابس .

* * *

وكان سلاطين مصر لا يألون جهدا فى العناية بالزراعة لأنها مصدر ثروة البلاد ، فأنشأوا الجسور وشقوا الترغ لتوفير مياه الرى للأراضى التى يتعذر وصول الماء إليها . وقد عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٤ هـ إلى بعض الأمراء بعمارة كافة جسور مصر وكرى ترعها ؛ فندب الأمير عز الدين أيدمر الخطيرى إلى الشرقية ، والأمير علاء الدين أيدغدى شقير إلى البنساولية والأمير شرف الدين حسين بن حيدر إلى أسيوط ومنقلوط ، والأمير سيف الدين آقول الحاجب إلى الغربية ، والأمير سيف الدين قلى أمير سلاح إلى الطحساوية^(١) وبلاد الأشمونين ، والأمير بدر الدين جتكللى بن البابا إلى

(١) يطلق اسما الأشمونين والطحساوية على العمل الخامس من أعمال الصعيد وهو عمل واسع كثير الزرع ، واسع الغضاء ، متقارب القوى (القلقندى : صبح الأعشى ج ٣ - ص ٣٩٤)

القليوبية، والأمير علاء الدين القليلي إلى البحيرة، والأمير بدر الدين بكتوت الشمسي إلى الفيوم، والأمير سيف الدين بهادر الشمسي إلى إخميم، والأمير بهاء الدين أصلم إلى قوص (١).

وكان السلطان الناصر يشرف بنفسه على إنشاء الجسور؛ فلما شكوا إليه الأمير بشتاك من تشريق بعض بلاده بنواحي شبين، سار بنفسه سنة ٧٣٧ هـ مع المهندسين لكشف تلك النواحي، ومالبث أن استقر رأيه على إنشاء جسر يمتد من شبين القصر إلى منها العسل. وعندما شرع في بنائه، جمع له اثني عشر ألف رجل ليعملوا على إنجازه، ثم أقام به عدة قناطر؛ وبذلك تيسر رى الأراضي العالية بتلك المنطقة (٢).

وكانت الجسور على نوعين: سلطانية وبلدية؛ فالجسور السلطانية هي التي يعم نفعها كافة البلاد ويصرف عليها مما يجي من أموال الأعمال الشرقية والغربية، وما بقي منه يرسل إلى بيت المال. وقد جرت العادة أن يعين سنويا لكل إقليم أمير يشرف على عمارة تلك الجسور البلدية فيعود نفعها على ناحية من النواحي ويتولى إقامتها المقطعون والفلاحون، وينفق عليها من مال الناحية التابع لها الجسر (٣).

كانت الأراضي المصرية توزع إقطاعات على السلطان والأمراء والأجناد؛ وهي مقسمة إلى أربعة وعشرين قيراطا، يختص السلطان منها بأربعة قرايط، ويفرد للأمراء عشرة، وما يتبقى يخصص للأجناد. وقد ظل الحال على ذلك إلى أن رأى السلطان الملك المنصور لاجين أن الأمراء يأخذون كثيرا من إقطاعات الأجناد ولا يدفعون عنها الحقوق والمقررات الديوانية، هذا فضلا عن أنها تصبح مغنما لأعوانهم ومستخدميه؛ فعول على

(١) المقرئى: السلوك ج ٢ القسم الأول ص ١٢٧ — ١٣٨

(٢) المقرئى: خطط ج ٢ ص ١٦٩ — ١٧٠

(٣) المقرئى: خطط ج ١ ص ١٠١، القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٤ — ٤٤٥

رد تلك الإقطاعات إلى أصحابها وإخراجها من دولوين الأمراء . وكان أول ما بدأ به ديوان الأمير سيف الدين منكوتمر نائب السلطنة ؛ فأخرج منه الإقطاعات التي استحوذ عليها من الأجناد ؛ وكانت تنتج ١٠٠,٠٠٠ أردب من القمح سنوياً^(١) . وحذا حذوه الأمراء ؛ فأخرجوا ماضموه إلى إقطاعاتهم . ثم أمر لاجين بمسح الأرض من جديد ، وأن يخصص للأمرء وأجناد الحلقة أحد عشر قيراطا ، ويفرد تسعة قيراط للعسكر الذي استجده ، كما جعل قيراطا يوزع على من عساه يشكو من صغر إقطاعه . وأبقى لخاص السلطان أربعة قيراط^(٢) .

وقد ندب السلطان لاجين لروك^(٣) أراضى مصر . الأمير بدر الدين بيليك الفارسي الحاجب ، والأمير بهاء الدين قراقوش الظاهري ، وجماعة من السكتاب ؛ وكان أكبرهم شأنًا تاج الدين عبدالرحمن الطويل مستوفى الدولة . ولما فرغ الأمراء والسكتاب من فك زمام الأراضى المصرية وتعديله ، وزعت الوثائق الخاصة بتقرير الإقطاعات على الأمراء ومقدمى الحلقة وأجنادها في رجب سنة ٦٩٧ هـ^(٤) .

على أن نظام توزيع الأراضى المصرية مالم يثبت أن أدخل عليه تعديل في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون . وكان مما حمل هذا السلطان على فك زمام الأرض وتوزيع الإقطاعات من جديد ، كثرة أخياز مماليك بيمرس الجاشنكير وسلار ، وخشيته وقوع الفتنة إذا ما استولى على أخبازهم^(٥) ، ومن ثم اتفق مع القاضي نحر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش سنة ٧١٥ هـ

(١) De Sacy, Droit de Propriété Territoriale en Egypte 1^{re} Serie
Tome II. p. 221

(٢) المقرئى : خطط ج ١ ص ٨٧ — ٨٨

(٣) الروك : مسح الأرض الزراعية وهو المعبر عنه الآن بفك الزمام (القلقشندي : صبح

الأعشى ج ٣ حاشية ٤ ص ٤٣٢)

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٤٤

(٥) المقرئى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ١٤٦

على رءوس الأراضى المصرية (١)، وعين لكل إقليم أناسا عهد اليهم القيام بهذه المهمة . فكتب مرسوما للأمير بدر الدين بن البابا للخروج إلى الغربية والأمير عز الدين أيدمر الخطيرى للشرقية ، والأمراء : بليان الصرخدى والتليجى وابن طرنطاي وييرس الجمدار إلى ناحيتى المنوفية والبحيرة ، والبليلى والمرتينى إلى الوجه القبلى (٢) ؛ كما ذهب الناصر بنفسه إلى بلاد الصعيد للإشراف على مسح أرضها (٣) .

ولما أتم الأمراء تحقيق مساحة الأراضى الزراعية وما يتحصل عن كل قرية من عين وغلة ، عادوا إلى القاهرة بعد أن قضوا فى هذه المهمة خمسة وسبعين يوماً (٤) . ثم بعث الناصر فى طلب الفخر ناظر الجيش وسائر مشثوفى الدولة وأمرهم بتسجيل أسماء البلاد التى أدخلها ضمن الخاص السلطانى ، والإقطاعات التى خصصها لكل من الأمراء والأجناد . وما لبث بعد ذلك أن ضم إلى خاصته عدة نواح كانت ضمن إقطاعات البرجية وهى : الجيزة وأعمالها ، وبلاد هتو (٥) ، والكوم الأحمر ، ومنفلوط ، والمرج ، والخصوص (٦) ، وغير ذلك من السواحى بما بلغ عشرة قراريط (٧) .

ولم يكف الناصر بإدخال تلك التعديلات على نظام توزيع الأراضى الزراعية فى مصر . بل أتبع هذا العمل بتخفيف وطأة الحياة على رعاياه ورفع المكوس التى تحول دون تنعمهم برغد العيش ؛ فألغى مكوس ساحل الغلال ؛

De Sacy, Droit de Propriété Territoriale en Egypte 1ere Serie, (١)
Tome II p. 222

(٢) القريزى : المواعظ والاعتبار (Wiet) ج ٢ ص ٢٢ - ٢٣

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٩١

De Sacy, Droit de Propriété Territoriale en Egypte 1ere serie, (٤)
Tome II p. 224

(٥) هو : بلدة بالصعيد الأهلى من عمل قوس ، وكانت تعرف أيضا باسم هم (مبارك : الحطاط التوفيقية ج ١٧ ص ٢٥)

(٦) الخصوص : قرية من قرى مديرية القليوبية ، شمال بلدة منية الميرج (مبارك : الحطاط التوفيقية ج ١٠ ص ١٠٠)

(٧) القريزى : المواعظ والاعتبار (Wiet) ج ٢ ص ٢٢ - ٢٨

وكان يؤخذ على كل أردب درهمان سوى ماجرت العادة بنهيه ؛ فرخص بذلك سعر القمح وانتعش الفقير ، كما ألغى ما كان يؤخذ من طرح الفراريج ومقرر الحواتص والبغال ؛ وكان يجبي لبيت المال عن ثمن الحياصة ثلاثمائة درهم وعن ثمن البغل خمسمائة درهم .

وقد علق أبو المحاسن^(١) على رفع تلك المكوس عن كاهل الشعب المصرى بقوله : « وكل ما فعله الملك الناصر من إبطال هذه المظالم والمكوس دليل على حسن اعتقاده وغزير عقله وجودة تدبيره وتصرفه ، حيث أبطل هذه الجهات القبيحة التى كانت من أقبح الأمور وأشنعها ، وعوضها من جهات لا يظلم منها الرجل الواحد ؛ ومثله فى ذلك كمثل الرجل الشجاع الذى لا يبالي بالقوم كثروا أو قلوا فهو يكر فيهم ، فإن أوغل فيهم خاص ، وإن كر راجعا لا يبالي بمن هو فى أثره ؛ فأبطل لذلك أقبح وأحدث ما صلح من غير تكلف وعدم تخوف . فله دره من ملك عمر البلاد وغمر بالإحسان العباد ؛ وهذا بخلاف من ولى بعده ، فإنهم لقصر باعهم من إدراك المصلحة مهما رأوه ، ولو كان فيه هلاك الرعية وعذاب البرية ، يقولون لهذا جرت العادة من قبلنا ، فلا سبيل إلى تغيير ذلك ولو هلك العالم . فلعمري هل تلك العادة حدثت من الكتاب والسنة أم أحدثها ملك مثلهم ، وما أرى هذا وأمثاله إلا من جميل صنع الله ، كم يتميز العالم من الجاهل . »

ولما توفى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، لم يعن الجند بالإبقاء على إقطاعاتهم ؛ فصار فريق منهم ينزل عن إقطاعه لبعض الأفراد نظير مبلغ من المال أو يقايضهم بإقطاع آخر . وقد بدأت هذه الظاهرة تتجلى حين آلت السلطنة إلى الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون سنة ٥٧٤٦هـ ؛ ذلك أن الأمير شجاع الدين أغولو شاد الدواوين عند ما استأثر بالنفوذ فى عهد هذا السلطان ، استجد أشياء منها : المقايضة بالإقطاعات والنزول عنها . فمن رغب فى مقايضة أحد بإقطاعه ، دفع هو ومن قايضه مبلغا معيناً لبيت المال ،

وكذلك الحال فيما يتعلق بمن اختار حيزا من إقطاعات الحلقة ، ومن أراد النزول عن إقطاعه أدى كل منهما المبلغ الذى يقرره بيت المال . وقد ظل الحال على ذلك إلى أن تقلد الأمير منجك اليوسى منصب الوزارة ؛ فأباح سنة ٧٤٩هـ النزول عن الإقطاعات والمقايضة بها عما شجع الجند على بيع إقطاعاتهم وسهل انتقال بعضها إلى يد العامة . ولم يزل بيع الإقطاعات والمقايضة بها مستمرا حتى اشترى الباعة وأصحاب الصناعات كثيرا منها وأخذ جماعة عرفوا بالمهيسير يطوفون على الأجناد ويرغبونهم فى النزول عن إقطاعاتهم أو المقايضة بها ولما رأى الأمير شيخون العمري نائب السلطنة الذى استقل بتدبير أمور الدولة أن الحالة قد ساءت فى البلاد المصرية من جراء هذا الإسراف المعيب فى تغيير نظام الإقطاعات . أصدر أوامره بإلغاء النزولات والمقايضات وأن يحتفظ كل جندي بإقطاعه ولا يعتمد إلى بيعه^(١) . وكان الأمير أو الجندي إذا ما استقر على إقطاعه أخذ نصيبه من التقاوى السلطانية ولا يطالب بها إلا عند خروج الإقطاع عنه . ولما أتم الناصر روك البلاد المصرية ، أبقى تقاوى كل ناحية بها وسجلت فى الديوان السلطاني ، فبلغت جملتها ١٦٠.٠٠٠ أردب سوى التقاوى البلدية^(٢) .

كانت تختلف قيمة الأرض الزراعية بمصر باختلاف ما يزرع فيها ، وهى على عدة أصناف : نخص بالذكر منها^(٣) :

١ - الباق : وهو خير الأرضين وأعلاها قيمة وأوقاها سعرا لأنه يصلح لزراعة القمح والسكران ؛ وكان يؤجر القدان منه بأربعين درهما إلى سنة ٧٩٠هـ .

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢١٩

• De Sacy, Droit de Propriété Territoriale en Egypte 1ere Serie, Tome II pp. 246—248.

(٢) المقرئى : المواعظ والاعتبار (Wiet) ج ٢ ص ٣٢

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٩ — ٤٤٨ ، المقرئى : المواعظ

والاعتبار (Wiet) ج ٢ ص ٧٠ — ٧١

٢ — البرائب : وسعرها دون الباقي لضعف الأرض ، وتصلح لزراعة القرط والمقاتي ، ويؤجر القدان منها بثلاثين درهما .

٣ — البرش : وهو عبارة عن كل أرض خلت من أثر ما زرع فيها للسنة الماضية .

٤ — الوسخ : وهو عبارة عن الأرض التي استحکم وسخها ، ولم يتمكن المزارعون من إزالته ، بل حرثوها وزرعوها ، فجاء زرعها مختلطا بالخلفاء ونحوها .

٥ — الخرس : وهو عبارة عن الأرض التي فسدت بما استحکم فيها من موانع قبول الزرع وتستخدم كمرعى للدواب .

٦ — الشراقي : وهو الأرض التي لا يصل إليها الماء لقصور النيل أو علوها ، أو لیسد طريق الماء عنها .

٧ — المستبحر : وهو الأرض الواطئة التي إذا سار فيها الماء لا تجد مصرفا له .

٨ — السباخ : وهو الأرض التي غلب عليها الملح ، فأصبح لا ينتفع بها في زراعة الحبوب ، وقد يزرع فيها الباذنجان والقصب الفارسي .

رقد زادت المحصولات الزراعية في مصر ونمت ثروة البلاد بفضل تلك العناية التي وجهها سلاطين المماليك إلى تسهيل سبل الزراعة حتى أصبحت غلة فدان القمح تتراوح من أردبين إلى عشرين ، وفدان القول من عشرين إلى مادون ذلك ، وفدان الحمص من أربعة أرادب إلى عشرة ، وفدان العدس من عشرين أردبا إلى مادونها ، وفدان السمسم ما بين أردب إلى ستة أرادب ، أما القطن فتوسط انتاج القدان منه ثمانية قناطر . وكان يتراوح محصول الفدان الواحد من القصب ما بين أربعين أبلوجة^(١) قند^(٢) إلى ثمانين^(٣) .

(١) الأبلوجة تسع قنطارا

(٢) القند : هو غسل قصب السكر إذا جمد (القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ حاشية ٥

ص ٤٧٢)

(٣) المقرئزي : خطاط : ج ١ ص ١٠١ — ١٠٣

وكان يجبي من الأرض الزراعية بمصر خراج يختلف باختلاف البلاد ؛ فأكثر خراج الوجه القبلي غلال من قمح وشعير وحمص وفول وعدس وبسلة ؛ ويؤخذ في الغالب عن خراج كل فدان من هذه الأصناف ما بين أردبين إلى ثلاثة ؛ وفي بعض الأحيان يؤخذ مع كل أردب درهم أو درهمان أو ثلاثة بحسب قطائع البلاد وضرائبها. أما الوجه البحري فأغلب خراج بلاده نقدا ؛ وليس فيه ماخراج بلاده غلة إلا القليل على العكس من الوجهة القبلي . (١)

* * * * *

وقد حرص سلاطين المماليك في مصر بجانب اهتمامهم بالزراعة ، على الإكثار من نتاج البقر والجاموس والأغنام . وكانت المواشي تتوالد بكثرة في بلاد الصعيد حتى أصبح أهالي تلك البلاد يملكون منها عددا وفيرا ، كما تمتعوا يرغد العيش بفضل وفرة محصول أراضيهم . وقد بلغ من ازدياد ثروتهم في ذلك العهد أن المسافرين من القاهرة إلى أسوان ، كان لا يكلف نفسه أى نفقة ، بل يجد بكل بلد أو ناحية يمر بها عدة دور للضيافة ؛ فإذا ما نزل بإحداها يقدم إليه ما يناسبه من الطعام ، ويجلب لدابته علفها (٢) .

وقد قام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بمشروع هام للعناية بالثروة الحيوانية ؛ ذلك أنه بنى حظيرة على قطعة من الأرض بجوار قلعة الجبل ، أجرى إليها الماء من القلعة ، وأنشأ بها بيوتا للدواجن وأخرى للأغنام والمواشي ؛ ثم أودع بها ألني رأس من البضأن بعث في طلبها من بلاد الصعيد وأربعة آلاف من الوجهة البحري ، كما جلب إليها كثيرا من البقر . وقد بلغ من اهتمام الناصر بالإكثار من نتاج الأغنام أنه صار يتتبع مراعيها في عيذاب وقوص ومادونهما من البلاد ويجلب منها الأنواع المختارة ؛ وفضلا عن ذلك فإنه كان يبعث في استحضار الأغنام من بلاد النوبة واليمن (٣) .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى : ج ٣ ص ٤٤٩ — ٤٥٠

(٢) المفريزي : خطط ج ٢ ص ١٩٠

(٣) المفريزي : خطط ج ٢ ص ٢٢٩ ، أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٤ القسم الثاني

الفصل الثاني

مظاهر تقدم الصناعة في مصر

ازدهرت الصناعة بمصر في عهد سلاطين أسرة قلاوون بفضل اهتمامهم بالعمل على ترقيةها وحرصهم على سد حاجة الشعب منها . وكان مما سهل عليهم مهمتهم نبوغ كثير من المصريين في مختلف الصناعات .

وقد ظفرت مصر في عصر المماليك بمركز هام في صناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها حتى أصبح لبعض المدن المصرية شهرة عالمية في هذا المضمار ؛ نخص بالذكر منها : مدينة شطا^(١) وينسب إليها الثياب الشطوية ، ودينق^(٢) التي يصنع بها القماش الثقيل المعروف بالدينق . وقد بلغ ثمن الثوب منه مائة دينار . وإلى جانب هذه الثياب الجيدة كانت تنسج ثياب رقيقة تسمى بالقصب ، ينسج الملون منه بتنيس^(٣) . ولم ينسج في أى مكان آخر قصب ملون مثله ؛ وكان يصنع عنه عمام للرجال ووقايات وملابس للنساء . أما القصب الأبيض فينسج بدمياط ، وهو عبارة عن قماش من تيل أبيض^(٤) ؛ وكان يصنع بها أيضاً نوع من القماش يسمى أبا قلمون ، يتغير لونه عدة مرات في اليوم حسب الوضع الذي يكون فيه^(٥) .

(١) مدينة عند تنيس ودمياط ، عرفت بشطا بن الهاموك الذي لحق بالمسلمين وقت الفتح وأسلم ودلهم على عورات مدينة دمياط التي كان عليها أبوه الهاموك من قبل للمقوقس .

(٢) قرية من قرى دمياط (المقریزی : خطط ج ١ ص ٢٢٦)

(٣) جزيرة بين الفرما ودمياط (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤١٩)

(٤) الحصار الاسلامي (Mez) ج ٢ ص ٢٩٨

(٥) لاه في تاريخ من الممار وسائر الفنون الصناعية بمصر (Max Herz) ص ٢٣١

(نريد على بهجت)

وقد اشتهرت مصر منذ عهد بعيد بصناعة المنسوجات الحريرية ، وبذت فيها غيرها من البلاد التي حذقت تلك الصناعة ، وأصبح بها كثيرون من تجار الحرير ، كما صارت تنسب بعض أنواع الأقمشة الحريرية إلى أسماء مدنها ؛ فالأقمشة التي تعرف باسم فستيان Fustian اشتق اسمها من كلمة «الفسطاط»^(١) ، كما أن الأقمشة الحريرية المزركشة المعروفة بالديبقي تنسب إلى قرية ديبقي^(٢) .

ويتبين لنا مدى تقدم مصر في صناعة المنسوجات الحريرية من القطع المحفوظة بدار الآثار العربية ؛ فمن بينها قطعة من الحرير أرضيتها خضراء وفيها خطوط صفراء متموجة تسكوّن جامات بيضاوية وفي وسطها صور طيور وحيوانات وهمية من الحرير الأخضر ، كذلك نجد من بين محفوظات الدار قطعة من قماش على أرضيتها الزرقاء أغصان ملتفة وأوراق مشرشرة من الأزرق الفاتح ؛ يقرأ بداخلها « عز لمولانا السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاوون » . .

وهناك عدا ذلك قطعة من حرير لونها نبالى ، وبها خطوط أفقية الأعلى والأسفل منها عليهما كتابة بالنسخ ، يقرأ فيها : « عز لمولانا السلطان الملك الناصر » ، وبوسط هذه القطعة رسم أسد يفترس غزالا على أرضية بها زخرفة نباتية ؛ ويرجع تاريخ نسجها إلى أواخر القرن السابع الهجرى أو الثلث الأول من القرن الثامن الهجرى .

ومن بين مقتنيات الدار أيضاً : قطعة حرير من قماش أصفر ، عليها كتابة بالمداد الأسود وهى عبارة عن عقد زواج أبى عبد الله محمد الممتلك بدنقلة ومذكور عليها نسبه لمخطوبته الأميرة الجليلة الرئيسة المصونة ابنة عمه الست بشرية ؛ ومؤرخ فى ٢ ذى القعدة سنة ٧٣٣ هـ^(٣) .

(١) ترات الاسلام (Christie, Arnold, Briggs) ج ٢ ص ٦١ - ٦٢

(تعريب زكى حسن)

(٢) القلقشندي : صيغ الأعشى ج ٣ حاشية ٣ ص ٤٧٢

(٣) الهوارى : رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية ص ٩٥ - ٩٦

ومن القطع ذات الكتابات التاريخية التي كشفتها دار الآثار العربية: قطعة نسيج من الحرير الأخضر الغامق ، قوام زخارفها شريطان من الكتابة باسم أحد سلاطين المماليك ، وعلى أرضية سوداء ، وبين هذين الشريطين عصابة فيها مجموعات تمثل كل منها نمراً يضيء غزالاً ، ويفصل كل مجموعة من التي تليها رسم شجرة^(١) .

وكان يصنع في دمياط نوع من القماش اسمه « شرب » ، يمتاز بدقة صنعه حتى بلغ من تقدير التجار له أنه لو عمل ثوب منه في القبوات التي اتخذها الصناع على خليج دمياط وبقي منه شبر دون حياكة ثم تداولته أخرى ، تبين ذلك لهم وعملوا على تخفيض ثمنه^(٢) .

وقد نبغ أهالي الإسكندرية أيضاً في صناعة هذا القماش المعروف بالشرب^(٣) ، وكانوا يعنون عناية كبيرة بنسجه ، ومن ثم علا سعره ، ويتبين لنا ذلك مما أورده المقرئى^(٤) عن تلك الصناعة ، فقال : « وفي ثياب الإسكندرية ما يباع الكتان منه إذا عمل ثياباً يقال لها الشرب ، كل زنة درهم بدرهم فضة ، وما يدخل في الطرز فيباع بنظير وزنه مرات عديدة » .

وكان للأقشة التي تنسج بالإسكندرية شهرة فائقة في عصر المماليك . وقد عبر عن ذلك الشيخ نور الدين علي بن أحمد العسقلاني الشهير بأبن حجر — أحد تجار مصر القديمة — المتوفى سنة ٧٧٧ هـ في هذين البيتين^(٥) :

إسكندرية كم ذا يسمو قماشك عزاً

فطمت نفسى عنها فلست أطلب بزا

وكانت صناعة النسيج في مصر من الرقي بحيث أصبح من اليسير أيضاً

(١) دليل موجز لمروضات دار الآثار العربية (Wiet) - ص ٨٨ (تعريب زكى حسن)

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٨٦

(٣) الفقه شندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٤

(٤) خطط : ج ١ ص ١٦٣

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ - القسم الأول من ٢٨٨ (طبعة كالمورنيا)

صنع بعض الأقمشة الصوفية ؛ فامتازت بلدة القيس بعمل المنسوجات الصوفية التي لم يكن لها نظير إلا في مصر ، كما اشتهرت طحها — إحدى قرى الصعيد — بصناعة الثياب الصوفية الرفيعة (١) .

وعلى الرغم من أن مصر كانت تزرع القطن منذ زمن بعيد ، فإنها لم تكن معدودة من بين البلاد التي تنتج أحسن أنواعه . وقد ظلت على هذه الحال إلى أواخر القرن الثامن عشر ، حيث كانت تصدر الكتان إلى الشام وتستورد منها القطن (٢) .

وكانت صناعة القطن على عكس صناعة الكتان منتشرة في فارس ؛ فيقول الثعالبي (٣) : « وقد علم الناس أن القطن لخراسان وأن الكتان لمصر » . وتقع المراكز الكبرى لصناعة القطن في شرق فارس وهي مرو ونيسابور وبم (شرق كرمان) . وقد اشتهرت هذه المدينة الأخيرة بثياب القطن الفاخرة وكان من طرائف ما يصنع بها الطيالسة المقورة التي تنسج برفارف وتباع بخراسان والعراق ومصر (٤) .

وكان لسلطين المماليك مصانع خاصة تسمى دور الطراز ، تصنع فيها الخلع التي تمنح لكبار رجال الدولة وموظفيها ، وينقش عليها أسماء السلاطين وألقابهم (٥) .

كذلك اشتهرت مصر بصناعة الفرش والستور ؛ وكانت تصنع من الديبى وتزخرف برسوم الحيوانات المختلفة . وقد مهر أهل دمياط في عمل الفرش القلمونية المطرزة الملونة ، كما أن الفرش القرمزية التي كانت تصنع بأسبوط تشبه الأرمينية من حيث جودة صوفها وذقة صنعها ؛ وهناك إلى جانب ذلك

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٠٤ ، الحضارة الإسلامية (Mez) ج ٢ ص ٢٩٦

(٢) Browne, Travels in Africa, p. 354.

(٣) لطائف المعارف ص ٩٧

(٤) الحضارة الإسلامية (Mez) ج ٢ ص ٢٩٦ ، ٣٠١

(٥) Sir, E. Denison Ross, The Art of Egypt Through the Ages p. 76.

مراكز أخرى لصناعة الستور كالبهنسا التي يعمل بها الستور البهنسية ويبلغ طول الستر منها ثلاثين ذراعا ، وقيمة الزوج ثلاثمائة دينار . وكانت الستور والأكسية والثياب التي تصنع بالبهنسا من الصوف أو القطن ينقش عليها اسم المتخذ له (١)

ويتبين لنا مدى تقدم صناعة المنسوجات والفرش والبسط في مصر بما أورده المقرئزي (٢) ، فذكر عند كلامه على قصر الأشرفية الذي بناه الأشرف خليل سنة ٦٩٢ هـ ، أنه لما تم بناء هذا القصر احتفل الأشرف بختن أخيه الناصر وابن أخيه موسى بن الصالح على بن قلاوون ، وبلغت النفقة في عمل البساط والمشروب والأقية والطراز والسروج وثياب النساء ثلاثمائة ألف دينار . وعندما فرغ السلطان الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن محمد بن قلاوون من بناء قصره المسمى « الدهيشة » سنة ٧٤٥ هـ ، عمل له من الفرش والبسط والآلات ما يحل وصفه . وكذلك كانت الحال بالنسبة لقاعة البيسرية التي أنشأها السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون سنة ٧٦١ هـ فقد عمل لها من الفرش والبسط ما لا تدخل قيمته تحت حصر .

وكان الأمراء أيضا لا يقلون عن سلاطين مصر في الاهتمام باقتناء الثياب والبسط ؛ ولا أدل على ذلك مما ذكره المقرئزي (٣) ، فقال :

« إن حواصل المال التي (بقصر قوصون) كانت تشتمل على أنواع المال والقماش والأواني الذهب والفضة على ما لا يحصى ولا يعد كثرة . . . وكان في حاصله عدة مائة وثمانين زوج بسط ، منها ما طوله من أربعين ذراعا إلى ثلاثين ذراعا عمل البلاد ، وستة عشر زوج من عمل الشريف بمصر ثمن كل زوج اثنا عشر ألف درهم نفرة ، منها أربعة أزواج بسط من حرير . »

(١) الحضارة الإسلامية (Mez) ج ٢ ص ٢٩٧ ، ٣٠٣ — ٣٠٤ ، المقرئزي :

خطوط ج ١ ص ٢٣٧ — ٢٣٨

(٢) خطوط ج ٢ ص ٢١١ — ٢١٢

(٣) خطوط ج ٢ ص ٧٢ — ٧٣

وقد اقتنت دار الآثار العربية بعض قطع من الستور ؛ يتبين لنا من مشاهدتها إلى أى حد تقدمت صناعتها ؛ فمن بينها قطعة ستارة من قماش مخيش مطرزة بالحرير المختلف الألوان ومنقوش عليها زخارف نباتية تشبه الأغصان ، عليها طيور ، ويحيطها إطار ملوئ بالزخارف ، ولا يزال باقيا بها الكثير من خيوطها الفضية ^(١) .

وكان للمصريين مهارة كبيرة في صناعة الخيم والفساطيط المعمولة من الديبقي والخسرواني ^(٢) والبهنساوى ، وهى على عدة أصناف ، منها : المفيتل والمسبع والمطوس والمطير ^(٣) ، وغير ذلك من صور سائر الوحوش والطيور والآدميين ، ومنها أيضا الساذح (السادة) والمنقوش بالذهب والفضة والخيوط الحريرية .

وكان الصناع المصريون يصنعون تلك الخيم والفساطيط بجميع آلاتها من الأعمدة الملبسة أنابيب الفضة والثياب المذهبة وغير ذلك من سائر أنواعها ، والجلال المكسوة بالقطن والحرير ؛ وكانت جميعها مبطنة بالديبقي والخسرواني المذهب .

وكان لصناعة السروج شأن كبير في عهد المماليك . وقد تخصص العمال المصريون في عملها ؛ فكان منهم عدد كبير من المركبين والخزازين بالمكان المعروف « بالصاغة » . وقد بلغ من تفتنهم في صنعها أنهم كانوا يحلون بها بالفضة والذهب . ويتبين لنا مدى تقدم هذه الصناعة مما أورده المقرئى ^(٤) عند كلامه على سوق اللجميين « أدركت السروج تعمل ملونة ماينين أصفر وأزرق ، ومنها ما يعمل سيورا من الجلد البلغاري الأسود ؛ ويركب بهذه

(١) الهوارى : رسالة في وصف محتويات دار الآثار العربية ص ٩٤

(٢) الخسروانى ، نوع من القماش ينسب إلى خسرو شاه — أحد ملوك الفرس — وكان يصنع في مصر على مثاله .

(٣) القيل هو الذى نقش عليه صورة القيل ، والمسبع صورة السبع ، والمطوس صورة الطاووس ، والمطير صورة الطائر .

(٤) خطط ج ٢ ص ٩٨

السروج السود القضاة ومشايخ العلم اقتداء بعادة بنى العباس في استعمال السواد، أما السروج التي يستخدمها الأجناد والكتاب، فيعمل للسروج في قربوسه ستة أطواق من فضة مقبلة مطلية بالذهب . . . ولا يكاد أحد يركب فرسا بسرج سناذج إلا أن يكون من القضاة وأهل العلم والورع .

ولم تكن عناية المصريين في عهد المماليك بصناعة المعادن أقل من اهتمامهم بالصناعات الأخرى التي ظهرت فيها مواهبهم؛ فقد راجت تلك الصناعات في مصر؛ وكان من مميزات رسوم الأزهار والأشكال الهندسية الكثيرة الزوايا والكتابات؛ ونستشهد على ذلك بالطرف المحفوظة بدار الآثار العربية. فمن بينها كرسى على قوائمه الست كتابة يستفاد منها أنه صنع سنة ٧٢٨ هـ (١٢٢٧ م) في أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون على يد صانع بغدادى^(١).

وقد اتخذ المصريون من النحاس الثريات؛ فنجد بين مقتنيات دار الآثار العربية ثريا من النحاس عليها اسم الأمير قوصون (٧٣٠ - ٧٣١ هـ) جيء بها من جامع السلطان حسن، وتسع ٢٥٥ قنديلا، وتفيد الكتابة المحفورة عليها أن صانعها أتمها في أربعة عشر يوما^(٢).

كذلك عني المصريون بصناعة الآواني المنزلية من النحاس كالآباريق والصحون والطسوت. وتتجلى لنا دقة تلك الصناعة مما احتفظت به دار الآثار العربية من الآنية النحاسية وطاسات الخضة التي كانوا يعتقدون أن من يشرب فيها يشفى من الأمراض؛ وقد نقش على إحداها: «تنفع هذه الطاسة المباركة اجتماع النيرين بالعقرب، وهي تقاوم السموم كلها من الحية والعقرب والكلب الكلب والحوام كلها، يسقى بها الملسوع بماء أو زيت أو لبن، فإنه يبرأ بإذن الله تعالى وهي للقولنج وللغل وللبلقة وللحمى والصداع

(١) لمعة في تاريخ فن العمارة وسائر الفنون الصناعية بمصر (Max Herz) ص ١٨٩

(٢) الهوارى: رسالة في وصف محتويات دار الآثار العربية ص ٣٠، دليل موجز

للمروضات دار الآثار العربية (Wiet) ص ٥٣

ولسائر الآلام والاشقام . . . ولإبطال السحر ؛ وذلك في شهر شعبان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة^(١) . . .

وقد بلغ من كثرة استعمال النحاس في عهد المماليك أن أبواب بعض المساجد وقصور السلاطين والأمراء ، صارت تغطي بصفايح من النحاس الأصفر المقسم بحشوات منقوشة يتكون منها أشكال هندسية بديعة . وقد حفظت لنا دار الآثار العربية بابا من مصر أعين مصفحين بصفايح من النحاس منقوشة بأشكال عربية ، يتخللها كثير من صور الطيور والحيوانات ، وبأعلى هذه الزخارف وأسفلها كتابة بالنسخ المملوكي . يستدل منها أن هذا الباب كان لأحد أمراء عصر السلطان الملك المنصور قلاوون^(٢) .

وقد راجت بمصر صناعة تكفيت (تطعيم) البرنز والنحاس بالذهب والفضة ، كما ولع المصريون باقتناء الأواني النحاسية المسكفة التي كان الصناع يقومون بإعدادها في سوق السكفتين بالقاهرة ؛ ويتبين لنا ذلك مما ذكره المقرئ^(٣) ، فقال : « وللناس في النحاس المسكفت رغبة عظيمة . . . فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت ، ولا بد أن يكون في شورة العروس دكة نحاس مكفت . . . » وفوق الدكة^(٤) دست طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة ، وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض ، تبلغ كبرها ما يسع نحو الأردب من القمح ، وطول الأكفات التي نقشت بظاها من الفضة نحو ثلث ذراع في عرض أصبعين ، ومثل ذلك دست أطباق عدتها سبعة ، بعضها في جوف بعض ، ويفتح أكبرها نحو الذراعين وأكثر وتبلغ قيمة الدكة من النحاس المسكفت زيادة على مائتي دينار ذهبيا . . .

(١) Wiet, Catalogue Général du Musée Arabe de caire, Objets en Cuivre

(٢) الموارى : رسالة في وصف محتويات دار الآثار العربية ص ٥٧

(٣) خطط ج ٢ ص ١٠٥

(٤) الدكة : عبارة عن شيء يشبه السرير ، وتصنع من خشب مطعم بالماج والأبنوس

(المقرئ : خطط ج ٢ ص ١٠٥)

كذلك حرص رجال الدولة في عهد المماليك على اقتناء الأواني المكشوفة؛ ونستدل على ذلك بما أورده ابن أبياس^(١) عن محتويات خزان علم الدين عبد الله بن تاج الدين أحمد بن إبراهيم المعروف بابن زنبور، التي صودرت في عهد السلطان الملك الصالح صلاح الدين صالح سنة ٧٥٣ هـ، فقال: «ووجد له من النحاس الأصفر المكشوف والنحاس الأبيض نحو من أربعين ألف قطعة».

وكانت المعادن تكشفت بحفر الرسوم على ظاهرها وملء الشقوق المؤلفة لها بالذهب أو بالفضة أو بهما معا في بعض الأحيان؛ وكثيرا ما كانت تلك الرسوم تزدد جمالا بشقوق أخرى تملؤها مادة لزجة خاصة^(٢).

وقد بلغ فن تكشيف المعادن غايته من الإتقان في منتصف القرن الثاني عشر وظل محافظاً على هذه المنزلة زهاء قرنين؛ فكانت التحف النحاسية تظعم بالذهب والفضة، وزخارفها ذات نضرة وبهاء يكسيانها بريقاً ولعناً؛ وما يجدر بنا ملاحظته أن عدداً كبيراً من تلك التحف النفيسة عليه تاريخ إتمامها وأسماء الفنانين الذين قاموا على صناعتها والبلاد التي ينتسبون إليها. وقد ظهر من هذه البيانات أن جل أولئك الفنانين من مدينة الموصل.

وليس غريباً أن يتخذ أهل الموصل، صناعة التحف النحاسية وتطعيمها حرفة؛ فكانوا على مقربة من إقليم أعالي الجزيرة حيث توجد مناجم النحاس؛ ومن ثم أصبحت تلك المدينة غاصة بالصناع الذين اشتهروا بمنتجاتهم الفنية على اختلاف أنواعها لاسيما الأواني النحاسية التي تختص بالمائدة^(٣).

على أن مدرسة الموصل الفنية سرعان ما انتقل أثرها إلى مصر عن طريق سورية؛ وكان مما ساعد على ذلك غزو المغول أراضي الدولة العباسية وتخريبهم

(١) تاريخ مصر ج ١ ص ١٩٨

(٢) تراث الإسلام (Chistle, Arnold, Briggs) ج ٢ ص ٢٧

(٣) دليل موحز لمروحات دار الآثار العربية (Weit) ص ٦٤ — ٦٥ تراث الإسلام

(Chistle, Arnold, Briggs) ج ٢ ص ٢٨

مدن الجزيرة وسقوط مملكة الموصل نفسها في يدهم ، في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ؛ قُتشت رجال الفن منها ^(١) ، واتخذوا في القاهرة ودمشق دوراً لإقامتهم ؛ وما يؤيد صحة هذا القول تلك الكتابات المنقوشة على بعض التحف النحاسية التي تنبئنا عن هجرة بعض الفنانين المشتغلين بصناعتها من الموصل إلى القاهرة ودمشق ^(٢) .

ولما انتقل فن التكفيت المعادن إلى مصر ، تغيرت زخارفه وحدثت فيه تطورات جديدة ؛ فأصبح للجامات التي كانت تنكرر في الأشرطة الزخرفية حافات من الرسوم النباتية الدقيقة ، كما صارت الكتابات أهم الزخارف في المدرسة الفنية بالقاهرة بعد أن كانت شيئاً ثانوياً ^(٣) .

وقد حفظت لنا دار الآثار العربية مجموعة كبيرة من التحف والأدوات والأواني التي تمثلت فيها صناعة التكفيت أصدق تمثيل ؛ فنخص بالذكر منها : إناء عليه اسم وألقاب ابن فضل الله العمرى رئيس ديوان الإنشاء في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ولا تزال به آثار التكفيت ^(٤) .

وهناك عدا ذلك كرسى من نحاس أصفر منشورى الشكل ، مسدس الأضلاع ، على أجنابه قضبان رفيعة تقسمها إلى سطوح ، بعضها مكفت ، وبوسط قرصه كتابة بالكوفي الجليل تتضمن ألقاب السلطان الناصر محمد وهى : « عز لمولانا السلطان الملك الناصر ، العالم ، العامل ، الفارس ، المجاهد ، الم رابط ، المناغر ، المؤيد ، المنصور ، سلطان الإسلام والمسلمين ، قائل الكفرة والمشركين ، محيي العدل في العالمين ، ناصر الدنيا والدين بن السيطان المنصور قلاوون الصالحى . » وفى الزوايا وفوق العصابات صور بط ، إشارة إلى اسم والد السلطان محمد ، وترى هذه الصور أيضاً داخل جامات الأجانب - وبأحد الأجانب باب ذو مصرعين بمفصلات وترايس

(١) تراث الإسلام (Chistle, Arnold, Briggs) ص ٢٠ من ٢٩

(٢) دليل موجز لمروضات دار الآثار العربية (Wiet) ص ٦٥

(٣) تراث الإسلام (Chistle, Arnold, Briggs) ج ٢ ص ٣١

(٤) الموارى : رسالة فى وصف عنويات دار الآثار العربية ص ٥٨

وبه تكفيت جميل بالفضة — ، وعلى أرجل هذا الكرسي كتابة أخرى لا تقل في الأهمية عن السالفة الذكر ، وفيها اسم صانعه ، وتاريخ صنعه ونصها : « عمل العبد الفقير الراجي عفو ربه ، والمعترف بذنبه الأستاذ محمد ابن سنقر البغدادي السناني ، وذلك في تاريخ سنة ثمانية وعشرين وسبعائة في أيام مولانا الملك الناصر عز نصره ^(١) » .

ومن بين مقتنيات دار الآثار أيضاً ، شمعدان من نحاس أصفر ، مكفت بالذهب والفضة ، عليه كتابة كوفية مشبكة ، عبارتها دعائية « وفي الجامات والحافات صور حيوانات وآدميين مختلفة أوضاعهم ، وعند منبت الرقبة كتابة ، يستدل منها على تاريخ صنعه واسم صانعه ونصها : « نقش محمد بن حسن الموصلی — رحمه الله — ؛ عمله بمصر المحروسة في سنة ثمان وستين وستائة ^(٢) » .

وقد بدأت صناعة التكفيت في الإضمحلال منذ أواخر القرن الرابع عشر ، بسبب غارات المغول على سورية ونهب تيمور مدينته دمشق سنة ١٤٠١م ونقله كثيراً من صناعها إلى سمرقند التي اهتم اهتماماً خاصاً بإصلاحها ^(٣) ؛ غير أنه بينما أخذت تلك الصناعة تضمحل وتضعف في مهدها الأول ، ازداد توجه الأنظار إليها في أوروبا حيث كان مقدراً لها أن تنعم ببيع من جديد ^(٤) .

كذلك عنى المصريون عناية خاصة بصناعة الذهب والفضة . ولم يقل اهتمامهم بهذه الصناعة في عهد المماليك عما كانت عليه في عهد الطولونيين والفاطميين ؛ فقد اتخذوا من الذهب الثريات والنوافذ لبيوت سلاطينهم ، وليس أدل على ذلك من قاعة البيسرية التي بناها السلطان الملك الناصر حسن بن محمد

(١) لعة في تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية بمصر (Max Herz) من ٢١٦ .

Wiet, Catalogue Générale Du Musée Arabe de Caire ; Objets en Cuivre

(٢) لعة في تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية بمصر (Max Herz) من ١٠٢ .

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية (V. Parthold) من ١٠٧ (تريب حزة ظاهر)

(٤) ثرات الاسلام (Christie, Arn-, Briggs) ج ٢ من ٣٢

أبن قلاوون في قصرة سنة ٥٧٦١ هـ؛ فقد ذكر المقرئى^(١) أنه كان بها تسع وأربعون ثريا . وكان جملة ما دخل فيها من الفضة البيضاء الخاصة المضروبة ٢٢٠٠٠ ر. ٢٢ درهم ، كلها مطلية بالذهب . وكان ارتفاع بناء هذه القاعة ٨٨ ذراعا وعليها برج مطعم بالعاج والأبنوس ، وبها شبابيك من الذهب الخالص . وكان بتلك القاعة قبة صوغت بثمان وثلاثين ألف مثقال من الذهب .

وكان المصريون يتخذون أيضا من المعادن الدكك . وقد لقيت هذه الصناعة إقبالا عظيما ، حتى أصبح لا يخلو منها بيت من بيوت كبار رجال الدولة في عهد المماليك ؛ ويتبين لنا ذلك مما ذكره المقرئى^(٢) ، فقال : « وكانت العروس من بنات الأمراء أو الوزراء أو أعيان السكتاب أو أمائل التجار ، تجهز في شورتها عند بناء الزوج عليها سبع دكك : دكة من فضة ، ودكة من كفت ، ودكة من نجاس أبيض ، ودكة من خشب مدهون ، ودكة من صيفى ، ودكة من بلور ، ودكة من ورق مدهون تحمل من الصين ، أدركنا منها في الدور شيئا كثيرا . »

كذلك كان المصريون يعنون عناية خاصة بالدكك والأواني الفضية التي يستخدمونها في منازلهم ؛ فينفقون من سبعة على إصلاحها إذا ما أصابها عطب فيحدثنا المقرئى^(٣) « أن القاضي علاء الدين بن عرب محتسب القاهرة لما قارب البناء على امرأة من بنات التجار تعرف بست العائم ، حضر إليه في يوم وكيلها . فلغزه سلامها عليه ، وأخبره أنها بعثت إليه بمائة ألف درهم فضة خالصة ليصلح بها ما عساه اختل من الدكة الفضة ، فأجابته إلى ما سأل ، وأمره بإحضار الفضة ، فاستدعى الخدم من الباب ، فدخلوا بالفضة في الحال وبالوقت أمر المحتسب بصناع الفضة وطلائها ، فأحضروا وشرعوا في إصلاح ما أرسلته ست العائم من أواني الفضة وإعادة طلائها بالذهب . »

(١) خطط ج ١ ص ٢١١ - ٢١٢

(٢) خطط ج ٢ ص ١٠٥

(٣) خطط ج ٢ ص ١٠٥

وقد أظهر المصريون مهارة كبيرة في صناعة الأدوات والأواني الفضية ؛ وكانوا ينقشون عليها بعض الرسوم والكتابة . وقد حفظ لنا المتحف القبطي مجموعة ثمينة من الأطباق الفضية — عليها رسوم أسماك — وشعدان صنع في القرن الثالث عشر الميلادي ، عثر عليه بكنيسة مارمينا بقم الخليج وهو على شكل تفينين مكفتين بالفضة ، وبه خمسة عشر مغرساً للشمع ؛ وهناك عدا ذلك مباخر وطسوت وأباريق من الفضة عليها نقوش بارزة ، مذهبة ، وكتابة بالقبطية والعربية ^(١) .

وقد برع المصريون فوق ذلك في صناعة سبائك الذهب من التبر الذي يكثر وجوده ببلدة العلاقي التي تقع على مسيرة خمس عشرة مرحلة من أسوان فيتجولون بهذه المنطقة في الليالي التي يضعف فيها ضوء القمر ويعلمون على المواضع التي يرون فيها شيئاً مضيئاً علامة يعرفونها ، ويبيتون هناك ، فإذا أصبحوا حملوا أكوام الرمل التي علموا عليها ومضوا بها إلى آبار هناك ، فغسلوها بالماء واستخرجوا التبر ثم يمزجونه بالزئبق ويسبكونه ^(٢) .

وكان يستخرج الزمرد من قفط ؛ فيحفر عليه أهالي هذه البلدة في الجبل ويقتلعونه من عمق بعيد ^(٣) ، وإذا ما استخرج ألقى في الزيت الحار ثم يوضع في قطن ويصر ذلك القطن في خرق خام أو نحوها . وكان يجمع ما يخرج من هذا المعدن ويصدر إلى الفسطاط ؛ ولم يزل يستخرج الزمرد من قفط إلى أن أوقف الوزير صاحب علم الدين عبد الله بن زنبور العمل بمناجمه لقلة

(١) مرقس صميكة باشا : دليل المتحف القبطي ص ٩٠ — ٩١

(٢) الحضارة الإسلامية (Mez) ج ٢ ص ٢٦٩

(٣) يقول الفزولي عن استخراج الزمرد بمصر : « في النجوم بين بلاد مصر والسودان خلف أسوان يوجد في جبل هناك كالجمر فيه معادن تحفر ، فيخرج منها الزمرد قطعاً صفاراً كالخصي منبته في تراب المعدن وربما أصيب العرق منه متصلاً فيقطع وهو جوده ؛ وأما صغيره فإنه يصاب في التراب بالنخل ؛ وذلك أنهم ينخلون التراب ثم يوجد خلاله فيغسل كما يغسل تراب الفضة (مطامع البدور في منازل السرور ج ٢ ص ١٤٩)

ما يستخرج منها وذلك في أيام السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون (١).

وكان المصريون يستخدمون هذا المعدن النفيس في تزيين عروش السلاطين وترصيع تيجانهم ، كما استخدموه أيضاً في مختلف أنواع الحلى .

ولم تكن مصر من المراكز الهامة لصناعة الحديد في عصر المماليك ، لكن المصريين رغم ذلك حذقوا في صناعة بعض أنواع من الأسلحة والدروع المتخذة من الصلب ، كما اتخذوا من الحديد الشبايك والأقفال والمفاتيح الحديدية التي حفظتها لنا دار الآثار العربية وتمتاز بأن رموسها محلاة بزخارف هندسية مخرمة (٢) ؛ وفضلاً عما تقدم فإن المصريين كانوا يصنعون من الحديد أقفاصاً يستخدمونها في الأسواق ؛ فقد ذكر المقرئ (٣) أنه كان « فوق التخوت التي تقع تجاه شبائك القبة المنصورية أقفاص صغار من حديد ، تشبك فيها الطرائف من الخواتيم والفصوص وأساور النسوان وخلاخيلهن » .

وكان الزجاج من بين المصنوعات التي ازدهرت بمصر في عهد المماليك ، فقد أورد الحسن بن عبد الله — أحد كتاب القرن الثامن الهجري — في كتابه « آثار الأول في ترتيب الدول » عبارة نقف منها على وجود هذه الصناعة بمصر ؛ وفيما يلي نصها (٤) : « ويتقدم (والى المدينة) بأن تكون أرباب الصناعات القذرة في أطراف البلد بمعزل عن المواضع المتوسطة منها ، وذلك مثل المسالخ والمدابغ ومسابك الزجاج والحديد وأتاتين الجير والآجر وعمل الصابون وما أشبه ذلك » .

وقد اشتغل الصناع المصريون في أوائل العهد الإسلامي بصنع أقراص الزجاج التي كانت تتخذ عيارات وزن وكيل ؛ فيطبع بها على الأواني لبيان

(١) المقرئ : خطط ج ١ ص ٢٢٢

(٢) الجوارى : رسالة في وصف محتويات دار الآثار العربية ص ٦٦ — ٦٨

(٣) خطط ج ٢ ص ٩٧

(٤) ص ١٦٥

أحجامها المختلفة ^(١)، ثم أخذوا يصنعون في القرن الخامس الهجري زجاجاً شفافاً، عظيم النقاوة، يشبه الزمرد؛ وكان ذلك مما مهد السبيل إلى بلوغ هذا النوع من الصناعة الذروة العليا في عصر المماليك الذي أخرج فيه صناع الزجاج المصاييح أو المشكاوات التي راجت سوقها على وجه الخصوص في القرن الرابع عشر الميلادي ^(٢).

وكانت أهم مراكز صناعة الزجاج في مصر الإسلامية، بالفسطاط والفيوم والأشهرين والإسكندرية التي لم تفقد مكانتها في ميدان هذه الصناعة على الرغم مما نزلته الفسطاط من شهرة فائقة فيها ^(٣).

وقد لقيت صناعة المشكاوات الزجاجية في مصر نجاحاً وإقبالاً عظيمين؛ وليس أدل على ذلك من أن ما تمتلكه منها دار الآثار العربية بالقاهرة يكاد يربي على الموجود في متاحف العالم أجمع، وهي بشكلها وتنوع نقوشها وحسن الخطوط وإتقان صنعها وتلوين المينا تشهد ببراعة الصناع وحنقهم.

ولم يتفق علماء الفن الإسلامي على تحديد الإقليم الذي صنعت فيه هذه المشكاوات؛ فيذهب بعضهم إلى أنها صنعت في سورية، بينما يقول آخرون إنها صنعت في الديار المصرية؛ ومن يميل إلى هذا الرأي Max Herz، الذي دعم حجته بعدة أدلة، منها أن مصر وسورية سواسية في صناعة الزجاج، فلا يتصور أن المصريين يفضلون جلب أشياء سريعة العطب والكسر من الخارج على صنعها رأساً في بلادهم موطن صناعة الزجاج؛ وفضلاً عن ذلك فإنه يرى أن زخارف هذه المشكاوات تشبه الزخارف الموجودة بالمساجد التي كانت معلقة بها. وإذا أمعنا النظر في بعض المصاييح التي وجدت بجامع السلطان حسن نرى أن عليها اسم هذا السلطان، ونفس الأزهار المرسومة

(١) زكي حسن: كنوز الفاطميين ص ١٢٩

(٢) زكي حسن: كنوز الفاطميين ص ١٨٠، الهوارى: رسالة في وصف محتويات

دار الآثار العربية ص ١٠٣

(٣) زكي حسن: كنوز الفاطميين ص ١٨١

على رخام تربته مما يثبت لنا أنها صنعت بمصر^(١).

وقد شملت مجموعة المصاييح النفيسة المحفوظة بدار الآثار العربية أمن المصنوعات الزجاجية الإسلامية ، وهي إلى جانب ذلك متشابهة الشكل : فالقبة في كل واحدة منها واسعة الفوهة على هيئة قع وتحتها بدن متنفخ ومنسحب إلى أسفل أى مكون من جذعى مخروطين متصلين عند قاعدتهما ، وفيه ثلاثة أو ستة آذان ؛ ويقوم البدن على قاعدة أو طيلسان لوضع المشكاة على الأرض إذا أريد عدم تعليقها ، ويتراوح ارتفاعها بين ٢٥ و ٤٥ سنتيمترا^(٢).

وكانت تضاء هذه المشكاوات بوضع الفتييل والزيت في قرابات تعلق بسلاسل على الحافة العليا منها ، ويشبك في الآذان سلاسل من نحاس أصفر أو من فضة ، تجمع ببعضها تحت كرة مستديرة أو بيضاوية . تعلق بالسلسلة العظمى المستعملة كعلاقة . وكانت السكرات البيضاوية تتخذ من خشب أو عاج أو بيض نعام أو زجاج مدهون بالمينا الجميلة^(٣).

وقد شاع في عصر المماليك طلاء المشكاوات المصنوعة من الزجاج بالمينا ؛ وهي مادة نصف شفافة تذاب وتستخدم في زخرفة الألوان الزجاجية والأدوات المعدنية ، ويمكن إعطاؤها ألوانا مختلفة بأن يضاف إليها بعض الأكاسيد^(٤).

وتدل الكتابة المنقوشة على المشكاوات التي تقنيها دار الآثار العربية بالقاهرة على أن معظمها صنع لبعض السلاطين وكبار رجال الدولة المصرية في القرن الرابع عشر الميلادى^(٥) ؛ فمن بينها مشكاة من زجاج غير ملون ،

(١) لمعة في تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية بمصر (Max Herz) ص ٢٩٤

(٢) دليل موجز لمروضات دار الآثار العربية (Wiet) ص ٨٩ ، لمعة في تاريخ فن

المعمار وسائر الفنون الصناعية بمصر (Max Herz) ص ٣٠٠

(٣) لمعة في تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية بمصر (Max Herz) ص ٣٠٠

(٤) تراث الاسلام (نحاشية ١ ج ٢ ص ٣٥) (تعريب زكى حسن)

(٥) Sir. E. Denison Ross, The Art of Egypt Through the Ages p.80

على عنقها زخارف ، وعلى البدن كتابة حمراء نصها : « مما عمل برسم التربة المباركة السلطانية الملكية الأشرفية الصلاحية تغمد الله صاحبها بالرحمة والرضوان »^(١) . « ؛ ويؤخذ من هذه الألقاب ؛ أنها عملت برسم تربة السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون الذى قتل سنة ٦٩٣ هـ^(٢) .

كذلك نجد بدار الآثار العربية مشكاة مزخرفة ، على رقبتها كتابة قرآنية ، وعلى بدنها اسم السلطان محمد بن قلاوون « وبين زخارفها الجميلة نقط بالمينا الزرقاء ، وكثير من الطيور المتقنة الرسم ؛ ونص الكتابة التى على البدن « عز لمولانا السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين محمد عز نصره »^(٣) . وتحفظ دار الآثار أيضا بمشكاة من زجاج بها كتابة وزخارف بالمينا مختلفة اللون ؛ والكتابة التى على الرقبة حروفها زرقاء على أرضية من زجاج أكثرها مذهب ؛ ونصها : (الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة كأنها كوكب درى) ؛ أما التى على البدن فتحتوى اسم السلطان حسن وألقابه من نفس الزجاج على أرضية بالمينا الزرقاء ؛ ونصها : « عز لمولانا السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين حسن بن محمد عز نصره » . يضاف إلى ماتقدم مشكاة للأمير ألماس — أحد أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون — ، حول رقبتها رسوم دقيقة الصنع ، تتخللها ثلاث دوائر بها كتابة متقنة بالمينا الزرقاء ومزخرفة بنقوش بالمينا البيضاء وزهور صفراء وحمراء وخضراء على أرضية مذهب ؛ ونصها : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) ؛ وعلى البدن كتابة فى الزجاج نفسه فوق أرضية من المينا الزرقاء ؛ نصها : « مما عمل برسم الجامع المعمور بذكر الله تعالى ، وقف المفتر العالى السيفى ألماس أمير حاجب الملكى الناصرى »^(٤) .

(١) Wiet, Catalogue des lampes et Bouteilles en Verre Émaillé.

(٢) لمعة فى تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية بمصر (Max Herz) ص ٣٠٢

(٣) لمعة فى تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية الأخرى (Max Herz) ص ٣٠٢

(٤) لمعة فى تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية الأخرى (Max Herz)

ولم يكن عمل مصانع الزجاج بمصر مقصورا على إخراج المشكاوات بل قام المصريون أيضا في عصر المماليك بصنع الآنية الزجاجية ؛ وأحسن مثل لذلك تلك الصينية التي احتفظ بها المتحف القبطي ، وهى من وقف كنيسة المعلقة ، وعليها ثلاث دوائر ، بها رسوم دقيقة بالمينا الحمراء ؛ ويرجع تاريخ صنعها إلى القرن الرابع عشر الميلادى^(١) .

وكان من بين المصنوعات الزجاجية التي ظهرت بمصر : الزجاج الملون اللازم للشبابيك الجص ، والمكعبات الزجاجية ذات السطح المذهب التي جرت العادة بتصديرها إلى القسطنطينية لصنع الفسيفساء^(٢) ؛ ويظهر أن استعمال هذه المكعبات الزجاجية لم يتسع مجاله في مصر بدليل وجوده في أثرين اثنين فقط ، أحدهما عقد محراب جامع أحمد بن طولون ، والآخر عقد محراب المدرسة الأقباقوية التي تكون جزءا من الجامع الأزهر . وقد قام أقبغا عبد الواحد — أحد أمراء السلطان الناصر — ببنائها بعد سنة ٧٣٠ هـ^(٣) .

وكان المصريون يزاولون أيضا صناعة البللور الصخرى الذي كان يستورد من بلاد المغرب وبعض مناطق البحر الأحمر^(٤) . وكان النوع الذي يجلب من القلزم أجمل من المغربى وأكثر منه شفافية^(٥) .

وقد ساعد استخراج البلور من مصر على خفض ثمنه وإنتاج التحف الكثيرة منه التي حرص أعيان المصريين وكبار رجال الدولة في عصر المماليك على أن يزودوا بها قصورهم ؛ ويتبين لنا ذلك مما أورده المقرئى^(٦) عن محتويات خزائن الأمير قوصون ، فقال : « أما الذهب المكبس والفضة ، فكان ينيف على أربعمئة ألف دينار ، وأما الزركش والحوائص والمعصبات

(١) مرقس سمكة باشا : دليل المتحف القبطى ص ١٣٦ — ١٣٧

(٢) الهوارى : رسالة في وصف محتويات دار الآثار العربية ص ١٠٣ — ١٠٤

(٣) لمعة في تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية الأخرى (Max Herz) ص ٢٩٩

(٤) Sir. E. Denison Ross, The Art of Egypt Through the Ages p. 80

(٥) زكى حسن : كنوز الفاطميين ص ١٨٨ — ١٨٩

(٦) خطط ج ٢ ص ٧٢ — ٧٣

ما بين خواتمجات وأطواق وصرة وذهب فإنه فوق المائة ألف دينار . والبلور والمصاغ المعمول برسم النساء فإنه لا يحصر .

وكان يتخذ من البلور أيضاً الدكاك والآنية ؛ وفي ذلك يقول المقرئى (١) :
« أخبرنى من شاهد جهاز بعض بنات السلطان حسن بن محمد بن قلاوون وقد حمل فى القاهرة عند ما زفت على بعض الأمراء فى دولة الملك الأشرف شعبان ابن حسين بن قلاوون ، فكان شيئاً عظيماً ؛ من جملة دكة من بلور تشتمل على عجائب منها زير قد نقش بظاهره صور ثابتة على شبه الوحوش والطيور وقد هذا الزير ما يسع قرية ماء . »

وفضلاً عما تقدم . فإن البلور استخدم فى مصر . فى صناعة السنج والمكايل الزجاجية وقد حفظت لنا دار الآثار العربية الكثير من هذه العيارات بين مجموعاتها (٢) .

كذلك كانت مصر من بين المراكز الصناعية التى انتشرت منها نماذج مختلفة من الخزف فى العالم الإسلامى (٣) . وقد بدأت هذه الصناعة تزدهر بمصر فى العصر الطولونى ، ثم أخذت فى سبيل التقدم حتى بلغت مبلغاً عظيماً من الرقى فى عهد الفاطميين ، فأصبح يصنع من الخزف الفناجين والقصور والصحون وبعض الموائع ؛ ولا أدل على رواج هذه الصناعة من أن التجار المصريين كانوا يستخدمونها عوضاً عن الورق فى الوقت الحاضر ؛ فيضعون فى الأواني الخزفية ما يبيعونه ويأخذها المشترون بالمجان (٤) .

وقد استمرت صناعة الخزف قائمة فى عصر المماليك ، ويتبين لنا ذلك من نماذج القطع الخزفية المحفوظة بدار الآثار العربية ، والمتحف القبطى وتمتاز بنقش أسماء الفنانين الذين قاموا بصنعها على الجزء الأسفل منها . كما أن عليها

(١) حطاط - ٢ من ١٠٥

(٢) لمحة فى تاريخ من المصنوعات وسائر الفنون الصناعية الأخرى (Max Herz) ص ٢٩١

(٣) راب الإسلام (Chistie, Arnold, Briggs) - ٢ من ٣٩

(٤) كى حصر - نور العاصميين ص ١٤٩ - ١٥٠

كتابات وبعض جمل مثل : « عز لمولانا . . . » وما عمل برسم الجناح ، تجعلنا نحكم بغير تردد أنها من آثار القرن الرابع عشر الميلادى ؛ فضلا عن ذلك فإن بعض الأواني الخزفية مزين برسوم شارات أصحاب المناصب الكبرى في عهد المماليك ؛ فنجد الأسد والنسر ذا الرأسين والسيف وزهرة الزنبق والصولجان والدواة والكأس والقوس والسهم (١) .

وقد ألفت الحفريات التى عملت بمصر ضوءا عن الإسراف فى استيراد كثير من الأواني الخزفية من أسبانيا وإيطاليا وفارس والصين . وليس من شك أن صناع الخزف المصريين قلدوا فن صناعة الأواني الصينية المستوردة من فارس وخاصة من سلطان آباد وأيضا من الصين (٢) .

وكان يصنع بمصر فى عصر المماليك المراكب النيلية التى تسير فى النيل حاملة حاصلات البلادين جهات للوجهين القبلى والبحرى ، كما اشتهرت أيضا بصناعة السفن التى تكون منها الأسطول المصرى . وكانت هذه السفن تشحن بالأسلحة والمقاتلة لرد غارات الصليبيين عن سواحل مصر والشام . وقد مهد الملك الظاهر بيبرس السيل لإعادة شأن الأسطول فى مصر إلى ما كان عليه فى عهد الأيوبيين ؛ ففتح الناس من أن يتصرفوا فى أخشاب السفن ، كما أمر بإعداد الشوانى فى ثغرى الإسكندرية ودمياط ، وصار ينزل بنفسه إلى دار الصناعة بمصر ويشرف على تجهيزها . ولما جاء سلاطين المماليك من بعده اقتدوا به فى عنايته ببناء المراكب الحربية ؛ فاهتم الأشرف خليل بن قلاوون على أثر اعتلائه سلطنة مصر بإنشاء أسطول قوى وعهد بإعداده إلى إلى الوزير صاحب شمس الدين محمد بن السلعوس . ولما كملت عدته ستين مركبا أمر بتجهيزها بالآلات الحربية والرجال ، وسار إلى دار الصناعة

(١) لمعة فى تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية الأخرى (Max Herz) ص ٢٣٤ ، مرقس سمكة باشا : دليل المتحف القبطى ص ١٣٥

(٢) Sir, E. Denison Ross, The Art of Egypt through the Ages p. 79

بجزيرة الروضة لاستعراض الأسطول ، وأقام لذلك احتفالا كبيرا ، أقبل إليه الناس من كل حدب وصوب وازدحمت الطرق والميادين بالآهالى الذين خرجوا من بيوتهم لمشاهدة هذا الاحتفال ، وحين أقبل السلطان ، خرجت الشوانى^(١) ، والحراريق^(٢) والطرائد^(٣) واحدة بعد أخرى وتبارى الجنده وما منهم إلا أظهر عملا معجبا وصناعة غريبة يفوق بها على صاحبه ، ثم تقدم ابن موسى الراعى وهو فى مركب نيلية ، فقرأ قوله تعالى : (بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم) ، ثم تلاها بقراءة قوله تعالى : (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير .) ؛ هذا والشوانى تواصل محاربة بعضها بعضاً إلى أن أذن لصلاة الظهر ، فضى السلطان بعسكره عائداً إلى القلعة ؛ وأقام الناس بقية يومهم وليلتهم فى لحو ومرخ^(٤) .

كذلك حرص السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون على أن يحتفظ لمصر بأسطول قوى ، فعنى بإنشاء الشوانى وتجهيزها سنة ٧٠٢ هـ لدرء الخطر الصليبي عن سواحل بلاد الشام^(٥) .

وعندما عاود الصليبيون مهاجمة الإسكندرية فى عهد الملك الأشرف شعبان سنة ٧٦٧ هـ ، اهتم الأمير بلبغا الأتابك بإعداد الشوانى البحرية لغزو بلاد الفرنجة ؛ فجمع كميات وفيرة من الأخشاب والحديد ؛ وشرع النجارون

(١) الشوانى : جمع شوفى أو شينى ، وهى أهم القطع التى كان يتألف منها الأسطول وأعظمها شأنا ، وهى مراكب حربية كبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجا وقلاعا للدفاع والمجوم . وكانت هذه الأبراج مكونة من عدة طبقات تنف فى الطبقة العليا منها المساكن المسلحة بالقوس والسهم ، وفى الطبقة السفلى الملاحون بالمجاديف .

(٢) الحراريق : جمع حراقة ، وهى مركب حربية كبيرة كانوا يحملون فيها البارود والنفط .

(٣) الطرائد : سفن خاصة بحمل الخيول ؛ وكانت تسمى نحو أربعين فرسا وربعا وصلت

إلى ثمانين فرسا .

(٤) المقرزى : خطط ج ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥

(٥) المقرزى : خطط ج ٢ ص ١٩٥

والنفاطة في بناء السفن الحربية بحزيرة أروى^(١) وقد أشرف على إنجازها الوزير نحر الدين ماجد بن قزوينه^(٢).

ولما كملت عمارة الشواني الحربية في ربيع الأول سنة ٧٦٨ هـ جهرها الأمير يلغا الاتابك بالمقاتلة والعدد الحربية والأسلحة ثم فرقا على الأمراء قسّم كل أمير ما خصه من الشواني وزينها بأعلامه ، وأقام فيها الطبول والأبواق كما أنزل بها فريقا من عماليكه لابسين عدة الحرب ، ثم ركب السلطان والأمير يلغا وسائر أمراء الدولة وأعيانها لرؤية الشواني بحزيرة أروى ، كما خرج الناس من أنحاء المدينة لمشاهدتها^(٣).

وكانت السفن تصنع بدار صناعة الجزيرة على صنفين ؛ فالمرالكب التي تستعمل في البحر الأبيض تجهز بمسامير ، أما مراكب البحر الأحمر والمحيط الهندي فتخاط بحبال الليف . وكانت هذه هي الطريقة القديمة في إعاء السفن عند جميع الأمم^(٤) . وقد ذكر ابن جبير^(٥) أن مراكب البحر الأحمر كان لا يستعمل فيها مسبار البتة وإنما هي مخيطة بأمراس من القنبار وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه إلى أن يتخييط ويقتسلون منه أمراسا يخيطون بها المراكب . . . وإذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها ؛ وهذا القرش حوت عظيم في البحر .

وكانت السفن تصنع في مصر من الأخشاب التي تستورد من البندقية وبلاد الشام ، ومن خشب السنط والنج^(٦) الذي روى المقرئ^(٧) عن

(١) تعرف هذه الجزيرة أيضا بالجزيرة الوسطى لوقوعها بين الروضة وبولاق

(٢) المقرئ : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٣ ص ٤٩ ب

(٣) المقرئ : السلوك ج ٣ ص ٥٤ ب

(٤) الحضارة الإسلامية (Mex) ج ٢ ص ٣٦٢

(٥) رحلة ابن جبير ص ٣٧

(٦) كان حجر النج يمدح بأنصا — إحدى مهابن المصيد القديمة — وكانت تعرف

باسم Antinoe الحضارة الإسلامية (Mex) ج ٢ ص ٣٦٣

(٧) خطوط ج ١ ص ٢٠٤

أبى حنيفة الديبوري أنه كان يباع اللوح (من خشبه) بخمسين ديناراً ونحوها وإذا شد لوح بلوح وطرح في الماء ستة أيام صار لوحاً واحداً .
 بما تقدم يتبين لنا مدى اهتمام مصر في عهد المماليك بالصناعة البحرية ،
 أضف إلى ذلك أن أهلها كانوا يعظمون رجال الأسطول ، حتى أطلقوا عليهم
 « المجاهدين في سبيل الله » و « الغزاة في أعداء الله » (١) .

* * *

كذلك تقدمت صناعة النجارة والنقش في الخشب بالحفر ، في عهد
 المماليك ؛ وكان جل استعمالهم للأخشاب في عمل السقوف والأبواب ومصاريع
 الشبايك والكراسي والمنابر والدكك والمشربيات (٢) .
 وقد بلغ التفنن في النقش والزخرفة أقصى درجات التقدم على عهد السلطان
 الناصر محمد بن قلاوون الذي يمتاز عصره بالمصنوعات الخشبية البديعة التي
 تشهد بعظم الصناعة المصرية .

وكان المصريون يتبعون في زخرفة المصنوعات الخشبية عدة طرق ، منها :
 الحشوات والخراط والتطعيم . وقد استخدموا الحشوات رغبة منهم في تجنب
 تشقق الخشب تحت تأثير الحرارة وجفاف الجو ، هذا إلى ميلهم للأشكال الهندسية .
 ولم يصل إلينا من نماذج هذه الصناعة إلا القليل لسرعة تطرق اليل إليها ؛ لكننا
 رغم ذلك نستطيع أن نقف على مهارة الصناع المصريين في ميدان تلك الصناعة
 مما احتفظت به دار الآثار العربية ؛ فنرى ما تحتوى عليه إحدى قاعاتها :
 « جزء من سقف مكون من حشوات مختلفة ، وعلى هذه الحشوات زخارف
 من سيقان وفروع نباتية منقوشة بدقة » ، ويرجع تاريخ صنعه إلى القرن الثالث
 عشر الميلادي (٣) .

(١) القرطبي : خطط ج ٢ ص ١٩٤

(٢) للمصريات : اشتق اسمها من أحد الأفراسي الخصمة لها وهي إحصاء مكان محبوب
 من أسماء الشمس توضع فيه أواني الماء المسببة .

Sir, E. Dauterle, The Art of Egypt through the Ages p. 73

(٣) دليل موزن لمروحات دار الآثار العربية (١٩٦١) ص ٢٤

أما الخشب المخروط، فقد بلغت صناعته أوج عظمتها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وكانت تصنع منه الشبايك والحواجز والمشربيات التي شاع استعمالها في المنازل لإخفاء حجرات الحريم، هذا إلى أنها كانت تيسر على النساء النظر إلى الخارج دون أن يراهن المارة، وتعمل على تنقية ضوء الشمس وإدخال النور اللطيف والنسيم العليل^(١).

وكانت بعض المساجد تزين بالخشب المخروط؛ وأحسن مثل ذلك ما نجده بجامع المارداني الذي بني سنة ٧٣٨ هـ خارج باب زويلة؛ إذ نرى في المقصورة التي تفصل الإيوان الشرقي عن صحن الجامع أنواعاً شتى من الخراط؛ من بينها ما رسم على هيئة مسدسات موصولة ببعضها بقطع أسطوانية صغيرة^(٢). وكان تطعيم المصنوعات الخشبية بالعاج والأبنوس لا يقل في الأهمية عن صناعة الحشوات والخراط. وقد ذاع استعماله في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. ومن المتحف القيمة التي تقتنيها دار الآثار العربية ويتجلى فيها ازدهار تلك الصناعة: باب ذو مصراعين به حشوات من خشب نبق منقوشة ومحاطة بأشرطة رفيعة من السن، عثر عليه بقبة السلطان الملك المنصور قلاوون المبنية سنة ٦٨٤ هـ. وهناك عدا ذلك كرسي من الخشب لوضع الشهاد مكسو بالفسيفساء الدقيق، عثر عليه بجامع أم السلطان شعبان^(٣).

كذلك نجد بالمتحف القبطي مصراعي باب، صنعا في القرن الثالث عشر، من خشب مطعم بالعاج المنقوش بغاية الإتقان، وأصله من كنيسة المعلة. وبهذا المتحف أيضاً كرسي للقراءة «منجلية» بأسفله خزانة كتب

(١) Sir, E. Denison Ross, The Art of Egypt Through the Ages. p. 74

تراث الإسلام (Christle, Arnold, Briggs) ج ٢ ص ١٥٩

(٢) لمعة في تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصنافية الأخرى (Max Herz) ص ١١٤

المقريزي: تخطيط ج ٢ ص ٣٠٨

(٣) الهواري: رسالة في وصف محتويات دار الآثار الثرية ص ٤٦، ٥٠

بابها مطعم بالعاج المنقوش ، وفي وسطه صورة نمر يفترس غزالاً ، وهو من وقف كنيسة مار جرجس ، ويرجع تاريخ صنعه إلى القرن الثالث عشر (١) .

* = *

وكانت مصر من بين المراكز الهامة لصناعة السكر في العصر الإسلامي بدليل قول ناصري خسرو الذي زارها سنة ٤٣٩ هـ « وتنتج مصر عسلاً كثيراً وسكرأ » (٢) . ولم تزل هذه الصناعة سائرة في طريق التقدم حتى أصبح لها شأن كبير في عهد المماليك ؛ فيحدثنا المقرئ (٣) أنه كان بسمهود سبعة عشر حجراً لعصير القصب ، كما كان يملأى عدة معاصر ؛ وقد بلغ ما أودعه أولاد فضيل في مخازنهم بهذه البلدة ، اثنين وثلاثين ألف قنطار من القند (٤) سنة ٧٣٨ هـ (٥) . وفضلاً عن ذلك فإنه كان للوزير علم الدين عبد الله بن زنبور خمس وعشرون معصرة وجد بها من القنود ما لا يتحصر وزنه ، (٦) .

وكانت معاصر القصب في مصر تنتج كميات وافرة من السكر في عصر الناصر محمد بن قلاوون ، فبلغ راتب الخوانج خاناه في أيام هذا السلطان ألف قنطار من السكر في شهر رمضان ، ثم تزايد حتى بلغ في شهر رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة ثلاثة آلاف قنطار (٧) .

وكان المصريون يتخذون من السكر الحلوى ، فيصنعون منها عدة أنواع بسوق الحلاويين الذي يعد من أبهج أسواق القاهرة في عصر المماليك ،

(١) صميكة باشا : دليل المتحف القبطي ص ١٤٧

(٢) الحضارة الإسلامية (Mez) ج ٢ ص ٢٦١

(٣) خطط ج ١ ص ٢٠٣

(٤) كان للقند دار خاصة بالبساطا ووقعها خطة خارجه بن حذافة الصعابي غربي دار البركة (ابن دقاق : الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٦)

(٥) المقرئ : خطط ج ١ ص ٢٠٤ ، على مبارك : خطط ج ١٥ ص ٧١

(٦) ابن أبياس : تاريخ مصر ج ١ ص ١٩٨

(٧) المقرئ : خطط ج ٢ ص ٢٣١

يقول المقرئى (١) إن ثغطار السكر كان ينادى عليه بهذا السوق بمائة وسبعين درهما ، كما يحدثنا أيضاً أنه ، فى موسم شهر رجب كان يصنع فيه من السكر أمثال خيوط وسباع وقطاط وغيرها تسمى العلاليق . . . ، تزفع بخيوط على الحوانيت ، فنها ما يزن عشرة أرطال إلى ربع رطل ، وتمتلىء أسواق مصر والقاهرة وأريافهما من هذا الصنف . وكذلك يعمل فى موسم نصف شعبان . .

(١) خطبة : ٢ ص ٩٩ — ١٠٠

الفصل الثالث

تجارة مصر الداخلية

لم يكن اهتمام سلاطين المماليك موحها فقط إلى إنماء الزراعة وترقية الصناعة ، بل عنوا أيضاً عناية كبيرة بتسهيل سبل التجارة المصرية ؛ فتشطت في أيامهم حركة التجارة الداخلية بمصر ، وأصبحت القاهرة عامرة بالأسواق كما كثرت بها الحوانيت التي كانت تمتد على طول بعض شوارعها من الجانبين . وكانت أسواق القاهرة وحوانيتها تموج بالتجار والأهالي الذين يفدون إليها لقضاء جميع ما يلزمهم من حاجيات المعيشة ؛ وليس أدل على ذلك مما أورده المقرئزي^(١) عن انتعاش الحركة التجارية في الطريق الممتد من الحسينية إلى المشهد النفيسي ، فقال : « أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة بالحوانيت غاصة بأنواع المآكل والمشارب والامتنعة ، تبهج رؤيتها ويعجب الناظر هيئتها ويعجز العاد عن إحصاء ما فيها من الأنواع فضلاً عن إحصاء ما فيها من الأشخاص ، وسمعت الكافة ممن أدركت يفتخرون بمصر سائر البلاد ويقولون يرمى بمصر في كل يوم ألف دينار ذهباً على السكبان والمزابل يعنون بذلك ما يستعمله اللبانون والجبانون والطباخون من الشقاق الحر التي يوضع فيها اللبن ، والتي يوضع فيها الجبن ، والتي تأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطباخين ، وما يستعمله يباعو الجبن من الخيط والحصر . . . ، وما يستعمله العطارون من القراطيس والورق القوى ، والخيوط التي تشد بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب والأفاويه وغيرها ، فإن هذه الأصناف المذكورة إذا حملت من الأسواق وأخذ ما فيها ألقيت إلى المزابل . . . »

كذلك وصف لنا المقرئى^(١) وكالة قوصون التى شاهدها بنفسه ، فقال :
« إن رؤيتها من داخلها وخارجها لتدهش لكثرة ما هنالك من أصناف
البضائع وازدحام الناس وشدة أصوات العتالين عند حمل البضائع ونقلها
لمن يبتاعها » .

وكانت الأسواق التجارية فى عصر أسرة قلاوون ، تمتاز بأن كلا منها
ينفرد ببيع أنواع خاصة من المنتجات والبضائع ؛ فيباع بقيسارية ابن ميسر
الكبرى الأقمشة الكتانية والطرح ، ويتردد عليها تجار القاهرة فى يومى الأحد
والأربعاء لشراء هذه الأصناف . وكان بسوق الجمالون الصغير كثير من
البزازين الذين يبيعون الثياب المنسوجة من الكتان والقطن ، وينادى فيه على
الثياب بحراج حراج^(٢) ، وبه إلى جانب ذلك عدد من الحياطين والباية الذين
يقومون بغسل الثياب وصقلها (أى كياها) . وفضلا عن هذين السوقين فإن
سويقة أمير الجيوش كان بها عدد كبير من حوانيت الرقائين والحباكين
والرسامين والحياطين ، ويبيع بهذا السوق سائر الثياب المخيطة والأمتعة من
الفرش ونحوها .

وكان للفراء سوق يعرف بسوق الفرائين ، يسكن فيه صناع الفراء
وتجاره . ولم يكن اقتناء الفراء شائعاً فى عصر أسرة قلاوون وإنما كثر استهلاكه
فى أيام الظاهر برقوق ومن خلفه من السلاطين ، وفى ذلك يقول المقرئى^(٣) :
« أخبرنى الطواشى الفقيه الكاتب الحاسب الصوفى زين الدين مقبل ... عتيق
السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون أنه وجد فى تركة بعض أمراء
السلطان حسن قباء بفرو قاقم^(٤) ؛ فاستكثر ذلك عليه وتعجب منه ، وصار

(١) خطط ج ٢ ص ٩٣

(٢) حراج ، حراج ؛ كلمة ينطق بها الباعة مرتين أو مرارا قبل أن يبيع يما باتا
ما بيده ؛ فالحراج إذن وقوف البضاعة مع الدلال عند ثمن لايزاد عليه (الكرملى : العقود
البرية وعلم النميات . حاشية ٣ ص ٦٢)

(٣) خطط ج ٢ ص ١٠٣

(٤) القاقم : حيوان برى يشبه الفأرة

يحكى ذلك مدة لعزة هذا الصنف واحترامه لكونه من ملابس السلطان وملابس نسائه؛ ثم تبدلت الأصناف المذكورة حتى صار يلبس السمر آحاد الأجناد وآحاد الكتاب وكثير من العوام .

وكان من بين أسواق القاهرة ، سوق يعزف بسوق الشرايشين نسبة إلى الشرايش التي يعطيها السلطان لمن يؤمره من المالك ، وهي أغطية للرأس مثلثة الشكل ، تلبس بغير عمامة . وقد شاع استعمالها في عصر الناصر محمد ابن قلاوون ، ثم حل محلها الكلونات الجركسية منذ أن ولي السلطان الملك الظاهر برقوق سلطنة مصر . وكان بهذا السوق فريق من التجار يشتري التشاريف والخلع ثم يبيعها للسلطان والأمراء^(١) .

وكان بالقاهرة أسواق خاصة لبيع المواد الغذائية ؛ نخص بالذكر منها : سوق باب الفتوح ، ويمتاز بما على جانبيه من حوانيت القصاين والخضريين والشرابية وغيرهم ؛ وهو من أعظم أسواق القاهرة وأكثرها عمرا ، فيقصده الأهالي لشراء أنواع اللحم الضأن والمعز ، وأصناف الخضروات . ويكثر بيع لحوم الضأن والبقر أيضاً بسوق حارة برجوان الذي كان به فوق ذلك كثير من حوانيت الزياتين والجبانين والخبازين واللبانين والطباخين والشوايين والعطارين والخضريين . وهناك سوق آخر يعرف بسوق البندقانيين كان به عدة حوانيت لبيع المأكولات من الشواء والطعام المطبوخ وأنواع الأجبان والألبان والبوارد والخبز والفواكه .

كذلك كان سوق بين القصرين زاخراً بأصناف المأكولات من اللحوم والحلويات والفواكه وغيرها . وقد ذكر المقرئى : « أن الرطل من لحم الدجاج أو الأوز المطجن ، كان يباع بهذا السوق ، بدرهم ، كما كانت تباع به العصافير المقلوة ، كل أربعة وعشرين بدرهم » .

وقد فاقت شهرة سوق بين القصرين غيره من الأسواق لكثرة

فأبى من البضائع وازدحامه بالأهلين الذين يفدون إليه لشراء ما يلزمهم من حاجيات المعيشة ؛ وفي ذلك يقول المقرئى (١) : « لقد حدثنى غير واحد من قدم مع قاضى القضاة عماد الدين أحمد الكركى أنه لما قدموا من الكرك فى سنة اثنين وتسعين وسبعمائة كادوا يذهلون عند مشاهدة بين القصرين ؛ وقال لى ابنه محب الدين محمد : أول ما شاهدت بين القصرين حسبت أن زقة أو جنازة كبيرة تمر من هنالك ؛ فلما لم ينقطع المارة ، سألت ما بال المارة مجتمعين للبرور من ههنا ، فقيل لى هذا دأب البلد دائماً . »

وفضلاً عن هذه الأسواق ، كان سوق باب الزهومة موصوفاً بحسن ما يباع فيه من المأكولات وطيبها ؛ كما أن سوق الدجاجين امتاز بما يباع به من الدجاج والأوز والعصافير وأنواع الطيور المختلفة كالقمارى والهازرات والشحارير والبيغاء والسهمان (٢) .

وكانت ثمار بساتين ضواحي القاهرة تنقل إلى دار خصصت للتجارة فيها ، تجاه باب زويلة ، تعرف بدار التفاح ، ثم توزع على ما بظاهرها من الحوانيت حيث يتولى بيعها التجار للأهلين . وكان الباعة يعنون بعرض منتجات البساتين فى هذه الحوانيت ؛ ولا أدل على ذلك مما أورده المقرئى (٣) عن وصفها : « تذكر رؤيتها وشم عرفها الجنة لطيبها وحسن منظرها وتأنق الباعة فى تنصيدها واحتفافها بالرياحين والأزهار . » أما الفواكه التى تزد من بلاد الشام كالتفاح والكثيرى والسفرجل فتودع بوكالة قوصون ، ومنها توزع إلى سائر أسواق القاهرة ومصر ونواحيها .

وكان الشمع يباع بسوق الشماعين الذى تزداد به الحركة التجارية بصفة خاصة فى شهر رمضان لكثرة ما يشتري من الشموع الموكية التى تزن

(١) خط ج ٢ من ٢٨ — ٣٩

(٢) المقرئى : خط ج ٢ من ٩٦ ، ٩٧

(٣) خط ج ٢ من ٩٣

الواحدة منهم عشرة أرطال فما دونها ، والشمع الذى يحمل على العجل ؛
ويبلغ وزن الواحدة منها قنطاراً (١)
وكان من بين الأسواق التى نشطت فيها الحركة التجارية فى عصر أسرة
قلاوون ، سوق السلاح الذى اختص تجاره ببيع القسي والنشاب والزرديات
وآلات الحرب . كذلك كان لسوق اللجميين أهمية خاصة فى ذلك العصر
لولع المماليك بركوب الخيل ، وحرصهم على اقتناء ما يلزمهم من اللجم
الفاخرة (٢) .

وكان للتجار الغرباء فنادق (٣) أشبه بالأسواق الكبيرة ؛ فيضعون
بضائعهم فى أسفلها وينامون فى أعلاها ؛ ومن هذه الفنادق فندق طرناطي ؛
وكان ينزل فيه تجار الزيت القادمين من الشام - ووكالة قوصون وهى فى
مرتبة الفنادق ؛ كان ينزلها التجار ببضائع بلاد الشام من الزيت والصابون
والدبس والفسق والجوز واللوز والخرنوب والرب - وكذلك كان يقف إلى
فندق مسرور الكبير أعيان التجار الشاميين بتجاراتهم (٤) .

ولم يكن استخدام الفنادق مقصوداً على التجار الغرباء ، بل إن التجار
المصريين وأصحاب رموس الأموال منهم كانوا يودعون فى بعضها صناديق
المال ؛ فيحدثنا المقرئى (٥) عما رآه بفندق بلال المغيى : « لقد كنت أدخل
فيه فإذا بدائرة صناديق مصطفة ما بين صغير وكبير ، لا يفضل عنها من الفندق
غير مساحة صغيرة بوسطه ؛ وتشتمل هذه الصناديق من الذهب والفضة على
ما يحل وصفه » .

وكان يعلو الأسواق والفنادق والخانات رباع يسكنها الباعة والصناع ؛

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٩٦

(٢) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٩٧ - ٩٨

(٣) يطلق على الأسواق أو المخازن اسم فنادق وهو مشتق من الكلمة اليونانية

Pandokeion (الحضارة الإسلامية (Mez) ج ٢ ص ٢٢٧)

(٤) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٩٢ - ٩٤

(٥) خطط ج ٢ ص ٩٢

وتتكون هذه الرباع من عدة مساكن ، تستأجر بأجور زهيدة ؛ وأحسن مثل لذلك ، رباع وكالة قوصون التي كانت تشتمل على ثلثائة وستين بيتاً يسكنها أربعة آلاف نفس « ما بين رجل وامرأة وصغير وكبير » . ولم تكن وكالة قوصون هي التي امتازت دون غيرها بما فوقها من رباع ، بل شيدت بأعلى كل من فندق طرنطاي ووكالة باب الجوانية — التي حولها الأمير جمال الدين محمد بن علي الاستادار إلى فندق — رباع كبيرة (١) .

وقد حرص سلاطين المماليك على تلاقي حدوث الحرائق بالأسواق التجارية حتى لا تتعرض أرواح رعاياهم وأموالهم للدمار ؛ ومن ثم عهدوا إلى « صاحب العسس » بالإشراف عليها ؛ فكان يجلس بعد صلاة العشاء كل ليلة بمحطة المطافئ تجاه سوق الجملون الكبير بالقرب من حارة الجدرية بالغورية ، وينصب أمامه مشعل يشعل بالنار طول الليل ، وحوله بعض أعوانه ، وكثير من السقائين والنجارين وغيرهم من العمال ، خشية حدوث الحريق بالليل فيبادرون إلى إطفائه (٢) .

كذلك وجه سلاطين المماليك عنايتهم إلى مراقبة حركة البيع والشراء في الأسواق . فكان المحتسب يعهد إليه بهذه المهمة ؛ فيطوف مع توابعه ليلاً ونهاراً على الحوانيت ليقبض على من يحاول التطفيف في المكييل والموازين والغش في حاجيات المعيشة وبيع المأكولات الضارة بالصحة ثم يوقع العقاب على من ثبت إدانته ؛ فيحدثنا المقرئ (٣) عند كلامه على سوق باب الزهومة « أن متولى الحسبة بالقاهرة عبر في يوم السبت سادس عشر شهر رمضان سنة اثنتين وأربعين وسبعائة على رجل بواردى بهذا السوق يقال له محمد بن خلف عنده مخزن فيه حمام وزازير متغيرة الرائحة ... فأدبه وشهره . » وكان محصول الغلال يرد إلى ساحل القاهرة حيث يباع بخص السكيلة

(١) المقرئ : خطط ج ٢ ص ٩٣ — ٩٤

(٢) المقرئ : خطط ج ٢ ص ١٠٣

(٣) خطط ج ٢ ص ٩٧

بيولاقي ، وبسوف منية الأمراء على مقربة من شبرا ، والشون التي يمتلكها الأمراء (١).

ولم يكن سعر القمح ثابتا في عهد أسرة قلاوون ؛ فقد بلغ ثمن الأردب منه في أوائل سنة ٦٨٢ هـ خمسة وثلاثين درهما ، ثم انخفض إلى عشرين ، ثم إلى ثمانية عشر بعد أن أمر السلطان الملك المنصور قلاوون الأمراء بفتح شونهم (٢) . ولما كانت السنين الأولى من عهد الناصر محمد بن قلاوون نقص السعر إلى خمسة عشر درهما (٣) ثم ارتفع ثمنه حين وقع الغلاء بمصر سنة ٧٣٦ هـ ، فوصل ثمن الأردب إلى سبعين درهما ، كما تزايد سعره في أيام الأشرف شعبان ، فبيع بتسعين درهما الأردب سنة ٧٧٥ هـ (٤) ، وبمائة وخمسين درهما في السنة التالية بسبب قصور النيل (٥) . على أن هذا الغلاء لم يطل أمده ، فعاد السعر إلى ما كان عليه في أوائل عهد الناصر .

وقد قاوم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الأثمان الباهظة التي كان يفرضها الباعة وقت الغلاء ؛ فجعل يضرب بالسوط باعة الدقيق والخبازين الذين يتغالون في البيع ، كما أرغم الأمراء على فتح مخازنهم لسائر الشعب (٦) . وكان بمصر فريق من التجار يعرفون بالتجار الكارمية يبدون تجارة البهار من الفلفل والقرنفل ونحوهما مما يجلب من الهند واليمن ، ومن المحتمل أن تكون هذه التسمية أطلقت عليهم نسبة إلى الكائن (٧) وهم فرقة من السودان أقامت طائفة منهم بمصر واشتغلت بتجارة البهار (٨) .

(١) المقرئى : خطط ج ١ ص ٨٨ — ٨٩ ، ج ٢ ص ١٣٠

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧١٧ — ٧١٨

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ — ٤٤٤

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ٢٢٣ (طبعة كاليفورنيا)

(٥) المقرئى : لإغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٣٩ — ٤٠

(٦) Stanley Lane-Poole. A History of Egypt in the Middle Ages p. 312

(٧) ذكر القلقشندي (صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨٠) أن « بلادهم بين إفريقية و بركة »

(٨) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣١ حاشية رقم ١

وكان يسند الإشراف على ما يصل التجار الكارمية^(١) من البهار إلى أحد كبار موظفي الدولة ؛ وهو يتبع أحيانا الوزير ، وتارة يكون تابعا لديوان الخاص السلطاني ، وطورا ينفرد عنهما حسب رأى السلطان^(٢) .

وكان لتجار الكارم مراسلات بين عدن والهند . ويقوم عدد كبير منهم برحلات في بلاد العرب وأقطار الشرق الأقصى لزيارة متاجرهم ؛ هذا إلى أنه كان لهم شركات تمتلك عددا كبيرا من السفن . ولم تكن تجارتهم مقصورة على البهار والعطارة ، بل ساهموا أيضا في تجارة الغلال والحبوب وخاصة الفول^(٣) .

وقد جنى تجار الكارم من وراء اشتغالهم بالتجارة أموالا كثيرة ، حتى قال عنهم المقرئى^(٤) : إنهم « في عدة وافرة ولهم أموال عظيمة » . وليس أدل على ازدياد ثروتهم من المبالغ التي كانوا يقرضونها لحكومة المماليك في مصر لسد نفقات حروبها وخاصة في عصر الناصر محمد بن قلاوون ؛ فيذكر المقرئى^(٥) أن المغول لما أوقعوا الهزيمة بالمماليك سنة ٦٩٩ هـ وأصبحت الدولة المصرية في حاجة إلى المال ، طلب تناصر الدين محمد بن الشيخى والى القاهرة من تجار الكارم وأعيان التجار مالا على سبيل القرض ؛ كما حدثنا المقرئى^(٦) أيضا أنه لما قدم بعض الدماشقة إلى القاهرة سنة ٦٨٧ هـ وألزموا بدفع بعض المبالغ ؛ اعتذروا عن أدائها بأن أموالهم في دمشق ؛ وسألوا الأمير علم الدين سنجر الشجاعى — الذى كان يلى الوزارة إذ ذاك — أن يفرض عليهم ما يرسلونه إليه بعد عودتهم إلى دمشق ، لكنه خشى ألا يفوا بوعدهم إذا ما عادوا إلى بلدهم ؛ ومن ثم استدعى تجار الكارم بمصر وأمرهم أن يقرضوا

(١) يعرف هؤلاء التجار أيضا في بعض المراجع باسم تجار الكارم

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٢

(٣) Hanotaux, La Nation Egyptienne (Wiet), Vol IV p. 489

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ القسم الأول ص ١٠٣

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٩٩

(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٣٩

الدماشقة بعض المال؛ فلبوا طلبه « وكتبت على الدماشقة مساطر بما اقترضوه من هؤلاء التجار ». ولما عادوا إلى بلدهم لم يجدوا بدا من رد ما أخذوه من تجار الكارم .

* * * * *

كذلك حرصت حكومة الممالك في مصر على استخراج المعادن من الأراضي المصرية كالشرب والنطرون؛ واحتكر تجارتها الديوان السلطاني . وكان معدن الشرب — الذي يرد من بلاد الصعيد والواحات — يصدر من ساحل إخميم وأسيوط والبهنسا إلى الإسكندرية على المراكب النيلية حيث يباع منه لتجار الروم نحو من اثني عشر ألف قنطار بسعر يتراوح بين أربعة دنانير إلى ستة لكل قنطار . ويباع من هذا المعدن أيضا بمصر للبوديين والصباغين نحو الثمانين قنطارا ، سعر القنطار ستة دنانير ونصف . أما النطرون الذي يستخرج من الطرانة والفاقوسية على مقربة من الخطارة؛ فتمن القنطار منه بمصر والإسكندرية سبعون درهما^(١) .

* * * * *

كان الناس يتعاملون في مصر بالدرهم الكاملة التي أمر الملك الكامل الأيوبي بضر بها سنة ٦٢٢ هـ وجعلها ثلاثة أثلاث : ثلثي الدرهم من فضة والثلث من نحاس . ولما زالت الدولة الأيوبية وانتقل الحكم إلى الممالك أقروا هذا النقد حتى أمر السلطان الملك الظاهر بيبرس بضر دراهم جديدة عرفت باسم الدراهم الظاهرية ، نقش رنكة^(٢) عليها — وهو صورة سبع — .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٥ — ٤٥٦ ، المقريزي : خطط ج ١

ص ١٠٩

(٢) الرنكة معناه الشعار الذي يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له . وقد أورد القلقشندي (صبح الأعشى ج ٤ ص ٦١ — ٦٢) النواحي التي يستعمل فيها الرنكة ، فقال : « ومن عادة كل أمير من كبير أو صغير أن يكون له رنكة يخصصها ما بين جناب أو دواة أو بتجة أو فرنسية ونحو ذلك ؛ ويجعل ذلك دهانا على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم كطابخ السكر وشون الفلال والأملاك والمراكب وغير ذلك ، وعلى قاش خيولهم من جوخ ملون مقصوص ، ثم على قاش جملهم من خيوط ملونة تنقش على العبي والبلاسات ونحوها ؛ فوريما جعلت على السيوف والأقواس » .

ولم تزل الدراهم التكاملية والظاهرية تقوم بها المبيعات في مصر والشام ويدفع بها خراج الأراضي وأجرة المساكن إلى أن فسدت سنة ٧٨١ هـ بدخول الدراهم الحوية التي ضربها المماليك بمجاه ؛ فكثير تدمر الناس منها (١) .

ولما كان هناك بعض مبيعات تقل في قيمتها عن الدرهم أو جزء منه ، احتاج الناس من أجل ذلك إلى نقد سوى نقدي الذهب والفضة (٢) ؛ فضربت في أيام الملك الكامل فلوس من نحاس ، ثم تتابع السلاطين من بعده في ضربها حتى كثرت في الأيدي ، وكانت — كما قال المقرئ (٣) — لا يشتري بها شيء من الأمور الجليلة وإنما هي لنفقات البيوت ولأغراض ما يحتاج إليه من الخضر والبقول ونحوها .

على أن بعض أهالي مدن الصعيد وشر الإسكندرية ، كانوا يتعاملون في المبيعات القليلة القيمة بأشياء بدل الفلوس . وقد وصف لنا المقرئ (٤) هذه الظاهرة التي شاهدها بنفسه ؛ فقال ؛ « وأدركت أنا والناس من أهل شر الإسكندرية وهم يجعلون في مقابلة الخضرة والبقول ونحو ذلك كسر الخبز لشراء ما يراد منه ؛ ولم يزل ذلك إلى نحو السبعين والسبعائة ؛ وأدركنا ريف مصر وأهله يشترون الكثير من الحوائج والمأكولات ببيض الدجاج وبنخال الدقيق وردى مشاق الكتان .

وكانت الفلوس كثيرا ما تزيف ، ويتوقف حال الناس بسبب التعامل بها ؛ فيحدثنا المقرئ (٥) أنه في سنة ٧٢٠ هـ خفف المزيفون وزنها حتى صارت زنة الفلوس سدس درهم . وكان هذا النقد يتعامل به عددا ؛ فكل ثمانية وأربعين فلوسا تساوي درهما فضة . وقد ترتب على إخراج تلك الفلوس الزائفة ، زيادة الأسعار ، كما أغلق الباعة حوانيتهم حين تقرر أن يكون التعامل بالفلوس

(١) المقرئ : شذور العقود في أخبار النقود ص ١٥

(٢) المقرئ : شذور العقود في أخبار النقود ص ١٨

(٣) إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٧٠

(٤) إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٦٩

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ القسم الأول من ٢٠٥ — ٢٠٦

وزنا ، على أن يكون كل رطل منها بثلاثة دراهم فضة . وكان ذلك مما حمل
والى القاهرة على استعمال العنف مع الباعة وأصحاب الحوانيت ليعودوا إلى
بيع بضائعهم للجمهور : فضربهم بالمقارع وشهرهم . غير أن هذه السياسة التى
انطوت على أعمال الشدة والعنف لم تأت بطائل ؛ فنودى بأن يكون التعامل
بالفلس الذى عليه بقجة وأن يرد الفلس الخفيف . لكن هذا الحل لم يكن
له أثر مادى فى انتعاش حركة البيع فى الأسواق ؛ فسرعان ماسك المزيفون
فلوسا عايبا بقجة . وقد عولجت هذه المشكلة الاقتصادية بأخذ جميع ماضرب
من الفلوس بحساب درهمين والنصف الرطل ؛ فتحسنت الحالة فى الأسواق
قليلا . غير أن العامة ظلوا فى عنت من جراء تمادى الباعة فى غلق حوانيتهم .

ولما وقف السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون على جليلة الأمر من
العامة الذين ضجوا له بالشكوى مما لحقهم من الفلوس ورد الباعة لها ، وقلة
الخبز وغيره من الأشياء التى لاغنى لهم عنها ، استدعى الأمراء وأنكر عليهم
رد عما لهم الفلوس وعدم بيعهم القمح من الشون للطحانين والمشتغلين بتموين
الناس بالغلal والدقيق ؛ ثم قرر ضرب فلوس جدد ، زنة الفلس منها درهم .
وعلى أحد وجهيه عبارة : لا إله إلا الله محمد رسول الله . ، وعلى الوجه
الآخر اسم السلطان .

وقد أورد النويرى^(١) وصفا آخر لتلك الفلوس التى ضربها الناصر جاء فيه :
« وخرجت الفلوس الجدد من دار الضرب وعلى أحد وجهيها اسم السلطان
وعلى الوجه الآخر بقجة مربعة ، وزنة كل فلس منها نصف ، وربع ،
وثن درهم . »

ولم يكن الناس فى مصر يتعاملون فقط بالفلوس النحاسية والدراهم
الفضية ، بل اتخذوا أيضا الدنانير الذهبية عملة جارية لهم ؛ وكان يكتب على
أحد وجهيها « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أرسله بالهدى ودين الحق

(١) نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ٧

ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون ، ، وعلى الوجه الآخر اسم السلطان وتاريخ الضرب (١) .

وقد ضربت الدنانير باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤٠ هـ ، وحذا حذوه خلفاؤه ؛ فخص بالذكر منهم : الملك الصالح اسماعيل الذى سك دنانير سنة ٧٤٤ هـ ، والسلطان الناصر حسن وقد نقش اسمه على العملة الذهبية التى سكّت فى دورى حكمه ، والأشرف شعبان الذى ضربت فى عهده الدنانير ثمان مرات (٢) .

وكان بالديار المصرية ثلاث دور لسك الفلوس والدرهم والدنانير : الأولى بالقاهرة ، والثانية بالإسكندرية ، والثالثة بقوص ؛ ويشرف على عيار ما يضرب بهذه الدور من العملة قاضى القضاة أو من يستخلفه . وكان هناك لدور الضرب ديوان خاص ، ويحصل منها رسوم للسلطان (٣) .

وكان من وسائل المعاملات التجارية فى مصر الحوالات . وقد شاع استعمالها فى الدولة الإسلامية منذ القرن الرابع الهجرى ؛ فكان التجار يأخذون رقاعا من الصرافين بما لديهم من الأموال ، ثم يشترون ما يلزمهم ويحولون ثمنه على الصراف (٤) . وقد لجأ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى وسيلة للدفع تشبه إلى حد كبير هذا النوع من التعامل المالى مما يثبت لنا شيوع استعمالها فى مصر وخاصة فى عصر هذا السلطان الذى امتاز بازدهار التجارة المصرية وكثرة التبادل التجارى ؛ فيحدثنا المقرئى (٥) أن الناصر اشترى سنة ٧١١ هـ من تجار الفرنجة بمصر جواهر وغيرها من الحاجيات ، فبلغ ثمنها ستة عشر ألف دينار وأحالهم بها على كريم الدين أكرم عبد الكريم

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٢ .

(٢) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages. N 2. p. 317-318.

(٣) المقرئى : خطط ج ١ ص ١١٠ .

(٤) الحضارة الإسلامية (Mez) ج ٢ ص ٣٢١ .

(٥) السلوك ج ٢ القسم الأول ص ١٠٣ — ١٠٤ .

ناظر الخاص وحلفه السلطان ألا يؤخرهم عن ثلاثة أيام لاضطرارهم إلى السفر؛ غير أن كريم الدين لما رأى أنه ليس لديه شيء من هذا المبلغ، استشار الأمير علاء الدين بن هلال الدولة، والصلاح الشراييشي، فحسنا له أن يستعين بإيرادات المارستان المنصوري وبقرض من تجار الكارم لسداد هذا المبلغ. ولما مضى من أجل الدفع يومان، أتاه الفرنجة في ظهر اليوم الثالث لاستلام المال، ثم وفد عليه بعد قليل تجار الكارم — وكان أحدهم قد أقرض بعض هؤلاء الفرنجة عشرين ألف دينار —، فطالبهم بدفع هذا المبلغ، بعد أن وقف منهم على السبب الذي من أجله قدموا لمقابلة كريم الدين؛ فوعده الفرنجة بأدائه.

ولما علم كريم الدين بما بين هؤلاء الفرنجة وتجار الكارم من معاملات مالية، استدعاهم للاجتماع به ثم وجه كلامه إلى للتجار فقال: «ما بالكُم مع الفرنج؟ فأخبروه بأمر القرض الذي أخذه أحد الفرنجة؛ فقال لهم: «مهما كان عند هذا الإفرنجي هو عندي»؛ فسر الفرنجة بذلك وأحالوا تاجر الكارم على كريم الدين بسطة عشر ألف دينار وهي التي وجب أداؤها لهم بمقتضى حوالة السلطان، ثم دفعوا لهذا التاجر أربعة آلاف تسمة العشرين ألف دينار.

الفصل الرابع

العلاقات التجارية بين مصر والدول الشرقية والأوروبية

لم يلاق سلاطين المماليك صعوبة كبيرة في استيراد البضائع من الخارج لوقوع كثير من الموانئ وطرق القوافل في قبضتهم ، كما تيسر لهم نقل المحصولات من بلد إلى آخر وتزويد الأسواق المصرية بالمناجز وخامات الصناعة المحلية بفضل نهر النيل الذي يمتاز بأن الجزء الذي يصلح منه للملاحة دون أى عائق ينتهى عند انتهاء حدود مصر جنوباً ؛ ومن ثم كثرت عليه حركة النقل النهري ، وصارت السفن تجتازه محملة بالبضائع والمحصولات بين أسوان والإسكندرية . وكان تجار النوبة يأتون في النيل حتى الجنادل ، وعندها تقف مراكبهم ومراكب السودان ويتحول من فيها بتجارهم إلى ظهور الجبال حتى يصلوا أسوان التي كانت مركزاً هاماً للتجارة ؛ فنها تحمل البضائع والمنتجات المصرية إلى النوبة (١) .

وكانت منتجات الشرق ترد إلى مصر من الصين والهند واليمن بطريق البحر الأحمر ؛ فتمر بخليج عدن حتى غيذاب حيث تفرغ المراكب ما عليها من البضائع ، ومنها تحمل على ظهور الإبل في الصحراء إلى قوص — قاعدة مصر العليا — ومن هناك تنقل إلى القاهرة في النيل ، ثم تواصل سيرها في الفرع الذي يخرج من النيل ويسير في الاتجاه الشمالى الغربى (٢) (فرع رشيد) إلى قرية العطف التي تقابل فوه ، ومنها بطريق التربة التي حفرها الناصر محمد ابن قلاوون سنة ٧١٠ هـ إلى الإسكندرية (٣) ، وكانت المناجر قبل حفر هذه

(١) المقرئى : خطط ج ١ ص ١٩٧

(٢) Heyd, Histoire de Commerce du Levant au Moyen Age Vol II

pp. 59—60.

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٣٠٠

الترعة تحمل على ظهور الإبل .

وكان يختلف إلى عيذاب المراكب من جميع البلاد الشرقية . وقد تحدث عنها ابن جبير ^(١) فقال : « إنها من أحفل مراسى الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع عنها زائداً على مراكب الحجاج الصادرة والواردة . وقد ظلت عيذاب محتفظة بمكاتها حتى حلت محلها عدن سنة ٨٢٧ هـ (١٤٣٠ م) ؛ وكانت المركز التجارى بين إفريقية وبلاد العرب ونقطة ارتكاز التجارة بين الهند والصين ومصر ^(٢) .

ولم تكن بضائع التجار تحمل طوال عهد أسرة قلاوون من عيذاب إلى قوص . بل أحسن هذا الطريق بعد سنة ٧٦٠ هـ ^(٣) (١٣٥٩ م) وفقدت قوص أهميتها منذ ذلك الوقت ، وظلت التجارة تخرج من البحر الأحمر إلى السويس ومنها بضريق القوافل إلى القاهرة .

وكان يرد على القسطنطينيات كبيرة من المتاجر الآتية بطريق البحرين الأحمر والأبيض ؛ وبذلك أصبحت هذه المدينة مجمعاً لتجارة الصين والهند واليمن وأوروبا ؛ ومنها تصدر إلى سائر البلاد المصرية ^(٤) .

وكان من أثر قرب النيل من القسطنطين وكثرة المراكب التى تصل إليها محملة بالبضائع أن أصبحت هذه المدينة أكثر أرزاقاً وأرخص أسعاراً من القاهرة لأن ما يصل فى المراكب التى ترسو بالقسطنطين يباع بالقرب منها ، ولا نجد لذلك مثيلاً فى القاهرة لبعدها ساحلها عن المدينة ^(٥) .

أما التجارة التى ترد إلى مصر من أوروبا ؛ فكانت تأتى عن طريق دمياط والإسكندرية ؛ فترسو سفن البحر الأبيض المحملة بالبضائع عند فم بحر

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p 316

(٢) الحضارة الإسلامية (Mez) ج ٢ ص ٣٧١

(٣) المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٠٢

(٤) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣٤٢

(٥) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣٦٧

دمياط ، ثم ينقل ما فيها من البضائع في مراكب نيلية . ويرجع السبب في عدم رسوها عند الثغر إلى أن فم بحر دمياط كان قد ردم في عهد السلطان الملك الظاهر بيبرس ، ومن ثم أصبح من المتعذر على مراكب البحر الأبيض الكبيرة أن تجتازة إلى دمياط ؛ فظلت ترسو على مقربة من ملتقى النيل بذلك البحر (١) .

وكانت مدينة الإسكندرية من أكبر المراكز التجارية في عصر المماليك ؛ فيصدر منها منتجات الشرق الأقصى كالفلفل والزنجبيل والبخور وأنواع العطور المختلفة ؛ فضلا عن ذلك فإن التجار الأوربيين كانوا يأتون إليها لنقل الخزف والقيشاني الصيني ولؤلؤ الخليج الفارسي (٢) . وما تحتاج إليه بلادهم من المنتجات المصرية كالبلح والتيل (٣) والأقمشة التي تقدمت صناعتها في هذه المدينة وذاع صيتها في أوربا والشرق ؛ وفي ذلك يقول القلقشندي (٤) : « وإليها تهوى ركائب التجار في البر والبحر ، وتغير من قماشها جميع أقطار الأرض ، ؛ وما يؤيد هذا القول أن الهند كانت تبعث في استيراد الأقمشة الحريرية منها ، فيحدثنا المقرئ (٥) عن محمد بن تغلق سلطان هندستان بقوله : « وللسلطان (محمد بن تغلق) دار طراز فيها أربعة آلاف قزاز لعمل أنواع القماش سوى ما يحمل إليه من الصين والعراق والإسكندرية ، ويفرق كل سنة مائتي ألف كسوة كاملة ، في فصل الربيع مائة ألف ، وفي فصل الخريف مائة ألف ؛ ففي الربيع غالب الكسوة من عمل الإسكندرية ، وفي الخريف كلها حريز من عمل دار الطراز بدهلي ، » .

وكان بئر الإسكندرية مخازن تسمى المتجر ، يودع فيها ما يتناعه الديوان السلطاني من البضائع التي تدعو إليها الحاجة ، غير أنه لوحظ أن خزن الغلال

(١) المقرئ : خطط ج ١ ص ٢٢٤

(٢) Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne (Wiet) Vol. IV p. 492

(٣) Heyd, Histoire de Commerce du Levant au Moyen Age. p. 39

(٤) صبح الأعشى : ج ٣ ص ٤٠٤

(٥) خطط : ج ٢ ص ١٧٤

بها لا يعود بكثير من النفع لأن السعر ربما ينخفض ، وبذلك يمتنع عن بيعها وتظل معرضة للتلف بالمخازن ، ومن ثم اكتفى بخزن البضائع التي يخشى من تطرق الفساد إليها إذا ما ظلت مخزونة فترة طويلة من الزمن والتي لا تعرض لتقلبات الأسعار ، مثل الخشب والصابون والحديد والرمصاص والعسل وما أشبه ذلك ، (١) .

كذلك اهتم سلاطين المماليك بتشجيع التجارة مع الشرق ، فسهلوا على التجار سبيل السفر إلى بلاد السكرور (٢) والحبشة واليمن والهند .

ومما هو جدير بالذكر أن بلاد السكرور ارتبطت بعلاقات الود مع مصر . وكان ملوكها ينزلون بالقاهرة وهم في طريقهم إلى بلاد الحجاز . وقد احتفى السلطان الناصر بقدم منسا موسى ملك بلاد السكرور سنة ٧٢٤ هـ وتبادل معه الهدايا ، مما كان له أحسن الأثر في توثق العلاقة بين دولتيهما حتى أصبح التجار المصريون يترددون على تلك البلاد ليشتروا منتجاتها (٣) . رغم بعد الشقة بينها وبين مصر . وكانوا يلقون في حلهم وترحالهم كل أسباب الراحة والطمأنينة ، كما أن أهالي بلاد السكرور كانوا يفدون إلى مصر منذ عصر الظاهر بيبرس ، واتخذ بعضهم هذه البلاد داراً لإقامته ولقوا من كبار رجال الدولة رعاية خاصة ؛ فقد ذكر المقرئى عند كلامه على الاحتفال

(١) المقرئى : خطط ج ١ ص ١٠٩

(٢) بلاد السكرور : هي إحدى الأقاليم الإفريقية الواقعة في الجهة الجنوبية الغربية من مصر ، وقاعدتها مدينة سكرور . باقوت : معجم البلدان ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨٦ — ٢٨٧

وتشمل مملكة السكرور خمسة أقاليم وهي : إقاييم ملى ، وإقاييم موصو ، وإقاييم غانة من الجانب الغربى عن ملى ، وإقاييم كوكو ، وإقاييم سكرور . وكان كل من هذه الأقاليم مملكة مستقلة ، ثم جمعت كلها تحت نفوذ سلطان واحد . ويعرف أهل مصر سلطان هذه البلاد باسم سلطان السكرور ، غير أنه كان يألف من ذلك لأن السكرور إقاييم من أقاليم مملكته ، وأحب إليه أن يقال (صاحب ملى) لأنه أكثر أوليائه .

القدمشسى ج ٥ ص ٢٩٢

(٣) ن حيدون . مصر ودويون الهند والجزر ج ٦ ص ٢

بمرور عام على وفاة الملك الظاهر بيبرس أنه مدت بقرافة مصر أسبطة للقراء والفقهاء، وعمل للتكاثر والفقراء خوان حضره كثير من أهل الخير،^(١). وقد جنى بعض التجار من وراء التبادل التجاري مع الأقطار الشرقية ثروة ضخمة، فيحدثنا المقريزي^(٢) أن ناصر الدين محمد بن مسلم الكارمي المصري المتوفى سنة ٧٧٦ هـ رزق الحظ الوافر في التجارة وفي العبيد، فكان يبعث أحدهم بمال عظيم إلى الهند، ويبعث آخر بمثل ذلك إلى بلاد التكرور، ويبعث آخر إلى بلاد الحبشة، ويبعث عدة آخرين إلى عدة جهات من الأرض، فما منهم من يعود إلا وقد تضاعفت فوائده ماله أضعافاً مضاعفة.

ويقول أبو المحاسن^(٣) عن هذا التاجر إنه «خلف أموالاً كثيرة من المتجر وعمل الكيمياء، بحيث أنه لم يكن أحد من أهل عصره أكثر مالا منه». وكان لا تشار نفوذ مصر في بلاد اليمن في عهد دولة بني قلاوون أثر كبير في تسهيل سبل تجارتها مع الأقطار الشرقية، فصارت تصل إليها السفن محملة بمنتجات الشرق دون أن تعترضها أي صعوبة أثناء مرورها بشعور اليمن. كذلك كان من أثر ذيوع صيت دولة المماليك في الشرق أن تنافس أمراء بعض الدول الشرقية على كسب صداقة سلاطينها ليتبادلوا معهم التجارة، ويتبين لنا ذلك مما حدث بين ملك اليمن المظفر يوسف، وملك سيلان «أبو نكبنا»^(٤)، فقد أرسل الملك الأول إلى الثاني يعرض عليه حلفاً تجارياً ولكن ملك سيلان فضل المحالفة مع حكومة المماليك في مصر، ولهذا عمد إلى إرسال سفارته، إلى السلطان قلاوون سنة ٦٨٢ هـ (١٢٨٣ م). وقد سافر رسوله من سيلان إلى مصر عن طريق الخليج الفارسي فالعراق والشام بناء على أمر ملكهم حتى لا يضطروا إلى المرور ببلاد اليمن^(٥).

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٦٤٩

(٢) ختلط: ج ٢ ص ٤٠١

(٣) النجوم الزاهرة: ج ٥ القسم الأول ص ٢٨١ (طبعة كاليفورنيا)

(٤) بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ص ١٤٢ ب

(٥) Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age Vol. I

وكان مع رسل ملك سيلان كتاب، لم يوجد بالقاهرة من يحسن قراءته . وقد ذكر فيه تخليه عن صحبة ملك اليمن وتعلقه بحجة السلطان (١) ، ورغبته في أن يتبادل التجارة مع جزيرته الغنية (٢) ، كما أورد أيضاً في كتابه ما يملكه من السفن وما تنتجه جزيرته من المحصولات ، وما يصنع بها من المنسوجات ، وما يستخرج منها من اللؤلؤ والأحجار الثمينة ، وبين له فوق ذلك أن المصريين سيجدون في جزيرة سيلان حاجتهم بما كان يستورد من بلاد الهند ، وطلب من السلطان أن يعين مندوباً له بعدن (٣) ، ويبعث إليه برسول من قبله . وقد أكرم السلطان قلاوون وفادة سفراء ملك سيلان وأجزل عليهم العطايا ، ثم أنفذ معهم رداً على كتاب ملكهم (٤) .

كانت مصر تتبادل التجارة أيضاً مع الدول الأوروبية . وقد بذل سلاطين الماليك في هذا السبيل كثيراً من اهتمامهم ؛ فعقد الظاهر بيبرس المعاهدات التجارية مع شارل صاحب أنجو (Anjou) والفونس (Alfonse) أمير إشبيلية ، وجيمس ملك أرجونة (٥) .

وقد حذا قلاوون حذو بيبرس ، فعقد معاهدة تجارية مع جنوة ومنح البنادقة عدة امتيازات سهلت عليهم سبيل المتاجرة مع مصر ، وتعهد لهم بحماية رعاياهم وأموالهم (٦) .

وكان من أثر نشاط الحركة التجارية بين مصر من ناحية ، والبندقية وجنوة وبيزا من ناحية أخرى ، أن أصبح لهذه الجمهوريات قناصل بدمياط

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧١٣

(٢) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 281

(٣) Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyem Age Vol. I p. 426.

(٤) بيبرس المنصورى : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ص ٢٤٣

(٥) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 281

(٦) Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age Vol. II p. 40

ورشيد والإسكندرية، اعتبرهم السلاطين مسئولين عن مواطنهم من التجار؛ ول هؤلاء القناصل حق التكلم عن رعايا بلادهم أمام حكومة المماليك^(١). وكان التجار الأجانب الذين يفدون إلى مصر تسجل أسمائهم في المكاتب التجارية وقنصلياتهم. وقد ازداد عدد القادمين منهم إلى الثغور المصرية حتى أصبح يشاهد في شوارعها عناصر مختلفة من قطلونيا ومرسيليا وجنوة وبيزا والبندقية^(٢).

وقد ظل التبادل التجاري رائجاً بين مصر وأوروبا إلى أن سقطت عكا في يد المماليك، فقويت الرغبة في الانتقام من مصر؛ ومن ثم شرعت البابوية في إثارة أهالي أوروبا ضدها للقيام بحرب صليبية جديدة؛ لكن هذا الأمل ما لبث أن تلاشى أمام قوة سلطنة المماليك.

ولم تكف البابوية بإثارة الروح الصليبية ضد سلطنة المماليك في مصر والشام، بل عمدت إلى إشهار سلاح اقتصادي ضدها وهو منع تصدير المواد التي تستخدم في الحرب كالحديد والخشب إلى الأراضي التابعة لسلاطين المماليك؛ ومن ثم أصدر البابوات: نيقولا الرابع وبونيفاس الثامن وبنوت الحادي عشر (Benoit XI) قرارات حرموا فيها المتاجرة بهذه المواد مع المسلمين^(٣).

كذلك نادى ريمندل^(٤) (Raymond Lull) سنة ١٣٠٦ م بوجوب امتناع المسيحيين مدة ست سنوات عن شراء البهار من المصريين وألا تطأ

(١) Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne (Wiet) Vol. IV pp. 385—386, 491.

(٢) Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne (Wiet) Vol IV p. 491

(٣) Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, Vol. II. p. 25.

(٤) Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne (Wiet) Vol IV pp. 489—490

(٤) كان ريمندل إسبانيا، وقد ألم باللغة العربية، وكرس حياته لتنظيم الحملات التبشيرية لنشر المسيحية في الأندلس الإسلامية، وكان يعمل فوق ذلك على إقناع أوروبا بأن الوسيلة الوحيدة لاسترجاع الدول الصليبية بالشام هي التبشير.

أقدامهم الإسكندرية وسورية . وكان يرى أن تنفيذ هذه السياسة يؤدي إلى إفقار خزانة السلطان وإلحاق الضرر بامبراطوريته ^(١) .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أصدر البابا Clement V في خريف سنة ١٣٠٨ م منشورات مختلفة ، وأشار فيها إلى أن تصدير جميع البضائع بغير استثناء إلى أراضى السلطان ، يقع تحت طائلة المنع ومن يخرج على هذا القرار يعرض لمصادرة أمواله وفقد حريته ^(٢) .

على أن سياسة منع التعامل التجارى مع مصر وسورية لم تلق قبولا من كثير من الدول الأوروبية وتجارها ، فأرسل جيمس ملك أرجونة كثيرا من السفراء إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون لتوطيد عرى الصداقة بينهما ، كما تخلى عن فكرة القيام بحرب صليبية ، وعن منع المتاجرة مع المسلمين ؛ هذا إلى أنه في السنة الأخيرة من حكمه أوقف مطاردة أحد أهالى برشلونة الذى اتهم بتصدير البضائع إلى مصر واكتفى بتفريغه مبلغا من المال ؛ وظلت برشلونة محتفظة بقنصليتها بالإسكندرية ، كما لم تستدع رعاياها من هذه المدينة ^(٣) . وكان موقف جنوة من التبادل التجارى مع دولة المماليك لا يختلف عن موقف أرجونة ؛ فنظرت إلى مسألة تحريم التجارة مع المسلمين نظرة ازدراء وظلت تعمل على إنماء علاقتها بمصر ^(٤) .

أما البندقية فإنها في سنة ١٣٠٢ م أى بعد مرور أحد عشر سنة على سقوط عكا ، أنفذت سفيرا إلى مصر يدعى Guido de Canali ليطلب من الناصر تجديد الإمتيازات التى منحها السلطان قلاوون لرعاياها ؛ فأجيب إلى طلبه ، كما

Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne (Wiet) Vol. IV (١) pp. 489—490.

Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age. Vol II p. 27 (٢)

Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age Vol II. (٣) pp. 32—33.

Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne (Wiet) Vol VI p. 480 (٤)

وافق الناصر على تعيين Francesco de Canali سفيراً البندقية بالإسكندرية^(١).
على أن تجارة البنادقة مع مصر مألوفة أن اعترضها ذلك القرار الذي
أصدره السناطين سنة ١٣١٣ و ١٣١٧ م ، ويقضى بمنع تصدير البضائع
إلى ممتلكات السلطان . وكان ذلك مما حمل رئيس البندقية على التوسط لدى
البابا سنة ١٣١٧ م ليحصل على ترخيص لمواطنيه بتصدير الذهب والفضة
والقصدير والنحاس والجوخ والزعفران وغير ذلك من البضائع الأوربية
التي تحتاج إليها مصر^(٢) .

وقد رأى البابوات إزاء ضغط التجار الأوربيين أن يخففوا من غلوائهم ؛
فعينوا المواد التي يمنع تصديرها كالخشب والحديد اللذين يحتمل استخدامهما
في تجهيز عساكر السلطان .

على أن سياسة البابوية رغم ذلك لم تفز بنجاح ؛ فأخذت الدول الأوربية
تبحث عن صداقة الحكومة المصرية وتسعى لعقد معاهدات تجارية تعود
عليها بكثير من المزايا^(٣) ؛ فعهدت حكومة البندقية في سنة ١٣٤٤ م للسفير
Nicola Zeno بمفاوضة السلطان الملك الصالح اسماعيل (١٣٤٢ - ١٣٤٥ م)
للحصول على امتيازات جديدة لمواطنيه ؛ فلبى السلطان طلبه ورحب بكل من
يفد إلى دولته من تجار البندقية . ولما قدم بعد ذلك بزمان قصير السفير
Angelo Sérbi ، تسلم عند عودته إلى البندقية كتاباً من السلطان اسماعيل
مؤرخاً في ٦ أغسطس سنة ١٣٤٥ م ، جدد فيه وعده بالترحيب بتجار البندقية
كما أذن لحكومتها بإنفاذ قناصلها إلى الإسكندرية وغيرها من البلاد الخاضعة
لنفوذ^(٤) .

* * *

(١) Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age Vol II p. 37

(٢) Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age Vol II, p. 42

(٣) Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne (Wiet) Vol IV p. 491

(٤) Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age Vol II..(٤)

وكان في مصر منذ أقدم العصور الإسلامية نظام دقيق لجوازات المرور، فلم يكن أحد يستطيع أن يترك الناحية التي يقيم فيها إلى ناحية أخرى بدن إذن ولى الأمر؛ فيعطى المسافر جوازاً للخروج من مصر يدرج فيه أسماء كل من يرافقونه ولو كانوا عبيده (١).

وقد ظل هذا النظام سائداً في مصر حتى آل الحكم إلى المماليك؛ فعنى السلطان الملك المنصور قلاوون بإصدار جوازات سفر كفلت للتجار الطائفة في أنحاء بلاده، بل في أسفارهم إلى الهند والصين (٢).

وكان السلطان قلاوون لا يألو جهداً في سبيل جذب تجار الأقطار الشرقية إلى مصر؛ فأذاع أماناً للتجار الذين يفدون إلى بلاده من الصين والهند واليمن والعراق، أشار فيه إلى ما سيجدونه من إقامة العدل وحسن المعاملة ورعاية مصالحهم وسلامة أنفسهم وأموالهم؛ وفيما يلي نصه (٣):
«رسم - أعلى الله الأمر العالى - لا زال عدله يحل الرعايا من الأمن في حصن حصين، ويستخلص الدعاء لدولته الزاهرة (من) أهل المشارق والمغارب، فلا أحد إلا وهو من المخلصين، ويهيىء برحابتها للبعثين جنة عدن من أى أبوابها شاء الناس دخولا: من العراق، من العجم، من الروم، من الحجاز، من الهند، من الصين، أنه من أراد - من الصدور الأجلاء الأكابر التجار وأرباب التكسب، وأهل التسبب من أهل هذه الأقاليم التي عددت والتي لم تعدد، ومن يؤثر الورود إلى ممالكنا إن أقام أو تردد - النقلة إلى بلادنا الفسيحة أرجاؤها، الظليلة أفيائها وأفناؤها؛ فليعزم من قدر له في ذلك الخير والخيرة، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ميرة ولا إلى ذخيرة: لأنها في الدنيا جنة عدن لمن قطن، ومسلة لمن تغرب عن الوطن؛ ونزهة لا يملكها بصر، ولا تهجر للإفراط في الخصر؛

(١) الحضارة الإسلامية (Mez) ج ٢ ص ٣٦٠

(٢) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages. p. 281.

(٣) القلشندي. صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٤٠ - ٣٤٢

والمقيم بها في ربيع دائم ، وخير ملازم ؛ وبكفيها أن من بعض أوصافها أنها شامة الله في أرضه ، وأن بركة الله حاصلة في رحل من جعل الإنسان فيها من قراضه والحسنة من قرضه ؛ ومنها ما إذا أهبط إليها أمل كان له ما سأل ، إذ أصبحت دار إسلام بجنود تسبق سيوفهم العدل ؛ وقد عمر العدل أوطانها ، وكثر سكانها ؛ واتسعت أبنيتها إلى أن صارت ذات المدائن ، وأيسر المعسر فيها فلا يخشى صورة المداين إذ المطالب بها غير متعسرة ؛ والنظرة فيها إلى ميسرة ، وسائر الناس وجميع التجار لا يخشون فيها من يحور فإن العدل قد أجار .

فن وثق على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم ، فليأخذ الأبهة في الارتحال عليها ، ليجد الفعال من المقال أكبر ويرى إحسانا يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر ، ويحل منها في بلدة طيبة ورب غفور ، وفي نعمة جزاؤها الشكر وهل يجازى إلا الشكور ، وفي سلامه في النفس والمال ، وسعادة تحلى الأحوال وتمول الآمال ، ولهم منا كل ما يؤثرونه : من معدلة تجيب داعيها ، وتحمد عيشتهم دواعيها ، وتبقى أموالهم على خلفيهم ، وتستخلصهم لأن يكونوا متفيسين في ظلالها وتصطفيتهم ، ومن أحضر معه بضائع من بهار وأصناف تحضرها تجار الكارم ، فلا يخاف عليه في حق ، ولا يكلف أمرا يشق ، فقد أبقى لهم العدل ما شاق ورفع عنهم ماشق ؛ ومن أحضر منهم بمالك وجواري فله في قيمتهم ما يزيد على ما يريد ، والمساحة بما يتعوضه بثمنهم على المعتاد في أمر من يجلبهم من البلد القريب فكيف من البعيد : لأن رغبنا مصروقة إلى تكثير الجنود ، ومن جلب هؤلاء فقد أوجب حقا على الجود ، فليستكثر من يقدر على جلبهم ، ويعلم أن تكثير جيوش الإسلام هو الحاث على طلبهم : لأن الإسلام بهم اليوم في عز لواءه المنشور ، وسلطانه المنصور ، ومن أحضر منهم فقد أخرج من الظلمات إلى النور ، وذم بالكفر أمسه وحمد بالإيمان يومه ، وقاتل عن الإسلام عشيرته وقومه . هذا مرسومنا إلى كل واقف عليه من تجر شأنهم الضرب في الأرض :

(يتبعون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله) . ليقرأوا منه ما تيسر لهم من حكمه ، ويهتدون بنجمه ، ويقتدون بعلبه ويمتطون كاهل الأمل الذى يحملهم على الهجرة ، ويسطون أيديهم بالدعاء لمن يستدنى إلى بلاده الخلاق ليفوزوا من إحسانه بكل نضارة وبكل نظرة ، ويغتنمون أوقات الربح فإنها قدم أدنت قطافها ، وبعثت بهذه الوعود الصادقة إليهم تحقق لهم حسن التأمل وتثبت عندهم أن الخط الشريف كما يأمر الله على ما قالته الأقلام ونعم الوكيل . . . كذلك كانت حكومة الممالك تعمل على استمالة التجار الأوربيين إلى مصر لما يعود عليها بالنفع من وراء متاجرهم كالخشب الذى يستخدم في بناء الأساطيل ، والجوخ والفراء الذى يستعمل بصفة خاصة في صنع خلع كبار الموظفين (١) .

وليس أدل على حرص سلاطين الممالك على حماية التجار الأوربيين من أى اعتداء يحيق بهم ، وشملهم برعايتهم مما حدثنا به النويرى (٢) : فقد ذكر أن فريقاً من العامة اجتمع في ٥ رجب سنة ٧٢٧ هـ في حلقة قاص - وكان قد حضر لمشاهدتها أحد أتباع رسل إمبراطور الدولة البيزنطية - فلما أخذ القاص في ذكر النبي صلى الله عليه وسلم رفع المسلمون أصواتهم بالصلاة عليه ؛ غير أن الفرنجى لم يتبعهم في ذلك ؛ فقال بعضهم : اخرجوا هذا الفرنجى من هنا فإننا نحن نصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وهو لا يصلى عليه ، ثم شرعوا في إخراجهم من الحلقة . لكن أحد موظفى ولاية الإسكندرية دافع عنه ، وقال : « هذا من أتباع الرسل الذين وصلوا إلى السلطان ، فاستاء العامة من ذلك وضربوا الفرنجى . وما لبثت الفتنة أن اشتعلت نيرانها بين العامة والفرنجة وأسرع والى المدينة إلى إبلاغ السلطان بهذا الحادث : فندب الأمير علاء الدين مغلطاي الجمالى مدير الدولة لتحقيقه . ولما وقف على حقيقة الأمر . أشار على السلطان بإهانة القاضى عماد الدين السكندى وعزله بتهمة تحريضه العامة

(١) Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne (wiet: Vol IV p. 491)

(٢) نهاية الأرب - ٣١ - ورقه ٧٨

على قتال الفرنجة ، كما زجه هو وحاكم المدينة في السجن لتهاونهما في المحافظة على الأمن والنظام مما كان سببا في حدوث هذه الفتنة (١) .

وقد زادت ثروة مصر في عهد أسرة قلاوون من جراء رواج تجارتها مع الغرب ومبادلة المتاجر بين آسيا وأوربا ، وما ترتب على ذلك من مرور السفن المحملة ببضائع الشرق والغرب بثغورها ، وجباية الرسوم الجمركية على السلع عند وصولها إلى السويس ودمياط والإسكندرية ، وعند إقلاعها من هذه الثغور . وكان يفرض على متاجر التجار الأجانب ضريبة تساوى خمس بضائعهم ويشرف على جبايتها ديوان الخمس . وقد عرف المقرئى (٢) هذه الضريبة بقوله : « فالخمس ما يستأدى من تجار الروم الواردين في البحر عما معهم من البضائع للتاجر بمقتضى ما صولجوا عليه وربما بلغ ما يستخرج منهم عما قيمته مائة دينار ما يناهز خمسة وثلاثين دينارا وربما انحط عن عشرين دينارا ، ويسمى كلاهما خمسا ؛ ومن أجناس الروم من يؤخذ منهم العشر » .

وقد ذكر القلقشندي (٣) أنه كانت تؤخذ من تجار الفرنجة والروم القادمين بمتاجرهم إلى الإسكندرية ودمياط رسوم مقدارها الخمس عن كل ما يصل لهم كل مرة ، وربما زاد ما يؤخذ منهم على الخمس ، ؛ ومن ذلك يتضح لنا أن الرسوم المفروضة على المتاجر التي يستوردها الأجانب لم تكن ثابتة .

وبملا شك فيه أن مصر تمتعت في عهد أسرة قلاوون بمركز ممتاز بين أمم العالم الشرقي والغربي من الناحيتين المالية والسياسية ، وما ذلك إلا بفضل انتعاش الحياة الاقتصادية فيها وقيام سياستها الخارجية على أسس موطدة الدعائم ؛ الأمر الذي كان له أكبر الأثر في خروجها من جميع الأزمات التي حلت بها مرفوعة الرأس ، تحتفظ باستقلالها السياسي والاقتصادي .

(١) Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne, (wiet) Vol IV p. 491

(٢) خطط ج ٢ ص ١٠٢

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٩ — ٤٦٠

مصادر الكتاب

(١) المصادر العربية

- ١ - ابن أبي الفضائل : (مفضل)
كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد
(Paris, 1911, 1920, 1932.)
- ٢ - ابن إياس : (ت ٩٣٠ هـ ، ١٥٢٣ م) . أبو البركات محمد بن أحمد
كتاب تاريخ مصر المعروف ببدايع الزهور في وقائع الدهور
(بولاق سنة ١٣١١ هـ) .
- ٣ - ابن بطوطة : (ت ٧٧٩ هـ ، ١٣٧٧ م)
تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (جزءان)
(القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ)
- ٤ - ابن جبير : (ت ٦١٤ هـ ، ١٢١٧ م)
رحلة ابن جبير (بغداد سنة ١٣٥٦ هـ)
- ٥ - ابن حجر العسقلاني : (ت ٨٥٣ هـ ، ١٤٤٩ م) . شهاب الدين
ابن علي .
أنباء الغمر بأبناء العمر (جزءان) مخطوط بدار الكتب الملكية بالقاهرة .
- ٦ - ابن حجر العسقلاني :
الدور الكامنة في أعيان المائة الثامنة (٤ أجزاء) (مطبعة دائرة المعارف
العثمانية - حيدر آباد - الهند - سنة ١٣٥٠ هـ)
- ٧ - ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ ، ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م) : عبد الرحمن بن محمد
العير وديوان المبتدأ والخبر (بولاق سنة ١٢٨٤ هـ)

- ٨ - ابن شاهين : (٨٧٣ هـ ، ١٤٦٨ - ١٤٦٩ م) غرس الدين خليل الظاهري
كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك
- ٩ - ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحى
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (٨ أجزاء) (مكتبة القدسي - القاهرة)
- ١٠ - ابن دقاق : (ت ٨٠٩ هـ ، ١٤٠٦ - ١٤٠٧ م) إبراهيم بن محمد المصرى
الاتصار بواسطة عقد الأمصار (لم يظهر منه إلا الجزءان الرابع والخامس
- القاهرة ١٣٠٩ هـ ، ١٨٩٣ م)
- ١١ - ابن فضل الله العمرى : (ت ٧٤٢ هـ ، ١٣٤١ م)
مسالك الابصار فى ممالك الأمصار (الجزء الأول - طبعة دار الكتب
الملكية بالقاهرة)
- ١٢ - ابن كثير : (ت ٧٧٤ هـ) عماد الدين أبو العدا اسماعيل
البداية والنهاية (الجزء الرابع عشر . مطبعة السعادة بالقاهرة)
- ١٣ - ابن الوردى : (ت ٧٤٩ هـ ، ١٣٤٩ م) زين الدين عمر بن مظفر بن عمر
ابن أبي الفوارس الوردى المعرى الشافعى .
تاريخ ابن الوردى (تممة المختصر فى أخبار البشر) (جزءان)
- ١٤ - أبو الفدا : (ت ٧٣٢ هـ ، ١٣٣١ م) اسماعيل بن علي عماد الدين
المختصر فى أخبار البشر (٤ أجزاء)
- ١٥ - أبو المحاسن : (ت ٨٧٤ هـ ، ١٢٥٤ م) جمال الدين بن يوسف
ابن تفرى بردى
(١) مطبوعات دار الكتب الملكية بالقاهرة ٨ أجزاء
(ب) صور شمسية بدار الكتب الملكية
(ج) طبعة جامعة كاليفورنيا
- ١٦ - أبو المحاسن :
المنهل الصاق والمستوفى بعد الوافى (٣ أجزاء)
(مخطوط بدار الكتب الملكية بالقاهرة)

- ١٧ — ييبرس الدوادار : (ت ٧٢٥ هـ)
 زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة (الجزء التاسع)
 صور شمسية بمكتبة جامعة فؤاد الأول
- ١٨ — الثعالبي : (٤٢٩ هـ) الإمام أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل
 الثعالبي النيسابوري .
 لطائف المعارف
- ١٩ — الحسن بن حيد الله :
 آثار الأول في ترتيب الدون
- ٢٠ — الخالدي : بهاء الدين محمد بن لطف الله العمري
 المقصد الرفيع المنشأ الهادي لصناعة الإنشا
 (صور شمسية بمكتبة جامعة فؤاد الأول)
- ٢١ — الخزرجي : علي بن حسن
 العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية
- ٢٢ — الديار بكري : (ت ٩٦٦ هـ ١٥٥٨ - ١٥٥٩ م)
 الخنيس في أحوال أنفـس نفيس (جزء ١)
 (القاهرة سنة ١٨٢٣ م)
- ٢٣ — زكي محمد حسن :
 (١) كنوز الفاطميين (مطبوعات دار الآثار العربية)
 (ب) الجزء الثاني من تراث الإسلام في العمارة والفنون الفرعية (تأليف :
 أرنولد وكرستي وبرجز — وتعريب زكي حتن)
- ٢٤ — سرور : (محمد جمال الدين)
 الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره (القاهرة سنة ١٩٣٨ م)
- ٢٥ — السيموطي : (ت ٩١١ هـ) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد
 تاريخ الخلفاء : أمراء المؤمنين القاطنين بأمر الأمة

- ٢٦ - السيوطي :
حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (جزءان)
- ٢٧ - سميكة باشا : (مرقس)
دليل المتحف القبطي
- ٢٨ - الشوكاني : (ت ١٢٥٠ هـ) محمد بن علي
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (القاهرة سنة ١٢٤٨ هـ)
- ٢٩ - الشيخ عبد القادر بن محمد الأنصاري الخزرجي :
درر القرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة^(١)
(مخطوط بدار الكتب الملكية بالقاهرة ومكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة)
- ٣٠ - علي بك نهجيت :
فهرست مقتنيات دار الآثار العربية (تأليف هرتر بك وتعريب علي بك نهجيت)
- ٣١ - العرشي : (القاضي حسن بن أحمد)
بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام
(نشرة الأب أنستاس ماري الكرمل)
- ٣٢ - الحيني : (ت ٨٥٥ هـ) بدر الدين محمود
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان
(صور شمسية بدار الكتب الملكية بالقاهرة)
- ٣٣ - الغزولي : (علاء الدين علي بن عبد الله البهائي)
مطالع البدور في منازل السرور (جزءان)
(القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ)

(١) اهديت إلى معرفة اسم مؤلف هذا الكتاب من مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة حين زرتها مع أعضاء بعثة جامعة فؤاد الأول (ذو الحجة سنة ١٣٦٥ هـ ، نوفمبر سنة ١٩٤٦ م)

- ٣٤ - القلقشندي : (ت ٨٢١ هـ ، ١٤١٨ م) أبو العباس أحمد
صبح الأعشى في صناعة الإنشا
- ٣٥ - الكرملي . (الأب أنستاس ماري البعدادي)
التقود العربية و علم النميات (المطبعة العصرية القاهرة سنة ١٩٣٩ م)
- ٣٦ - مبارك : (علي باشا)
الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة (٢٠ جزءاً)
- ٣٧ - المقدسي : (مرعي المقدسي)
نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين
(مخطوط بدار الكتب الملكية بالقاهرة)
- ٣٨ - المقرئزي : (ت ٨٤٥ هـ ، ١٤٤١ م) (تقي الدين أحمد بن علي ...)
السلوك لمعرفة دول الملوك
(١) نشر الدكتور زيادة
(ب) صور شمسية بدار الكتب الملكية بالقاهرة .
- ٣٩ - المقرئزي :
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
(١) (Ed. Gaston Wiet)
(ب) (طبعة بولاق سنة ١٢٧٠ هـ)
- ٤٠ - المقرئزي :
إغاثة الأمة بكشف الغمة
(نشر الدكتور زيادة و جمال الدين الشيال)
- ٤١ - المقرئزي :
الإمام بأخبار من تأ ص الحشمة من ملوك الإسلام

- ٤٢ — المقرئى :
· شذور العقود فى أخبار النقود
- ٤٣ — المقرئى :
الأوزان والأكيال الشرعية (نسخة خطية)
- ٤٤ — المقرئى :
البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب
- ٤٥ — النويرى : (ت ٧٣٢ هـ ، ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب
نهاية الأرب فى فنون الأدب
(صور شمسية بدار الكتب الملكية بالقاهرة)
- ٤٦ — النويرى : (محمد بن قاسم بن محمد . . الماتى الإسكندرى)
الإمام بما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ
(تم تأليف هذا الكتاب سنة ٧٧٥ هـ)
- ٤٧ — الهوارى : (حسن محمد)
رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية .
- ٤٨ — ياقوت : (ت ٦٣٦ هـ ، ١٢٣٩ م) شهاب الدين أبو عبد الله أخو الروى
معجم البلدان (١٢ جزءا — القاهرة سنة ١٩٠٦ م)

(ب) المصادر الأفرنجية

- 1) Allan,
Cambridge Shorter History of India.
- 2) Archer & kingsford'
The Crusades.
- 3) Arnold, Prof. (Sir Thomas)
The Preaching of Islam
- 4) Arnold,
The Caliphate
- 5) Atiya, (A. S.)
Egypt and Aragon, Embassies and
Diplomate correspondence between
1300 and 1330 A. D.
- 6) Atiya, (A. S.)
The Crusade in the later Middle Ages
- 7) Browne, Edward. G.
A literary History of persia.
- 8) Budge, ,
A history of Ethiopia, Nubia and Abyssinia.
- 9) De Sacy, (Sylvestre).
Sur la nature et les Revolutions du Droit de Propriété Terri-
toriale en Egypte. (Bibliothèque de Arabisants Français
1ere. serie le caire, 1923.
- 10) D' ohsson, (le Baron G.)
Histoire des Mongols. 4. Tomes.
- 11) Eliot,
The History of India.
- 12) Gibbons,
The Foundation of the Ottoman Empire.

- 13) Hanotaux,
Histoire de la Nation Egyptienne (Wiet) vol IV.
- 14) Heyd,
Histoire du Commerce du levant au Moyen Age.
- 15) Howorth,
The History of the Mongols. (4 vols)
- 16) King,
The Knights Hospitallers in the Holy land.
- 17) Lane - poole, (S.)
Mediaeval India under Mohammedan Rule.
- 18) Lane - poole, (S.)
The Muhammadan Dynasties.
- 19) Lane - poole, (S.)
A history of Egypt in the Middle Ages.
- 20) Lane - poole, (S.)
Moors in Spain.
- 21) Le Strange,
Palestine under Moslems.
- 22) Macmichael,
A history of the Arabs in the Sudan.
- 23) Mez,
Die Renaissance des Islams.
- 24) Muir, (Sir William)
The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt.
- 25) Quatremère, (E.).
Histoire des Sultans Mamlouks de L'Egypte. (2.Vols)
- 26) Ross, (Sir E. Denison)
The Art of Egypt Through the Ages.
- 27) Stevenaon,
The Crusaders in the East.

28) Wiet,

Les Biographies du Manhal Safi.

29) Wiet,

Catalogue Générale du Musée Arabe du Caire, Objets
En Cuivre.

30) Wiet,

Catalogue des Lamps et Bouteilles En Verre Emaillé

31) Zetterstéen, (K. V.)

Beitrage Zur Geschichte Der Mamluken — Suhane.

32) Cambridge Medieval History.

33) Encycyopaedia of Islam.

فهرس الأعلام

٣ : ٨٢	(١) .
إدوارد الأول ملك إنجلترا —	آسندمر — ١٦ : ٤٤
١٥ : ٢٣٩	آق سنقر — ٢٠ : ٥٤
إدوارد الثاني ملك إنجلترا — ٨ : ٢٠٤	آقوش = جمال الدين آقوش الأفرم
أرتنا = علاء الدين أرتنا	إربان الخامس (البابا) — ٥ : ٢٤٧
أرجواش المنصوري — ١٣ : ١٨١	الامر بأحكام الله القاطمي —
٣ : ١٨٦	٣ : ١٠٥
أرض خان — ١٢ : ٢٢١	آنوك بن الملك الأجد حسين —
أريغون — ١٧٢ : ١١ : ٥١ : ١٩	١٠ : ٦١
٩ : ١٧٤	أباقا بن هولكو —
أزبك خان — ٢١٢ : ٦ : ٢١٨	٢٣ : ١٧ : ١٦٠ : ١١
١٥ : ٢١٩ : ٢٠ : ٢٢٠ : ٤	١٦١ : ١ : ١٦٢ : ٢١
١٢ : ٢٢١	٦ : ١٦٣
أسد الدين رميثة بن أبي نعي —	أرام — ٥ : ١٥٤
١١٨ : ٢٠ : ١١٩ : ١١ : ١٢٠	إبراهيم أخو المستكني = الوثاق بالله
١١ : ١٢١ : ٢ : ١٢٢ : ٣	إبراهيم بن قطاوتغر العلائي —
أسد الدين محمد بن نور — ١٣١ : ٦	١٩ : ٨٧
الاسكندر بن فيليبس اليوناني —	الأتانك بهاء الدين — ٩ : ١٦٥
٧ : ٢٣٧	١١ : ١٦٩
إسماعيل بن جعفر الصادق —	أحمد (صاحب المسند) — ١٤ : ١٦٩
١٥ : ٢٠٦	أحمد بن الأمير بلبغا العمري ٣ : ٨٧
أسند مر الناصري — ٦١ : ١٤ : ٦٣ : ٤	أحمد الشهابي — ١٧ : ٢١٥
	أحمد بن المستكني بالله — ٥ : ٨١

(تليه) اعتمادا في ترتيب الأسماء على أول الاسم دون المبالاة بأداة التعريف ؛ وبألفاظ :
الأب والابن والأُم . مثال ذلك : (ابن حوران) فقد ذكرناه في حرف الجيم .
(وأبو الربيع) تجده في حرف الزاء (وأُم القرى) نجدها في حرف القاف وهلم جرا .

الأمير الحاجب — ١٠٩ : ١٧	الأشرف إيتال — ٩٦ : ٢١
أمى — ١٥٣ : ١٥	الأشرف خليل بن قلاوون —
الأمير إبراهيم بن قطلوتمر — ٨٨ : ٧	٢٣ : ٢٦ : ٢٣ : ٢٧ : ١٠
الأمير أحمد بن الناصر — ٥٤ : ٧	٢٨ : ٣٠ : ١٢ : ٣١ : ٢٠
الأمير أقبغا عبد الواحد — ٢٢٠	٢٢ : ٣٥ : ٣٠ : ٤٠ : ٤٠
١٠ : ٣١٢ : ١١	٥٠ : ٥١ : ٩ : ٧٢ : ١٢
الأمير ألماس — ٣١١ : ١٣	١٠٥ : ١٢٠ : ٢١ : ٢١
الأمير أيدغمش — ٥٤ : ٩	١٥٣ : ١٧٢ : ٩ : ١٠ : ١٧٣
أمير حاج = الصالح أمير حاج	٢ : ٢٢٤ : ١٢ : ٢٢٥ : ١٩
الأمير العباسى = المستنصر بالله	٢٤٠ : ٢٤١ : ١١ : ١٤
أحمد بن الإمام الظاهر	٢٤٢ : ٢٩٩ : ١٩ : ٦ : ٣١١
الأمير قراجا بن أبى دلقادر —	٣ : ٣١٤ : ١٩
٢١٤ : ٦	الأشرف شعبان — ٦١ : ٣
الأمير قرط بن عمر التركمانى —	٦٢ : ٦٣ : ٢ : ٦٥ : ١٣
٨٧ : ١٩ : ٨٨ : ٢	٨٦ : ١٢٧ : ١١ : ١٤٨
الأمير قفجق المنصورى = سيف	١ : ١٤٩ : ٣ : ٢١٦ : ٢١
الدين قفجق المنصورى	٢١٧ : ٢٢١ : ٣ : ١١ : ٢٣١
الأمير قوصون — ٥٣ : ٥٤ : ١٤	١٨ : ٢٤٨ : ٧ : ٢٥٠ : ٥
٢ : ٦٢ : ٧ : ٢٩٩ : ١٧	٢٥٤ : ٢٢٣ : ٢٦٢ : ٢ : ٣١٣
٣٠١ : ٣١٢ : ١٩ : ٢٢٢	٥ : ٢١٥ : ١٥ : ٣٢٧ : ٨
١ : ٢٢٤ : ١٨ : ٢٢٥ : ١٠	٦ : ٣٣٢
٢ : ٢٢٦	أشقر الماردىنى — ٢٣١ : ١٧
الأمير كرجى — ٤٠ : ٦	الأفرم = جمال الدين آقوش الأفرم
الأمير نوغاي — ٤٥ : ١٤	الأفضل صاحب حماة — ٢١٦ : ٧
الأميرة بشرية — ٢٩٦ : ٢١	أقتمر الحمبلى — ٦٣ : ١٤
أودو بوالشيان — ٢٣٣ : ٢٥	أقرنك بن جيخاتو — ٣٠٣ : ٣
٢٣٦ : ١٣	ألفونس أمير إشبيلية — ٢٣٩ : ١٣
	ألفونس صاحب قشتالة — ٢٦٢ : ١٢

بدر الدين يلبك الخازندار —

١١ : ١٩

بدر الدين يلبك الفارسي الحاجب

٩ : ٢٨٩

بدر الدين التركاني — ١٢١ : ٣

بدر الدين جنكلي بن اليابا — ٢٨٧ :

٢ : ٢٩٠ ، ٢٤

بدر الدين سلامش بن بيرس —

٢١ : ٢١ ، ٢٢ : ٣ ، ٢٣ : ٥٠

١٠٨ : ٧١ / ١٢ : ١٧٦ ، ١٠١٧٧ :

بدر الدين بن فضل الله كاتب

السر الشريف (القاضي) —

٣ : ٦٦

بدر الدين محمد بن جماعة (قاضي

القضاة) — ١٢٥ : ١٧ ، ١٧٨ :

٢٣ : ١٨٦ ، ٤ : ٢٢٠ ، ٢١ :

بدر الدين محمود — ٢١١ : ١

بدر الدين مكتوب المرقبي —

١٦ : ١٣٠

بردي بك ٢٢١ : ٩

برشنو = عبد الله برشنو

بركة الجوباني — ٦٤ : ٣ ، ٦٥ : ٢

بركة خان = السعيد ناصر الدين

بركة خان

برلني — ٧٩ : ١١

برهان الدين أحمد — ٢١٥ : ٤

برهان الدين بن جماعة — ٥٩ : ٣

برهان الدين البمياطي — ١٥٩ : ٦

بزلاز — ١٢٣ : ١٢

أوشين ملك أرمينية — ٢٨٨ : ١٥

أولجايتو خدابنده إيلخان المغول —

١٦ : ١١٩ ، ٧ : ١٢٠ :

١٧٤ : ٢١ ، ٢٠٣ : ١٦ ،

٢٠٤ : ٦ ، ٢٠٥ : ١٦ ، ٢١٨ : ٥

ابن إياس — ٥٩ : ٢ ، ٢٤٩ : ٦ ،

٢ : ٣٠٣

أيتمش — ١٢٢ : ١

إيلخان المغول = أولجايتو خدابنده

إيلخان المغول = تكودار أحمد

إيلخان المغول = غازان

اينيك البدرى — ٦٣ : ١٣ ، ٨٦ :

٢٠ : ٨٧ ، ٥

(ب)

بارثليو صاحب جييل — ٢٣٨ :

١٥ : ٢٣٩ ، ٨ :

باطو بن جوجي — ٢١٧ : ٢٣

باهمان شاه — ١٠٠ : ٦ ، ٢٤٢ : ١٠

بدر الدين بكتاش الفجري — ٤٠ :

١٧ : ٤٢ ، ٧ : ٢٢٧ ، ٣ :

٢ : ٢٢٨

بدر الدين بكتوت الشمسي — ٢٨٨ : ١

بدر الدين بيدرا — ٢٩ : ٣٠ ، ٥ :

٣ : ٣١ ، ٢ : ٣٢ ، ٨ :

بدر الدين بيسرى — ٢١ : ٩ ،

٢٤ : ٣ ، ٢٩ : ٨

بدر الدين يلبك الأيدمرى —

٢ : ٢٨٢

٢٠٧ : ٢٠٨ : ٢٠٩ : ٢٠٩

٢١١ : ٢١٢ : ٢١٣ : ٢١٤

٢١٣ : ٢١٤ : ٢١٥ : ٢١٦

٢٢٩ : ٢٣٠

بولاي - ١٧٦ : ١٩

بونيفاس الثامن (البابا) - ٣٤٠ : ١٤

بوهند السابع أمير طراباس -

٢٣ : ٢٣٣ : ١٩ : ٢٣٣

بيرس الجقدار - ٢٩٠ : ٤

بيرس الجاشنكير = المظفر بيبرس
الجاشنكير

بيبرس الحاجب = ركن الدين بيبرس
الحاجب

بيبرس الدوادار = ركن الدين
بيبرس الدوادار

بيدرا = بدر الدين بيدرا

بيدو - ٣٦ : ١٧٤٠ : ٧ : ١٣

بيليك الخازندار = بدر الدين

بيليك الخازندار

(ت)

تاج الدين بن يفت الأعز - ٦٨ : ١٢

تاج الدين عبد الرحمن الطويل -

٢٨٩ : ١١

تغلق شاه = غياث الدين تغلق شاه

تقي الدين أحمد بن تيمية - ١٧٨ :

٢٣ : ١٨٤ : ٥ : ١٨٦ : ٤

تقي الدين بن دقيق العيد - ٧٦ : ٩

١٧٨ : ٢

بشتاك (الأمير) - ٢٨٨ : ٥

بطرس الأول ملك قبرس - ٢٤٤ :

٧ : ٢٤٦ : ١٥ : ٢٤٧ : ٣

٢٤٩ : ٢ : ٢٥٢ : ١٣ : ٢٥٣

٢٥٧ : ١٠

بطرس الثاني - ٢٥٧ : ١٣

ابن بطوطه - ١٠٢ : ١٢ : ١١٢ : ٧

بغداد خاتون - ٢١١ : ١٨ : ٢١٢ : ٧

أبو البقاء خالد صاحب تونس -

١٤٢ : ١٤ : ١٤٣ : ٧

بكتاش الفخري = بدر الدين
بكتاش

بكتمر الجوكندار - ٤٢ : ١٦ :

٥١ : ٢

أبو بكر أخو الأمير خالد - ١٤٣ : ٧

بليان الصرخدي - ٢٩٠ : ٣

بليان الطباخي - ٣٩ : ١٣

البيلي - ٢٩٠ : ٤

بنوت الحادي عشر - ٣٤٠ : ١٤

بهاء الدين أصلم - ٢٨٨ : ٣

بهاء الدين قراقوش الظاهري -

٢٨٩ : ١٠

بهادر = سيف الدين بهادر الحاج

بهادر = سيف الدين بهادر الشمسي

بهادر جك - ٧٩ : ١٠

بودس - ١٥٢ : ١٢

بوراك - ١٦٠ : ١٩

بوسعيد إيلخان المقول - ١٢٠ :

١٢ : ٢٠٥ : ١٦ : ٢٠٦ : ٧

جلال الدين أبو المظفر محمد شاه بن

فندو — ١٠٠ : ٨

جلال الدين عبد الرحمن بن البلقيني

(قاضى القضاة) — ٩٥ : ١٩

جلال الدين القزوينى الشافعى (قاضى

القضاة) — ١٢٦ : ٨

الجمال على بن ظافر المصرى —

٢٨٣ : ١٩

جمال الدين آقوش الأفرم — ٤١

٤٤٠ : ٥٤٧ : ٤٧٠ : ٤٩٠

٢٠ : ١٠٩ : ١٥٠ : ١٥٠

١٢٥ : ١٠ : ١٤٥ : ٤

٢٠٤ : ١٢

جمال الدين آقوش الرومى الحسامى

٢٤٥ : ١٢

جمال الدين محمد بن على — ٣٢٦ : ٥٠

جنفرا (الأمير) — ٢٤٧ : ٢٠

٢٤٨ : ١٠ : ٢٥٠ : ٣

جنگز خان — ٣٦ : ١٨ : ١٠٢

٢١٩ : ٨ : ٢٢٣ : ٤

ابن جويان = دمشق خواجه بن

الأمير جويان

جويان (الأمير) — ٢٠٥ : ١٧

٢٠٦ : ٨ : ٢٠٨ : ٢٠٩

٢١٢ : ١٤

جينيخاتو — ٣٦ : ٩ : ١٧٤ : ٨

جيمس ملك أرجونته — ٣٣٩ : ١٤

٣٤١ : ٨

(ح)

حاجى توغاي — ٢١٣ : ٣

تكفور الأرمن — ٢٢٤ : ١٥

تكودار (أحد) ١٦٠ : ١٩ : ١٦٣

١٣ : ١٦٤ : ١ : ١٦٧ : ٥

١٧١ : ٢٤ : ١٧٢ : ٢ : ٢٢٢ : ١٨

التليجى — ٢٩٠ : ٤

تسكز الحسامى الناصرى — ٥١ :

٢٠ : ٥٢ : ٣ : ٢١٠ : ١٥

توغاي تيمور — ٢١٣ : ١١

٢١٥ : ١٩ : ٢١٦ : ١

توماس أرنولد — ٦١٧ : ٤

تيمور — ٣٠٥ : ١٣

(ث)

أبو ثابت البرزوى — ١٤٣ : ١٤

الثعالى — ٢٩٨ : ٩

ثقية بن رميشة — ١٢٢ : ٩ : ١٢٣

١٠ : ١٢٤ : ١٥

(ج)

جاقى بك بن أربك خان — ٢٢١ : ٦

الجاولى = سنجر الجاولى

جبره مصقل — ١٥٧ : ٥ : ١٥٨ : ٩

ابن جبير — ٣١٦ : ١٢ : ٣٣٥ : ٣

الجخان = محمد بن تغلق

جرجى الادريسي — ٢٥٤ : ٤

جريحورى العاشر — ١٦٠ : ١٣

جريس صاحب بلاد الجبل —

١٥٠ : ١٣ : ١٥١ : ٣ : ١٥٢ : ٤

جعفر الصادق — ٢٠٦ : ١٩

جنطائى — ١٦٠ : ١٨

جقمق الدوادار — ٩٥ : ٩

حسن الكبير = حسن الجلايرى	حاجى سعيد صرصرى — ٩٨ : ٣
حسين بن جوبان — ٢٠٩ : ٧	الحافظ ابن حجر = ابن حجر العسقلانى
الحسين بن على رضى الله عنهما —	الحاكم بأمر الله = شمس الدين البرلى
١٣٧ : ١٩ : ٢٠٦	الحاكم بأمر الله الخليفة العباسى —
أبو حفص عمر بن يحيى الهنتابى —	١٢ : ٦٩ ، ١١ : ٦٧ ، ١ : ٥٤
١٧ : ١٤٢	١١ : ٧٢ ، ٤ : ٧١ ، ١ : ٧٠
حنان الثانى والعشرون (البابا) —	٦ : ٧٦ ، ٥ : ٧٤ ، ٣ : ٧٣
٢٧٣ ، ٥ : ٢٣١ ، ٣ : ٢٢٩	٠٤ : ٨٤ ، ٣ : ٨٣ ، ١١ : ٨٢
١٣ : ٢٧٦ ، ٦	٠١ : ٩٩ ، ٢ : ٩٨ ، ٣ : ٨٥
حنان السابع بطرك الأقباط —	١٠٤ : ١٠٥ ، ١٠٤ : ١٠٥ ، ١٦ : ١٠٤
١٣ : ٢٥٩	٣ : ٩٥ ، ١٢ : ١٧٢ ، ١٢ : ١٧٢
أبو حنيفة الدينورى — ٣١٧ : ١	الحاكم بأمر الله الفاطمى — ١٥٥ : ٢٦
حميضة = عز الدين حميضة	ابن حبيب الحلبي — ٦٥ : ٤
(خ)	ان حجر العسقلانى — ٩٤ : ٤
الخاتون دلنبيه — ٢٢٠ : ٦	١٦ : ١٩٧
خارجة بن حذافة الصحابى —	حسام الدين طرناطى — ٢٥ : ١١
٢١ : ٣١٩	٢٩ : ٢٩٠ ، ٤ : ٣٢٥
الخان أويس — ٢١٧ : ٢	٥ : ٣٢٦ ، ٩
الخان محمد — ٢١٦ ، ١ : ٢١٤	حسام الدين لاجين = المنصور
الخان موسى — ٢١٢ : ١٩ : ٢١٣	حسام الدين
خدا بنده = أولجايتو خدا بنده	حسام الدين المجيرى — ١٩١ : ١٧
خدا بنده = أولجايتو خدا بنده	حسن الجلايرى — ٢١٣ : ٣ : ٢١٤
خدا بنده = أولجايتو خدا بنده	٤ : ٢١٥ ، ١٠ : ٢١٦
خسروخان — ١٣٩ : ٦ : ٣٠٠ : ٢٢	حسن بن دمرداش — ٢١٥ : ٩
خضر — ٢٦٠ : ٧	٤ : ٢١٦
خليل بن قوصون — ٦٢ : ٣	حسن الصغير = حسن بن دمرداش
٨ : ٢٥٠	الحسن بن عبد الله — ٣٠٨ : ١٤
خواجا مرجان — ٢١٧ : ٢	الحسن بن على رضى الله عنهما —
(د)	١٩ : ٢٠٦ ، ١٨ : ١٣٧
داود (أحد ملوك النوبة) —	أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب
٨ : ١٥١	المرينى — ١٤٣ : ١٤٤٠
	٤ : ١٤٦ ، ٧ : ١٤٥ ، ٧

أبو زكريا يحيى — ١٧ : ١٤٦
 ابن زنبور = علم الدين عبد الله بن تاج
 الدين أحمد
 زيد الدين علي بن مخلوف المالكي
 (قاضي القضاة) — ١٨ : ٣٨
 زين الدين كتبغا — ٣١ : ٣٢، ٣ : ٣٥، ٢ : ٣٣، ١ : ٣٦، ٣ : ٣٧، ٢ : ٣٨، ٥ : ٧٣، ١٨ : ٧٤، ٦ : ١٢٠، ٢٣ : ١٧٥، ٢ : ١٧٧، ١٣ : ٢٢٧، ٤ : ٢٢٧
 زين الدين مقبل الطواشي —
 ١٨ : ٣٢٢

(س)

ست العياثم — ١٧ : ٣٠٦
 سعد الدولة اليهودي — ٧ : ١٧٢
 سعد الدين كوجيا الناصري —
 ١٧ : ٣٠
 أبو سعيد عثمان بن يعقوب المريني —
 ٧ : ١٤٧
 السعيد ناصر الدين بركة خان بن
 الظاهر بيبرس — ٧ : ١٩
 ١٧ : ٢٢، ٣ : ٢١، ١ : ٢٠
 ٢١٧ : ٣ : ٧١، ٣ : ٧٠
 ٣ : ٢٢١، ١٥ : ٢١٨، ١٤ : ٢٢١
 سلار = سيف الدين سلار
 سلامش = بدر الدين سلامش
 السلطان سليم — ١٦ : ١٥٥

داود الأول ملك الحبشة — ٢ : ١٥٩
 الذرفندي — ٢١ : ١١٩
 ابن دقيق العيد = تقي الدين
 دلشاد خاتون — ٨ : ٢١٢
 دلنية = الخاتون دلنية
 دمرداش بن جوبان — ٢٠٩ :
 ٢٠ : ٢١١، ٣ : ٢١٠، ٢ : ٢١١
 ٧ : ٢٢٩، ١٥ : ٢١٥
 دمشق خواجه — ٢١ : ١٧٧
 ٢٠٨ : ١٥، ٢٠٩ : ٩
 ٨ : ٢١٢

(ر)

أبو الربيع سليمان بن أحمد الخليفة العباسي
 = المستكن بالله
 رشيد الدين فضل الله — ١ : ٢٠٦
 ركن الدين بيبرس الحاجب —
 ٩ : ٢٨٤، ١٠ : ١٣٦، ١ : ١٣٥
 ركن الدين بيبرس الدوادار — ٣١ :
 ٢١ : ٤٧، ٨ : ٤٢، ١٧ : ٤٢
 ١١ : ١٧٧، ١٨ : ٥١
 ٤ : ٢٤١
 أبو ركوكة — ٢٥ : ١٥٥
 رميثة = أسد الدين رميثة
 أبو ريذة — ١٨ : ١٠٤
 ريمندل — ١٣ : ٣٤٠

(ز)

أبو زكريا بن عبد الواحد (الأمير
 المرتضى) — ٢٠ : ١٤٢

ابن السلعوس = شمس الدين محمد بن
السلعوس
سمياد (ملك الأرمن) - ٩: ٢٢٦
سنجر الجاولي - ٨: ١١٢
سنجر الحلبي = علم الدين سنجر الحلبي
سنجر الخلجي = علاء الدين سنجر
الخلجي
سنجر الشجاعى = علم الدين سنجر
الشجاعى
سنجر الصوائى = علم الدين سنجر
الصوائى
سنجر المسرورى = علم الدين سنجر
المسرورى
سنقر الأشقر = سيف الدين سنقر
الأشقر
سودون - ١١: ٨٨
سيف الدين آقول الحاجب -
٢٢: ٢٨٧
سيف الدين أرغون - ٧: ٢٠٥
سيف الدين أستذمر الكرخى -
١٩: ٢٤٣
سيف الدين أطوخى - ٢٢: ٣١٩
سيف الدين أغزولو العادلى - ٩: ٣٧
سيف الدين أيتمش المحمدى -
٤: ٢٠٥
سيف الدين بكتمر - ١٩: ٤٩
سيف الدين بلبان الطوخى -
١٧٦: ١٠: ٢٤١
سيف الدين بهادر الحاج - ٢: ٥٠
سيف الدين بهادر الشمسى -
٢: ٢٨٨

سيف الدين بهادر المنصورى -
٣٠: ١١: ٤٧: ٢١
سيف الدين الجرمكى - ١٩: ٢٤٥
سيف الدين سلار - ٣: ٤١
٤٢: ٧: ٤٣: ٢: ٤٤: ٣
٤٦: ٢١: ٤٧: ١٦: ٤٨
١٠: ٤٩: ٥: ٥٠: ٢١
٥١: ٢: ١٣٣: ١٠: ١٧٧
١٦: ١٨٧: ٣: ٢٨٩: ١٨
سيف الدين سنقر الأشقر - ٢٤:
١٤: ٢٥: ٨: ١٦٢: ٣
سيف الدين قبيجق المنصورى -
٣٨: ٧: ٣٩: ١٤: ٤١
٦: ٤٤: ١٦: ٥٠: ١٧٦
٨: ١٨١: ١٤: ١٨٢: ١٤
١٨٣: ١٢: ١٨٥: ١٠
١٨٦: ٢: ١٨٧: ١
سيف الدين قشتمر - ١٧: ٢٢٧
سيف الدين قلاوون = المنصور
سيف الدين قلاوون
سيف الدين آقولى - ٢٣: ٢٨٧
سيف الدين كوندك الساقى - ٢٠:
٢: ٢١: ٢: ٢٤: ٣
٢٥٠: ٧
سيف الدين منكوتمر الحسامى -
٣٧: ٢١: ٣٨: ١١: ٣٩
٧: ٤٠: ٤: ١٦٣: ٧
٢١٧: ١٥: ٢٨٩: ٢
السيد المسيح عليه السلام : المسيح
عليه السلام
سيامون ملك دنقلة

$$102:1:101:7:10:$$
$$\lambda = 10^3 \text{ m}$$

البرطي - ٦٧ : ١٣

(ش)

شارل الرابع ملك فرنسا — ٢٧٣ :

10 : 277.0

شارل صاحب انجو — ۳۳۹: ۱۳

شاہ شجاع - ۱۰۰ : ۱۹

ابن شاہین — ۹۰ : ۱۱

شجاع الدین أغولو شاد الدواوين

۲۲۰۲۹۱ —

الشجاعی = علم الدین منیر

شرف الدین حسین بن حیدر —

٢٢ : ٢٨٧

شرف الدين عبد الوهاب بن فضل

النشوء — ١١٢ : ٣

الشریف أبو نعی - ۱۱۷: ۸

الشرف إدريس بن علي — ۱۳۰: ۱۹۰

(۷)

شطا بن الهاموك - ٢٩٥ : ١٦

شمس الدولة تورانشاه - ۱۲۸: ۱۹

شمس الدولة البرلى - ٦٧ : ١٨

شمس الدين محمد بن السلعوس —

‘ 2-:33, 1-30, 4-29

$$21 : 314 = 12, 5173$$

الدين الخليلي

شمس الدين سفيقر الأشقر — ٢٠:

$$\xi : \mathbb{R}^3 \rightarrow \mathbb{R}^3 : \mathbb{R}^3 \rightarrow \mathbb{R}^3$$

شمس الدين سنقر الأعسر - ١٨٧١

14 : 342

شمس الدين قراستقر — ۳۰ : ۱۱،

الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان

$$V: 3\lambda, \quad \varepsilon: 30, \quad \Lambda: 22$$

طفجى (الأمير) — ٩ : ٤٠
طفيل بن منصور بن ججاز أمير

المدينة — ١٥ : ١١٨
طقتمش بن بردى بك — ٢٠ : ٢٢١
طقطاي ملك القفجاق — ١٢٤ :

٢ : ٢١٨ ، ٣
طولونية = الخاتون دلثية
طينال — ١٤ : ١٣٦

(ظ)

الظاهر أسد الدين — ١٤ : ١٣٤

٢ : ١٣٥
الظاهر برقوق — ٦٤ : ٢٢ : ٣١
٢ : ٦٥ ، ٢ : ٦٦ ، ٣ : ٨٧
١٦ : ٨٨ ، ٣ : ٨٩ ، ٢ : ٩١
١٥ : ٩٢ ، ١١ : ٩٣ ، ٣ : ١٥٩
٣ : ٢١٤ ، ١٥ : ٣٢٢ ، ١٧ :

٣ : ٣٢٣
الظاهر بيبرس — ١٩ : ٤ : ٢٠ :

٧ : ٢١ ، ١٥ : ٢٢ ، ١٦ : ٢٤ :

١٤ : ٦٧ ، ١٧ : ٦٨ ، ٢ : ٦٩ :

٣ : ٧٠ ، ٢ : ٧٢ ، ١٥ : ١٠١ :

٧ : ١٠٥ ، ١٦ : ١١٧ ، ٤ :

١١٨ : ١٢٠ ، ١٩ : ١٢٨ :

١٣ : ١٢٩ ، ٤ : ١٥٠ ، ٤ :

١٥٥ : ١٢٠ ، ١٥٦ : ١٥٧ :

١ : ١٦١ ، ٧ : ٢١٧ ، ١٥ :

٢٢١ : ٢٢٤ ، ٣ : ٢٢٢ :

١٣ : ٢٥٩ ، ١٢ : ٢٦٠ :

٨ : ٢٨٥ ، ١٤ : ٣١٤ ، ١٥ :

٣٢٩ : ٣٣٦ ، ١٨ : ٣٣٧ :

١٥ : ٣٣٨ ، ١ : ٣٣٩ :

— ٦٥ : ١٤ ، ٦٦ : ٩٠٠٨ :

٤ : ٩١ ، ١٤ :

الصالح صالح بن الملك الناصر محمد —

٥٧ : ٢٠ ، ٥٨ : ٦ ، ٥٩ : ١٨ :

٨٤ : ١٦ ، ٨٥ : ١٣ ، ٥ : ٩ :

٣ : ٣٠٣ ، ٤ :

الصالح علاء الدين على — ١٥ : ٢٥ ،

٢٦ : ٢٣ ، ٢٨ : ٢٣ ، ٢٣ : ٢٣٣ :

٣ : ٢٣٦ ، ٨ : ٢٣٧ ، ٣ :

الصالح نجم الدين أيوب — ٢٢ :

١١ : ٣٤ ، ٢٣ : ٢٨٦ ، ٤ :

صرغتمس — ١ : ٦٠ ، ٦ : ٥٨ ،

صلاح الدين الأيوبي — ١٠ : ٥ : ٧ ،

١٢٧ : ١٩ :

صلاح الدين خليل بن عمار —

٢٤٧ : ١٩ :

الصلاح الشرايشي — ٣ : ٣٣٣

الصلاح الصفدي — ١٢ : ٥٦

(ض)

ضياء الدين قاضي الموصل — ٦ : ١٩١

(ط)

طاجار — ١٤ : ٥٣

طاز — ١١٣ : ١٩ : ٥٩ ، ١ : ٥٨ :

٧ : ١٢٣ ، ١٢ : ١٢٤ ، ١ :

طرغاي — ٨ : ٣٦

طرنطاي = حسام الدين طرنطاي

طشتمر نائب الشام — ١٦ : ٥٤ ،

٦٣ : ٦٤ ، ٢٢ : ٢ :

عز الدين أيدير نائب الشام —

٩ : ٢٢

عز الدين حمضة بن أبي ندى —

١١٨ : ٢٠ : ١١٩ : ٢ : ١٢٠

٢ : ١٢١ : ٤

عز الدين عبد العزيز بن جماعة

(قاضى القضاة) — ٨١ : ١٥٠

٦ : ٨٢

عز الدين الكوراني — ١٥٠ : ٨

عطيفة بن ابى ندى أمير مكة —

١٢١ : ٦ : ١٢٦ : ١٩

علاء الدين بن الأثير — ١٢٥ :

١٦ : ٢٢٠ : ٢٢

علاء الدين أرتنا — ٢١٤ : ٣ :

١ : ٢١٥

علاء الدين أيديغدى الخوارزمى

٢١٩ : ٤ : ٢٨٧ : ٢١

علاء الدين ترمشير — ٩٨ : ٢٢

علاء الدين — شجر الخلقى —

٩٩ : ٥ : ١٠٢ : ١٨ :

١٢٥ : ١٥ : ١٣٨ : ١٣

علاء الدين الطنبغا نائب حلب —

٩ : ٢٣١

علاء الدين طبرس — ٦٧ : ١٦

علاء الدين بن عرب محتسب القاهرة

١٦ : ٣٠٦

علاء الدين على بن عبد الظاهر —

٧٧ : ١٢ : ١٩٨ : ١٩

علاء الدين على أبو الفتح — ٢٥ : ١٦

ظفر خان — ١٣٨ : ١٧

(ع)

العادل سلامش = بدر الدين سلامش

بن بيسرس

العادل كتبغا = زين الدين كتبغا

العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب

— ٢٨٤ : ٢٣

أبو العباس أحمد : الحاكم بأمر الله

عبد الرحمن بن أبي موسى صاحب

عبد الله برشنيو — ١٥٣ : ٢٠ :

٧ : ١٥٤

عبد الله الزيلعى — ١٥٧ : ١٤

عبد الله بن طاهر — ٢٨٣ : ٦

عبد الله بن المنصور صاحب دملوه

٧ : ١٣٤

عبد المؤمن — ١٤٢ : ١٨

عبد الواحد — ١٤٢ : ١٨

عجلان بن رميثة أمير مكة ١٢٢ : ٩ :

١٢٣ : ١ : ١٢٤ : ٢ : ١٢٧ : ١٢

عز الدين أبيك الأفرم — ٢٢ :

٢ : ٢٤ : ٢٠ : ١٥١ : ٧ :

١١ : ١٥٣

عز الدين أبيك الجوى — ٣٧ : ٨

عز الدين أبيك الشجاعى — ١٣٣ : ٨

عز الدين أيدير الخطيرى — ٢٨٧ :

٢٠ : ٢٩٠ : ٣

عز الدين أيدير السيفى — ١٥٠ :

٩ : ١٥١ : ٢

عز الدين أيدير العجمى — ٣٠ : ١٦

علي بن أبي طالب رضي الله عنه —

١٩٣ : ١٠ : ٢٠٦ : ١٨

علي ابن الملك الأشرف شعبان —

٦٢ : ٢٢ : ٨٦ : ١٥

عماد الدين أحمد الكركي — ٣ : ٣٢٤

عماد الدين بن السكري — ١٨ : ١٩١

عماد الدين الكندي — ٢ : ٣٤٦

عمر بن إبراهيم الوائلي بالله —

٨٨ : ١٥

عمر بن الخطاب رضي الله عنه —

١٠٦ : ٢٠ : ١٠٧ : ٢

عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه —

١٠٤ : ٨

عمر بن علي بن رسول الملك

المختصر — ١٢٨ : ٤

أبو عثمان فارس المريني — ١١ : ١٠٢

عيسى بن مريم عليه السلام = المسيح

عيسى بن مهنا — ١٦٧ : ١١

(غ)

غازان محمود بلخان المغول — ٦ : ٣٦

٣٩ : ١٥ : ٤٠ : ٧٦

٢١ : ١٠١ : ١٨ : ١٧٤ : ١٧

١٧٥ : ١٧٦ : ١ : ١٧٧

١٧٨ : ٥ : ١٧٩ : ١

١٨١ : ١٠ : ١٨٢ : ٢ : ١٨٤

١٨٥ : ٩ : ١٨٧ : ٣ : ١١

١٨٨ : ١ : ١٨٩ : ٧ : ١٩١

١٩٢ : ٧ : ٢٠٠ : ٢٤

٢٠١ : ٧ : ٢٠٣ : ١٢ : ٢١٨

٢٢٢ : ٤ : ٢٢٦ : ٢٢ : ٤

٢٢٧ : ٢

علاء الدين علي بن فضل الله — ٨٣

١٨ : ١١٣ : ١٣

علاء الدين القايلي — ١ : ٢٨٨

علاء الدين مغلطاي الجمالي —

٢٣ : ٣٤٥

علاء الدين بن هلال الدولة —

٣ : ٣٣٣

علم الدين البلقيني — ١ : ٩٧

علم الدين سنجر الحلبي — ٧ : ٢٠

علم الدين سنجر الشجاعى — ٢٩ :

٣١ : ٦ : ٣٢ : ٧ : ٣٣

٣٤ : ٤ : ١٠٨ : ١٩

١٧٢ : ٢١ : ٢٤٣ : ٥ : ٣٢٨ : ١٨

علم الدين سنجر الصوابى — ٢٢٧

١١ : ٢٤٢ : ٢٠

علم الدين سنجر المسرورى —

٨ : ١٥٠

علم الدين شمائل — ٢٥ : ١٥١

علم الدين عبد الله بن تاج الدين أحمد

المعروف بابن زنبور — ٥٨ : ١٤

٥٩ : ٢ : ٣٠٣ : ٢ : ٣٠٧

١٨ : ٣١٩ : ١٠

أبو علي بن الأفضل — ٤ : ١٠٥

علي باد شاه — ١٧ : ٢١٢ : ٥ : ٢١٣

علي بن داود صاحب اليمن — ١٢٢ :

١٨ : ١٢٣ : ٢

علي بن رسول أستاذار صاحب اليمن

علي (الملك المسعود) — ١٢٨ : ٢٤

زين العابدين عليه السلام —

١٩ : ١٣٧

علي شاه (الوزير) — ١ : ٢٠٦

فردناند ملك قشتالة — ١٤٩ : ١٧
 فضل بن عيسى — ١٢٠ : ٢٥
 ابن فضل الله العمرى — ٨٢ : ١٢
 ٢٨٦ : ١٧ ، ٣٠٤ : ١٢
 أبو الفوارس المتوكل — ١٠٦ : ٩
 فيروز شاه سلطان هندستان — ٩٩
 ١١ ، ١٤١ : ١٣
 فيليب الرابع ملك فرنسا — ٢٠٤ : ٩
 ٢٤٤ : ١٤ ، ٢٤٤ : ٢٣
 فيليب السادس ملك فرنسا — ٢٣١
 ٥ ، ٢٧٧ : ٢

(ق)

القائم بأمر الله — ٩٦ : ٢٠
 أبو القاسم — ٧٨ : ١١
 قبيجق = سيف الدين قبيجق
 قثم بن العباس — ٩٨ : ٢٣
 القديسة بربارة — ٢٧١ : ٢٧٣
 ٢٢ ، ٢٢٤ : ١٧
 قراجا = الأمير قراجا بن أبي دلقادر
 قراسنقر = شمس الدين قراسنقر
 المنصورى
 قرط = الأمير قرط بن عمر التركمانى
 قرطاي أتابك العساكر — ٦٣ : ١٢
 قرمان بن تورا — ٢١١ : ٢٠
 قسطنطين بطرك الارمن — ٢٢٦
 ١٠ ، ٢٣٠ : ١٠
 قطب الدين أيبك — ١٣٨ : ٩
 قطب الدين بن علاء الدين الخلجى
 ٩٩ : ٥

غياث الدين تغلق شاه — ٩٧ : ٢٠
 ١٣٩ : ١٠
 غياث الدين بن رشيد الدين محمد —
 ٢١٢ : ١
 غياث الدين كود — ٢٠٠ : ١٧
 غياث الدين محمد — ٩٨ : ١٠
 ٩٩ : ١
 أبو الغيث (أمير مكة) — ١١٨ : ٣٣
 ١١٩ : ٣

(ف)

فتح الدين بن عبد الظاهر — ٢٨ : ١١
 فتح الله (كاتب السر) — ٩٣ : ١١
 ٩٥ : ١٤
 نغر الدين اسماعيل بن ثعلب الجعفرى
 — ٢٨٤ : ٢٢
 نغر الدين عثمان الناصرى — ٢٦٤ :
 ٧ ، ٢٦٥ : ٣ ، ٢٦٦ : ٦
 ٢٦٧ : ٢
 نغر الدين عمر بن الخليلي — ٢٩ :
 ٢٢ ، ٣٦ : ١ ، ٤١ : ٤
 نغر الدين ماجد بن قروينة —
 ٣١٦ : ٢
 نغر الدين محمد بن فضل الله ناظر
 الجيش — ٢٨٩ : ١٩ ، ٢٩٠ : ٩
 نغر الدين التويرى المانكى — ١٢٦ : ٩
 أبو الفدا — ١١٨ : ٢٣ ، ١٩٧ : ٦
 ٢٤٣ : ٧
 ابن الفرات الحنفى — ١٢٢ : ٩
 فرج بن السلطان برقوق = الناصر فرج
 فردريك الثانى — ٢٦٧ : ٢٣

٣٣٣ : ٢٠ : ٣٣٣
 كريم الدين بن هبة الله بن السيد
 المصرى — ٢١ : ١١١
 كلنت الخامس (البابا) ١٦٠ : ١٣٠
 ٢٠٤ : ٨ : ٢٦٨ : ١٣
 كمال الدين عبد الرحمن — ١٦٥ :
 ٦ : ١٦٩ : ٦
 كمال الدين موسى بن يونس قاضى
 الموصل — ١٨٨ : ١٦ :
 ١٩٠ : ٣٠
 كنز الدولة — ١٥١ : ١٠ : ١٥٤
 ١٥٥ : ١ : ٢ :
 كوندك الساقى = سيف الدين كوندك

(ل)

لاجين = المنصور حسام الدين لاجين
 لوقا — ٢٢٦ : ٢١
 ليو الخامس ملك سيس — ٢٢٨ :
 ٢٣ : ٢٢٩ : ٢ : ٢٣٠ : ١٠ :
 ٢٣١ : ١

(م)

المأمون — ٢٨٣ : ٧
 ماجد بن مقبل (أمير المدينة) —
 ١١٨ : ٨
 ماماي (الأمير) — ٢٢١ : ٢٠
 مبارز الدين محمد بن المظفر —
 ١٠٠ : ١٥
 المتوكل على الله الخليفة أبو عبد الله
 محمد — ١٤ : ٨٥ : ١٢ : ٦٥
 ٨٦ : ٢ : ٨٧ : ٣ : ٨٨ : ١
 ٨٩ : ١ : ٩٠ : ٢ : ٩١ : ١٢

قطب الدين مبارك شاه — ٢٠ : ١٠٢
 ١٣٩ : ٤
 قطب الدين محمود الشيرازى —
 ١٦٤ : ٢
 قطز = المظفر قطز
 قطلوبغا المنصورى — ٢٥٠ : ٧
 قطلو شاه — ١٨٥ : ٨ : ١٩٧ : ١٠
 قفجق = سيف الدين قفجق المنصورى
 قلاوون = المنصور قلاوون
 القلقندى — ٩١ : ٩٢ : ٢
 ١٣ : ٣٣٦ : ١١ : ٣٤٦ : ١٦
 قنغر — ١٧١ : ١٠
 قوصون = الأمير قوصون

(ك)

كافور وزير السلطان علاء الدين —
 ١٣٨ : ١٨
 الكامل الأيوبي ٢٥١ : ٢٥٠ : ٣٢٩ :
 ١٥ : ٣٣٠ : ٦
 الكامل شعبان — ٥٥ : ١٥
 ٥٦ : ١٠ : ٢٩١ : ٢١
 كبشة بن منصور — ١١٨ : ٥
 كتيفا = العادل كتيفا
 كجك (من أولاد الناصر) —
 ٥٣ : ٢٠ : ٥٤ : ١٥
 كرجى = الأمير كرجى
 كرستس — ١٥٨ : ٨
 كرئيس — ١٥٣ : ١٧ : ١٥٤ :
 ٤ : ١٥٥ : ٣
 كريم الدين أكرم عبد السكرم ناظر
 الخاص — ١٠٩ : ١٦ : ١٣٥ : ١٧

٢١ : ٢٣٥ ، ١٧ : ١٦٧	١٠١ : ٩٣ ، ١٢ : ٩٢
محمد بن عيسى — ٢ : ١٢٠	٢٤ : ١٥٥ ، ١
محمد الفقى بالله سلطان غرناطة —	مضى — ٢٠ : ٢٣٦
١٤٧ : ٢٠ ، ١٤٨ : ٢١ ،	مضى بطرك الاسكندرية — ٤ : ١٥٩
٣ : ١٤٩	المجاهد سيف الدين — ٦ : ١٣٤
محمد القورى سلطان الدولة القورية	٣ : ١٣٥
— ١٠ : ١٣٨	محمد الدين إسماعيل السلامى —
محمد بن قاسم النويرى المالكى	٢ : ٢٠٧ ، ٩ : ٢٠٦
الاسكندري — ١ : ٢٥٤	بو الحسن — ٧ : ٦٣ ، ٢٧ : ٢٠
محمد بن قلاوون = الناصر محمد بن	١٠ : ١٨٨ ، ٢ : ٩٧ ، ١٣ : ٨٤
قلاوون	٩ : ٣٣٨ ، ٥ : ٢٩١
محمد بن المحسنى — ١٥ : ٦٠	محمد بن أحمد بن محمد — ٥ : ٣٢٤
محيى الدين بن عبد الظاهر — ٢٢ : ٢٦	محمد بن أحمد بن علاء الدين صاحب
المرتضى = أبو زكريا بن عبد الواحد	دلى — ١٥ : ١٢٥
المرتضى — ٥ : ٢٩٠	محمد بن أحمد بن جوق — ١٤ : ٢٠٨
المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسين	محمد بن تغلق ملك هندستان —
بيخداد — ١٧ : ٩٤ ، ٥ : ٦٧	١٢ : ٩٩ ، ١ : ٩٨ ، ٧ : ٩٧
المستعصم بالله زكريا بن إبراهيم —	١٤١ : ٣ : ١٤٠ ، ١٨ : ١٣٩
١٩ : ٨٨ ، ١٠ : ٨٧	١٤ : ٢٣٦ ، ٦
المستعين بالله بن التوكل على الله —	محمد بن تومرت المهدى — ١٤٢ :
٩٥ : ١ : ٩٤ ، ٢٢ : ٧ : ٩٣	١ : ١٤٣ ، ١٨
١٥ : ١٠١ ، ١٢ : ٩٦ ، ٤	محمد بن حسين الموصلى — ٩ : ٣٠٥
المستكنى بالله أبو الربيع سليمان —	محمد بن خاف — ٢٠ : ٣٢٦
١ : ٧٧ ، ٦ : ٧٦ ، ١٨ : ٤٦	محمد بن سنقر البغدادى السنانى —
١٩ : ٨٠ ، ١ : ٧٩ ، ٣ : ٧٨	٣ : ٣٠٥
٢ : ٨٥ ، ٣ : ٨٤ ، ٣ : ٨١	محمد شاه — ١٠ : ٢١٣
١٢٢ : ١٧ : ١٣١ ، ١٠ : ٩٧	محمد بن عبد الرحمن بن محمد الكاتب
١ : ١٤٢ ، ١١ : ١٤١ ، ١	٩ : ١٠٥ —
١٢ : ١٨٦ ، ١٠ : ١٥٥	محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم
١٩ : ١٩٧	١٣٠ : ٦ : ١١٠ ، ١٠ : ١٠٩ —
	١٧ : ١٦٤ ، ١٨ : ١٤٤ ، ٣

المستنصر بالله أحمد بن الإمام الظاهر	أبو المظفر كمال الدين فيروز شاه =
العباسي — ٦٨ : ٨ : ٦٩ : ٤	فيروز شاه
١١ و ١٦ : ١٢٨ : ١٥	المعتضد بالله أبو بكر بن المستكفي
المستنصر بالله أبو عبد الله محمد الحفص	(الخليفة العباسي) — ٨٤
— ١٤٢ : ٢٢ : ١٤٩ : ٢٠	٢٣ : ٨٥ : ٧ : ٩٢ : ٤ : ٩٩
١٩ : ٢٩٦	١٣ : ١٠٠ : ٥ : ١٤١ : ١٤
المسروري = علم الدين سنجر	المعتضد بالله داود بن المتوكل على
المسروري	الله — ١٠٠ : ٧
مسلم — ١٦٧ : ٢٢	مغلطاي — ٤٥ : ٤
المسيح عليه السلام — ١١٠ : ١٦	مقبيل بن حجاز — ١١٨ : ١
١٥٢ : ١٢ : ١٥٣ : ٢ : ٢٣٦	المقريزي — ١٩ : ٢٠ : ٢٥
٢٣ : ٢٣٧ : ٩ : ٢٥٥ : ١٩	٩٢ : ٤ : ١٠٦ : ٦ : ١٧٨
١ : ٢٥٦	١١ : ٢٤٩ : ٢ : ٢٧٥
المظفر بيبرس الجاشنكير — ٣١	٢٩٧ : ١٢ : ٢٩٩ : ٦ : ٣٠٠
١٦ : ٤١ : ٤ : ٤٣ : ٧	١٨ : ٣٠٢ : ١٣ : ٣٠٦ : ١
٣ : ٤٤ : ٦ : ٤٥ : ٢ : ٤٦	٣٠٨ : ١٠ : ٣١٢ : ١٨
١٨ : ٤٧ : ١٠ : ٤٨ : ١	٣١٣ : ٣ : ٣١٦ : ١٨ : ٣١٩
٥٠ : ١٠ : ٥١ : ٥ : ٧٤	٧ : ٣٢٠ : ١ : ٣٢١ : ٩
٣ : ٧٧ : ١٨ : ٧٨ : ٥ : ٧٩	٣٢٢ : ١ : ٣٢٣ : ٢ : ٣٢٤
١ : ٨٠ : ١ : ٨١ : ٧ : ١١١	٢ : ٣٢٥ : ١٦ : ٣٢٦ : ١٨
٢٢ : ١٣٣ : ١٠ : ١٧٧ : ١٦	٣٢٨ : ١٠ : ٣٣٢ : ١٨
١٨٧ : ٣ : ٢٤٥ : ١٠	٣٣٦ : ١٤ : ٣٣٧ : ١٦
١٧ : ٢٨٩	٣٣٨ : ٤ : ٣٤٦ : ١١
المظفر حاجي — ٥٦ : ١٥	المقوقس — ٢٩٥ : ١٧
٥٧ : ١١	أبو المكارم هبة الله — ١٥٥ : ٢٥
مظفر الدين موسى بن الملك الصالح	منجك اليوسفي — ١٢ : ٥٧ : ٢٥٤
على — ٥١ : ٣	٢٦ : ٢٩٢ : ٣
المظفر شمس الدين يوسف بن عمر	منسا موسى ملك بلاد التكرور —
صاحب اليمن — ١٢٩ : ٦	٣٣٧ : ١٠
١٣٠ : ٣ : ٢٤١ : ٢ : ٣٣٨ : ١٦	المنصور أبو بكر بن الناصر محمد —
المظفر قطز — ٦٧ : ١٠ : ١٦٠ : ٧	٨٢ : ٤ : ٨٣ : ٩

١٢٢ : ١ : ١٢٥ : ٧ : ١٢٦ : -
 ١٢٧ : ٦ : ١٣٠ : ١٧ :
 ١٣١ : ١٦ : ١٣٢ : ١٢ :
 ١٣٣ : ٣ : ١٣٤ : ١ : ١٣٥ :
 ١٣٧ : ٧ : ١٤٠ : ١٤ :
 ١٤١ : ٥ : ١٤٢ : ٨ : ١٤٣ :
 ١٤٤ : ٢ : ١٤٥ : ١ : ١٤٥ : ٢ :
 ١٤٦ : ٥ : ١٥٣ : ١٦ :
 ١٥٥ : ٢ : ١٥٧ : ٧ : ١٧٧ :
 ١٧٨ : ٣ : ١٨٣ : ١٧ :
 ١٨٦ : ٧ : ١٨٧ : ٥ : ١٨٨ :
 ١٨٩ : ٨ : ١٩١ : ٥ :
 ١٩٧ : ١٤ : ١٩٨ : ٢ :
 ١٩٩ : ١٠ : ٢٠١ : ١ : ٢٠٤ :
 ٢٠٥ : ١ : ٢٠٦ : ٣ :
 ٢٠٨ : ٢ : ٢١٠ : ٢ : ٢١١ :
 ٢١٣ : ٤ : ٢١٤ : ٢ :
 ٢١٥ : ١٥ : ٢١٦ : ١٧ :
 ٢١٨ : ٢ : ٢١٩ : ١ : ٢٢٠ :
 ٢٢٧ : ١ : ٢٢٨ : ١ :
 ٢٢٩ : ٥ : ٢٣٠ : ٩ : ٢٣١ :
 ٢٤٣ : ٧ : ٢٤٦ : ١٨ : ٢٥٦ : ١٠ :
 ٢٦٠ : ٣ : ٢٦١ : ٤ : ٢٦٢ :
 ٢٦٤ : ١ : ٢٦٥ : ١٣ :
 ٢٦٦ : ١ : ٢٦٧ : ٣ : ٢٦٨ :
 ٢٧٠ : ٢ : ٢٧٢ : ١٥ :
 ٢٧٢ : ١٩ : ٢٧٣ : ١ :
 ٢٧٤ : ٦ : ٢٧٥ : ٤ : ٢٧٦ :
 ٢٧٧ : ١٣ : ٢٧٧ : ٤ : ٢٨١ : ١٤ :
 ٢٨٢ : ١ : ٢٨٤ : ١٠ :
 ٢٨٥ : ١٢ : ٢٨٧ : ١٩ :

٢٥٩ : ١٢ :

ابن ميسر — ٦٠٣٢٢

ميور — ٢٦٤ : ٢٦

(ن)

الناصر أحمد بن الناصر محمد — ٥٤ :

١٩ : ٥٥ : ٥

الناصر حسن بن الناصر محمد —

٥٧ : ١٠ : ٥٨ : ٢ : ٥٩ :

٢٠ : ٦٠ : ٧ : ٨٧ : ٥ :

١٢٢ : ١٤ : ١٢٤ : ٣ :

٢٢١ : ٧ : ٢٩٩ : ١٣ : ٣٠٥ :

٢١ : ٣٠٨ : ١ : ٣١١ : ٤ :

٣٢٢ : ١٩ : ٣٢٢ : ٥ :

الناصر فرج بن برقوق — ٩٢ : ١٧ :

٩٣ : ٦ : ٩٤ : ٢٠ :

الناصر محمد بن قلاوون — ٣١ :

٣٢ : ١ : ٣٤ : ٦ : ٣٥ :

٨ : ٣٨ : ١٧ : ٣٩ : ٥ :

٤٠ : ٤١ : ٩ : ٤٢ : ١٥ :

٤٣ : ٤٤ : ٣ : ٤٥ : ٥٠ :

٤٧ : ٤٨ : ٦ : ٤٩ : ١١ :

٥١ : ٥٣ : ٢ : ٥٤ : ٣ :

٦٦ : ١٠ : ٧٣ : ٤ : ٧٤ :

٧٦ : ٣ : ٧٧ : ١ : ٧٩ :

٨٠ : ١ : ٨١ : ٤ : ٨٢ :

٨٤ : ٣ : ٨٥ : ٢ : ٩١ :

٩٢ : ١٩ : ٢٠ : ٦ : ١٠٦ :

١٠٧ : ٢١ : ١٠٨ : ٦ :

١٠٩ : ٧ : ١١٢ : ١٤ :

١١٢ : ١ : ١١٣ : ١٦ : ١١٨ :

١٠ : ١٢٠ : ٥ : ١٢١ : ٦ :

نظام الدين محمود (شيخ الشيوخ) —	٢٨٨ : ٤٠ ، ٢٨٩ : ١٦ ، ٢٩٠ : ٢٩٠
١٨٤ : ٦	٢٩١ : ٥ ، ٢٩٢ : ١٣ ،
أبو نكبيا ملك سيلان ٢٣٨ : ١٧	٢٩٤ : ١٥ ، ٢٩٦ : ١٢ ،
نور الدين علي بن أحمد = ابن حجر	٢٩٩ : ٨ ، ٣٠١ : ١٠ ،
المسقلاني	٣٠٤ : ١٣ ، ٣٠٥ : ٥ ،
نوروز الحافظي — ٩٣ : ٧	٣١١ : ٦ ، ٣١٥ : ١٢ ، ٣١٧ :
٩٦ : ١٢	٣١٩ : ١١ ، ٣٢٣ : ٦ ،
نوروز وزير غازان محمود — ١٧٤ :	٣٢٧ : ٦ ، ٣٢٨ : ١٢ ،
٢٠ : ١٧٥ : ٣	٣٣١ : ١٠ ، ٣٣٢ : ٣ ، ٣٣٤ :
نوغاي = الأمير نوغاي	٣٣٧ : ١٠ ، ٣٤١ :
نوغيه — ٤٦ : ٤	٣٤٢ : ٩
النويري — ١٩ : ١٨ ، ١٠٥ :	ناصر الدين بركة = السعيد ناصر الدين
١٩٨ : ٢٠ ، ٣٣١ : ١٧	بركة خان
٣٤٥ : ١٤	ناصر الدين بن الحسن الجزري —
نيقولا الثالث (البابا) — ١٦٠ : ١٢	٢٥٩ : ١٣
نيقولا الرابع (البابا) — ٢٤٠ :	ناصر الدين علي خواجه — ١٨٨ :
٢ : ٣٤٠ : ١٤	١٩٠ : ١٩
(هـ)	ناصر الدين محمد بن الشيخى —
الهاموك — ٢٩٥ : ١٧	١٨٧ : ١٣ ، ٣٢٨ : ١٤
هتري الثاني ملك قبرس — ٢٤٢ :	ناصر الدين محمد بن مسلم الكارمي
١٢ : ٢٤٥ : ٨ ، ٢٤٦ : ١	المصري — ٣٣٨ : ٤
هولاكو — ٦٧ : ٤ ، ٩٤ : ١٧	ناصر الدين يحيى بن جلال الدين
١٦٠ : ٤ ، ١٦١ : ٨ ، ٢١٢ :	الحتي — ١٨٥ : ١١
١٢ : ٢١٦ : ١١ ، ٢١٧ :	ناصرى خسرو — ٣١٩ : ٥
١٦ : ٢٢٢ : ١٦	نامون — ٢١٨ : ٧
هيتوم ملك أرمينية — ٢٢٧ : ١٥	نجم الدين إسحاق — ٢١١ : ٧
(و)	نجم الدين خضر — ٢٢ : ٢١
الواثق بالله إبراهيم أخو المستكني	النشو = شرف الدين عبد الوهاب
٨١ : ٨ ، ٨٢ : ١	ابن فضل الله
٨٥ : ٣	نصير الدين (قاضي القضاة) —
	٢٠٧ : ٤

الكبير-الأتا بكي — ٨ : ٦٠	ودى بن جاز (أمير المدينة) —
٦ : ٦١ ، ٢ : ٦٥ ، ١٢ : ٨٧ ، ٦ :	١٢ : ١١٨
١٤٧ : ٢١ ، ١٤٨ : ٤	أبو الوليد — عيل بن فرج بن نصر —
٢٥٠ : ٢ ، ٢٥١ : ١٠ ، ٢٥٢ : ٤	٨ ٤٧
٣١٥ ، ٣ : ٢٦٢ ، ٤ : ٢٥٢	
٤ : ٣١٦ ، ١٦	(ي)
يلبغا الناصري الصغير (نائب الشام)	يحيى حاكم تونس — ٦ : ١٠٢
٥٥ : ٢١ ، ٥٦ : ٦	يحيى بن حمزة إمام الزيدية — ٧ : ١٢٧
٨٩ : ٣ ، ٩٠ : ١ ، ٩١ :	أبو يحيى زكريا الحفصي — ٧ : ١٤٢
١٢ : ٩٢ ، ١٢	٦ : ١٤٣
يوسف بن عبد الحق سلطان المغرب	يعقوب الشكرجي — ١٧ : ١٨٩
الآقصى — ١١ : ١٤٣	يلبغا العمرى الخاصكى الناصرى

فهرس الأئم والقباثل والبطن والعشائر والطوائف

الأمراء الخاصكية — ٢٢ : ١٢ ،
٢٠ : ١٠٥
الأمراء الصالحية — ٢٠ : ٥ ،
٧ : ٢٣
الأمراء الظاهرية — ٢١ : ١٨ ،
٢٢ : ٢٣ ، ٨ : ٢٤ ، ٣ : ٢٢
الأمويون — ١٢٧ : ٢٠ ،
الأويراتية = المغول العويراتية
أولاد فضل — ١٢٠ : ١٦ ، ٢٨٢ :
٩ : ٣١٩ ، ١٩
إيلخانات المغول — ١٧٦ : ٥ ،
الآفة الزيدية — ١٣٧ : ١٦ ،
٢ : ١٣٨
الأيويون — ١٢٨ : ٢ ، ٣١٤ : ١٦

(ب)

البابية — ٣٢٢ : ١٠ ،
البرجية = الماليك البرجية
النزاقون — ٣٢٢ : ٩ ،
بطارقة الإسكندرية — ١٥٦ : ١٢ ،
١ : ١٥٨
البنادقة — ٢٥١ : ٢٢ ، ٢٥٢ : ١٢ ،
٢٦٢ : ٨ ، ٣٢٣ : ١٧ ،
٢ : ٣٤٢
البنداقيون = البنادقة
بنو أرتنا — ٢١٥ : ٥ ،
بنو الأصفر — ٢٤٩ : ١١ ،
بنو الحسين بن علي رضي الله عنهم

(١)

الأتراك = الترك
الأجاش — ٢٥٩ : ٣ ،
الإخوان الدومينيكان — ٢٧٠ :
١٢ ، ٢٧٣ : ٢ ،
الأرجونيون — ٢٧٠ : ١٢ ،
الأرمن — ٧٢ : ٥ ، ٧٤ : ١٦ ،
١٦٣ : ١ ، ١٧٣ : ١٥ ، ١٩٧ :
١٠ ، ٢٠٢ : ٧ ، ٢٢٤ : ٣ ،
٢٢٥ : ٢٠ ، ٢٢٦ : ٧ ، ٢٢٧ :
٥ ، ٢٢٨ : ٢ ، ٢٢٩ : ١٨ ،
٢٣٠ : ٥ ، ٢٣١ : ٢ ، ٢٥٥ :
١٣ ، ٢٥٦ : ٣ ،
الإسبان — ١٤٧ : ٢ ، ٢٦٤ : ٢٧ ،
الإستبارية — ٢٤ : ١ ، ٢٢٥ : ١٢ ،
٢٣٢ : ١٧ ، ٢٣٧ : ٢٣ ، ٢٣٨ :
٢ ، ٢٤٢ : ١٣ ، ٢٤٤ : ٥ ،
٢٤٧ : ٩ ، ٢٥٣ : ١٣ ،
الأسرة الخلجية — ١٣٨ : ١٢ ،
الإسماعيلية (الحشاشون) — ٢٠٦ :
٧ ، ٢٠٧ : ٦ ،
الأقباط — ٢٥٩ : ١٢ ،
الأقباط اليعاقبة — ١٥٦ : ١٣ ،
٢٦ : ١٣ ،
الأكراد — ٣٣ : ١٤ ، ٨٧ : ٢٠ ،
٨٨ : ٥ ، ١٦٣ : ٣ ، ١٨٣ : ٧ ،
أمراء التومان — ١٧٩ : ٦ ،

التركمان — ٨٧ : ٢٠ : ٨٨ : ٥
 : ١٦٣ : ١٧٧ : ٢ : ١٨٣ : ١
 ، ٩ : ٢٠٧ ، ٤ : ٢٠٢ ، ٧
 ، ٢٤ : ٢٥٤ ، ٧ : ٢١٣
 ٤ : ٢٦١ ، ٦ : ٢٥٧
 التكاررة — ٢ : ٢٣٨
 التومان = أمراء التومان

(ج)

الجبانون — ١٥ : ٣٢٣ ، ١٥ : ٣٢١
 الجرجان — ٧ : ٢١٣
 جبينة — ٢ : ١٥٦

(ح)

الحياكون — ١٢ : ٣٢٢
 الحجاب — ١١ : ٢٢٠
 الحسينية — ٢٨ : ٣٦
 الحفصيون — ١٧ : ١٤٢
 الحلقة — ١٤ : ٣٣

(خ)

خاصكية الملك السعيد — ١٧ : ١٩
 : ٥٣ ، ٢ : ٢١ ، ١٧ : ٢٠
 ١٣ : ٢١١ ، ١٦
 الخبازون — ١٣ : ٣٢٧ ، ١٥ : ٣٢٣
 الخضريون — ١١ : ٣٢٣
 الخلفاء العباسيون — ١ : ٨٥
 ، ١٠ : ٩٢ ، ١٧ : ٩١ ، ٩ : ٩٠
 : ١٠١ ، ٦ : ٩٧ ، ١٩ : ٩٦
 ٢ : ١٤٢ ، ١٧

١٩ : ٢٠٦

بنو رسول — ٢٥ : ١٣٤ ، ٨ : ١٢٨
 بنو العباس — ٦ : ٨٥ ، ٨٠ : ٨٠
 : ٩٧ ، ١٨ : ٩٤ ، ١٧ : ٩٤
 ١ : ٣٠١ ، ٩ : ٩٨ ، ٩
 بنو عبد المؤمن — ١٨ : ١٤٢
 بنو قرمان — ١ : ٢١١
 بنو قلاويين — ٦٦ : ٨ : ٥٧
 ١١ : ٣٣٨ ، ٦ : ٢٨١ ، ١٩
 بنو كنز = ربيعة
 بنو مرين — ١٤٥ : ١٤ : ١٤٤
 ٤ : ١٤٧ ، ١

(ت)

التار — ٤ : ٢٤ ، ٨ : ١٩
 : ٤٥ ، ١ : ٤٠ ، ١٤ : ٣٣
 ، ١١ : ٦٧ ، ١٦ : ٥١ ، ١١
 : ١٣٣ ، ١٧ : ٧٤ ، ٥ : ٧٢
 ، ٦ : ١٧٣ ، ١٩ : ١٧٢ ، ٣
 : ١٩٧ ، ٣ : ١٧٩ ، ١ : ١٧٧
 : ٢٣٥ ، ١٤ : ٢٠٠ ، ١٠

١١ : ٢٦٣ ، ٤

التار العورانية — ٦ : ٣٧
 تجار الروم — ١٢ : ٣٤٦ ، ٩ : ٣١٩
 تجار الفريجة — ١٩ : ٣٣٢
 ١٦ : ٣٤٦ ، ١٦ : ٣٤٢
 التجار الكارمية — ١٥ : ٣٢٧
 ١٦ : ٣٤٤ ، ٤ : ٣٣٣ ، ١ : ٢٢٨
 تجار الكارم = التجار الكارمية
 تجار النوبة — ٩ : ٣٣٤
 الترك — ٢٠ : ٩٧ ، ١٠ : ٦٩
 ٤ : ٢٧٤

الخياطون — ١٠ : ٣٢٢

(د)

الدماشقة — ١٦ : ٣٢٨ ، ١ : ٣٢٩

الدولة الغورية — ١٠ : ١٣٨

الديوية — ١١ : ٢٢٥ ، ٥ : ٢٣٦

١٦ : ٢٤٣ ، ١١ : ٢٤٢

٦ : ٢٤٤

(ر)

ربيعة — ٣ : ١٥٦ ، ٢٣ : ١٥٥

الرسامون — ١٣ : ٣٢٢

الرفاءون — ١٢ : ٣٢٢

الروم — ١٨ : ١٧٢ ، ٢ : ١٧٣

١٧٤ : ١٧٦ ، ١٥ : ٢١٣

١٥ : ٣٤٦ ، ٣

(ز)

الزنادقة — ١٢ : ٢٢٥

الزياتون — ١٥ : ٣٢٣

الزيدية — ١ : ١٣٧ ، ٢ : ١٣٨

(س)

السقامون — ١٢ : ٣٢٦

السلاجقة الروم — ٣ : ١٦٤

١٢ : ١٧٦

السودان — ١٧ : ٣٢٧ ، ١٠ : ٣٢٤

(ش)

الشرايحية — ١٢ : ٣٢٣

الشوايون — ١٦ : ٣٢٣

الشيعة — ١٨ : ١٣٧ ، ١٧ : ٢٠٦

(ص)

الصابئة — ٢٤ : ١٨٠

الصاحية = الممالك الصاحية : ٢٢

١٧ : ٤١ ، ١١

الصباغون — ١١ : ٣٢٩

الصرافون — ١٤ : ٣٢٢

الصليبيون — ١ : ٧٣ ، ٨ : ١١٥

١٢٨ : ٦ ، ٢٣٢ : ٣ ، ٢٤٠ :

٤ : ٢٤١ ، ٤ : ٢٤٢ ، ١٨ :

٢٤٣ : ١١ ، ٢٤٤ : ٢١ ،

٢٤٥ : ٧ ، ٢٤٧ : ١٧ ،

٢٤٨ : ٦ ، ٢٤٩ : ١٧ ، ٢٥٠ :

٩ : ٢٥٨ ، ٢ : ٢٥٩ ، ٦ :

٢٦٢ : ٤ ، ٢٧٧ : ٤ ، ٣١٤ :

١٤ : ٣١٥ ، ١٥

(ط)

الطائفة الملكية — ٢٢ : ٢٥٦

٢٦٠ : ١٢ ، ٢٦١ : ١٧

الطباخون — (١٥ : ٣٢٢) ، ١٥ : ٣٢٣

الطجانون — ١٣ : ٣٣١

الطواشية — ١٠ : ٦٠

الطولونيون — ١٩ : ٣٠٥

طى — ١٦ : ١٢٠

(ع)

العتالون — ٣ : ٣٢٢

العثمانيون — ١٢ : ٢٦١

٢٠ : ٢٢٨ ، ١١ : ٢٤٠
 ١٠ : ٢٤٣ ، ١٣ : ٢٤٥ ، ٩ : ٢٤٠
 ٢٤٨ : ٢٤٩ ، ٩ : ٢٤٩ ، ٦ : ٢٥٠
 ١ : ٢٥١ ، ٤ : ٢٥٣ ، ١٤ : ٢٥٨
 ٢٥٥ : ٢٥٧ ، ٣ : ٢٥٨ ، ٧ : ٢٦٢
 ٤ : ٢٦٢ ، ٤ : ٢٧٦ ، ١٩ : ٢٣٢
 ١٧ : ٣١٥ ، ٣ : ٣٤٦
 ٥ : ٣٢٣ —
 الفرنسيسكان الأرجونيون

١ : ٢٧٣

الفرنسيون — ٢٥٣ : ١٢

فؤارة — ١٥٦ : ٢

(ق)

القبرسيون — ٢١٠ : ٢٥٢ ، ٢١ : ٢٥٧
 القبيلة الذهبية — ٢١٢ : ٢١٧ ، ٦ : ٢١٨
 ١١ : ٢١٧ ، ٢٢ : ٢١٨ ، ١ : ٢٢١
 ١٤ : ٢٢١ ، ٢ : ٢٢٢
 ٢٠ : ٢٢٢ ، ١٣ : ٢٥٩
 ١٠ : ٢٥٩

القساوسة البوذيين — ١٧٥ : ١٧

القصابون — ٣٢٣ : ١١

(ك)

الكائنم — ٣٢٧ : ١٧

الكرج — ١٦٣ : ١٩٧ ، ١ : ١٦٣

١٠ : ٢٠٢ ، ٧ : ٢٦٠ ، ٢ : ٢٤٠

اللاتين — ٢٣٩ : ١٥٠ ، ٢ : ٢٤٠

٢٤٣ : ٢٤٦ ، ٦ : ٢٤٦ ، ١٦ : ٢٥٩

٨ : ٢٦٢ ، ٢٠ : ٢٦٧ ، ١٨ : ٢٧٠

٢٧٠ : ١٩

المجم — ٧٤ : ١٧ ، ٢٠ : ٢١٣

٢١٦ : ١٧ ، ٢٧٤ : ٤

٢٢ : ٣٠٠

العرب — ٤١ : ٢٣ ، ٤٢ : ٤

٦٦ : ٥ ، ٦٩ : ٩ ، ٧٤ : ٦

١٧ : ١٠٤ ، ٧ : ١١٨ ، ٦ : ١٣٧

١٢٠ : ٣ ، ١٣٧ : ١٠

١٤٢ : ١١ ، ١٤٤ : ١٤

١٥٦ : ٨ ، ١٥٩ : ٣ ، ١٨٣ : ٤

٧ : ٢٠٧ ، ٩ : ٢٠٨ ، ٤ : ٢٤٩

٢١٢ : ١٨ ، ٢٤٩ : ١٠

٢٥٧ : ٦ ، ٢٨٤ : ٤

عرب البحرين — ٢٠٨ : ٦

عرب خفاجة — ١٢٠ : ١

العربان = العرب

عربان الشرقية — ٩٥ : ٢٥

عربان الغربية — ٩٥ : ٢٥

العطارون — ٣٢٣ : ١٦

عكرمة — ١٥٦ : ٣

العويراتية = المغول العويراتية

(ف)

فارس — ١٠١ : ١٨ ، ٢١٧ : ١٣

الفاطميون — ٣٦ : ٣٠٥ ، ٢٩ : ١٤

٢٠ : ٣١٣ ، ١٤

الفداوية — ٢٠٦ : ١٢

الفرس = المعجم

القرنجة — ٢٤ : ٧٢ ، ٥ : ٢٢١

٧٤ : ١٦ ، ١٦٣ : ٢ ، ٢٢١ : ١٩

١٥ : ٢٢٢ ، ٧ : ٢٢٣ ، ١٩ : ٢٢٧

٢٣٤ : ٤ ، ٢٣٥ : ٢٢٧

١٥ : ١٨٧ : ١٠ : ١٨٨ : ٩ :

١٩٤ : ١٩٧ : ١٩ : ٣ : ١٩٨ :

٢ : ٢٠٤ : ١١ : ٢٠٥ : ٤ :

٦ : ٢٠٧ : ٤ : ٢٠٨ :

١٢ : ٢١٢ : ٤ : ٢١٣ : ١ :

٢١٤ : ٢١٥ : ٢ : ٢١٦ :

١٢ : ٢١٧ : ١ : ٢٢٣ :

٢٢٧ : ٢٢٨ : ٨ : ٢٢٩ :

١٤ : ٢٣٠ : ١٥ : ٢٣٢ :

٢٣٧ : ٢٣٨ : ٣٢ : ٣٠٣ :

٣٠٥ : ٣٢٨ : ١٣ :

المقول العورانية — ٥٦ : ٥٠ :

١٧٧ : ١٣ :

مقول القفجاق = القبيلة الذهبية

المالكة الأشرفية — ٣٥ : ٥٠ :

٤٠ : ١٨ : ٥٠ : ٢٣ : ٦ :

المالكة البرجية — ٣٤ : ١ : ٤٠ :

٦ : ٤١ : ١٥ : ٤٧ :

٤٨ : ٦٤ : ٦ : ١٣ : ٦٥ :

٢ : ٦٦ : ١٩ :

المالكة الحاصكية — ١٩ : ١٧ :

٣١ : ٣٤ : ٤ : ١٥ : ٦٠ :

٦ : ٦٢ : ٧١ : ٣٣ : ١٧ :

١٧٧ : ١٥ :

التصوريه : مالكة الملك المنصور

قلاوون — ٤١ : ١٧ : ١٨ :

الموحثون — ١٠٢ : ٦ :

الليانون — ٣٢١ : ١٥ : ٣٢٣ :

التبديون — ٣٢٩ : ١٠ :

(م)

المسيحيون — ٢٥٨ : ٨ : ٢٦٣ :

٣ : ٢٦٤ : ١ : ٢٦٧ :

المصريون — ٧٦ : ١٩ : ٧٧ :

٦ : ٨٠ : ٢ : ٢٣٠ : ١٥ :

المظفرية = عماليك الملك المظفر

بيبرس الجاشنكير — ٥١ : ٥٠ :

٢٨٩ : ١٧ :

المغاربة — ١٤٢ : ١١ :

المقول — ٢٥ : ١٥ : ٥١ : ١٦ :

٦٧ : ٦٩ : ٦ : ٨ : ٧٦ : ٢٠ :

٧٧ : ٧ : ١٠٠ : ١٧ : ١٠١ :

١٨ : ١١٥ : ٦ : ١١٩ : ١٧ :

١٢٠ : ١٢٥ : ١ : ١٢٦ :

٣ : ١٢٨ : ١١ : ١٣٠ : ١٧ :

١٣٨ : ١٣ : ١٣٩ : ٩ :

١٤٠ : ١٤٧ : ٢ : ١٤٠ : ١٦٠ :

٢ : ١٦٠ : ٣ : ١٦١ : ٥ :

١٦٢ : ١٢ : ١٦٣ : ٥ :

١٦٧ : ٦ : ١٧١ : ٢٣ : ١٧٢ :

٩ : ١٧٤ : ٨ : ١٧٦ : ٥ :

١٧٧ : ٥ : ١٧٨ : ٤ : ١٧٩ :

٦ : ١٨١ : ٩ : ١٨٣ : ١٧ :

١٨٤ : ١٨٥ : ٤ : ١٨٦ : ١ :

(هـ)	(ن)
الهندوس — ١٠٠ : ١٦	النصارى — ١٠٦ : ٢ : ١٠٧ :
المنفاريون — ٢٥٣ : ١٢	: ١١١، ٢ : ١١٠، ٢ : ١٠٩، ١٨
الهيكليون = الديوية	، ١ : ١١٤ ، ٣ : ١١٣ ، ١
(ي)	: ١٨٠، ٨ : ١٥٧، ٢٢ : ١٥٦
اليهود — ١٠٦ : ٢ : ١٠٧، ١ : ١	١٥ : ٢٤٨، ٧ : ٢٠٢، ٢٤
، ١٣ : ١٥٢ ، ١٢ : ١١٣	، ٢ : ٢٦٢ ، ١٣ : ٢٥٤
، ٢٤ : ١٨٠ ، ٤ : ١٥٣	٢٠ : ٢٧١ ، ١٠ : ٢٦٤
١٣ : ٣٦٠	نصارى الأرمن — ٢٥٥ : ١٣
	النجارون — ٣٧٦ : ١٧

فهرس البلاد والمدن والمواضع والجبال والأنهار

أرمناك — ٢١١ : ١٩
 أرمينية — ١١٥ : ٢١٣ : ٤ : ٤
 ٢٢٤ : ٢٠ : ٢٢٥ : ٢ : ٢٢٦
 : ٢٢٨ : ٢ : ٢٢٧ : ٢ : ٢٢٦
 : ٢٣٠ : ٨ : ٢٢٩ : ٨ : ١
 : ١٧ : ٢٥٥ : ٣ : ٢٣١ : ٣
 ٣ : ٢٥٧ : ١
 إسبانيا — ١٤٨ : ٢٤ : ٢٦٢ : ٢٥
 ٣٤٠ : ٧ : ٣١٤ : ١٧
 إسكندرونة — ٢٢٤ : ١ : ٢٢٤ : ١
 الإسكندرية — ٣٠ : ٧ : ٣٦ : ٣٦
 : ١٨ : ٥٧ : ٤ : ٥٤ : ٢٦
 : ١٠٧ : ٥ : ٦٤ : ٨ : ٦٢
 : ٩ : ١٤٣ : ١٨ : ١٢٥ : ٢١
 : ١٢ : ١٩٦ : ٢١ : ١٤٥
 : ٢٢١ : ٩ : ٢٢٠ : ٤ : ١٥٩
 : ١٨ : ٢٤٥ : ٨ : ٢٤٤ : ١٣
 : ٤ : ٢٤٧ : ١٩ : ٢٤٦
 : ٢٥٠ : ٢ : ٢٤٩ : ١ : ٢٤٨
 : ٤ : ٢٥٢ : ٤ : ٢٥١ : ١
 : ٢ : ٢٥٤ : ٢٠ : ٢٥٣
 : ٥ : ٢٦٢ : ١٦ : ٢٥٧
 : ٢٢ : ٢٦٥ : ٥ : ٢٦٤
 : ٢٨٣ : ٩ : ٢٧٣ : ٤ : ٢٦٧
 : ٣٠٩ : ١٠ : ٢٩٧ : ١٤
 : ١٥ : ٣١٥ : ١٧ : ٣١٤ : ٧
 : ١٠ : ٣٣٠ : ٨ : ٣٢٩
 : ٣٣٥ : ٨ : ٣٣٤ : ٩ : ٣٣٢

(١)

آسيا — ٢٣٢ : ٤ : ٢٦٣ : ١٢ : ٣٤٦
 آسيا الصغرى — ١٧٦ : ١٢ : ٢١١ : ٣ : ٢١٠ : ١ : ٢٠٩
 : ٣ : ٢١٤ : ٣ : ٢١٣ : ١٢
 : ٢٠ : ٢٢٤ : ٢٣ : ٢١٥
 : ٢٤٧ : ٧ : ٢٢٩ : ٢٢ : ٢٢٦
 : ٤ : ٢٦١ : ١٤
 آياس — ٢٣٠ : ٨ : ٢٢٤ : ٥ : ٢٣١
 : ١٠ : ٢٥٥ : ١٠ : ٢٣١
 : ٢ : ٢٥٧
 الأبواب — ١٥١ : ١٥ : ٢٦ : ٢٨٦ : ٢ : ٢٨٤ : ٢٦ : ٢٨٨
 : ٨ : ٣٢٩ : ٢ : ٢٨٨
 أذربيجان — ٢١٣ : ١٥ : ٢١٢ : ٥ : ٢١٢ : ٥
 أرجونة — ٢٦٢ : ١٣ : ٢٣٩ : ١٣ : ٢٦٤ : ٣ : ٢٦٣ : ١٠
 : ١ : ٢٦٦ : ١٨ : ٢٦٥ : ١ : ٢٦٧ : ٢ : ٢٦٨ : ٢ : ٢٧٠ : ٢٧١ : ٥ : ١٥ : ٢٧٢ : ٥ : ١١ : ١ : ٢٧٤ : ٤ : ٢٧٣ : ٨ : ٣٤١ : ١٤ : ٣٣٩ : ٤ : ٢٧٥
 أرغونة = (أرجونة)
 لرم ذات العاد — ٢٠٠ : ٢

أنطوطوس — ٧ : ٢٤٣
أوربا — ٤ : ٢٢٢ ، ٤ : ٢٢٩
١ : ٢٤٢ ، ١١ : ٢٣٩
١٤ : ٢٤٦ ، ٥ : ٢٤٥
١٤ : ٢٣٥ ، ١٦ : ٣٠٥
٧ : ٣٤٠ ، ١١ : ٣٣٦
٧ : ٣٤٦
أوقات — ٢١ : ١٥٨
إيطاليا — ٧ : ٣١٤
أيلة — ٢٠ : ٦٢

(ب)

باب الزهومة — ٨ : ٣٢٤
باب زويلة — ٢٥١ ، ٤ : ٣٨
١٣ : ٣٢٥ ، ٧ : ٣١٨ ، ٢٤
باب الفتوح — ١١ : ٣٢٣ ، ٢٩ : ٣٦
باب اللوق = اللوق
الباب المحروق — ١٤ : ٣٣
باب النصر — ١٢ : ١٩٨ ، ٤ : ٣٨
باق — ٢١ : ١٥٨
بحاية — ١ : ١٤٤
البحر الأبيض — ٢٣ : ٢٢٦
١٠ : ٣١٦ ، ٢٠ : ٢٤٦
١٣ : ٣٣٥ ، ٣ : ٣٣٦
البحر الآخر — ١٤ : ٣١٢
١٤ : ٣٣٤ ، ١٠ : ٣١٦
٩ : ٣٣٥
بحر دمياط — ٢ : ٣٣٦
بحر الروم = البحر الأبيض
البحرين — ٦ : ٢٠٨
برجلونة = برشلونة

١ : ٣٤٠ ، ٦ : ٣٣٦ ، ٢٠
٣٤١ : ٣٤٥ ، ١ : ٣٤٢ ، ١
٩ : ٣٤٦ ، ٢٠
أسوان — ٢٤ : ١٥٥ ، ٩ : ١٥٤
٩ : ٣٠٧ ، ١٢ : ١٩٤
٨ : ٣٣٤
أسيوط — ٢٩٨ ، ٢٢ : ٢٨٧
٨ : ٣٢٩ ، ١٩
الاسيوطية — ١ : ٢٨٤
إشيلية — ١٤ : ٣٢٩
الاشمونين — ٢٨٧ ، ١ : ٢٨٤
٧ : ٣٠٩ ، ٢٤
إطفيح — ٤ : ٤٨ ، ٢٢ : ٤٧
أطنه — ١٠ : ٢٢٩
إفريقية — ١٤٤ ، ١٤ : ١٤٢
٦ : ٣٣٥ ، ٢٥ : ٣٢٧ ، ٢٢
أفغانستان — ٢٢ : ١٣٨
أفنيون — ١٢ : ٢٤٤
إقليم صوصو — ٢١ : ٣٣٧
إقليم غانة — ٢١ : ٣٣٧
إقليم كوكو — ٢٢ : ٣٢٧
إقليم مالي — ٢١ : ٣٣٧
أحرا — ٥ : ١٥٨
الأنبار — ١٥ : ٦٧
انجلترا — ٩ : ٢٠٤ ، ١٢ : ١٨٨
١٠ : ٢٧٧ ، ١٦ : ٢٣٩
أنجو — ١٣ : ٣٣٩
الاندلس — ٢٦ : ٣٤٠ ، ٦ : ١٤٨
أنصنا — ٢٤ : ٣١٦
أنطاكية — ٥ : ١٨٨ ، ٣ : ٢٥
٢ : ٢٥١ ، ١٦ : ٢٣٤

بلاد الحجاز — ١٢٨ : ١٢٩٠٢٥ :

٩ : ٣٣٧٠٢

البلاد الديار بكريه — ١٣٩ : ٢ :

البلاد الرومية — ٢١٤ : ٩ :

بلاد الشام الشمالية — ٢٢٨ : ١٤ :

البلاد الشاميه — ١٢٩ : ١ :

بلاد الصعيد — ٢٨١ : ١٠ : ١ :

بلاد العرب — ٣٢٨ : ٩ :

البلاد الفراتيه — ١٢٩ : ٢ :

بلاد ماوراء نهر جيحان — ٢٢٤ : ٢٠ :

البلاد المصريه — ١٢٨ : ١١ :

بلاد المغرب — ٣١٢ : ١٤ :

بلاد اليمن — ١٢٨ : ١٥ : ٢٣٨ : ١١ :

بلبيس — ٣٨ : ٢ : ٤٠ : ١٧ :

بلنسية — ٢٦٨ : ٧ : ٢٧١ : ٥ :

١١ : ٢٧٤

بم — ٢٩٨ : ١١ :

البندقية — ٢٤٦ : ١٠ : ٢٤٧ : ٦ :

٢٥٣ : ١١ : ٣١٦ : ١٧ :

٣٢٩ : ١٨ : ٣٤٠ : ٦ :

٣٤١ : ١٧ : ٣٤٢ : ١ :

البنغال — ١٠٠ : ٩ : ١٣٩ : ١٦ :

بها العسل — ٢٨٨ : ٧ :

بسنه — ٢٢٥ : ٢٠ :

البنفسه — ٢٩٩ : ١ : ٢٨٤ : ٥ :

٨ : ٣٢٩

البنساويه — ٢٨٤ : ١ : ٢٨٧ : ٢١ :

بولاق — ٢٨٥ : ٦ : ٣١٦ : ١٩ :

١ : ٣٢٧

بيت الله الحرام — ٨٤ : ١٢ :

١١٧ : ١٢ : ١٢٣ : ٢ :

برشلونة — ٢٦٤ : ٤ : ٢٦٦ : ٥ :

٢٦٧ : ٤ : ٢٦٧ : ٢١ :

٢٦٨ : ٧ : ٢٧٠ : ٣ : ٢٧١ :

٢٧٤ : ١١ : ٣٤١ : ١٢ :

برقه — ٣٢٧ : ٢٥ :

بركه الحيش — ٢٨٤ : ١٦ :

٣ : ٢٨٥

بركه انشعبيه — ٢٨٥ : ٣ :

بركه قارون — ٣٤ : ٢٣ :

بستان الأمير أرغون — ٢٨٤ : ١٥ :

بستان ابن ثعلب — ٢٨٤ : ١٠ :

بستان الجمال محمد — ٢٨٤ : ٨ :

بستان السراج — ٢٨٤ : ٧ :

بستان الفرغاني — ٢٨٤ : ٩ :

البصرة — ١١٩ : ٢١ :

بعلبك — ١٧٨ : ١٤ :

بغداد — ٦٧ : ٥ : ٦٨ : ٢١ :

٦٩ : ٤ : ١٠١ : ١١ : ١٠٢ :

١٠ : ١٤٠ : ٢٢ : ١٦٣ : ٦ :

١٧٥ : ١٨ : ٢٠٢ : ٢٢ :

٢١٣ : ٨ : ٢١٦ : ٢١ :

٣ : ٢١٧

بقراض — ١٦٢ : ١٥ :

البيق — ٢٠٩ : ١٩ :

بلاد أرمينية — ٢٢٤ : ٥ : ٢٢٨ :

١ : ٢٣٠ : ٣ :

بلاد الترك — ٩٧ : ٢١ :

بلاد التكرور — ٣٣٧ : ٧ :

٦ : ٣٣٨

بلاد الجبل — ١٥٠ : ١٣ :

بلاد الحبشه — ٣٣٨ : ٧ :

١ : ١٤٣

(ج)

جامع ألماس — ١٨ : ٣١١

جامع أحمد بن طولون — ١١٠ :

١٠ : ٣١٢ ، ١

الجامع الأزهر — ١١٣ : ٥ ،

١١ : ٣١٢

جامع أم السلطان شعبان — ١٦ : ٣١٨

الجامع الأموي بدمشق — ٢٣ :

١٠ : ١٨٥ ، ٣ : ١٧٩ ، ٦

١٩ : ٢٤٠

جامع السلطان حسن — ١٤ : ٣٠١

٢٠ : ٣٠٩

الجامع الطولوني — ٢٢ : ٣٤

جامع الظاهر ببرس — ١٠ : ١٠٩

جامع عمرو — ٢٣ : ١١٣

جامع القلعة — ١٤ : ٧٢

جامع المارداني — ٧ : ٣١٨

الجبل الأحمر — ١٤ : ١٣٣

جبل السماق — ٦ : ١٨٨

جبل شغلان — ٢ : ٣٥١

جبل صبر — ٧ : ١٣٦

جبل منى — ١٨ : ١٢٣

جبل يشكر — ٢٢ : ٣٤

جبل — ٨ : ٢٣٩ ، ١٥ : ٢٣٨

جدة — ١٤ : ١٢٧

الجزيرة — ١ : ٣٠٤ ، ١٧ : ٣٠٣

جزيرة أرواد — ١٧ : ٢٤٣

٦ : ٢٦٤ ، ١ : ٢٤٤

جزيرة أروى — ٦ : ٢٨٥

١ : ٣١٦

١١ : ١٤٤ ، ١٤ : ١٣٧

١٠ : ٢٣٦ ، ٢١ : ١٩٢

بيت المقدس — ١٤ : ٤٣ ، ٢ : ٣٨

١٩٢ : ١١ : ١٨١ ، ١٥ : ٦٣

١٧ : ٢٣٧ ، ٢٤ : ٢٣٣ ، ٢١

٢٦٠ : ١٨ : ٢٥١ ، ٢ : ٢٤٢

١٠ : ٢٧٣ ، ٩ : ٢٦٣ ، ٤

٤ : ٢٧٧ ، ٢٣ : ٢٧٦

بئر زمزم — ١٤ : ٩٤

النيرة — ٢٤ : ١٧٢

بيروت — ١٩ : ٢٥٧ ، ٧ : ٢٤٣

بزا — ١٩ : ٣٣٩ ، ١٠ : ٢٤٦

٥ : ٣٤٠

بسان — ٧ : ٢٢٣ ، ٩ : ٢٤

بين القصيرين — ١٩ : ٣٢٣

٤ : ٣٢٤

(ت)

تبريز — ١٥ : ١٧٥ ، ١٨ : ١٠٠

٦ : ٢١٣ ، ١٩ : ١٧٦

١٠ : ٢١٦

تروجة — ٩ : ٣١ ، ١٠ : ٣٠

تمز — ٤ : ١٣٥ ، ٧ : ١٣٤

٣ : ١٢٦

التكرور — ٦ : ٣٣٨ ، ٧ : ٣٣٧

تل حمدون — ٢٢٦ : ٢٢ : ٢٢٥

١٣ : ٢٢٧ ، ٦

تلسان — ٨ : ١٤٦ ، ٢ : ١٤٤

تنيس — ١١ : ٢٩٥

تورتوزا — ١٥ : ٢٥٧

توريز — ٤ : ٢٠٧

تونس — ٩ : ١٤٢ ، ٦ : ١٠٢

١٦: ٢٤٣، ٩: ٢٣٧، ١٣
 الحديثة — ١٢: ٦٩، ١٥: ٦٧
 الحرمان الشريفان — ١٠: ٧٣،
 ١٨: ٩٤، ٩: ٨٤، ١٧: ٧٤
 ٧: ١٢٧، ١٩: ١٢٦
 الحسينية — ١٠: ٣٢١، ١٢: ٣٦
 حصن الاستتارية بالمرقب ٢٤: ١،
 ٢٣: ٢٣٧، ١٧: ٢٢٢، ٩: ٢٥
 ٦: ٢٣٨، ١: ٢٣٨
 حصن تعز — ٤: ١٣٥، ٧: ١٢٤
 ٧: ١٣٦
 حلب — ١٣: ٣٩، ١٤: ٢٣،
 ١٢: ٥١، ١: ٥٠، ٨: ٤٧
 ٢: ٨٩، ١٨: ٦٧، ١٥: ٦٣
 ١٢: ١٦٢، ١٠: ١٢٥، ٨: ٩٣
 ١١: ١٧٦، ١٢: ١٧٣، ١: ١٧٠
 ٨: ١٩٠، ٢: ١٨٩، ٥: ١٧٧
 ٢٣: ٢٠١، ١١: ١٩٧، ١: ١٩٥
 ١٦: ٢٢٧، ١٣: ٢١٤، ١: ٢٠٥
 ٩: ٢٣١، ٤: ٢٣٠، ٤: ٢٢٨
 ٢٣: ٢٥٤
 حماة — ٦: ٥٤، ٢١: ٥١، ١٤: ٢٣
 ٨: ١٦٢، ٨: ١٢٦، ١٥: ١٢٥
 ١٠: ١٩٥، ٢٤: ١٧٨، ١: ١٦٣
 ٨: ٢٣١، ٣: ٢٢٧، ١٠: ١٩٧
 ٣: ٢٣٠، ٢: ٢٤١
 حمص — ٢١: ٥١، ١٤: ٣٩
 ١٧: ١٧٨، ٤: ١٦٣، ١٣: ١٦٢
 حمص — ١٥: ٢٢٦

جزيرة رودس = رودس
 جزيرة الروضة = الروضة
 جزيرة سردينية — ٧: ٢٦٨
 ٥: ٢٧١
 جزيرة الفيل — ٩: ٢٨٥، ٨: ٨٨
 جزيرة قبرس = قبرس
 الجزيرة الوسطى = جزيرة أروى
 جنوة — ٦: ٢٤٧، ١٠: ٢٤٦
 ٢٣٩، ١١: ٢٥٣، ٣: ٢٥٢
 ١٤: ٣٤١، ٥: ٣٤٠، ١٥
 جورجيا — ٢٠: ١٦٠
 جيحون — ٥: ١٧٤
 الجيزة — ٥: ١٤٥، ٢١: ١٠٩
 ١: ١٥٢، ٩: ١٥١
 ١٢: ٢٩٠

(ح)

حارم — ١٥: ١٦١
 حارة برجوان — ١٤: ٣٢٣
 حارة الجودرية — ٢٦: ١٠٨
 ١٠: ٣٢٦
 الحبشة — ٢: ١٥٠، ٥: ١١٥
 ١٥٨، ٣: ١٥٧، ١٢: ١٥٦
 ٧: ٢٣٧، ٥: ١٥٩، ٨
 ٧: ٣٣٨
 الحجاز — ٢٢: ٤٣، ٢٢: ٢٩
 ١٤: ٧٣، ٥: ٦٨، ١٩: ٦٢
 ١١٧، ١٠: ١٠٦، ١٦: ٩٤
 ٣: ١٢٠، ١٣: ١١٩، ٣
 ١٤٥، ٦: ١٢٦، ٢: ١٢٥
 ١٣: ٢٠٧، ٦: ٢٠٥، ٦
 ٢٨١، ١٩: ٢٤٧، ٨: ٢٠٨

٩٠ ١١٤

دار الوراثة - ٣٤ : ١٦

دارة - ١٥٨ : ٢٢

دبيق ٢٩٥ : ٢٩٦٠٨

درب القاحين - ١٠٨ : ٢٦

درب الكمارية - ١٠٨ : ٢٥

دربساك - ١٦٢ : ١٥

الدكن - ١٠٠ : ١٣٩٠٦

١ : ١٤٢

الدكا - ٢٤٨ : ٣

دلهي - ٣٠٩٨ : ١٩٠١٠٢٠٩٠٩٩

١٠٠ : ١٣٩٠١٥٠ : ١٣٨٠١٥٠ : ١٢٥

١٩٠ : ٣٣٦٠١٥٠ : ١٤١٠٤ : ١٤٠

دمشق - ١١ : ١٩ : ٢٠ : ١٨

١٧ : ٢٩٠١٧ : ٢٤٠٥ : ٢٣

٨ : ٣٨٠٧ : ٢٧٠٣ : ٢٢

١ : ٤٧٠١١ : ٤٤٠١٤ : ٢٩

١٦ : ٥٦٠١١ : ٥١٠٣ : ٤٩

٧ : ٦٨٠١٠ : ٦٧٠١٩ : ٥٨

٨ : ٧٧٠٢٣ : ٧٦٠٦ : ٦٩

١٩ : ١٦١٠٢١ : ١٠٩ : ٩٣

١٢ : ١٧٣٠١٦ : ١٧٢٠٤ : ١٦٢

١٥ : ١٧٨٠٣ : ١٧٧٠٨ : ١٧٦

١٠ : ١٨١٠١ : ٦١٨٠٠ : ٢ : ١٧٩

٣ : ١٨٥٠١ : ١٨٤٠١٨ : ١٨٣

٩ : ١٨٨٠٩ : ١٨٧٠٢ : ١٨٦

١٣ : ١٩٤٠٢١ : ١٩١٠٤ : ١٩٠

٩ : ٢٠٢٠٢ : ١٩٨٠١١ : ١٩٧

٢٠ : ٢٢٥٠١٥ : ٢١٠٠٧ : ٢٠٥

١ : ٢٤١٠٢٠ : ٢٤٠٠٨ : ٢٣١

١٣ : ٣٠٥٠٣ : ٣٠٤٠١٥ : ٢٨٥

١٧ : ٣٢٨

(خ)

حانقاده - س لجنشكير ٢٠ ٥٠

حراسا - ١٢٩ : ٢١ : ١٤٠

٥٢٠٣ ٨ ٧٤ ١١٦١

٦٠٢١٦ ١٢ : ٢١٣٠٨ : ٢٠٩

٩ ٢٩٨

خزانة شمانا - ٢٥١ : ٦

حزان الامر قوصون - ٣١٢ : ١٩

الحصوص - ٢٩٠ : ١٣

الخطارة - ٣١٥ : ١٢

خطه خا . . . من حدافة الصبحاني -

٢١٠ : ٣١٩

الخليج الفارسي - ٣٣٦ : ٠٩

٢٠ ٣٣٨

الخليج الناصري - ٢٨٦ : ٨

خوارزم - ٢٢١ : ٢٢

(د)

دار الآثار العربية - ٢٩٦ : ٠٧

٨ : ٣٠١٠١ : ٣٠٠٠ : ١٠٢٩٧

٦ : ٣٠٥٠١ : ٣٠٤ : ٦٢٠٢

٢ : ٣١٠٠ : ١٠٠٣٠٩ : ٨٠٣٠٨

١٨ : ٣١٧٠٩ : ٣١٣ : ٥٣١١

١٢ ٣١٨

دار النفاذ - ٣٢٤ : ١٣

دار الصناعة عصر - ٣١٤ : ١٨

٩ : ٣١٦

دار الضرب بالاسكندرية - ٣٣٢ : ٩

دار الضرب بالقاهرة - ٣٣٢ : ٩

دار الضرب بقوص - ٣٣٢ : ٩

دار الضافة - ٢٥٢ : ١٠

دار العدد - ٨٣ : ٨ : ٨١ : ٨

الروحاء — ٩: ٢٤	دملوه — ١٤: ١٣٥، ٨: ١٣٤
روذس — ٧: ٢٤٧، ٥: ٢٤٤	دمهور — ١٢: ٢٤٨
١٢: ٢٥٣	دمياط — ٢٥٦، ١٠: ٢٤٥
الروضة — ١٠: ٣١٥، ٦: ٢٨٥	٢٣: ٢٩٥، ١٣: ٢٩٧
١٩: ٣١٦	٦: ٢٩٨، ١٨: ٣١٤، ١٧:
الروضة الشريفة — ١٦: ١٤٥	٣٣٥: ٣٣٦، ١٩: ٣٣٩
الروم — ٩: ٢٠٣، ١٠: ١٧١	١٩: ٣٤٦، ٩:
١٥: ٣٤٣	دقلة — ١١: ١٥١، ٦: ١٥٠
(ز)	١٥٢: ١٥٣، ٢: ١٥٤
زاوية سقر — ٢١: ٣٠	٢٠: ٢٩٦، ٥:
زبطرة — ٢٢: ٢٢٦	الدهيشة — ١١: ٢٩٩
زيد — ٢: ١٣٥	دوارو — ٢١: ١٥٨
(س)	ديار بكر — ١٨: ٢١٥، ٤: ٢١٣
سرياقوس — ١٩: ٢٨٥	الديار المصرية — ٩١: ٧، ٢٦:
سلطان آباد — ٩: ٣١٤	٣: ٩٥، ١٢٤: ١٢٦، ١:
سلطانية — ١٤: ٢١٦	١٨: ١٢٩، ١: ١٣١، ٧:
سلبية — ٢١: ١٨٢	١٥٦: ١٥٧، ١٣: ١٨٥، ٨:
سمرقند — ١٤: ٣٠٥	١٢: ١٩٤، ٣: ١٩٠، ١٣:
سمتان — ١١: ٢٠٩	٢٠٣: ٢٠٥، ٦: ٢٠٥، ٢: ٢١٩:
سمود — ١: ٢٨٣	٩: ٢٦٤، ٩: ٢٦٠، ٩:
السند — ١٠: ٣٤٤، ٢١: ٩٧	٣٠٩: ٣٣٢، ٨:
السودان — ١: ١٥٦	الدير الأبيض — ١٨: ٢٨٦
سورية — ١١: ١٧٦، ١٤: ١٦٠	(ر)
١٨٨: ١٢، ١٠: ٢٠٤، ١٠: ٢٠٦:	رايتي — ٢١: ١٥٨
١٥: ٢٣٩، ١٩: ٢١٤، ٥:	رباع وكالة قوصون — ٢: ٣٢٦
٢٤٠: ٢٤٦، ٣: ٢٥٢، ٧:	الرحبة — ١١: ١٢٥، ١٦: ٢٣
٢١: ٢٥٧، ١٤: ٢٦٢:	١٦٣: ١٧٠، ٦: ١٧٢، ١:
٢٠: ٣٠٣، ٢١: ٣٠٥، ١٣:	١٥: ٢٠٥، ٥:
٣٠٩: ٣٤١، ١٤:	رشيد — ١٨: ٢٥٧، ٢٤: ٣١
سوق باب الزهومة — ٨: ٣٢٤	٣٣٤: ٣٤٠، ١٧:
١٨: ٢٢٦	الرملة — ١٢: ٢٣

١٦:٣٣٦٠٧٠٣٣٨٠ ١٣:٣٣٤

٩ ٣٤٤٠٧ ٣٤٣

(ط)

طحا -- ٢٩٨ ٢

الطحاوية -- ٢٨٧ ٢٤

طرابلس الشام -- ١٩:٢٣ ٢:٥٠٠

٧٠٩٣٠٦ ٥٤ ١٥٠٥١

٨:٢٣١٠ ١٨:٢٢٨٠ ١٠ ١٢٥

٤٠٢٣٨٠ ١:٢٣٣٠ ١٥ ٢٣٢

٣:٢٤١٠ ٢٤:٢٤٣٠ ١ ٢٣٩

٣:٢٥٤٠ ٤:٢٥٣٠ ١٧٠٢٤٣

١ ٢٥٥

صرايدس العرب -- ١٤٢ ١٠

٤ ١٤٣

الطراية -- ٣١:٥ ٦:٢٥٠٠

١٢:٢٢٩

طرسوس -- ٢٢٤ ١٦

طريدة = فنية طريدة

الطور -- ٤٢ ٩

(ع)

عانة ١٢٠٦٩٠ ١٥٠٦٧

العنايه -- ٧٩ ١١

عثليث -- ٢٣٣ ١٥ ٢٣٤٠ ٤

٧٠٢٤٣٠ ١ ٢٣٥

العجم -- ٢٠٣ ١٥٠٣٤٣٠ ٢

عدس -- ٣٢٨ ٤:٣٣٤٠ ١٤٠

٧٠٣٣٩٠ ٥ ٢٣٥

العراق -- ٦٨ ١٩ ٧٢ ٢٠

٢٦ ١٢٠٠ ١٧ ١١٩٠ ٧ ٨٧

٠ ١١ ١٧٢ ١٥ ١٢٧

٠ ٢٠ ٣٣٨ ١:٣٣٠

١٢:٣٤٠

شبرا -- ٣٢٧ ١

شبين القصر -- ٢٨٨ ٧٠٥٠

شرخا -- ١٥٨ ٢١

الشرق الأقصى -- ٣٢٨ ٥

الشرقية -- ٢٨٧ ٢١ ٣:٢٩٠

شطا -- ٢٩٥ ٨

الشوبك -- ٤٩ ١٣ ١٨٧٠ ٨

شيزر -- ٢٥ ٣

(ص)

الصاعة -- ٣٠٠ ١٧

الصالحية -- ١٨٤ ٣ ١٨٧٠ ٥

صراى -- ٢٢٠ ١٧٠٢٢١٠ ١٩

صرخد -- ١٠٥٠ ١

الصعيد -- ١٥٥ ٢٤:٢٨٧٠ ٢٥

٢ ٢٩٨٠ ١٠:٢٩٤٠ ٥:٢٩٠

١٠:٣٣٠٠ ٧:٣٢٩٠ ٢٤:٣١٦

صعد -- ٢:٣٨ ١٠٢١٠٥١٠ ٦ ٥٤

صقنية -- ٢٣٩ ١٣٠ ١٨٠٢٦٢

٢٣:٢٦٧

صنعاء -- ١٣٧ ٢

صميون -- ٢٣ ١٨ ٢٤ ١٤

٢٥ ١٨٠٤٨٠ ٣

صور -- ٢٣٨ ٨ ٢٤٣ ٢

صوصو -- ٣٢٧ ٢١

صدا -- ٢٣٣ ١٥ ٢٣٤ ٤

٢٣٥ ١ ٢٣٦ ٥ ٢٣٧ ٤

٢٤٣ ٦ ٢٥٧٠ ١٤

الصير -- ١٣٩ ٢١ ٣١٤ ٧

النورية — ١١ : ٣٣٦

القوطة — ٨ : ٢٠٢

(ف)

فارس — ٧ : ٣٦ ، ١٧ : ٢٣

١٨ : ١١٩ ، ١٦ : ١٠٠ ، ١٦ : ٥١

١ : ١٦١ ، ٣ : ١٦٠ ، ٢٦ : ١٤٠

٨ : ١٧٤ ، ٩ : ١٧٢ ، ١٢ : ١٦٧

١٢ : ٢٠٨ ، ١١ : ٢٠٧ ، ٥ : ٢٠٦

٩ : ٢١٣ ، ١٦ : ٢١٢ ، ١٤ : ٢١١

١٢ : ٢١٨ ، ١٢ : ٢١٦ ، ٦ : ٢١٥

١٤ : ٢٢٩ ، ٤ : ٢٢٦ ، ١٦ : ٢٢٢

٧ : ٣١٤ ، ٨ : ٢٩٨ ، ٦ : ٢٣٢

فاس — ٢٣ : ١٤٤ ، ٨ : ١٤٣

الناقوسية — ١٢ : ٣٢٩

قاصية — ٢ : ٢٥

القرات — ٦ : ١٧٤ ، ٢٤ : ١٧٢

٣ : ١٨٩ ، ٢ : ١٨٨ ، ٩ : ١٧٧

١ : ١٩٥ ، ٢٢ : ١٩٤ ، ٨ : ١٩٠

٨ : ٢١٨ ، ٢٠ : ٢٠١ ، ٤ : ١٩٧

فرنسا — ٥ : ٢٣١ ، ٢٢ : ١٨٨

١٤ : ٢٤٤ ، ١٢ : ٢٣٩

١١ : ٢٧٦ ، ٥ : ٢٧٣

٢ : ٢٧٧

القسطاط — ٢٩٦ : ١٦ ، ٢٨٤

٦ : ٣٠٩ ، ١٧ : ٣٠٧ ، ٦

١٢ : ٣٣٥ ، ٢١ : ٣١٩

فلسطين — ٢ : ٢٦٣ ، ٧ : ٢٢٣

فم الخليج — ٤ : ٣٠٧

فندق بلال المعشي — ١٦ : ٣٢٥

فندق طر نطاي — ١ : ١١٠

٢٣ : ٢٠٢ ، ٢ : ٢٠١ ، ٧ : ١٧٤

٥ : ٢٠٨ ، ١٣ : ٢٠٧ ، ٤ : ٢٠٣

١٦ : ٣٣٦ ، ١٣ : ٢٩٨

١٠ : ٣٤٣ ، ٢٠ : ٣٣٨

عرض — ٥ : ١٩٧

العريش — ٢١ : ١٨٢

عسقلان — ٥ : ١٨٧ ، ٢١ : ١٧٧

العطف — ١٨ : ٣٣٤

العقبة — عقبة أيلة .

عقبة أيلة — ١١ : ١٢٦ ، ٣ : ٨٦

عكا — ١٣ : ٢٢٤ ، ١ : ٧٣ ، ٥ : ٢٤

١١ : ٢٢٣ ، ١٥ : ٢٢٢ ، ٢ : ٢٢٥

٤ : ٢٢٦ ، ١ : ٢٢٥ ، ٢ : ٢٢٤

٢ : ٢٤١ ، ٣ : ٢٤٠ ، ٤ : ٢٣٧

٢١ : ٢٤٤ ، ٢ : ٢٤٣ ، ١ : ٢٤٢

١٨ : ٢٤١ ، ٧ : ٢٤٠ ، ٢ : ٢٤٦

العلاق — ٩ : ٣٠٧

عيزاب — ١٤ : ٣٣٤ ، ٢١ : ٢٩٤

٢ : ٣٣٥

عينتاب — ٢ : ١٧٠ ، ١٥ : ١٦٢

عين جالوت — ٧ : ١٦٠ ، ١١ : ٦٧

٢ : ٢٢٣

(غ)

غانة — ٢١ : ٣٣٧

الغربية — ٢٣ : ٢٨٧ ، ٢٥ : ٩٥

٢١ : ٢٩٠

غرافطة — ٦ : ١٤٨ ، ١ : ١٤٧

غزة — ٤ : ٤٩ ، ٢ : ٣٨ ، ١٢ : ٢٣

٤ : ١٨٧ ، ١٢ : ١٧٧ ، ١٦ : ١٣٦

١٢ : ٢٤١ ، ١ : ١٨٨

١٥ : ١٥٣ : ٢١ : ١٥١ : ٨
 : ١٦٣ : ١٠ : ١٥٥ : ٧ : ١٥٤
 ١٢ : ١٨٦ : ١٠ : ١٧٣ : ١١
 : ١٩٨ : ١٨ : ١٨٨ : ٢ : ١٨٧
 : ١٦ : ٢٠٨ : ٤ : ١٩٩ : ٢١
 : ١٢ : ٢١٥ : ١٧ : ٢١٠
 : ٢٣١ : ١٠ : ٢١٨ : ٣ : ٢١٧
 ١١ : ٢٤٥ : ١١ : ٢٤٣ : ٨
 : ٢٥٠ : ٢ : ٢٤٨ : ١ : ٢٤٧
 : ٨ : ٢٥٣ : ٢٠ : ٢٥١ : ١
 : ٢٦٤ : ٢ : ٢٦١ : ٤ : ٢٥٨
 ١٦ : ٢٦٧ : ٥ : ٢٦٥ : ٢٨
 : ٢٧٦ : ١ : ٢٧٥ : ٩ : ٢٧٣
 : ٧ : ٢٨٤ : ٥ : ٢٧٧ : ١٤
 : ٣٠ : ٢٩٤ : ١٢ : ٢٩٠
 ١٦ : ٣٠٦ : ٢ : ٣٠٤ : ١٢
 : ٣١٣ : ١٩ : ٣١٠ : ١٠ : ٣٠٩
 : ٥ : ٣٢٠ : ١٧ : ٣١٩ : ٥
 : ٣٢٤ : ٤ : ٣٢٣ : ٥ : ٣٢١
 ١٥ : ٣٢٨ : ١٩ : ٣٢٦ : ١٢
 : ٣٣٥ : ٩ : ٣٣٢ : ٢ : ٣٣١
 : ١ : ٣٣٩ : ٩ : ٣٣٧ : ١١
 قيرقتم بن العباس — ٢٣ : ٩٨
 القبر المقدس — ١٣ : ٢٧٠
 ٢ : ٢٧٣
 قبرس — ٨ : ٢٤٢ : ٣ : ٢٣٩
 : ٢٤٦ : ٨ : ٢٤٥ : ٨ : ٢٤٤
 : ٣ : ٢٤٩ : ٩ : ٢٤٨ : ١
 : ٢٥٣ : ٧ : ٢٥٢ : ١٦ : ٢٥١
 : ١ : ٢٥٥ : ٢ : ٢٥٤ : ١
 : ١ : ٢٥٧ : ١٢ : ٢٥٦
 ٣ : ٢٥٨

٥ : ٣٢٦ : ٩ : ٣٢٥
 فندق مسرور الكبير — ١٢ : ٣٢٥
 الفولجا = نهر الفولجا
 قوه — ١٨ : ٣٢٤
 فيروز آباد — ٢٦ : ١٤١
 الفيوم — ١٠ : ٢٨٣ : ٨ : ٤٢
 ٧ : ٣٠٩ : ٢ : ٢٨٨
 فيينا — ٥ : ٢٤٦ : ١ : ٢٤٥

(ق)

قاعة الأشرفية — ٨ : ١٢٤
 ٦ : ٢٩٩
 قاعة الأعمدة بقاعة الجبل — ١٢ : ٦٨
 قاعة اليسرية — ١٢ : ٢٩٩
 ٢١ : ٣٠٥
 القاهرة -- ١٢ : ٢٥ : ١٢ : ١٩
 ١٠ : ٣٦٧ : ٣١ : ١٨ : ٣٠
 : ٤٨ : ٢٠ : ٤٧ : ٤ : ٣٨
 : ١ : ٥٤ : ١١ : ٥٠ : ١٧
 ٣ : ٦٨ : ٧ : ٦٤ : ٢٠ : ٦٢
 ٣ : ٨١ : ١ : ٧٩ : ١٧ : ٧٦
 : ٨٦ : ١٩ : ٨٤ : ١٣ : ٨٢
 : ٩١ : ١ : ٩٠ : ١٦ : ٨٩ : ٦
 : ١٦ : ٩٤ : ١٠ : ٩٢ : ١٦
 ٢ : ٩٨ : ٦ : ٩٧ : ١٩ : ٩٦
 : ١٠١ : ٥ : ١٠٠ : ١٢ : ٩٩
 : ١ : ١٠٦ : ١٣ : ١٠٢ : ١
 : ١٨ : ١٠٩ : ٢٠ : ١٩٨
 : ١٢١ : ٤ : ١١٨ : ٦ : ١١٤
 : ٥ : ١٢٤ : ١٦ : ١٢٢ : ٨
 : ١١ : ١٤١ : ١٢ : ١٣٣
 : ١٥٠ : ١ : ١٤٥ : ٣ : ١٤٢

أسماء البلاد والمدن والأماكن والجمال والأهبار وبحوها ٣٩٢

٩٤٠٢ : ٩٥٠٢١ : ٩٦٠٩	قبة السلطان الملك المنصور قلاوون =
١٠ ١٠٩٠ ١١ ١٠٦٠ ٥	القبة المنصورية
١١٤٠ ١٩ ١١٢٠ ١٠ ١١٠	القبة المنصورية — ٧٢ ١٧
١٢ : ١٢٣٠ ٢٢ : ١٢٠٠ ١٠	١٧٢ ١٢٠ ١٢٠ ٢٤١ : ٣٠٨٠ ١٥
١٩٨٠ ٧ : ١٨٧٠ ٢ : ١٤٥	١٤ : ٣١٨٠ ١١
٤ : ٢٠٥٠ ١٧ : ٢٠٠٠ ١٢	القدس الشريف = بيت المقدس
١٣ : ٢٢٠ ١٨ : ٢١٠	قرا باغ — ٥٠ ٢١٢
٢٩٤٠ ١٠ ٢٨٦٠ ٩ : ٢٥١	قراقة مصر — ٣٣٨ ١
١١ : ٣١٥٠ ١٦	القرم — ٢٠٠ ٢٢١
٢ : ١٨٦٠ ١٢ ١٨١	أم القرى = مكة
١٥٠ ١٣٥	قسطمونية ٢١١ ١٠
٢١ : ١٦٢	القسطمونية — ٤٥ ٢٢٠ ٠٨
١٧٣٠ ١٨٠ ١٧٢	٢٢٦٠ ٨ ٢٢٤٤٠ ١٢ ٢٢
١ : ١٧٤٠ ٢	٨ : ٣١٢٠ ١٢ : ٢٥٩
١٣ : ٢١٤	قشتالة — ١٤٩ : ١٨ : ٢٦٢٠ ١٠
١ : ٤٤٠ ٢ : ٣٩	القصر الألبق — ٤٧ : ٥٠ : ١٩٨٠ ٤
٩٠ ٥٥	قصر الدهيشة = الدهيشة
قلعة المسبين = قلعة الروم	قطالونيا — ٥٠ ٣٤٠
١٥٠ ٢٤٥٠ ١٦ : ١١٤	قفط — ١٤ : ٣٠٧
القليونية — ٢٨٨ ١	القلزم — ٣١٢ ١٥
قوريلماي — ١٦٤ : ١٣ : ١٦٨٠ ١٣٠	قلعة تعز = حصن بحر
قوص — ٤٢ ٥٣٠ ٩ ٥٩٠ ١٨٠	قلعة تل حمدون — ٢٢٧ ١٣
٨٧٠ ٨٠ ٨٢٠ ١ : ٨١٠ ١	قلعة الجبل — ٢٠ ١١ ٢١ ٥
٢٩٠٠ ٣ : ٢٨٨ ٩ : ١٥٠٠ ٩	٢٠ ٣٣٠ ٨ ٣١٠ ١٨ : ٢٥
٩ ٣٢٢٠ ٢١ ٢٩٤٠ ٢٤	٠٥ ٣٨ ٥ ٣٥٠ ١ ٣٤
٩ ٣٣٥٠ ١٥ : ٣٣٤	٢١ ٤٢ ٢ ٤١٠ ٨ ٤٠
القوصية — ٢٨٤ ٢	٥ ٤٨٠ ٥ ٤٦٠ ٣ ٤٣
القيس — ٢٩٨ ١	٠٠ ١٩ ٥٨ ١٩ ٥٦
قيسارية — ١٦١ ١٠	١٣ ٦٨ ٩ ٦٤ ١٤
قيسارية من ميسر الكرى	١٣٧٢ ٢ ٧٠ ٢٢ ٦٩
٣٢٢	١٤٨٠ ١٤ ٧٦ ٧٤
	٥ ٣ ١٩ ٤ ٨٨

كوم حماده — ٣١ ٢٤

(ل)

اللاذقية — ٢٥ : ٢٣٣٠٣ : ٤٤

١٥٠٢٥٧٠٤٠٢٥٥

اللاجون — ٩٣ : ٩

القوق — ٣٤ : ١٧ : ٢٨٤٠٨

١٤ : ٢٨٥

(م)

ماردين — ١٧٦ : ١١ : ١٩٢٠٦

٩٠٢٠٥

المارستان المنصوري — ٣٢٣ : ٤

مازندران — ٢١٣ : ١٢

مالى — ٣٣٧ : ٢١

ماوراء النهر — ٩٨ : ٢٢ : ٢٠٩ : ٨

المتحف النقبطى — ٣٠٧ : ٢ : ٣١٢ : ٣

١٨ : ٣١٨ : ١٩ : ٣١٣

مجمع المروج — ٢٢ : ٧٦ : ١٠١٧٨

المحيط الهندي — ٣١٦ : ١٠

المدرسة السكهارية — ١٠٨ : ١٨

مدرسة الملك الأشرف خليل —

١٨ : ٣٠

مديرية البحيرة — ٣٠ : ٢٢

مديرية القليوبية — ٢٩٠ : ٢٦

المدينة المنورة — ١٥ : ٩٤ : ١٠ : ١٠٤

٢١ : ١٢٤ : ١١ : ١١٨ : ٥ : ١١٧

٦ : ١٢٧ : ١٣ : ١٢٦ : ٤ : ١٢٥

١٩ : ٢٠٩ : ٧ : ١٤٥

مراغة — ٢٠٤ : ١٩ : ٢٠٦ : ٥

١٩ : ٢٣ : ١١٦ : ٢٠٧

مراكس — ١٤ : ١٤٦ : ٣١ : ٠٩

(ك)

كرسقة — ٢٦٨ : ٧ : ٢٧١ : ٦

الكرك — ٢١ : ٩ : ٢٢ : ١٥

٩ : ٤٠ : ٥ : ٣٩ : ٢ : ٣٨

٧ : ٤٧ : ٦ : ٤٥ : ٢ : ٤٤

٦ : ٧١ : ٢ : ٥٥ : ٧ : ٥٤

٨٩ : ٢١ : ٧٧ : ٣ : ٧٥

١٨١ : ١٥ : ١٠٩ : ١٨

٣ : ٢٣٤ : ١٨ : ٢٣٠ : ١١

كرمان — ٢٩٨ : ١١

كريت — ٢٥٣ : ١٢

الكعبة — ١١٧ : ١٠ : ١٢٢

١ : ١٢٦ : ١٨ : ١٢٥ : ٧

كفر طاب — ٢٥ : ٢

كنيسة الحبشة — ١٥٦ : ١٢

كنيسة رومية — ٢٦٨ : ٨

٦ : ٢٧١

كنيسة القديسة بربارة — ٢٧٤ : ٢٢

كنيسة القيامة بالقدس — ٢٥١ :

٨ : ٢٥٨ : ١٧

كنيسة مارجر جيس — ٣١٩ : ٢

كنيسة مارمينا — ٣٠٧ : ٤

كنيسة المسيح بدفلة — ١٥١ : ١٨

كنيسة المصلية — ٢٦٠ : ٤

كنيسة المعلةقة — ٣١٢ : ٣ : ٣١٨ : ١٩

كنيسة الملكية — ٢٦٠ : ١٢

كنيسة الناصرة — ٢٣٥ : ١١

كنيسة اليعاقبة — ٢٦٠ : ١٣

كوكو — ٣٣٧ : ٢٢

الكوم — ١٩٧ : ٤

الكوم الآخر — ٢٩٠ : ١٣

بأسماء البلاد والمدن والأماكن والآنهار ونحوها ٣٩٥

٢:٨٧، ١٠:٨٦، ١:٨٥	المرج — ١٣:٢٩٠
٦:٩١، ٣:٩٠، ٦:٨٩	مرج راهط — ٩:١٨٤
١٤:٩٤، ٢:٩٣، ١٠:٩٢	مرج الصفر — ١٧:١٣٠، ٧:٧٧،
٢:١٠٤، ٥:٩٧، ١١:٩٦	١٩٧: ١٨: ١٩٨، ٢١:
١٤:١٠٨، ١:١٠٦، ٧:١٠٥	٢٣: ٢٩٢
٢:١١٥، ٦:١١٤، ١٩:١١١	مرسيليا — ٥: ٣٤٠
٤:١١٩، ٢:١١٨، ٢:١١٧	مرعش — ١٥:٢٢٦، ٢٢: ٢٢٥
٣:١٢٢، ١:١٢١، ٨:١٢٠	المرقب — ٢٣: ٢٣٧
١٧:١٢٦، ٧:١٢٥، ١:١٢٣	مرقية — ٧: ٢٣٨
٥:١٢٩، ١٠:١٢٨، ١٠:١٢٧	مرو — ١٠: ٢٩٨
٧:١٣٢، ١٣:١٣١، ٩:١٣٠	مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم —
١٣:١٣٦، ٤:١٣٤، ٩:١٣٣	١٤٤: ١٨: ١٩٢، ٢٢:
٣:١٤١، ١: ١٤٠، ٤:١٣٨	مسعود آباد — ١٥: ٩٨
١:١٤٤، ١٥:١٤٣، ٢:١٤٢	مشهد — ١١: ٢٠٩
١٧:١٤٨، ١٨:١٤٧، ٥:١٤٦	مشهد السيدة نفيسة — ١٨: ٣٠
٤:١٥١، ٢:١٥٠، ١:١٤٩	١٣:٨٩، ٢١: ٨٨، ١٦: ٨٥
٧:١٥٥، ٢٣:١٥٤، ٨:١٥٣	١٠: ٢٢١، ٢: ٩٢
١٢:١٥٨، ٣:١٥٧، ١٤:١٥٦	مصر — ١:٢٢، ٤:٢١، ٥: ١٩
٧:١٦١، ٢:١٦٠، ٤:١٥٩	١: ٣١، ١٩: ٢٩، ١: ٢٣
٩:١٦٧، ٣:١٦٣، ١٩:١٦٢	٢٠: ٣٥، ٥: ٢٣، ١٠: ٣٢
٢:١٧٥، ٨:١٧٢، ٢٣:١٧١	٧: ٢٩، ١: ٢٨، ١٠: ٢٧
٢١:١٧٨، ٣:١٧٧، ٥:١٧٦	٧: ٤٤، ٢١: ٤٣، ١: ٤١
١٤:١٨٥، ١٨:١٨٣، ٥:١٧٩	١٤:٤٧، ٢٤: ٤٦، ١٦: ٤٥
٣:١٨٨، ١٥:١٨٧، ٧:١٨٦	١١: ٥٠، ٢: ٤٩، ١١: ٤٨
١:٢٠٤، ١٤:١٩٩، ٥:١٩٨	١٣:٥٣، ٣: ٥٣، ١٩: ٥١
١:٢٠٨، ٢:٢٠٧، ١٢:٢٠٦	٦: ٥٦، ١: ٥٥، ٨: ٥٤
١٥:٢١٤، ٢:٢١١، ٢:٢١٠	١٨:٦٢، ١٩: ٦١، ١٧: ٥٥
١:٢١٩، ٦:٢١٨، ٢١:٢١٦	٣:٦٧، ٢٢: ٦٥، ١٠: ٦٣
١٤:٢٢٢، ٢:٢٢١، ٨:٢٢٠	١٢: ٧١، ٧: ٦٩، ٣: ٦٨
١٠:٢٢٧، ١:٢٢٦، ٢:٢٢٤	١٣: ٧٤، ٦: ٧٣، ١٢: ٧٢
٢:٢٣٢، ٣: ٢٣١، ٨: ٢٣٠	٥: ٨٢، ٢: ٨٠، ١٣: ٧٦

١٤٣ : ١٤٥، ١١ : ١٤٦، ٨ : ١٤٦
 ٣ : ١٤٧، ٦
 المغرب الأوسط — ١٤٤ : ٢٠
 مقياس النيل — ١٩٩ : ٨
 مكة المشرقة — ٩٤ : ١٥، ١٠ : ١٠
 ٤ : ١٠٢، ١٠ : ١٠٧، ٥ : ٥
 ١١٨ : ١٧، ١١٩ : ١٢٠، ١ : ١٢٠
 ١٢ : ١٢١، ٥ : ١٢٢، ٥ : ٥
 ١٢٣ : ١ : ١٢٤، ٤ : ١٢٥
 ٤ : ١٢٦، ٣ : ١٢٧، ١ : ١
 ١٣١ : ١٥، ١٤٥ : ٧، ٧ : ٢٠
 ٢٢ : ٢٠٨، ١ : ٢٣٦، ١٠ : ١٠
 ملطية — ٢١٤ : ٢٣
 ملوى — ٢٨٢ : ١٩، ٣١٩ : ٨
 مناظر الكيش — ٣٤ : ١٥، ٧٣ : ٧٣
 ٢٣ : ٨٠، ١٤ : ١٤
 منزلة الروحاء — ٢٤ : ٢
 منفلوط — ٢٨٧ : ٢٢، ٢٩٠ : ١٣
 المنوفية ٢٩٠ : ٤
 منى — ١٢٣ : ١٦
 منية الأمراء — ٣٢٧ : ١
 منية السيرج — ٢٩٠ : ٢٦
 الموصل — ١٨٨ : ١٧، ١٩١ : ١٩١
 ٦ : ٣٠٣، ١٥ : ٣٠٤، ١ : ١
 الميدان الأخضر — ٢٥ : ٢٢
 ميدان سرياقوس — ٢٨٥ : ١٩
 الميدان الظاهري — ٢٨٥ : ١٤
 ٢٨٦ : ١
 ميدان قلعة الجبس — ٢٨٦ : ٣
 (ن)
 نابلس — ٣٨ : ٢، ٢٢٣ : ٧

٢٤ : ١٥، ٢٤٥ : ٤، ٢٤٦ : ٦
 ٢٤٨ : ٥، ٢٥٠ : ٣، ٢٥٢ : ٣
 ٢٥٣ : ١، ٢٥٦ : ١٠، ٢٥٧ : ٣
 ٢٥٨ : ١، ٢٥٩ : ٢، ٢٦٠ : ٩
 ٢٦١ : ٣، ٢٦٢ : ٢، ٢٦٣ : ٥
 ٢٦٧ : ١، ٢٧٠ : ١٦، ٢٧٢ : ٢٣
 ٢٧٣ : ٤، ٢٧٥ : ٦، ٢٧٧ : ٣
 ٢٧٩ : ٢، ٢٨١ : ٢، ٢٨٢ : ١
 ٢٨٣ : ٢، ٢٨٤ : ٢٣، ٢٨٥ : ٨
 ٢٨٦ : ١٥، ٢٨٧ : ١٧، ٢٨٩ : ٩
 ٢٩٠ : ١٦، ٢٩٢ : ١٧، ٢٩٣ : ١٦
 ٢٩٤ : ١، ٢٩٥ : ٢، ٢٩٦ : ١
 ٢٩٧ : ٢٠، ٢٩٨ : ٢، ٢٩٩ : ٥
 ٣٠٠ : ١٠، ٣٠٧ : ١٠، ٣٠٨ : ١٠
 ٣٠٣ : ٢٠، ٣٠٥ : ١٠، ٣٠٨ : ٥
 ٣٠٩ : ٦، ٣١٠ : ١، ٣١٢ : ٣
 ٣١٣ : ١، ٣١٤ : ٨، ٣١٤ : ٦
 ٣١٥ : ١٣، ٣١٦ : ١٧
 ٣١٧ : ٣، ٣١٩ : ٤، ٣٢٠ : ٣
 ٣٢١ : ٥، ٣٢٣ : ٢، ٣٢٣ : ٨
 ٣٢٤ : ١٩، ٣٢٧ : ٣٢٨، ٧ : ٣٢٨
 ٣٢٩ : ١٢، ٣٣٠ : ١، ٣٣٠ : ١
 ٣٣١ : ٢١، ٣٣٢ : ١٢
 ٣٣٤ : ٢، ٣٣٥ : ٧، ٣٣٧ : ٣
 ٣٣٨ : ٩، ٣٣٩ : ١١
 ٣٤٠ : ١، ٣٤١ : ٧، ٣٤٢ : ٣
 ٣٤٣ : ٢، ٣٤٥ : ١٠، ٣٤٥ : ١٠
 ٣٤٦ : ٦
 مصر العليا = الوجه القبلي
 المصيصة — ٢٢٦ : ٢٢
 أبو المطامير — ٣٠ : ٢١
 المغرب الأقصى — ١٤٢ : ٤

مأسماء البلاد والمدن والأماكن والجبال والأنهار ونحوها ٣٩٧

هندستان — ٩٧ : ٩٧ ، ٧ : ٩٩ ، ١١ :

١٠٠ : ١٠٤ ، ١٤١ : ١٣ ، ١٤ :

٣٣٦ : ١٤

هـو — ٢٩٠ : ١٣

هيت — ٦٧ : ١٥ ، ٦٩ : ١٢

(و)

الواحات — ٣٢٩ ، ٧ :

وادي الخازندار — ١٧٨ : ٢٤

الوجه البحري — ١١٤ : ١٤ ، ١٥ :

١٨٧ : ١٥ ، ٢٩٤ : ٥ ، ١٢ :

٣١٤ : ١٢

الوجه القبلي — ١١١ ، ١١٤ ، ١٤ :

١٥٦ : ٣ ، ١٨٧ : ١٥ ، ٢٩٠ :

٢٩٤ ، ٢ ، ٣١٤ ، ١٢ :

٣٣٤ ، ١٦ :

وكالة باب الجوانية — ٣٢٦ : ٥

وكالة قوصور — ٣٢٢ : ١ ، ٣٢٤ :

٣٢٥ ، ١٠ ، ٣٢٦ ، ٢ ، ١٨ :

(ي)

الين — ٦٨ : ١٨ ، ٧٣ : ١٤ ، ١٢٢ :

١٢٣ ، ١٢ : ١٢٤ ، ٢ : ١٢٤ ، ١٢ :

١٢٧ ، ١٥ : ١٢٨ ، ١ : ١٢٩ :

١٣٠ ، ١٣ : ١٣٢ ، ٤ : ١٣٢ ، ١٤ :

١٣٢ ، ١٣ : ١٣٤ ، ٧ : ١٣٤ ، ١٤ :

١٣٥ : ١٣٦ ، ١٣ : ١٣٧ ، ١٦ :

١٣٨ ، ١٥ : ١٤١ ، ٣ : ١٤٢ :

١٥٦ : ١٧ ، ٢٩٤ : ٢٢ ، ٢٢٧ :

١٦ : ٢٣٤ ، ١٣ : ٣٣٥ ، ٤ :

٣٣٧ : ٧ ، ٣٣٨ ، ١١ : ٣٣٩ :

٣٤٣ ، ١٠ : ٣٤٤ ، ٩ :

ييسى — ٣٦ ، ١٧ :

نهر الأردن — ٢٣٦ : ٢٢

نهر جيحان — ٢٢٤ : ٢٢٦ ، ٢٠ :

١٤ : ٢٢٨ ، ١٩ : ٢٣٠ ، ١ :

٢٣١ : ١٢

نهر الفرات = الفرات

نهر الفولجا — ٢١٧ : ٢٢

نهر الكنج — ١٣٨ : ٢٠

النوبة — ٢٦ : ٧ ، ١١٥ : ٥ ، ١٢٨ :

١٤ : ١٥٠ ، ٢ : ١٥١ ، ٢ :

١٥٢ ، ٣ : ١٥٣ ، ١ : ١٥٤ :

١٥٤ : ١٥٥ ، ١٠ : ١٥٦ ، ٤ :

١٦٨ ، ٣ : ٢٩٤ ، ٨ : ٢٢ :

نيسابور — ٢٩٨ : ١٠

النيل — ٤٢ : ٧ ، ١٥٧ : ١٠ ، ١٩٩ :

١٢ : ٢٤٥ ، ٦ : ٢٤٨ ، ١٢ :

٢٨٦ ، ٣ : ٢٩٣ ، ٢٦ : ١٠ :

٣١٤ : ١١ ، ٣٢٧ : ١٠ ، ٣٣٤ :

٣٣٤ : ٣٣٥ ، ٦ : ٣٣٦ ، ٤ :

(هـ)

هديه — ١٥٨ : ٢١

هراة — ٢٠٩ : ١٨

هم = هو

همدان — ١٧٤ : ١٥ ، ٢٠٠ :

٢٣ : ٢٠٤ ، ١٩ :

الهند — ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٨ :

١٣٤ : ١٣٨ ، ٢٢ : ١٣٩ ، ٨ :

١٤٠٠٩ : ١٤١٠ ، ١ : ١٤٢ :

١٤٢ : ٢٢٧ ، ٣ : ٢٢٨ ، ١٦ :

٤ : ٢٣٥ ، ١٣ : ٢٣٤ :

٢٣٦ : ٢٣٧ ، ١٣ : ٢٣٨ ، ٧ :

٢٣٩ ، ٦ : ٢٤٣ ، ٧ :

فهرس أسماء الدواوين والوظائف والألفاظ الاصطلاحية

(١)

أتابك — ١٦ : ٣١ ، ٢ : ٢٢
٤ : ٣١٦ ، ١٦ : ٣١٥ ، ٦ : ٢٥٠
أتابك العساكر — ١٤ : ٥٣ ، ٢ : ٥٢
١٦ : ٦٥ ، ٦ : ٦٤ ، ٢٢ : ٦٣
الأتابكية — ٣ : ٦٢
الأردو — ٢٠ : ٢٠٨
الأساقفة — ١٨ : ١٠٦
أستادار — ٤ : ٤١ ، ١٧ : ٣١
٦ : ٣٢٦ ، ٤ : ١٨٧ ، ٢٣ : ١٢٨
الأمراء الخاصة — ١٢ : ٢٢
٢٠ : ١٠٥
إيلخانات المغول — ١٧٦ : ٥٥
١٦ : ٢٢٢

(ب)

البابا — ١٧ : ٢٤٤ ، ١١ : ٢٣٩
٨٥٥ : ٣٤٢ ، ١٤ : ٣٤٠ ، ٢٦٠
البابوية — ١١ : ٢٤٤ ، ٢ : ٢٢٩
١١ : ٣٤٢ ، ٨ : ٣٤٠
البايزة — ٤ : ١٨٣
البطرك — ٢ : ١٥٨ ، ٦ : ١٠٩
١٣ ٢٧٠
بطرك الأرمن — ١٥ : ١٧٣
١١ : ٢٣٠
بطرك الأقباط — ١٢ : ٢٥٩
١٢ : ١١٣ ، ١٨ : ١٠٦

بطرك الملائكية — ١٧ : ٢٦١

بيت المال — ١٧ : ٣٠ ، ٤ : ٢٩

١٠ : ١٣٣ ، ١٦ : ١٣٢ ، ١٥ : ٣٨

٣ : ٢٩١ ، ١٢ : ٢٨٨ ، ١٣ : ٢٤٨

٢ : ٢٩٢

(ح)

الحاجب — ١٧ : ١٠٩ ، ١٦ : ٥٧

١٠ : ٢٨٤ ، ٢٣ : ٢٨٧

١٠ : ٢٨٩

الحجاب — ١١ : ٢٥٠ ، ١١ : ٢٢٠

الحراقة السلطانية — ١١ : ٢٢٠

الحلقة — ١ : ٢٩٢ ، ١٤ : ٣٣

(خ)

الخاصكية — ١٧ : ٢٠٠ ، ١٧ : ١٩

١٣ : ٢١١ ، ١٦ : ٥٣ ، ٢ : ٢١

الخان — ١٣ : ٢١٢ ، ٢١ : ٢٠٥

١ : ٢١٣

(د)

الدراهم الحموية — ٣ : ٣٣٠

الدراهم الظاهرية — ١ : ٣٣٠

الدراهم الكاملة — ١ : ٣٣٠

الدوادار — ٨ : ٤٢ ، ١٧ : ٣١

١١ : ١٧٧ ، ٩ : ٩٥ ، ١٤ : ٥٣

٤ : ٢٤١

دواوين الأمراء — ١ : ٢٨٩

فهرس أسماء الدواوين والوظائف والألفاظ الاصطلاحية ٣٩٩

١٢ ٧٦٠ ٩٠ ٨١ : ١٥

٨٢ ٩٠ ٩٥ : ٩٧ ١٩ : ١٠

١٧٣ ١٧٨٠ ٢٢ : ٢٢٠

٢١ ٣٢٤ ٣ : ٣٣٢ ١٠

القراغولات - ١٦٦ : ٢ : ١٦٩ ٢٣

(ك)

كاتب السر - ٩٣ : ١١ : ٩٥٠

١٤ ٢٢٠ : ٢٢

(م)

المحتسب - ٣٢٦ : ١٥

محتسب القاهرة - ٣٠٦ : ١٦

مستوفى الدولة - ٢٨٩ : ١١

٩ : ٢٩٠

المطران - ١٥٨ : ٥

مقدمو الحلقة - ٢٨٩ : ١٣

(ن)

ناظر الجيش - ٢٨٩ : ١٩

٩ : ٢٩٠

ناظر الخاص - ٥٨ : ١٥ : ١٠٩

١١ ١١١ : ١٤ : ١١٢ ٥

١ : ٣٣٣

نائب السلطنة - ١٨٧ : ٣ : ٢٩٢ ٨

نائب مقدم الجيش - ٢٣٦ : ٦

نباية السلطنة - ٥٤ : ٣

(و)

الوزارة - ٥٨ : ١٥ : ١٨٥ ١١

٢٠٦ : ٢ : ٢٩٢ ٣

الوزراء - ٣٨ : ١٤

ديان اليهود - ١١٣ : ١٥

ديوان الخاص السلطاني - ٣٢٨ : ٣

ديوان الخمس - ٣٤٦ : ١١

الديوان السلطاني - ٢٩٢ : ١٤

٢٢٩ : ٦ : ٣٣٦ ٢٠

(ر)

روك - ٢٩٠ : ١

رئيس ديوان الانشاء - ٣٠٤ : ١٢

(ز)

الزردخانات - ٢٤١ : ٦

الزردبات - ٣٢٥ : ٤

(س)

السناجق - ٢٠٣ : ٨

السنجق - ١٨٣ : ٤ : ٢٠٧ ٢١

(ش)

شاد الدواوين - ٢٩١ : ٢٢

تشجاني - ١٦٦ : ٢ : ١٦٩ ٢٣

الشواري - ٣١٥ : ٩ : ٣١٦ ٥

شيخ الإسلام - ١٧٨ : ٢٣

شيخ الشيوخ - ١٨٤ : ٦

(ص)

صاحب العسس - ٣٢٦ : ٩

(ط)

طبلخاناه - ٢٠٨ : ١٧

(ف)

فلوس - ٣٣٠ : ٣٣١ : ٢٠٦ ٢١

(ق)

قاضي القضاة - ٣٨ : ١٨ : ٦٨

سلاطين دولة بني قلاوون

- المنصور سيف الدين قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ)، (١٢٧٩-١٢٩٠م)
 الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩-٦٩٣هـ)، (١٢٩٠-١٢٩٣م)
 (١) الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣-٦٩٤هـ)، (١٢٩٣-١٢٩٤م)
 المعادل زين الدين كتبغا (٦٩٤-٦٩٦هـ)، (١٢٩٤-١٢٩٦م)
 المنصور حسام الدين لاجين (٦٩٦-٦٩٨هـ)، (١٢٩٦-١٢٩٨م)
 (٢) الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٨-٧٠٨هـ)، (١٢٩٨-١٣٠٨م)
 المظفر بيبرس الجاشنكير (٧٠٨-٧٠٩هـ)، (١٣٠٨-١٣٠٩م)
 (٣) الناصر محمد بن قلاوون، (٧٠٩-٧٤١هـ)، (١٣٠٩-١٣٤١م)
 المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد (٧٤١-٧٤٢هـ)، (١٣٤١ م)
 الأشرف علاء الدين كچك بن الناصر محمد (٧٤٢-٧٤٣هـ)، (١٣٤١-١٣٤٢م)
 الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد (٧٤٣ هـ)، (١٣٤٢ م)
 الصالح عماد الدين اسماعيل بن الناصر محمد (٧٤٣-٧٤٦هـ)، (١٣٤٢-١٣٤٥م)
 الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد (٧٤٦-٧٤٧هـ)، (١٣٤٥-١٣٤٦م)
 المنصور سيف الدين حاجي بن الناصر محمد (٧٤٧-٧٤٨هـ)، (١٣٤٦-١٣٤٧م)
 الناصر حسن بن الناصر محمد (٧٤٨ -٧٥٢هـ)، (١٣٤٧-١٣٥١م)
 الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد (٧٥٢-٧٥٥هـ)، (١٣٥١-١٣٥٤م)
 الناصر حسن بن الناصر محمد (٧٥٥ -٧٦٢هـ)، (١٣٥٤-١٣٦١م)
 المنصور محمد بن المظفر حاجي (٧٦٢-٧٦٤هـ)، (١٣٦١-١٣٦٣م)
 الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد (٧٦٤-٧٧٨هـ)، (١٣٦٣-١٣٧٦م)
 المنصور علي بن الأشرف شعبان (٧٧٨-٧٨٣هـ)، (١٣٧٦-١٣٨١م)
 الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان (٧٨٣ -٧٨٤هـ)، (١٣٨١-١٣٨٢م)
 (الملك الظاهر سيف الدين برقوق) (٧٨٤-٧٩١هـ)، (١٣٨٢-١٣٨٩م)
 المنصور أمير حاج بن الأشرف شعبان (٧٩١ -٧٩٢هـ)، (١٣٨٩ - ١٣٩٠م)

الخلفاء العباسيون في عهد أسرة قلاوون

- الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد (٦٦١-٥٧٠هـ)، (١٢٦٣-١٣٠٢م)
 المستكنى بالله أبو الربيع سليمان (٧٠١-٥٧٤هـ)، (١٣٠٢-١٣٤٠م)
 الواثق بالله إبراهيم (٥٧٤هـ)، (١٢٤٠م)
 الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكنى بالله (٧٤١-٥٧٥هـ)، (١٣٤١-١٣٥٣م)
 المعتضد بالله أبو بكر بن المستكنى بالله (٧٥٤-٥٧٦هـ)، (١٣٥٣-١٣٦٢م)
 المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن المعتضد بالله (٧٦٣-٥٧٧هـ)، (١٣٦٢-١٣٧٧م)
 المستعصم بالله زكريا بن إبراهيم- (١) (٥٧٧هـ)، (١٣٧٧م)
 المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن المعتضد بالله (٢) (٧٧٩-٥٧٨هـ)، (١٣٧٧-١٣٨٣م)
 الواثق بالله عمر بن إبراهيم (٧٨٥-٥٧٨هـ)، (١٣٨٣-١٣٨٦م)
 المستعصم بالله زكريا بن إبراهيم (٣) (٧٨٨-٥٧٩هـ)، (١٣٨٦-١٣٨٩م)
 المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن المعتضد بالله (٣) (٧٩١-٥٨٠هـ)، (١٣٨٩-١٤٠٥م)

To: www.al-mostafa.com